



حياته
الذيوان الشرقي
للمؤلف الخريجي

ترجمة

الدكتور عبد الرحمن يدوي

تصدير عام

- ١ -

بيئة والشعر

في الفن عموماً ، والأدب على وجه الخصوص ، ظاهرة خطيرة ، ما أخلقها
بعناية الناقدين ، وأحراها بدراسة المؤرخين للفن والأدب . تلك الظاهرة
هي ما نستطيع أن نسميها باسم « الاغتراب الروحي » ، ونعني بها هذه الحالة
الوجدانية العنيفة القوية التي يشعر الأديب فيها أو صاحب الفن بحاجة مُلحة إلى
الفرار من البيئة التي فيها يعيش إلى بيئة أخرى جديدة ، وجو مغاير مخالف ،
فيهما يحيا ما فيهما من حياة ، ويحس بما يحتاج فيهما من مشاعر وأحاساس .
ولكن هذا الإحساس وتلك الحياة ليسا حقيقيين ، وإنما متخيلان : فهو يخلق
بروحه في البيئة الجديدة ، محاولاً أن يحيل نفسه إلى طبيعتها وأن يتلاءم وإياها ،
ويتكيف مع أحوالها وأطوارها ، لأن في هذه الحياة الجديدة إما متعة له ، تزيد
من قوة حياته الروحية وتوسع من دائرة أفقه ، أو سلوة له عن البيئة الأولى التي
لم يعد له قبيل باحثها ، ولا جلد على البقاء فيها . ولكني يجد فيها هذه السلوة
وتلك المتعة ، كأن لا بد له أن يطلق خياله العنان ليصور بريشته هذه البيئة
الجديدة أحسن تصوير وأروع ، حتى لتكاد تخلقها من جديد خلقاً ، ومن هنا
فإن هذه البيئة تختار دائماً ، أو غالباً على أقل تقدير ، من بين البيئات المجهولة
بعض الجبل ، لأن الخيال لا يستطيع أن يبذل نشاطه في حرية وانطلاق
إلا إذا اشتغل في مجهول .

وقد تجلت هذه الظاهرة في أتم صورها عند أصحاب النزعة الرومنطيسكية ،

أى فى مستهل القرن التاسع عشر ، وخاصة الألمان منهم والفرنسيون .. وبدأت أول ما بدأت عند الشعراء والكتاب ، ثم انتقلت منهم إلى أصحاب الفن من مصورين وموسيقين ، وامتدت أخيراً حتى شملت بعض الفلاسفة من ذوى النزعة الفنية . وكانت البيئة الجديدة التى هاجر إليها هؤلاء واعتبروا فيها بأرواحهم وخيالهم ، الشرق ، القاصى منه والقريب . قامت حركة قوية تدعو إلى الهجرة الروحية إلى الشرق ، والتفوذ إلى أسرارها ؛ وكان على رأس هدم الحركة فى ألمانيا فريدرش أميلجل الذى قال فى البرنامج الذى وضعه للمدرسة الرومنتيكية : « يجب علينا أن نبحث فى الشرق عن أسرار المواد والصور الرومنتيكية » ، وهو يقصد بالشرق هنا بلاد الهند . وقد عنى بآثار الشرق ، فنشر قطعة من كتاب الشاهنامه للفردوسى ، وكتب فى سنة ١٨٠٨ كتابه المشهور عن « لغة الهنود وحكمتهم » ، وفيه أنكر التفرقة بين أسلوب الشرق القديم وأسلوب الغرب الحديث فى التفكير وقول الشعر . وفى أثناء مقامه بباريس درس السنسكريتية وانتهى إلى القول بأن مصدر اللغات والأفكار والشعر كله هو الهند ، فهى ينبوع الأول لكل ما أنتجته الروح البشرية . وقد كتب مقالاً فى مجلته « أوربا » التى أصدرها بباريس سنة ١٨٠٣ أهاب فيه بالشعراء والكتاب وأصحاب الفن أن يفروا إلى الشرق الواسع الرحب . لأن كل شئ فى أوربا مشتت متناثر يدب فيه ديب الشقاق ، بينما قد بقي فى الشرق على وحدته . والهند تجمع بين النزعتين المتعارضتين فى أوربا ، النزعة الكلاسيكية القديمة ، والنزعة الرومنتيكية الحديثة ، « فالتضاء على الذات الموجود فى المسيحية على أسرار صورته الروحية ، والنزعة المادية المغالية الموجودة فى دين اليونانيين ، يجتمعان فى صورتها الأولى فى وطنها الأول ألا وهو الهند » . أما أوربا فقد تبددت فيها الوحدة الروحية الأولى وتمزقت ، والثورة التى تخلصها من هذا التبدد والتمزيق لا يمكن أن تأتى إلا عن طريق الشرق .

وفي هذا التيار اندفع الشعراء المتمدون إلى المدرسة الرومنتيكية في ألمانيا ،
ثم من بعدهم بعض الفلاسفة الرومنتيكين ، مثل شلنج الذي قال : بأن المسيحية
صدرت عن الروح الشرقية ، وتأثر بالشرق في فلسفته في الطبيعة .

وفي فرنسا نشطت هذه الحركة نشاطاً كبيراً ، ويكفي أن نذكر من بين
القائمين بها أسماء شاتوبريان في كتابه عن « عبقرية المسيحية » ولا مارتين
في « رحلته في الشرق » ، ثم فكتور هيجو في « المشرقيات » .

إلا أن أعظم الأدباء وأصحاب الفن الذين تأثروا بهذه الحركة ووجوها
أحسن توجيه هو يوهان قلفانج جيته في ديوان شعره الخالد « الديوان الشرقي
للمؤلف الغربي » ، كما سماه هو بهذا الاسم في هذه الصيغة العربية .

وعناية جيته بالشرق ، حكته وفنونه ، عناية قديمة ترجع إلى عهد الشباب ،
وقد تقدم عنه فتصل إلى عهد الطفولة . فقد أخذ الكتاب المقدس ، في ترجمة
لوتر الرائعة ، بيد الطفل الصغير يوهان ، وأدخله في هيكل الشرق المقدس .
ولكن الطفل المبقرى الطلّعة لم يقنع بقراءته في هذه الترجمة ، على الرغم من
جمالها الفائق ، وإنما أراد أن يقرأه في نصه الأصلي حتى يستطيع أن يتذوق
جماله تذوقاً كاملاً ، وأن يظفر بهذه المتعة الفنية التي لا تعدلها متعة أخرى
في أي كتاب آخر . فدرس اللغة العبرية على يد الأستاذ ألبرشت فيما بين سنة
١٧٦٢ - ١٧٦٥ ، ولما يتجاوز الثالثة عشر بعد . وترجم من التوراة كتاب
« نشيد الأناشيد » .

ثم عكف من بعد على القرآن فقرأه في ترجمة ميغرلن سنة ١٧٨١ . وفي
السنة التالية قرأه مرة ثانية في ترجمته اللاتينية التي قام بها ماراشي ،
وأعجب به كل الإعجاب ، فترجم منه بضع آيات . ومن هنا بدأت عنايته

بالآدب العربى ؛ فقرأ المملقات فى ترجمة جونز اللاتينية ، وترجم قطعة من المعلقة الأولى .

وبعد أن عاد من رحلته إلى إيطاليا فى سنة ١٧٩١ ، أشار عليه صديقه هردير بالعناية بالآداب الهندية والفارسية . ومنذ ذلك الحين لا يكاد يخرج إلى اللغات الأوربية كتاب واحد فى أحد هذين الأديين ، أو أثر من آثارهما إلا والتمه جيته التهاماً .

وكان إعجابه بالآدب الفارسى من بين الآداب الشرقية جميعها لا يعدله أى إعجاب آخر . فأقبل عليه يقرأ كل ما يترجم منه ؛ فقرأ قصة « المجنون وليلي » التى نظمها الشاعر الفارسى المشهور نظامى ، وترجمها هارتمن إلى الألمانية فى سنة ١٨٠٧ . وكان فى فىنا فى ذلك الحين مستشرق كبير يشتغل فى التنقيب والبحث عن « كنوز الشرق » ويقدمها إلى الأوربيين فى اللغة الألمانية . هذا المستشرق هو يوسف فون كهمر ، الذى خص الشعر الفارسى من نشاطه بأوفى نصيب .

ولكن إعجاب جيته بالشرق وآثاره ظل حتى سنة ١٨١٤ إعجاباً سلبياً كإعجاب الناظر المتفرج ، يحدوه حب الاستطلاع إلى الوقوف على مختلف الأشياء ، وطلب الغذاء الروحى من شتى الموائد . ولئن كان قد قال فى فاوست الأول : « لتتجه النظرة الصائبة نحو الشرق » ، فإنه لم يقصد بهذا الشرق بلاد الشرق ، وإنما قصد به مطلع الشمس .

أما فى هذه السنة (سنة ١٨١٤) وما تلاها من سنوات نيفت على خمس ، فقد اتخذت صلة جيته بالشرق صبغة جديدة ، واتجهت اتجاهاً آخر . فلم يعد إعجابه هذا الإعجاب السلبى الخالص ، وتلك المتعة الوديمة الهادئة . وإنما

اقلبت إلى امتزاج قوى بين روح وروح ، وبين دم ودم ؛ فروح الشرق
فقدت إلى أعماق جيته ، واتحدت بكل عنصر من عناصره ، فتفاعلت وإياه
تفاعلاً قوياً ، تخضع عنه هذا الأثر الفنى الرائع الذى نحن بصددده ، ألا وهو
« الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » .

قد عانى جيته ، فى هذه السنة المشهورة فى تاريخ أوروبا فى القرن
التاسع عشر ، كثيراً من الدوافع والمؤثرات التى حملته على أن يتجه فى تطوره
الروحى هذا الاتجاه ؛ ومن هذه الدوافع ما هو داخلى باطنى ، ومنها ما هو
خارجى فرض نفسه على جيته فرضاً .

فالنجم الساطع الذى بهر ضوءه أوروبا ، بل العالم بأسره ، قد هوى
وأصبحت فى طى العدم أضواؤه . نعم لقد سقط نابليون من عل ، وهبط من
حالق ، بعد أن دوخ مادوخ من أمم وشعوب ، وثل مائل من عروش وتيجان .
فاستيقظت الأمم التى أذلها من هذا الحلم المروع ، وانطلقت سفنها فى السيم ناشرة
أشرعتها بعد أن أرغمت على الانزواء والاختفاء عندما كانت عاصفة نابليون
تهب قوية عالية . وكانت ألمانيا أولى هذه الأمم ، لأنها هى التى هزمت لأول
مرة فى موقعه ليتسج فى أكتوبر سنة ١٨١٣ .

وكان جيته معجباً بنابليون كل الإعجاب ، ولم يكن ليتصور مطلقاً كيف
يلقى بطل كهذا مصرعه ، حتى إنه ظل طوال « حكم المائة يوم » يؤمن بأن
الظفر لا بد معقود بلواء نابليون فى النهاية ! ولكن هاهى موقعة ووترلو ،
وهاهى نهاية نابليون ماثلة أمام عينيه ! فيا لها من ضربة قاسية لإعجاب جيته
بنابليون وظنونه فيه !

ثم هذه الأحداث الضخام التى سبقت سقوط نابليون وأفضت إليه ،
هذا القلق السائد والاضطراب المائل فى كل شيء ، كيف يقوى جيته على

احتماله والتحديد بنظره فيه ؟ هذا الحاضر المتزعزع المتهاافت ، أتى له أن ينشد الخلاص منه ؟ أين هذا المكان الخيالى الفسيح ، الذى يستطيع أن يجد فيه مصرفا لهومومه ومتنفساً لأحزانه وأشجانه ؟

كان جيته يعانى حينئذ حالة نفسية عنيفة ، وصفها هو نفسه بهذا الوصف حيث قال : « شعرت شعوراً عميقاً يوجب الفرار من عالم الواقع الملىء بالأخطار التى تهدده من كل جانب فى السر وفى العلانية ، لكى أحيأ فى عالم خيالى مثالى ، أنعم فيه بما شئت من الملاذ والأحلام بالقدر الذى تحتمله قواى » .

وكان هذا العالم هو الشرق . وأى عالم آخر غير عالم الشرق ، أخلق بأن يكون هذا العالم المنشود ؟

الشرق عالم بعيد غامض وفسيح غير محدود ، فهل هناك أصلح منه لهذا الذى يشعر بأنه فى ضيق ؟

والحوادث الضخام فى الغرب تبهظ كاهل جيته بما فيها من تركيب وتعقيد ، فالدواء لها هو البساطة والفطرة الأولى ، وهما متحقتان فى الشرق فى نظر جيته ، الذى كان يعتقد أن حضارة الشرق القديمة بقيت كما هى دون أن يتولاها تطور أو تبديل . فكأن العالم فى الشرق إذاً لا زال فى شبابه ، وجيته الشيخ الذى قارب السبعين يود لو حيى من جديد حياة الشباب . فليكن الشرق إذاً بالنسبة إلى جيته ينبوع الحُضر ، هذا ينبوع الذى يقوم على سداته الحُضر ، صاحب موسى الكليم ، والذى يعيد إلى الشارب منه الشباب ، كما تغتنى به حافظ الشيرازى .

ثم إن المدرسة الرومىتيكية كانت تقول بأن القديم والمحدث متشابهان ، وكان رجالها رجالاً عالمين لا يقيمون للقوميات وزناً ولا يعترفون للحدود بقيمة .

ومن أجل هذا فقد ألقوا على عاتقهم مهمة فتح أبواب الآداب الأجنبية لألمانيا كي تأخذ منها بأوفى نصيب ، حتى كان فريدرش اشليجل يحلم بأن يحمل من ألمانيا مركزاً عالمياً للروح الإنسانية بأسرها . وقد تأثر جيته بهم ، وحلم هو بدوره بأن يصبح للإنسانية أدب واحد مشترك تمدد روافد الأمم جميعها ، قديماً وحديثاً . بماهاها العذبة الصافية . وحاول أن يجمع في نفسه بين آداب الأمم جميعها ، فبدأ بالأم الأوربية يتأثر كبار أدبائها ومفكرها . ولم يبق أمامه إلا أن يجمع كذلك بين الكتلتين الضخمتين اللتين يتكون منهما العالم ، وهما الشرق والغرب ، فيصهرهما جميعاً في بوتقة واحدة ، هي نفسه الفسيحة القابلة للتأثر بكل تيار ، والفاتحة أبوابها لكل من شاء الدخول . ولهذا نرى جيته قد سمى الديوان الذي عبر فيه عن هذا كله باسم « الديوان الشرقي للمؤلف الغربي » : فليس هذا الديوان إذاً شرقياً خالصاً ، ولا غربياً ، إنما هو مزيج طريف جمع بين الاثنين .

وليس هذا كل ما في الشرق مما يحقق أمانى جيته ، فقد كان يشعر بضيق شديد من أنساليب الغربيين في التعبير وأوضاعهم التي اصطلمحوا عليها . ومن هنا كان يشعر شعوراً خفياً في بادىء الأمر ، مُلِحاً قوياً في النهاية ، بأنه في حاجة إلى اتخاذ أسلوب جديد للتعبير ، فيه حرية وفيه انطلاق . وأسلوب الشرق في الشعر يمتاز بهذه الخصائص . ففي الشرق إذاً قد وجد ما يحقق أمله من ناحية الشكل والصورة ، بعد أن وجد فيه من قبل ما ينشده من ناحية الموضوع والمادة .

تلك إذاً عوامل رئيسية تهيب بجيته أن يهاجر إلى الشرق هجرة روحية ، ولكن بقيت العوامل المباشرة التي تدفعه إلى القيام بهذه الهجرة دفعاً .

وشاءت الظروف أن تكون هذه العوامل المباشرة من نصيب هذه السنة بعينها ، ونعني بها سنة ١٨١٤ . ففي يناير من هذا العام مر بمدينة فيار - عاصمة

دوقية ساكس فيمار ، التي كان جيته يعمل فيها كمستشار أعلى لدوقها كارل
 اوجست - جنود من البشكير ، (وهي مقاطعة في الجنوب الشرقي من روسيا
 وأهلها مسلمون) وهناك في إحدى قاعات المدرسة البروتستانتية في فيمار أقاموا
 صلاة شهداء جيته ، فأثرت في نفسه كل التأثير ، وأعادت صورة هؤلاء الجنود
 المسلمين النازحين في خيال جيته صورة تيمورلنك بجنوده الأقوياء ، وبدأ يحيا
 في نفسه حياة الشرق . ولكن العامل القوي الأخير هر قراءة جيته لديوان شمس
 الدين حافظ الشيرازي ، الشاعر الفارسي المشهور . وكان قد قرأ بعضاً من
 أشعاره من قبل ، ولكن هذا لم يكن كافياً ليعطى لجيته صورة قوية عن هذا
 الشاعر تدفعه إلى الإنتاج . وفي هذا يقول في مذكراته عن سنة ١٨١٥ :
 « استطعت أن أحصل في العام الماضي على ترجمة فون همر لديوان حافظ كله .
 وإذا كنت لم أظفر بشيء من قراءتي لما ترجم لهذا الشاعر العظيم من قبل من
 قطع نشرت في المجلات هنا وهناك ، فإن مجموعة أشعاره قد أثرت في تأثيراً
 عميقاً قويا حملني على أن أنسج وأفيض بما أحس وأشعر ، لأنني لم أكن قادراً على
 مقاومة هذا التأثير القوي على نحو آخر ، لقد كان التأثير حياً قوياً . فوضعت
 الترجمة الألمانية من بين يدي ، ووجدت نفسي أندفع إلى مشاركته في وجدانه ،
 وإذا بكل ما كان كامناً في نفسي ، مما يشبه ما يقوله حافظ ، سواء في موضوعه
 وفي معناه ، يلهو ويظهر ويتبعث مني بقوة وحرارة ، حتى إنني شعرت شعوراً
 قوياً مُلحاً بحاجتي إلى الفرار من عالم الواقع المليء بالأخطار التي تهدده من كل
 ناحية ، سواء في السر وفي العلانية . لكني أحياء في عالم خيالي مثالي ، أنعم فيه بما
 شئت من المتع حسب طاقتي . »

وكيف لا يعجب جيته بشعر حافظ إلى هذا الحد ؛ وحالته في ذلك الحين
 تشبه حال حافظ ! لقد كان حافظ يتغنى بالبلبل والورد ، والخمر والحب ، في

هدوء ومرح ، بينما كانت الأمبراطوريات والولايات من حولة تعج بالاضطرابات ، والحكام الطغاة يضحجون ويصرخون ، وجيته يريد بدوره ، في وسط هذا الاضطراب الذي يسود أوربا ، أن يتحدث بمحدث الحب ، وأن يتغنى وهو هادىء مسرور .

ولكنه كان من أجل هذا في حاجة إلى الهدوء كي يستطيع أن يخلو إلى نفسه ، فلم يكد مؤتمر صلح باريس ينتهى ، والهدوء من بعده يظل على الناس برأسه ، حتى فكر جيته فى أن يغادر فيمار وما فيها من أعمال وشواغل ، لى يرحل إلى جنوب ألمانيا هناك فى منطقة الرين الجنوبية بشمسها المضيئة الساطعة وغاباتها الظليلة العالية ، وجانها الساحرة الغاتنة ، أراد جيته أن يزور ملاعب صباه ، ومواطى أقدام أترابه وأحبابه . فارتحل إلى هذه المنطقة ، وفيها فاضت عبقريته ، فانطلقت تقول أروع القصائد التى تكون نواة هذا اللهيوان الذى نحدثك عنه . وكان لهذه الرحلة الأولى التى قام بها فى ٢٥ يولييه سنة ١٨١٥ أثران قويان وسعا من دائرة تفكير جيته الموجود بهذا الديوان : فلاحظاته العلمية أثناء الرحلة قد قوت اعتقاده فى نظريته القائلة بأن كل شىء فى الحياة تطور وتحول ، ابتداءً من النبات ، ماراً بالحيوان ، حتى الإنسان ، ثم صلته بينى بواسريره وما عندهم من مجموعة من الصور الفنية رائعة قد ملأته إعجاباً بالفن الجرمانى المسيحى .

وفى ٢٤ مايو سنة ١٨١٥ قام برحلة ثانية إلى هذه المنطقة عينها . وفيها أحب جيته حباً جديداً كان من أعق ما شعر به من حب طوال حياته الغرامية . فهناك فى جرُ برَميلى ، بالقرب من مدينة فيزبادن ، نزل جيته ضيفاً على أسرة من أُسَر مدبنته التى ولد فيها (فرنكفُرت) . وفى هذه الأسرة عرف مَريانه

فون فليمير ، إحدى أفرادها . فاشتعل قلبه بحبها ، وبادلته هي حباً بحب سندرك لك قصته عما قليل .

وكاد الديوان أن ينتهي في هذا العام ، ولكن جيته لم ينشره حينئذ كله ، وإنما نشر منه بعض قطع ، وأضاف إليه قطعاً جديدة سنة بعد سنة . ومن سنة ١٨١٦ إلى سنة ١٨١٨ وجيته يتابع دراساته الشرقية ، التي كانت تتيبها هذه التعليقات والمباحث التي تعين على فهم الديوان ، ، وهي التي أضافها إلى آخر الديوان وطبع الجميع لأول مرة سنة ١٨١٩ .

وينقسم الديوان إلى قسمين كبيرين : القسم الأول ، وهو المهم ، شعر ، والثاني نثر ، وهو عبارة عن هذه التعليقات التي وضعها جيته لكي يفهم الديوان ، وهي خاصة بتاريخ الآداب العربية والفارسية والعبرانية ، والقسم الأول يتكون من اثني عشر كتاباً هي كتاب المَعْنَى . وكتاب حافظ ، وكتاب العشق ، وكتاب التفكير ، وكتاب سوء المزاج . وكتاب الحكمة ، وكتاب تيمور ، وكتاب زليخا ، وكتاب الساقى ، وكتاب الأمثال ، وكتاب الإراسى ، وأخيراً كتاب الخلد وقد وضع جيته أسما ، هذه الكتب باللغة الفارسية وتحتمها ترجمتها الألمانية .

واللحن السائد في هذا الديوان كله هو التحول ، ولكن ليس معنى هذا التحول أن يتحول جيته من شخص إلى شخص آخر فحسب ، وإنما هو بشخصيته ظل ثابتاً طوال هذا التغير . فهو يتحول تارة إلى حاتم ، وهو أظهر شخصيات الديوان ، ويظل مع ذلك جيته نفسه ، ويتصل بهذا التحول عودة الشباب . فجيته الشيخ يتحول بواسطة الساقى إلى شاب .

والديوان يشيد بطبيعة الإنسان وقواها ، ويحمل طابع التفاؤل والإقبال على

الحياة ، ويدعو إلى المواجهة بين الأمم والشعوب . ثم هو مملوء بنظرة صوفية عميقة في الحياة بجميع مظاهرها .

- ٢ -

هجرة جيت

دعوني وحدي مقبلاً على مرج جـ وادى ،
وأقيموا ما شئتم فى دياركم ومضارب خيامكم ،
أما أنا فسأجوب من الأنحاء قاصبها على صهوة فرسى ،
فرحاً مسروراً لا يعلو على قلنسوتى غير نجوم السماء .

هذا هو « الحاطر الحر » الذى جال فى ضمير الشاعر بعد أن عانى ما عانى من ضيق ،
وقد لبث فى مكانه المضطرب المتزعزع ، لا ينتقل عنه ولا يريم . وما هو جيت
يتأهب للرحيل إلى مكان ينشد فيه الفرج بعد هذا الضيق ؛ ها هو يغادر الغرب
إلى الشرق ، وهو يعلم ، بل هو يقول :

لله المشرق ،

ولله المغرب ،

والشمال والجنوب

يستظللان بالسلام بين يديه .

ولكن هذا الرحيل ليس كغيره من أنواع الرحيل التى اعتادها الناس
وألفوها . ليس هو انتقالاً بالجسم من مكان إلى مكان آخر . إنما هو ثورة
روحية قوية فاصلة فى حياة الشاعر . هو بحث حياة جديدة يريد الشاعر أن

يحياها ، ولآمال حلوة خصة بوده أن يتملى بها ، ويسبح في تيارها الهادى البديع . وإن فى هذا الرحيل لعوداً للشباب عند جيته الشيخ العجوز ؛ وإن فيه لايماناً عميقاً يظل فى تحليقه حتى يبلغ الملكوت الأعلى حيث يحترق العبد بنار الحب الذى يكنه للرب ؛ وإن فيه لحكمة تنفذ إلى أعماق الوجود ، وحجاً يستحيل معه التعدد إلى وحدة ، والاستقطاب إلى امتزاج واقتران .

ليس أمر هذا الرحيل إذاً بالأمر الهين الضئيل ، وإنما هو جليل خطير ؛ فيه استجابة لوحى سماوى ، ورسالة قدسية عليا ، ناط الله بمجيته تحقيقها وإذاعتها ، فهو أشبه ما يكون برحيل الأنبياء الذى يكون المرحلة الفاصلة ، لا فى تاريخ حياتهم الروحية فحسب ، بل فى تاريخ الإنسانية الروحية بأسره . ولهذا فليس غريباً أن نرى جيته يسمى رحلته إلى الشرق باسم الهجرة ، ويفتح ديوانه الشرق الغربى ، بوصف هذه الهجرة ، والدوافع التى دفعت إليها ، والغاية التى يرجوها منها ، فى القصيدة الرائعة فى أول كتاب « المغنى » تحت عنوان « الهجرة » :

الشمال والغرب والجنوب تتعظم وتتأثر ،
والعروش تُثَلّ ، والممالك تنزعزع وتضطرب ؛
فلتهاجر إذاً إلى الشرق فى طهره وصفائه
كى تستروح جو الهداة والمرسلين !
هنالك ، حيث الحب والشرب والغناء
سيعيدك ينبوع الخضر شاباً من جديد ،
إلى هنالك ، حيث الطهر والحق والصفاء
أود أن أقود الأجناس البشرية
فأنفذ بها إلى أعماق الماضى السحيق ،

حين كانت تتلقى من لدن الرب
وحي السماء بلفظة الأرض ،
دوب تخطيط الرأس بالتفكير ،
هناك حيث كان الآباء يُقدِّسون
وعما يتقدم به الغريب من خدمة يمتنعون ؛
أجل ، هنالك أود التلمي بمحدود الشباب :
فيكون إيماني واسعا عريضا ، وفكري ضيقا محدودا ،
وأود أن أتعلم كيف تُقدِّس الكلمات ،
لا شيء إلا لأنها كلمات فاهت بها الشفاء
وفي يميني أن أدخل في زمرة الرعاة
وأن أجد نشاطي في خلال الواحات
حين أرتحل في رفقة القافلة
متجرا في الشيلان والبن والمسك ؛
وفي عزمي أن أسلك كل سبيل
من البادية إلى الحضرمين والحضر إلى البادية .

ولكن هذا الغربي الغريب الآتي من الشمال حيث الجبال تعلو قممها
الثلوج ، لا يعرف الصحراء بعد ، وليست له بالفيافي والبيداء خبرة . فهو في
حاجة إذاً إلى دليل يهديه سواء السبيل ، في قفار الشرق الواسعة الفسيحة ؛
ولكن أي دليل يختار ؟ لا شك أن هذا الدليل سيكون حافظاً الشيرازي .
أوليس هو الذي أثر في جيته كل هذا التأثير الفخم الذي أوردنا حديثه
منذ قليل ؟ ومن غير حافظ يستطيع أن يؤدي هذه المهمة خير أداء ، وهو الذي
اتخذ منه جيته مثلاً أعلى للشعر والشعراء ، وخصه بكتاب من هذا الديوان ؟
ليدعُه إذاً ليكون دليله وهاديه :

أى حافظ ! إن أغانيك لتبعث السلى
 إبان المسير فى الشَّعَاب الصاعدة والمابطة ،
 حين يُغنى حاذى القوم سحر الغناء
 وهو على ظهر دابته ،
 فيوقظ بغنااته النجوم فى أعلى السماء .
 ويوقع الرعب فى نفوس الأشقياء
 وإِنَّه ليحلولى ، أى حافظ المقدس ، أن أحى ذكراك ،
 عند ينبوع الصافى وفى حانات الصبأ ،
 وحين تكشف المحبوبة عن تقابها قليلاً
 فيغفر منه مهتزازاً ، عبر المسك والعنبر .
 أجل ! إن ما يهمس به الشاعر من حديث الحب ،
 ليحمل الحور أنفسهن على أن يعشن .
 فإن شتم إلا أن تحسدوا على الشاعر هذا الحظ ،
 أو أن تحرموه منه وتعكروا صفوه عليه ،
 فاعلموا أن كلمات الشاعر وقوافيه
 تخلق دائماً ، دائماً ، وهى دائماً فى تخليق
 قارة أبواب الفردوس فى همسٍ وهدوء
 ناشدة لنفسها حياة خالدة .

كل شئ مبيأ للسفر إذاً . فليهاجر شاعرنا على بركة الله ، وليدعُ لى
 يمنحه شيئاً من عنايته ، لأن مهمته مهمة إلهية قدسية :

يريد الشيطان أن يسلك بى مسالك الضلال
 ولكنك تعرف ، أيها الرب ، كيف تهدينى سواء السبيل

فإن أقدمت على عمل أو أنشد الشعر ،
 فاللهم أنزل لي جادة الطريق .
 وأيا ما أفكرت في شأن مما في ديانا من شئون
 فسأرتفع به إلى أعلى عليين .
 إن رُوحى التي لم تعلق بها أثارة من تراب ،
 لتسمو في أعماق أعماقها إلى الملكوت الأعلى .

وهكذا تم الهجرة ، وبلغ جيته بلاد الشرق ، سليماً معافاً . ومن هنا يبدأ
 فيصور نفسه في صورة رحالة يحبب الشرق كي يعرف طباع أهله وعاداتهم ،
 وأخلاقهم ، وما يحول في خاطر رجاله وحكائه من أفكار وآراء ، وما يعتق
 سكانه من نحل وأديان . ولا يجد حرجاً ، وهو الغربي المسيحي ، في أن يعتبر
 نفسه مسلماً يؤمن برسالة محمد وبدين الإسلام . وبهذا كله يتغنى جيته في
 الكتاب الأول من هذا الديوان ، ونعني به كتاب « المغنى » كما سماه جيته
 تقليداً لحافظ الشيرازي الذي سمي الكتاب الأول من « غزلياته » باسم
 « مغنى نامة » ، أى كتاب المغنى . والمغنى عند حافظ شخص خيالى يخاطبه في
 قصائده كما يخاطب الساقى في قصائد أخرى . وكما اعتاد الشعراء العرب أن
 يخاطبوا شخصين يتخيلونهما . أما المغنى عند جيته فهو الشاعر نفسه يخاطب
 ذاته . وقد جعل من مصيره وأغراضه وفنه موضوعاً للقصائد نفسها ، في مفتتح
 الديوان كله ، كققدمة له .

والآن فلتحدث عن هذا الكتاب الأول :

في كتاب المغنى هذا يبسط جيته خلاصة أفكاره ومشاعره التي بثها
 في الديوان ، والتي تكشف عن نظرته في العالم كله ، سواء وهى في صورتها

الجديدة بعد أن تأثرت بالروح الشرقية واتحدت بعناصرها ، كما يتحدث فيه عن تجربته الروحية في الشرق ، ويصف ما أنتجته في نفسه من تطورات وآثار .

فهو في قصيدة « الهجرة » يتحدث عن عملية إعادة الشباب التي قامت بها هجرته إلى الشرق ، ويصف كيف استطاع الشرق في بساطته وفطرته وأفكاره البدائية التي لا تنتجها الشعوب إلا في طفولتها وشبابها ، أن يحيله إلى شاب ، كما استطاع ينبوع الحضر ، صاحب موسى الحكيم ، أن يعيد الشباب إلى حافظ الشيرازي بأن شرب كأساً من هذا ينبوع .

وقصة هذا ينبوع أو عين الحياة من الأساطير التي نسجها الناس حول شخصية الاسكندر الأكبر . فالرواة يزعمون ، من بين ما يزعمون ، أن الاسكندر الأكبر قام بحملة كبرى من أجل الوصول إلى هذا ينبوع الذي كان يقوم على سدائه الحضر ، ولكنه لم يفلح وقد استطاعت هذه القصة ، كما استطاع غيرها من القصص الدينية أو شبه الدينية ، أن تلهم شعراء الفرس المسلمين ، خصوصاً حافظاً الشيرازي ، ثم من قبله نظامي الشاعر المشهور ، في « كتاب الاسكندر » (اسكندر نامه) . وهذا جيته يتأثر بها بدوره . وهنا يظهر الفارق واضحاً بين شعراء الشرق وبين شاعرنا الغربي . فنظامي جعل من هذه القصة رمزاً للعزوف عن الحياة وإنكار الدنيا من أجل حياة أخرى أعلى من هذه الحياة وأسمى . وعلى العكس من ذلك جعل جيته هذا رمزاً للإقبال على الحياة والاستزادة منها وتوكيد العالم وإيجابه ، لأن الشارب منه يصبح شاباً من جديد ، أي شخصاً يقبل على الحياة وينظر إليها في شغف ويريد التزود منها قدر استطاعته .

فكان جيته إذاً على الرغم من هجرته وتوشحه بمسوح الشرق ، ظل

جيتة نفسه ، أى ظل رجلاً غريباً ألمانياً ، يفكر تفكير الغربيين ، وينظر في الوجود نظرة الألمانين .

ثم إنا نرى جيتة في هذه القصيدة عينها يكشف عن نظريته في الدين . ولنا هنا بصدد الحديث عن فلسفة جيتة الدينية في « الديوان الشرقى » ، فهذه الفلسفة حديث بعد طويل . وإنما نريد أن نشير هنا إلى ما يسميه جيتة « الظاهرة الدينية الأولية » . فقد كان جيتة يعتقد أن الأديان كلها تصدر عن ينبوع واحد : هو هذه الظاهرة الدينية الأولية ، وليست الأديان المختلفة إلا مظاهر متعددة لهذه الظاهرة ؛ لأن الله فوق مستوى كل عقل بشرى ، وكل تصوير له تقريبي نسبي تبعاً لهذا . ولذا ففي كل دين عنصر إنسانى يختلف زيادة وتقصاً تبعاً لبعد هذا الدين أو قربه من تلك الظاهرة الدينية الأولية .

ومن أجل هذا كله نرى جيتة يذكر الإسلام (في عنوان القصيدة) واليهودية (الآباء في كتاب العهد القديم) ، كما يذكر الفردوسى ، مشيراً به إلى المجوسية أو البارسية (في إشارته إلى الفردوس إشارة إلى الفردوسى الشاعر الفارسى المشهور صاحب الشاهنامه ، كما لاحظ النقاد) .

وننتقل من هذه القصيدة إلى القصائد الأخرى ، فنجد جيتة يتحدث عن الرقى والتماثم وأمثالها من الحرافات الشائعة في الشرق ، محاولاً أن يستخلص منها العبرة ، أو أن يكشف عما فيها من رموز ومعان خفية دقيقة . وبعد أن قدم صورة من عادات الشرق وأساطيره على شكل هذه الرقى والتماثم . بدأ يتغنى بالشعر وفن الشاعر ، وما انتهى أن يقدمه في هذا الديوان ، حيث يقول :

وإني لأعرف حقاً كيف أتقدم إليكم
بالندى من الأزهار والشهى من الثمار ،

وإن شئت معها شيئاً من الحكيم ،
فسأهدى إليكم منها الناضج المعطار

أما عن طريقة الشاعر في التعبير ، فانه سينجو منحنى شرقياً يونانياً ، فيه جمع بين أسلوب الشرق وأسلوب اليونانيين . فالأسلوب اليوناني في التعبير ينحو نحو وضع الأشياء في صورة مجسمة محدودة ذات جوانب وأضلاع . أما الأسلوب الشرقي فأسلوب سيال ، إن صح هذا التعبير ، ليس لما يعبر عنه قوام ولا حدود . وجيته يود لو تحلل من الأسلوب اليوناني بقيوده ، ليسبح في نهر الفرات ويعبر في حرية وانطلاق .

ويحاول جيته في إحدى القصائد أن يمزج بين الماضي والحاضر ، وأن يركب منهما تجربة زوحية واحدة ، يقضى بها على هذا التنازع الأبدى بين هذين الآنين من آفات الزمان . ولعله يريد أن يخرج من هذا بنظرية في الزمان تشبه نظرية «الحاضر السرمدي» ، التي يقول بها الفيلسوف الفرنسي المعاصر لافل ، وهي النظرية التي ترمي إلى القضاء على الماضي ، وإفثاته في الحاضر ، ليتكون من الاثنين حاضر متصل سرمدي .

وهنا نصل إلى القصيدة التي اختتم بها جيته كتاب «الغنى» ، ونعني به قصيدة «الحنين السعيد» . وهي أحسن ما في الديوان ، ولعلها أروع وأعق قصيدة قالها جيته . وفيها يتغنى ، في لغة أهل التصوف ، بالفراسة ، التي تعشق النور وتصبو إلى حياة أعلى وأسمى ، فتقذف بنفسها في لهب الشعلة وتحترق . ترمي بنفسها في هذا اللهب طائفة مختارة ، لأنها تعشق النور عشقاً سما وارتفع ، حتى حملها على الفناء فيه . وعلى هذا النحو ينظر جيته إلى الحب ، فالحب في نظره تضحية وفناء ، تضحية من الحبيب بذاته للفناء بها في شخص المحبوب عن

طريق الاتحاد به ، والامتزاج وإياه . وكل حبيب مخلص في حبه ينشد هذه
الوحدة ، ويتحرق شوقاً إلى تحقيقها . ولن يبلغ الحب كماله ، ولن يصل أوجه
وقفه ، إلا إذا تم الاتحاد ، وحدث التضحية والفناء .

استمع إلى جيته يقول في هذه القصيدة الغامضة :

لا تتحدث بهذا الحديث لغير الحكماء ،
فالعامّة سرعان ما تتلقاه منك بالاستهزاء :
إني أريد أن أعجد الحى ،
الذى يتحرق شوقاً إلى لهيب الموت .
في قشعريرة ليالى الحب ،
تلك القشعريرة التى ولدتك . وفيها أنت تلد ،
ينفرك شعور غامض غريب ،
حين تضى الشمعة الوديمة الهادئة
حينئذ لا تظل غارقاً
في ظلال الظلام الظليلة ،
إنما يمزق فؤادك نزعة جديدة ،
نحو اتحاد أعلى وامتزاج سام
ولن يعوقك البعد مهما طال
بل ستأتى سريعاً طائراً قد أخذك السحر ،
فتعشق النور ،

وأخيراً تحترق كما تحترق الفراشة .

وطالما لم تفهم هذا الحديث :
مُتَ واستحل إلى جديد ،
فستظل ضعفاً مجهولاً مُعْتَمَداً
على هذه الأرض المظلمة :

فهذا التصوف السامى العميق ، الذى تأثر به كبار المفكرين وأصحاب
الفن الألمانين من أمثال شوبنهاور وفجتر ونيتشه ، كل التأثر ، يدعونا أولاً
إلى الموت ، لأن فى هذا الموت الحياة . وفى هذه القصيدة نجد تعبيراً رائعاً عن
روح ديونيزوس ، إله الخمر عند اليونان : فالتجربة الروحية الديونيزوسية ،
تشمل أولاً القدرة على إفناء الشخصية الفردية ، بطلب الاحتراق فى لهيب
الموت طوعاً ، ثم تقوية غريزة التزاوج والانتاج . ولعل جيته قد تأثر فى
هذا بقول أبى بكر : « احرصوا على الموت ، توهبوا الحياة » .

هيبته والحب

أرأيتَ إلى هذه القوس التى تلمع خلال الضباب ؟
أجل إنها فضيَّة بيضاء لكنها قوس السماء على كل حال .
أبشرْ إذاً أيها الشيخ ، ولا يرُعك ما ألمَّ برأسك من شيب وياض ؛ فهذه
القوس البيضاء هى قوس الحب ، أليست هى وقوس قزح سواء ؟ وقوس قزح
ما هى ؟ إنها الحب الذى جمع بين الشمس وبين السحاب ، إنها صورة الجوهر
النورانى فى الجوهر المادى ، إنها فناء الطبيعة الإنسانية فى الطبيعة الإلهية ،
أو لا ترى قطرات الدمع تساقط من السحاب كالدرر ، فتربتها الشمس بأحر القبلات ؛

فتنطبع على القطرات صورة النور ؛ فيفنى الماء في النور ، ويكون اتحاداً ليس ثمة
من بعده مجال لأى انفصال ؟

كذلك أنت أيها الشيخ اليقظ الحى ستحب ، بل وسيشتمل قلبك بأعمق
ما عانيت في حياتك من حب .

على نحو من هذا الحديث العذب العميق كانت الخواطر تنساب في نفس
جيتة الشيخ ، وهو في طريقه إلى مواطىء أقدام الطفولة ، ومراتع أحلام الشباب .
وكانت نسائم الصباح الباكر تطوف برؤوس الأشجار السامقة الرزينة في غابات
الرين الرائعة ، فتثير فيها اهتزازاً رقيقاً أشبه ما يكون باهتزاز النشوان ، كما كانت
أصداء الماضي البعيد تطوف برأس الشيخ فتبث في كيانه الروحي كله قشعريرة .
لا توصف ، هي قشعريرة الحب ، وقد وثبت أشباح تجاربه من مكائنها في هذه
الأمكنة ، بعد أن ثوت فيها ذلك الزمان الطويل . وكانت الشمس الساطعة ،
وأضواؤها ترف على أفنان الكروم الممتدة في الأودية وعلى سفوح الجبال ،
في متوع النهار ، تثير في نفسه التشوق إلى الشرق بلونه الذهبي الزاهى وتصوراته
المفرقة في التهاويل والخيال ، ولو أن جبال الألب كانت تتراءى غير بعيد فتنبه
الشيخ إلى أنه شاعر غربي لا شرقي . وكان نداء الهدهد يصاعد من بعيد هامساً
في أذنيه ؛ أنا الهدهد رسول الحب ، فهل عند قلبك حب جديد ؟

أجل ؛ يا وسيط الحب عند الأنبياء ، إن الشيخ لينتظره في مسقط رأسه
حبٌ عنيف جديد . فلقد عرف بمدينة فرنس كفرت رجلاً من أرباب المال والأعمال
على جانب من الخلق عظيم ، وقدر من النشاط العملى كبير ، ذا نفوذ ضخمة وبسطة
في الرزق ، ومع هذا كله فقد كان واسع النظرة ، فسبح الأفق ، ذا عقل مفتوح
لمرافق الحياة الروحية على اختلافها وتعددتها : من فكر واجتماع وسياسة وفن .

فلم تكن أعمال المصرف تمنعه من شؤون الفن والمسرح ، ولا شئون المال من تفهم الأفكار الفلسفية ؛ ولم تكن لذة الكسب تصرفه عن متعة الفن ، ولا قسوة الإقراض والمطالبة بالدين ، من إتيان الخير وإسداء المعروف ؛ كما أن تصميم المشروعات المالية وتدير وسائل الاستغلال لم يكونا كافرين له عن إنشاء القصائد وقد الآثار الفنية والفكرية . وهذا الرجل هو فليمير ، عضو الشيوخ في مدينة فرنكفرت .

مرت بهذه المدينة فرقة من الفرق التمثيلية المتنقلة ، فرأى فليمير من أفرادها فتاة أعجبه ما رآه فيها من رقة وظرف ، وموهبة موسيقية ممتازة ، وما يبدو عليها من حيوية بضة ، وما لها من جوهر طاهر ومعدن كريم . فدفعه ما طبع عليه من حب للخير وإيثار للمعروف ، إلى إتقاذها مما هي عليه من حال رقيقة ، وما هي فيه من شقاء أو ما يشبه الشقاء ، بوصفها راقصة وممثلة . ورضى من أمها أخذها إلى بيته ، واتخذها ابنة له إلى جانب بناته الثلاث اللاتي ماتت عنهن أمهن منذ أمد بعيد . وعاش الجميع عيشة سعيدة هانئة في القصر العتيق الذي كان للرجل في المدينة ، اللهم إلا في الصيف ، فقد كانوا ينتقلون حينئذ إلى ضيعة بديعة تقوم على ضفاف نهر المين ، حيث الحماثل الرائعة والكروم الجميلة ، تنعكس عليها فضة النهر ، وتردد في أنحائها نغمات الطير . ثم زُفَّت البنات إلى أزواجهن ، ولم يعد غير الرجل والفتاة المتبناة . وإذا به يخطو الخطوة الأخيرة فيتزوجها بموافقة من الجميع . وهذه الفتاة هي مريانه ، التي عرفت في شعر جيته في (الديوان الشرق) باسم (زليخا) ، كما سنرى بعد حين .

ولقد كانت مريانه على قدر من الامتياز العقلي والفني كبير . فقد ظفرت ، ولما تدخل بيت فليمير بعد ، بنصيب من الثقافة عظيم ، ونعمت من العناية بتربيتها بحظ وافر ، فهي قد قرأت الأدب الألماني جميعه ، وأتقنت دراسة كل ما نشره

جيته حتى ذلك الحين . وها هي ذى في بيت فليمير تجذ فيما فيه من ثقافة رفيعة ،
وتربية ممتازة وحياة روحية مترفة ، جواً صالحاً وتربة خصبة لتنمية مواهبها ،
وإكمال عدتها من الثقافة والتربية .

ورآها جيته لأول مرة حين وصل إلى فرنكفرت في سبتمبر سنة ١٨١٤ .
فقد زار صديقه القديم فليمير في ضيعته في ١٨ سبتمبر ، فلقيا هناك . ولكنه
كان لقاء قصيراً ، إذ ما لبث جيته أن غادر المدينة ، قاصداً عاصمة الرين الروحية
ومنبع القداسة في إقليمه ، ونعى بها مدينة هيدلبرج الساحرة ، التي طالما تغنى
الشعراء بروعة مكانها ، جامعة وسط الغابة السوداء ، كأنها السر العظيم في طوايا
النفس الغامضة ، وبجلال قصرها العتيق الذي وصفه هيلدرن بأنه المنبئ بالقدرة
ولكنه سافر على أن يعود إلى فرنكفرت من جديد . وعلى أن يطيل مقامه
هذه المرة عند فليمير . وعاد جيته في أكتوبر ، وكانت مريانه قد تزوجت
في تلك الأثناء ، فكان اللقاء الحقيقي الطويل .

ولم تكد النظرات تعكسها العيون على العيون حتى بدأ كلٌّ يتحسس قلبه .
ولم لا يُفتن جيته بمريانه ، وإن في طبيعتها من السذاجة البريئة ، أو البراءة
الساذجة ، ومن سحر الأنوثة الرخصة الناضجة ، وإن في روحها من الحرارة
والارهاق ، وسرعة الإحساس ولطف الوجدان ، وإن في جسمها من الحيوية
وخفة الحركة ، ونضرة الوجه وإشراقه ، وقد جللته الفدائر السمراء الناعمة
البراقة التي نعتها جيته بالحيات السمراء الجميلة ، أجل ، إن فيها من هذا كله
ما يبعث في الشيخ نشوة الصبا ، وفتة الشباب ، ويشعل في قلبه لهيب حب جديد .

لكن رويدك أيها الحب : لا تسع إلى قلب الشيخ سعيك إلى قلب الشاب ،
مندفعاً عنيفاً صارخ اللهب أهوج المساق . بل اتند في خطاك ، وكن هادئاً .

فإن الحب هو نور ،

النفس ، عليك ما على أصحابك من جلال ووقار ، وإن جاز أن يكون الحب وقوراً ، هو الأليق بالشيخ .

فلن يكون حب جيته لمريانه إذاً من نوع حبه القديم لصواجه في الشباب ، من أمثال سرلوت وبلبل ، بل سيكون حباً أهدأ ، ولكنه أعق ، ألطف ، ولكنه أفد ، أبعد عن الخيال ، ولكنه أسمى من الحس ، وأقرب إلى الحب الصوفي الإلهي .

هذا من جانب الشيخ ، أما الفتاة فكان حبها حب الشباب ، ولا عجب فلا زالت في أوج الشاب لم تتجاوز بعد الثلاثين . فكان حبها أسرع في السير وأسبق في الإعلان ، وأصرح في الظهور ، وأشد أثراً على السطح حتى اعتل منه الجسم . فها هي ذى تتاج لها الفرصة ، فتعلن الحب أول من يعلن . ذلك أن الشيخ قد نسي عند سفره حافظة الصور ، فأرسلتها إليه مع قصيدة تعلن فيها حبها العميق ، في ظرف ورقة ، وشيء من السذاجة كثير ، مما أخذ بلب الشيخ وأشعل أوار الحب شيئاً فشيئاً في قلبه .

ولكنه لا يرد العاطفة بمثلها في الحال ، بل ينتظر حتى يدور العام دورته ، فيعود من جديد في مايو من العام التالي إلى مغاى الطفولة في منطقة الرين ، وهنا تبدأ تجربة الحب الجديدة ، بأن يرد الشيخ على قصيدتها بقصيدتين ، يرمز فيهما إلى الحب القدي نشأ بين مريانه وبينه بالحب بين يوسف النبي وزليخا امرأة العزيز ، كما وردت قصة هذا الحب في القرآن . فيقول في أولى القصيدتين إنه لا عجب في أن تغتن زليخا يوسف : فلقد كان يوسف شاباً ، وللشباب نعمته وكان جميلاً جمالاً بلغ حد السحر والفتنة ، وهي أيضاً كانت جميلة ، ففي استطاعة كل أن يسمد الآخر ، ويكون له ينبوع نعيم ، فإذا كنت ، يا من انتظرتك منذ

أمد بعيد ؛ ترسلين إلى نظراتك الحارة حرارة الشباب ، وإذا كنت تحبيننى الآن وغداً ستكونين لى مصدر سعادة ونعيم ، أتعنى به فى شعرى ، فيجب أن أدعوك دائماً باسم زليخا .

سيدعوها جيته إذا فى « الديوان الشرقى » كله باسم زليخا ، فبم تدعوه هى ؟ إذا كان هو يتعنى بمحبوبته ، ويصوغ لها قلائد المدح ، فليكن اسمه « حاتم » .

وعبثاً حاول النقاد أن يفهموا السر فى تسمية جيته لنفسه باسم « حاتم » فى مقابل زليخا ، وهو يقصد بهذا الاسم حاتم الطائي . فإن حاتم الطائي لم يعرف عنه أنه كان من العاشقين ، وإنما هو رجل الكرم فحسب ، لا رجل الحب ؛ وجيته نفسه قد صرح بهذا فى القصيدة الثانية من القصيدتين اللتين ذكرناهما آفاً ، وفى « تعليقاته » على الديوان . فذكر عن حاتم أنه المضروب به المثل فى الكرم فحسب . أما نحن فنرى أن جيته لم يسم نفسه باسم « حاتم » عبثاً ، وقد كان فى استطاعته أن يختار اسم واحد من العشاق السبعة المضروب بهم المثل فى العشق ، وهم الذين ذكرهم فى أول كتاب العشق . عشق نامه ، من « الديوان الشرقى » . بل هناك سبب عميق هو الذى حمل جيته على تسمية نفسه باسم « حاتم » . ذلك أن نظرة جيته إلى الحب فى كتاب « زليخا » من هذا الديوان نظرة خاصة ؛ فالحب هنا ليس هو الحب الحسى الذى نجمده فى « كتاب العشق » ، وفى بقية مؤلفات جيته ، فيما عدا « فاوست » الثانى ، بل هو الحب الصوفى الإلهى الذى هو عبارة عن اتحاد المحب بالمحجوب وفنائه فيه . وهذا النوع من التجربة هو فى جوهره فعل « يبذل » فيه المحب نفسه و « ويسخو » بها و « يقدمها » إلى المحجوب ؛ فهو إذاً « بذل » و « سخاء » و « عطاء » من جانب المحب نحو المحجوب ؛ والبذل

والسخاء والعطاء كلها بمعنى الكرم ، فالحب إذاً ، تبعاً لهذه النظرة إلى الحب .
أخص خصائصه العطاء والبذل والجود بذاته للمحبوب . فالحب إذاً كريم ؛
وهذا الكرم ليس طبعاً الكرم الحسى . الذى هو كرم حاتم الطائى ، بل هو
الكرم الروحى . بمعنى فناء الحب فى المحبوب واتحاده به تمام الاتحاد . ومن
هنا نستطع أن نفهم لماذا سُمى جيته نفسه فى هذا الكتاب من كتب « الديوان
الشرقى » باسم حاتم ؛ وبهذا نكون ؛ لو أن ما ذهبنا إليه صحيح ، قد حللنا
مشكلة معقدة لم يستطع النقاد أن يحلوها حلاً صحيحاً ، أو قريباً من الصحة ،
حتى اليوم .

سيكون اسم جيته إذاً حاتماً ، وستناديه مريانه بهذا الاسم ، كما سيناديهما
هو باسم زليخا . وستتقد نار الحب قوية بين كلا العاشقين . ولم لا تتقد ،
وها هما من جديد يلتقيان أطول اللقاء : يعانى فيه جيته تجربة حب لعلها أن
تكون من أعمق ما عاناه حتى الآن من تجارب غرام ، على الرغم من كثرة
هذه التجارب وتنوعها أشد التنوع . حتى إن القصائد كانت تنشق من خياله
الشعرى الواحدة تلو الأخرى فى تدفق حار شديد ، وقوة هائلة ، وسرعة
لاحد لها .

فى اليوم الثانى عشر من شهر أغسطس نزل جيته ضيفاً على آل فليمير .
فى ضيقتهم التى يقيمون بها فى الصيف ؛ وهنا أمضى أسابيع ثمينة من أعز
ما أمضاه فى حياته من أسابيع . فالطبيعة الفاتنة تفيض عليه بالسحر والجمال
والقداسة ، لأنها فى هذا المكان قد جمعت بين هذا كله . والأصدقاء الأعزاء
يحيطون بالشيخ ، وينظرون إليه نظرة إعجاب مغمور بالحب ، وإجلال
يتسامى حتى التقديس . وهو يأخذ بمحظه الأوفر من هذا ومن ذاك . فيتربع
من جمال الطبيعة وقداستها ما شاء الإنراع ؛ ويبادلهم بالإعجاب الحب الخالص ،

وبالإجلال التبسط في غير ما تبدل ولا خروج عن حد الله البرى . وإن هذه الطبيعة التي تترأى أمام ناظريه لشير في نفسه ذكريات ، وأى ذكريات ! وإنه ليهتف في أعماقه بما هتف به في إهدائه « لفاوست » : « هذه أنت أيتها الصور النورانية الخيالية التي تراءيت من قبل أمام ناظري المضطربة تطيرين في فيض من النور . هل لى الآن أن أعوقك عن التحليق والطيران ؟ وهذا القلب ، الذى أذبلته السن والآلام ، هل لا يزال يصبو إلى هذه الأوهام ؟ هذه أنت تتقدمين نحوى . حسناً حسناً . تقدمي ما تشائين ؛ فإنى حين أراك الآن تثبين من هذه الغيوم وذلك الغبار مندفعة إلى ، أشعر بأن قلبى قد سرت إليه رعدة الصبا وقشعريرة الشباب ، من هذا النسيم السحرى الذى يندفع في أذيال تيارك » . فهذه منازل أحبابه القدماء تترأى غير بعيد . أليس هذا هو الطريق الذى طالما منلكه منذ أربعين سنة من جبر برملى ، حيث هو يقيم الآن . إلى أوفنباخ حيث كانت توجد محبوبته الرائعة الجمال لىلى شيمان ؟

وإن أصحابه ليداعبونه ما وسعهم الدعابة في يوم عيد ميلاده السادس والستين ؛ فها هى ذى مريانه تقدم له فى صبيحة هذا اليوم عمامة من أجود أنواع الشيلان الهندية ، يحيط بها إكليل من الفار . وكل هذا قصدت به إلى أن يكون تحقيقاً فى الواقع لأغنية « الشعر الشرقى » التى تقول : « إلى ، إلى ، أيها الحبيب ! ضع العمامة على رأسى ! فمن يدك وحدها تسكون العمامة جميلة ؛ وإن عباس . شاهنشاه إيران ، لم ير رأسه قد توجت بعمامة أجمل وأروع ! » . وتلح مريانه فى الدعابة . فتطلب إلى الشيخ أن يقص على الحاضرين قصة مغامراته الغرامية فى هذه المنطقة ؛ فلا يسمع الشيخ إلا أن يحجب عليها شعراً . فى دعابة حلوة ، فيصفها هى وما لغنتها من آلاف الأخطار ! وكل هذا وقود يضاف إلى نار الحب المشتعل بين كلا القلبين ، فيزيدها ضراماً على ضرام ، حتى يبدأ الحب يدخل دوره الخطير الأخير بيد هذا الحوار الرائع بين حاتم وزليخا ،

أوجيته ومريانه ، فختم يبدأ الحوار بأن يقول : ليست الظروف هي التي تخلق من اللص لصاً ؛ ولكنها هي نفسها أكبر اللصوص : لأنها سطت على بقية الحب التي كانت باقية في قلبي ، وسلمتها إليك ، فأصبحت فقيراً ، فصارت حياتي وقفاً عليك ؛ ومع ذلك فأني أشعر بالحنين في الشرارة المقدسة المنبثقة من نظراتك وأنعم بحظي الجديد بين ذراعيك . وحينئذ ترد عليه زليخا في اعتراف بديع تقول فيه : طوى لك في حبك ، إني لا ألوم الظروف ، حتى ولو أنها قد سطت عليك ، فما ألد هذا السوط لدى وأقربه إلى قلبي ! ولست أدري لماذا يحلو لك أن تسمي هذا سطوآ ؟ فلم لا تقدم إلى قلبك في حرية واختيار ؟ أجل ، إني أود أن أقول لك بكل قلبي : نعم ، أنا الذي سطوت عليك ، إن هذا الذي تقدمه طواعية واختياراً ، سيقدم لك ربك عظيماً ؛ فها هي ذى راحتي ، وها هي ذى حياتي الخصبه أبدلاً لك في سرور وغبطة ، فتقدم وخذها ! كني هزلاً ! ولا تتحدث عن الفقر ! أولاً يجعلنا حبنا أغنياء ؟

ثم يرحل جيته في ٢١ سبتمبر إلى هيدلبرج بعد أن تواعد وفليمير ومريانه على التقابل هناك ، بعد عودتهما من درمشتات حيث سافر آل فليمير ، وفي انتظار لقائه بمريانه من جديد ينشد جيته قصائد فيها تعبير حار عن الشوق العنيف الذي يعاينه نحوها من أجل هذا اللقاء ، فيقول لها : أنت تسميني ، أيتها الحبيبة ، باسم الشمس تعال إذا أيها القمر العذب ضئني بين ذراعيك ؟ ويلج عليها للشوق أشد مما يلج عليه ، فتندفع عاطفة الشوق العنيف ثائرة تعبر عن نفسها في قصيدة « الريح الغربية » ، فتقول : « ماذا تعني الحركة ؟ أما وراء الريح الشرقية من أنباء ؟ إن رعدة هبوبها المنعشة تثلج جراح القلب العميقة . إنها تداعب الغبار ، فتثيرة على شكل سحب صغيرة خفيفة ، وتدفع أسراب الحشرات الماثثة إلى الأعناب . وهي تخفف وهج الشمس وتثلج

أيضاً حدودى الملتبته الحارة ، وتطبع قبة ، وهى هاربة ، على السكروم المزدهرة فوق التلال والأودية . وإن همسها العذب الرقيق ليث إلى آفاقاً من تحيات الحبيب ، وإن الآلاف من القبلات لتحينى ، قبل أن يغمر الظلام هذه الزوايا .

ثم كان اللقاء فى هيدلبرج ، فاستمر يومين من أروع الأيام : سطعت فيها بالنهار شمس الخريف الوديمة وداعة أقرب ما يكون إلى الحزن ، وتجلى فيها بالليل البدر ، وقد أرسل أشعته العذبة الفضية على القصر العتيق ، يستوحيه أسرار المصير وسباق الزمان ؛ وعلى نهر النكر البديع تحت الجسر ، فيخفق النهر كما يخفق القلب العاشق حين يلمسه صدر الحبيب . فيوحى هذا كله إلى الشاعر بقصيدة من أروع قصائده الشعرية كلها ، فيقول عن « اللقاء » بعد الفراق : « أهذا ممكن ، يا كوكب الكواكب ، أن أضحك إلى قلبى من جديد ! أواه . يا ليل الفراق من هاوية ، وباله من ألم ! أجل ، أنت أنت شريكى العذبة فى النعم ! إني لأتذكر آلامى الماضية ، فأقشعر فزعاً من الحاضر . . . وهكذا طرت إلى تفرك على أجنحة الفجر الوردية ، وهاهو ذا الليل الزاهى بأضواء نجومه يحكم ما انعقد بين كليتنا من رباط ويوثقه أشد الوثيق ؛ فنحن على الأرض مثل فى السماء والبضراء ، ولن نستطيع كلة الحضرة : كن ! أن تفرق بين كليتنا من جديد . »

حيته والدين

الواحد والمتعدد ، والثابت والمتغير ، هما المحوران اللذان حولهما دار التفكير العالى فى الوجود الظاهر دائماً وسيدور ؛ وهما قطبان قويلن متافران ، وليكنهما مع ذلك متلازمان متوازنان ؛ فالقضاء على أحد القطبين فيه نوع

من التضاء على القطب الآخر في نفس الآن . ولا بد لكل نظرة في الوجود الحقيقي إذاً أن توفق بين الاثنين ، إن كان قد قدر لها من النجاح نصيب ؛ لكن هذا التوفيق لن يكون بالتضحية بواحد من الطرفين ، فليس ثمة في التضحية شيء من التوفيق ؛ إنما يكون التوفيق بتوكيدها معاً ، مع وضع الاثنين في سلم من التصاعد .

وجيته قد حاول التوفيق في كل نوع من هذين النوعين من أنواع التنافر عن طريق ما سماه باسم « الظاهرة الأولية » Ur phanomen ، وهي تلك التي تمثل فيها أمام أعيننا فكرة الصيرورة صافية خاصة ؛ والأداة لإدراك هذه الظاهرة فحسب ، بل الأحرى أن يقال إنها الأعين الباطنة . أو إن شئت فقل إن كلا النوعين من الأعين يتعاون في هذا الإدراك ؛ فالأعين الظاهرة ترى جزئيات النبات المختلفة مثلاً ، وحينئذ تقوم الأعين الباطنة بإدراك « الظاهرة الأولية » للنبات . أي صورة النبات الواحدة الثابتة في أنواع النبات المتغيرة المتعددة . وهذا الإدراك يبدأ من الكائنات المركبة في الوجود العضوي أو الطبيعة الحية ، على حد تعبير جيته ، ويرتفع منها قليلاً قليلاً حتى يصل إلى هذا الوجود العضوي في ذاته . فيدرك الوجدان في ورقة الشجرة « الظاهرة الأولية » لكل الأعضاء النباتية ، وفي محور النبات « الظاهرة الأولية » لكل صيرورة في الوجود العضوي .

وليس بعد « الظاهرة الأولية » مجال للإدراك ، وإنما هي الحد النهائي الذي يجب على الإنسان أن يقف لديه . « إن الأوج الميسر للإنسان بلوغه هو الدهشة ، فإذا ما أوقته الظاهرة الأولية في الدهشة ، فعليه أن يقتصر على هذا ويقنع ؛ لأن هذه الظاهرة ليس في مقدورها أن ترتفع به إلى أعلى ، وليس له هو الآخر الحق في أن يضيف إلى هذه الظاهرة شيئاً ؛ فسندها الحد ، وعندها النهاية » .

عندها الحد ، وعندها النهاية ! أخلصنا إذاً من تعدد الجزئيات إلى وحدة الظاهرة الأولية لكي تقع في نوع من التمدد جديد ، هو تعدد الظواهر الأولية ؟ أجل ، ولكن لهذا التمدد وحدة هو الآخر ، لأن هذه الظواهر الأولية ترجع إلى جوهر واحد ، أستغفر الله ، بل الواجب أن يقال إنها جوهر واحد ، هو الوجود الحقيقي كله .

وعن هذا كله عبر جيته أروع تعبير حين قالت الروح لفاوست : « في تيار الحياة ، وفي عاصفة الأفعال ، أعلو وأهبط ، وأروح هنا وأغدو هناك : ميلاد وقبر ، بحر أبدى ، نسيح متغير ، حياة متوقدة ! هكذا أشتغل على نول الزمان الصاحب ، ناسجة نوب الألوهية الحى » .

لكن ما هذه « الألوهية » التي ليست ظواهر الحياة كلها غير نسيجها الحى ؟ أو نستطيع أن نسميها ، ونقول هى هذا أو ذاك ؟ هل نستطيع أن نحلل صفاتها ، ونعبر عنها بقول ما من الأقوال ؟ كلا ، « فن ذا الذى يستطيع أن يسميه (أى الله) ويقول : انا أومن به ؟ ومن ذا يشعر به ويمرؤ على أن يقول : أنا لا أومن به ؟ » أجل ، لا يقدر أحد أن يقول إني أومن بوجود الله ، « لأن هذا الذى يسمع كل شئ . ويحفظ كل شئ . » أليس هو الواسع الحافظ لك ، ولى ، ولذاته أيضا ؟ . وبشبه هذا تماماً ما يقوله رلكه : « لقد كان يبدو لى من القحة الطائشة — كلا ، ليس هذا هو التعبير الصحيح — لقد كان يبدو لى أكبر خطيئة أن أقول : إنه موجود ؛ فكأنى بهذا قد أرغمت على الوجود فى » . ولكن هذا الشبه بين جيته وبين رلكه شبه فى الظاهر غشيب ، أو نحن لا نستطيع أن نؤكد على وجه اليقين أن مقصد الاثنين من هذا القول المتشابه واحد ؛ ذلك لأنه إذا كان رلكه يعتبر من الوقاحة والطيش ، بل وأكبر خطيئة ؛ أن يقول الإنسان إن الله موجود ؛ فذلك لأن الله عنده ليس

« موجوداً » . بل « سيوجد » ، أى أن الله عنده إله تاريخي ، إن صح هذا التعبير ، فلا يستطيع أن يتصوره ثابتاً ، بل متطوراً طارئاً ، أما جيته فلهه عنده هو الكل . ولنا نحن غير أجزاء في هذا الكل ، فكيف يحق لنا إذاً أن نقول : نؤمن بوجوده ، لأن هذا معناه أننا نحتويه في نفوسنا ، مع أنه هو الذي يحتوينا ويسمنا ، باعتبارنا أجزاء منه ، ولكن لعل جيته أن يكون قد قصد أيضاً إلى ما قصد إليه ولكه ، ففكرته في الوجود الحى ، وفي الله باعتباره الوجود الحى كله ، تؤيد مثل هذا التفسير . لأن الوجود الحى عنده تغير وضرورة ، فلا سبيل للتحدث عن الله إذاً في لغة الثبات والوجود المتحجر الميت .

ويتأق مع طبيعة الصلة التي بيننا وبين الله أن نسميه ، لأن هذه الصلة . كما سنرى بعد حين قليل ، هى صلة التسليم ، بينما التسمية معناها السيطرة من جانب من يسمى على الشيء الذي يسميه . فإذا سميت الشيء باسمه ، فأنك تريد بهذا أن تخلى بسلطان عليه ، كما قال ابن جرير . فكان الصلة إذاً بين المسمى والمسمى هى صلة السيد والمسود ، صلة المسيطر والخاضع ، أى أنها التقيض تماماً ، للصلة بين العبد والله ، والتي هى صلة التسليم والخضوع من جانب العبد نحو الله . وعلى هذا النحو نستطيع أن نفسر قول جيته : إن واحداً من الناس لا يستطيع أن يسمى الله باسمه .

ولكن إذا لم يكن فى استطاعة الإنسان أن يقول إني أؤمن بالله ، فهل يجوز على أن يقول : إن لا أؤمن به ؟ كلا ، كلا ! فإن قلوبنا عامرة بالشعور بما فى الوجود الحى من استمرار ، فما عليك إلا أن « تملأ قلبك من هذا كله » ، مهما يكن من عظمه واتساعه ، حتى إذا ما وجدت النعم فى هذا الشعور ، فأطلق عليه ما تشاء من الأسماء . سمه السادة ! القلب ! الحب ! أو سمه الله ! فليس ثمة

لهذا من اسم ! فالشعور هو كل شيء ، وما الاسم إلا ضوضاء فارغة ، وبخار قائم يكسو بالظلمة نور السماء .

الشعور إذاً هو كل شيء ، ولكن ما طبيعة هذا الشعور ؟

هذا الشعور هو « التسليم » . « في طهارة أرواحنا نجيش رغبة قوية نحارة في أن نُسلم أنفسنا ، مختارين طائعين ، يحدونا الحمد والشكر ، لموجود غير معلوم أعلى وأظهر ، مفسرين لأنفسنا عن هذا الطريق هذا الأزلى الأبدى الذى لا اسم له . وتلك هي التقوى » .

وهذا التسليم هو الحب ، هو رغبة المتعدد في أن ينفى في الواحد ، ونزوع للنسبي إلى الغرق في المطلق ؛ هو الشوق إلى الاتحاد بعد الابتعاد ، والاتصال بعد الانفصال . وكل شيء في الوجود نحو هذا الاتصال ، وذلك الاتحاد والافتاء ، لأن هذا هو الغاية من الوجود .

وإلى بيان هذا قصد جيته من هذه القصيدة الرائعة من قصائد « الديوان الشرقي » الموسومة باسم « لقاء » ، فجعل من اللقاء حاتم بزيخا ، بعد فراق هو لم طويل ، رمزاً لغاية كل ما في الكون من وجود . فها هو ذا حاتم وقد أخرجته الدهشة عن طوره . حينما رأى نفسه يضم إلى قلبه زليخا من جديد . أصدق ما تراه عيناه ؟ أم حقاً تلك زليخا ؟ أجل هي هي ، أجل هي قسيمته في النعيم ، وشريكته العذبة العزيزة . أنتى له هذا ؟ وإن نفسه تتحلى قشعريرة مما يراه الآن . حينما يستعيد في ذاكرته ما عاناه في الماضي من آلام ، آلام الانفصال والبعد ، ألا إن ليل البعد لكاهلوية ، بل أشد منها ألماً وأكبر كبراً .

أنتى له هذا الاتحاد واللقاء من جديد ؟

ذلك هو قانون الوجود ، وما اللقاء حاتم بزيخا إلا حالة من حالات هذا القانون . فلقد كان الكون راقداً في حضن الألوهية الأبدى ، حتى فاقش الله بنشوة أثارت في نفسه لذة للمخلق جليلة سامية ، فأمر بأن توجد

الساعة الأولى ، فقال كلمة الحضرة : « كُنْ ! » فترددت آهة أليمة ، حينئذ انقذف الكون إلى الوجود في قوة وألم . وبدا النور ، فانفصلت عنه الظلمة جزعة خائفة ، وسرعان ما فرت العناصر ، وتشقت بدداً ، وصارت طرائق قيّداً ، إذ اندفع كل متخذاً سبيله بقوة في الفضاء حتى هبط كتلة هامة في المكان السحيق ، دون ما رغبة ولا ضوضاء . فكان صمت عميق ، وكانت وحشة ، وصار الله وحيداً لأول مرة ، فأخذته الشفقة من هذه الوحشة الخيفة في هذا الكون المشتت الموزع الذي أظله الموت بجناحيه الخيفين ، فخلق الفجر مزيجاً من النور والظلمة ، وسلمتاً من الألوان متدرجاً تبعاً لقوانين الأعداد . وهذا الفجر هو رمز الانقباض والانبساط في الكون ، والانقباض والانبساط هما الحياة . وهكذا وجدت في الكون نزعة إلى الاتحاد ، أي وجد الحب ، فأمكن من جديد أن يحب المنفصل ما عنه انفصل . فاندفعت الموجودات ، في لفة وإسراع ، كل يبحث عما كان به متحداً ، وكانت قشعريرة حب رائعة تتردد في أنحاء الكون ، فتداعى بها عناصر الوجود ، فيتحد كل بأخيه ، حريصاً كل الحرص على هذا الاتحاد . وهكذا شأن حاتم مع زليخا : فقد جذب إلى ثغرها العذب الجميل طائراً على أجنحة الحب الوردية ، وصارت له وصار لها إلى أبد الآبدين ، فلن يفرق بينهما من جديد « كُنْ ! » أخرى .

وتلك هي الظاهرة الأولية للدين ، فهي نزوع المتعدد إلى الاتحاد بالواحد ، أو نزوع الفرد إلى الفناء في الله . ولغة هذا النزوع أو المظهر الذي فيه يتحقق ليس القول ، بل الصلاة ؛ وهذه الصلاة لا ألفاظ لها ، وإنما هي ، على حد تعبير جيته ، صلاة عقلية . ولكنها تدفع مع ذلك إلى القول . وفي هذا يمكن الخطر عليها ؛ لأن القول لا يستطيع أن يعبر عن الظاهرة الأولية للدين في طهرها وصفائها ، وشذتها وامتلائها ، كما أنه يحيل التجربة الروحية الدينية ، التي هي تجربة حية ، أي في تطور وضرورة مستمرة ،

إلى شيء ثابت متحجر ميت . فالتجربة الروحية ابنة اللحظة التي يعانيها المرء فيها ، بينما القول يجعلها خارجة عن الزمان وعلى الزمان . وفي هذا المعنى يقول نوباليس : « الصلاة في الدين كالتفكير في الفلسفة . فالصلاة هي الدين . . . والحاسة الدينية تصلى . كما أن عضو التفكير يفكر » .

والأديان على اختلافها ليست غير محاولة لتحقيق هذه الظاهرة الأولية ؛ فهي في غايتها وفي جوهرها واحدة ، وإنما لغة التعبير عن هذا الجوهر وتلك الغاية التي تختلف بين الدين الواحد والدين الآخر . فلننظر إلى الأديان المختلفة نظرتنا إلى أنواع النبات المختلفة : أى لنحاول أن ندرك في كل منها الظاهرة الأولية للدين ؛ وليست نعنيها بعدد الصور المختلفة التي تظهر عليها في كل دين من الأديان ، والأسماء التي يطلقها عليها أصحاب كل دين : « فالاسم إلاضوء فارغة ، وبخار قائم يكسو بالظلمة نور السماء » ، الذي هو الظاهرة الأولية للدين . وها هو ذا جيته الشيخ العجوز يعبر عن هذا كله في دقة ووضوح فيقول : « ليست الدعوة الدينية من شأنى ، ولكنى كنت أبحث دائماً وبكل إخلاص عن الوحدة الدينية ، ولم أجد في تاريخ العالم كله من يوم أن خلق ديناً أستطيع أن أعتنقه اعتناقاً تاماً . وهأنذا أسمع في أواخر أيامى ، عن شيعة متوسطة بين الوثنيين واليهود والمسيحيين ، قد أعان أصحابها أنهم على استعداد لأن يقدرُوا ويعجبُوا . ويقدسُوا كل ما يصل إلى علمهم من كمال وسمو ، بل وأن يعبدوه في الحال التي يكون فيها ذلك السمو والكمال قريباً من الألوهية . وهكذا ينبثق أمام ناظرى من الزمان المظلم السحيق شعاعٌ من السرور العميق ، لأنى أشعر أنى قد حاولت جهدى طوال حياتى أن أصف نفسي بوصف هؤلاء » .

أجل ، ظل جيته طوال حياته يسعى باحثاً عن الظاهرة الأولية للدين . في الأديان المختلفة التي وصل إلى علمه شيء عنها . فأقبل عليها جميعاً في سعة من العقل وخصب من الخيال وفسحة في أفق الفكر ، معجباً بما فيها كلها .

من طهارة وهمو وكمال ، متغنياً برموزها وطقوسها وتهاويلها وتصوراتها .
واصفاً تجاربها الروحية السامية ، جامعاً بين هذه التجارب وبين التجارب التي
عاناها في حياته الروحية الخاصة ، فكانت روحه مليئة بالمشاركة الوجدانية
فيما بينه وبين العواطف السامية في هذه الأديان . وكان خياله الشعري خصباً
في ابتكار الرموز الدينية أو صوغها من جديد في صيغة فتانة رائعة . وهنا
يجب أن نوضح الغرض الحقيقي الذي قصد إليه جيته من وراء تصوير
هذه الرموز الدينية . فإن جيته لم يكن كدائته شاعراً دينياً ، يرمى من وراء
الرمز إلى المغزى ، ومن وراء المثل الجزئى إلى الكلى العام ، وإنما كان شاعراً
خالصاً يقصد بالرمز إلى الرمز نفسه لا إلى شئ وراءه ، وبالجزئى الخاص
إلى الجزئى الخاص ، لا إلى الكلى العام . وغايته من هذا التصوير أن يُمتنع
حاسسته الفنية ويشبع غريزته الجمالية ، مع التعبير في نفس الآن عن تجاربه
هو الروحية الخاصة ، أو عن تجارب روحية يود لو حيها في مملكة خياله
الشعري ، لأنه لم يستطع أن يحياها في واقع حياته . وعلى هذا النحو يجب
أن نفسر وصفه للرموز الدينية في « الديوان الشرقى » ، مثل وصفه للجنة
كما وصفها الإسلام ، وعرضه لقصة أهل الكهف كما وردت في القرآن ،
بيانه لتمجيد المحوس للعناصر الطاهرة .

و « الديوان الشرقى » أعظم وثيقة عبر فيها عن موقفه بإزاء الدين
والأديان ، فيما عدا تراجمه الذاتية . ففيه جال جولات ، طويلة حيناً ،
قصيرة حيناً آخر ، في ميادين أربعة أديان من الأديان الكبرى ونعني بها :
اليهودية والمسيحية والإسلام والمجوسية . وطبيعى أن يكون نصيب الإسلام
من بين هذه الأديان جميعاً النصيب الأوفر في هذا الديوان ، لأن الديوان
قد نشأ ، كما رأينا في الفصل الأول عن « جيته والشرق » ، تحت تأثير
إسلامى خالص تقريباً ؛ ولهذا نرى الطابع الإسلامى غالباً على كل شئ فيه
حتى القصص التي وجدت أصولها في المسيحية ووردت في القرآن ، لم يشأ

جيته أن يأخذها عن مصادها الأصلية ، بل أخذها عن القرآن ، كما فعل في قصة أهل الكهف . ثم إن الإسلام هو الدين المميز الرئيسي للشرق القريب ، بينما المسيحية مثلاً غربية أكثر منها شرقية ، فطبعي إذاً أن تنجبه عناية « الديوان الشرقى » إلى الدين الشرقى المميز الرئيسى ، وهو الإسلام .

ولطالما أظهر جيته إعجابه الشديد بالإسلام ، حتى اعتبره هو والتقوى شيئاً واحداً . وهذا واضح من تعريف جيته للتقوى ، وهو التعريف الذى أوردناه آنفاً . مما أدى به إلى أن يقول : « إذا كان الإسلام معناه التسليم لله ، فعلى الإسلام نحياً ونموت جميعاً » ، وإلى أن يقول مرة أخرى للمستشار فون ملر فى ٢٨ مارس سنة ١٨١٩ : « إن التفويض والتسليم هما القاعدتان الحقيقتان لكل دين ، وكذا الخضوع لإرادة عالياً تسيطر على مجرى الأمور ، لا نستطيع إدراكها ، لهذا السبب نفسه ، وهو أنها فوق مدى عقولنا وإدراكاتنا . وفى هذا يتشابه الإسلام مع البروتستنتية أشد التشابه » . ولعل السبب فى إعجاب جيته بالإسلام هذا الإعجاب الشديد ، إلى جانب فكرة التسليم ، ما رآه فيه من جانب إيجابى يميل إلى توكيد الفعل وتوكيد الحياة عن طريق الفعل ؛ ولهذا نراه فى كتاب « الخلد » من هذا الديوان لا يعنيه من بين الذين دخلوا الجنة من المسلمين غير الشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله . فيصور النبي بعد موقعة بدر وقد وقف ، تحت مماء صافية مرصعة بالنجوم ، يؤين الشهداء فيقول : لبيك الكفار موتاهم ، فقد ماتوا إلى غير رجعة ، أما أنتم معشر المؤمنين فلا تبكوا إخواننا ، لأنهم صعدوا إلى أعلى عالىين ، فى جنات النعيم . ثم يصف كيف دخلوا الجنة ، وكيف ينعمون فيها . وهنا يفصل جيته القول فى وصف الجنة وصفاً دقيقاً كالوصف الذى ورد فى القرآن ، وفى سورتي « الرحمن » و « الواقعة » على وجه التخصيص ، ونرى جيته مرة أخرى فى هذا الكتاب نفسه يورد حديثاً غريباً شائفاً بين الخورية

الواقفة تحرس باب الجنة ، وبين الشاعر الذى يريد دخول الجنة ، والحرورية لا تدع الشاعر يدخل إلا بعد أن تسأله هل هو يشبه المسلمين الحقيقيين للذين استحقوا الجنة بجهادهم فى سبيل الله ، فتقول له : « أنت من بين هؤلاء الأبطال ؟ أرئى إذا جراحك التى تنبئ عن المجد والشرف ، وأنا أدخلك الجنة » . فلن يشفع للشاعر فى الدخول إذا قصائده وأغانيه ، وإنما الشفيع جراحه وما أصيب به من طعنات ، فلا يسعّه إلا أن يكشف لها عن جراحه فى معارك الحرب ، وإن كان لا ينسى أيضاً أن يكشف لها عن جراحه فى معارك الحب !

مبته ومافظ

لحافظ من التأثير والشهرة فى الغرب حظاً لا يدانيه فيه إلا الخيام من بين شعراء الشرق أجمعين

فقد عرفته أوروبا فى القرن الثامن عشر ؛ وما كادت تعرفه حتى أعجبت به ، وتوفرت بلدانها الرئيسية على العناية بآثاره ، وأقبل شعراؤها يستلهمونه ويتأثرون كل ما يتغنى به ، حتى كان فى وعيهم الصورة العليا للروح الشرقية كما نحيّلت إلى نفوسهم فى ذلك الحين . فالإنجليز قد عرفوه خصوصاً فى الهند ، حيث كان لا يزال له فيها غير منتشر ؛ وطبع ديوانه فى مدينة كالكوتا فى سنة ١٧٩١ على الطريقة الأوروبية ، فكان من أوائل الكتب التى طبعت على هذا النحو فى الهند . وكانت لهم هنا الأسبقية ، كما كانت كذلك بالنسبة إلى الخيام بفضل ترجمة فزجرالد الرائعة لرُباعيات هذا الأخير . ثم عُنِي به الفرنسيون ، ورائدهم فى هذا مؤسس الاستشراق

الحديث ، البارون سيلفستر دى ساسى ، الذى كان رائداً فى كل فرع من فروع الدراسات الشرقية تقريباً ؛ فاهتم خصوصاً بالترجمة لحياته ، معتمداً على كتاب دولتشاه فى تراجم الشعراء الفرس وفقاً لزمانهم ، أى بحسب الترتيب التاريخى . وقد نشر بحثه هذا فى « الحواشى والمستخلصات » Notices et Extraits (ج ٤ ص ٢٣٨ وما يليها) .

أما الألمان فقد اتخذت صلتهم بحافظ نفس المظهر الذى كان لهم فى صلتهم بالشرق القريب ، أعنى أنهم عرفوه عن طريق الأتراك . ولما كانت الصلات القوية بين الألمان والأتراك هى تلك التى بين النمسا وتركيا ، فقد عنى به النمساويون أولاً من بين الألمان ، ففهموا حافظاً كما تصورته الآداب التركية ، واعتمدوا على الشرح العظيم الذى قام به سؤدى على ديوان حافظ ؛ وهو شرح استمر يدرس فى تركيا طوال العهد العثمانى حتى تركيا الكمالية ، وطبع مراراً عدة طوال القرن الماضى ^(١) . فعلى أساس هذا الشرح قامت ترجمة يوسف فون همر (فى جزئين ، سنة ١٨١٢) ؛ كما قامت على أساسه من بعد الترجمة التى تفضلها فى الجلال والدقة ، ألا وهى ترجمة فنستنس فون روزنتسفيج شفتاؤ **Vincenz von Rosenzweig** **Schwannau** (مع نشرة للنص الفارسى فى مواجهة الترجمة الألمانية ، وقد

(١) أحسن هذه الطباعات للشرح الكامل هى طبعة بولاق سنة ١٢٥٠هـ = سنة ١٨٣٤م ؛ وعلى هامشها كل المواضع التى نقد فيها سؤدى تفسيرات شتى ودرورى الصوفية . كما أن نشرة هرمن بروكهاوس **Hermann Brockhaus** سنة ١٨٥٤ - سنة ١٨٥٦ تقوم على هذا الشرح ، أى على النص الوارد به لديوان حافظ ؛ كما أنه يورد شرح سؤدى على النماين غزلا الأولى .

وقد صار هذا الشرح عمدة لا غنى عنه لكل ناشر لنص الديوان ، إلى جانب النشرة الطهرانية الجديدة التى قام بها سيد عبد الرحيم خاخالى فى طهران سنة ١٣٠٦هـ = سنة ١٩٢٨م ، اعتماداً على مخطوطة كتبت سنة ٨٢٧هـ = ١٤٢٣م ، أى بعد ٣٥ سنة من وفاة حافظ ، ولذا تعد أول مخطوطة لدينا عن ديوانه وأكبر المخطوطات قيمة .

ظهرت في ثلاثة أجزاء في فيينا سنة ١٨٥٦ - ١٨٦٤) .. وكان الأثر قد عتوا بحافظ أكبر عناية ، منذ أن بدأت حضارتهم الروحية في الظهور في القرن الخامس عشر . فالشاعر الأستاذ الوزير أحمد باشا - خوجة محمد الفاتح ووزيره - وبه يبدأ العصر الثاني للشعر العثماني (حوالي سنة ١٤٥٠) ، قد تأثر بحافظ في شعره إلى درجة المحاكاة والتقليد ؛ والسلطان سليم الأول يقلد حافظاً أيضاً في ديوانه^(١) . كما أن الشاعر الغنائي للعثماني الكبير ، باقي (١٥٢٦ - ١٦٠٠) ، قد سار هو الآخر في إثر حافظ .

بدأت أبحاث الألمان حول حافظ بترجمة الكونت ك. ا. زيفتسكي كثيراً من غزليات حافظ إلى اللغة اللاتينية في أوزان هوراسية^(٢) . وتلاه العمل الضخم الرائع الذي قام به يوسف فون هتتر ، الذي ترجم ديوان حافظ كله إلى الألمانية ، مستعيناً بشرح سودي كما ذكرنا . وعلى الرغم من أن هذه الترجمة ضئيلة الحظ من الرشاقة ، نظراً إلى محاولة المترجم أن يقلد الصنعة اللفظية الموجودة بالأصل ، فإنه كان لها أخطر الأثر في نشر تأثير حافظ في أوروبا عامة ، وألمانيا خاصة . كيف لا ، وهي التي بواسطتها عرف جيته حافظاً ، وبواسطة جيته انتشر ذكر حافظ وتأثيره في سائر أوروبا . ومن ذلك الحين والعناية بحافظ عند الألمان لا تعدلها عنايتهم بأي شاعر

(١) نشر هذا الديوان نشرة فدية يـُـول هورن Paul Horn سنة ١٩٠٤ بناء على طلب اقتصير فلهم الثاني إمبراطور ألمانيا السابق ، كهدية إلى السلطان عبد الحميد . وقد كان السلطان سليم الأول ، فاتح مصر وسوريا ، شاعراً ممتازاً ؛ راجع مقالا ليول هورن هذا بعنوان : « الشاعر السلطان سليم الأول » ، في مجلة الجمعية الشرقية الألمانية ZDMG ، ج ٦٠ (سنة ١٩٠٦) ص ٩٧ - ص ١١١ .

(٢) كارل امرش جراف ريفتسكي : « باقة من الشعر الفارسي الممّاز ، أو غزليات محمد شمس الدين المعروف بحافظ ، وهي ست عشرة قصيدة من مسهل ديوانه ، مترجمة إلى اللاتينية لأول مرة مع شروح وتعليقات ، فيينا سنة ١٧٧١ .

Karl Emerich Graf Revitzky : Specimen poeseos Persicae sive Muhammedis Schems - eddini notioris agnomine Haphyzi Ghazalae; sive Odae sexdecim ex initio Divani depromptae; nunc primum latinitate donatae, cum metaphrasi ligata et soluta; paraphrasitem ac notis. Vindobonae, 1771.

شرقي آخر . فقد جاء فريدريش ريكيرت *Fridrich Rückert* وهو في الثلاثين والكونت أوجست پلاتن *August Platen* وهو في الثانية والعشرين فوجها إلى الشعر الفارسي عامة ، وحافظ خاصة أكبر اهتمام . فدرسنا من أجله الفارسية وتعمقا ، خصوصا ريكيرت ، آدابها . ولكن كليهما كان كجيته شاعراً ممتازاً خالقاً : لذا لم ينتجا آثاراً فيلولوجية كآثار فون همر : من ترجمة أو نشر . بل أقبلنا على حافظ بتأثرانه في شعرهما ، كما تأثره جيته من قبل ، فنسجنا على غرار « الديوان الشرقي » . أما ريكيرت فقد أخرج في هذا الباب وفي أدب الشرق عموماً : « أطوار أبي زيد السروجي أو مقامات الحريري »^(١) ، وقد تأثر فيها « مقامات » الحريري ، ثم استخلص من الشاهنامة قصة « رسم وسهراب » ، فضلاً عن اشتغاله بالآداب الهندية مما يظهر من كتبه : « نال ودامايانتي » المأخوذة من الملحمة الهندية الكبرى « مهابهرته » ؛ ثم « حكمة البرهمي » . وكلها ظهرت فيما بين سنة ١٨٣٦ - ١٨٣٩ في ستة مجلدات ، تتضمن عشرين كتاباً . وفي ترجمته للشعر الشرقي ، وبخاصة الفارسي ، قد حاول أن ينسج على منوال نظمه في اللغة الأصلية ، ملتزماً في القوافي والفقر والأوزان ما وجدته في الأصل . أما عنايته بحافظ فقد بدت في أطوار متعددة من حياته المليئة ، خصوصاً في إبان وحدته ، فأخرج ترجمات خرة أو بالأحرى تقليدات لغزليات حافظ ، وفقاً للوزن والقافية وطريقة توالي الفقر التي توجد في ديوان حافظ . ولكن هذه المحاكيات لم تظفر بنجاح ملحوظ إبان حياته ، إنما انصرف الألمان إلى شعره الخاص ، فنشرت بعد وفاته^(٢) .

Verwandlung des Abu Said von Serug, oder die Makamen des (١)

Harire; Weisheit des Brahmanen; Nal u. Damajanti; Rostem und Suhrab.

(٢) نشرها پول دلاجارد . أما محاكيات غزليات ورباعيات حافظ فقد نشرها للمرة

الأولى *Symmicta* ج ١ ، سنة ١٨٧٧ ، ص ١٧٨ - ص ١٩٨ . وقد نشرت أيضاً

في « مخلفات ريكيرت » ، التي نشرها ليوبولد هرشبرج *Leopold Hirschberg* ؛ كما أن

هرمن كراينبورج *Herm. Kreyenborg* قد نشرها نشرة جديدة جيدة (الغزل وحده)

بمنوان : « غزليات حافظ » *Ohaselen des Hafiz* منشئ ، بلا تاريخ (سنة ١٩٢٦) ..

أما پلاتن فقد أخرج هو الآخر غزليات^(١) حاكى فيها حافظاً . وهو هنا إنما تأثر خصوصاً بريكرت ؛ وفيها تشيع روح يائسة كثيرة الأشجان والأحزان .

غير أن تأثير حافظ في الشعر الغربي تضاعف بعد هذا شيئاً فشيئاً ؛ حظه في هذا حظ تأثر الشعر الغربي بالشعر الشرقي عامة . فانتقل حافظ من ميدان التأثير المباشر في الشعراء إلى ميدان الدراسات التاريخية والفيلولوجية . ومن أهم ما ظهر من هذه الدراسات في أواخر القرن الماضي ، وأوائل هذا القرن ، رسالة راسموسن^(٢) ، وهي رسالة قيمة ، ولكنها لم تؤثر تأثيراً يذكر ، لأنها كتبت باللغة الدنمركية . ثم جاء أخيراً هانز هينرش شيلدر فألقى محاضرة^(٣) عميقة بعنوان : « النظرة في الحياة ، والصورة الغنائية عند حافظ » ، فيها عرض في شيء من التفصيل لحياة حافظ ، ثم لتاريخ تأثيره في المغرب ، ثم تناول بالتحليل طريقة الصياغة الشعرية عنده ، محاولاً دائماً أن يقارن بين جيته وبين حافظ ، فجاءت من أعظم ما كتب عن الصلة بين الاثنين .

(١) « غزليات » *Ohaselen* ، في أربع سلاسل ، سنة ١٨٢١ — سنة ١٨٢٤ ؛ ثم « مرآة حافظ » *Spiegel des Hafis* سنة ١٨٢٢ . وله كتاب عن الدولة العباسية بعنوان : العباسيون *Die Abbassiden* سنة ١٨٣٥ . وقد نشر مجموع مؤلفاته سنة ١٨٣٩ . أما هو فقد ولد في سنة ١٧٩٦ ؛ وتوفي سنة ١٨٣٥ .

(٢) هارالد راسموسن : « دراسات عن حافظ مع مقارنته بسائر الشعراء الفرسيين » ، *Harald Rasmussen : Studier over Hafiz med Sideblik til andre persiske Lyrikere*, Kopenhagen, 1892.

(٣) ألقى في هذه المحاضرة في « جمعية علم الجمال وعلم الفن العام » في برلين في ١٣ ديسمبر سنة ١٩٣٢ ، ونشرنا من بعد في كتابه « تجربة جيته الروحية في الشرق » *Goethes Erlebnis des Ostens* . أليبتسج ، سنة ١٩٣٨ ، ص ١٠٥ إلى ص ١٢٢ ، مع الاستعانة برسالة الدكتوراه التي قدمها في جامعة برسلو بعنوان « دراسات عن حافظ » *Hafisstudien* سنة ١٩٢٢ .

وقد اعتمدنا في هذا الفصل على هذه المحاضرة كثيراً .

أما عن فهم الغرب لحافظ ، فقد ترجح بين نزعتي : نزعة ترى إلى تفسير حافظ كما يبدو من أقواله ، وأخرى لا تريد أن تأخذ بظاهر اللفظ ، بل تقول إن له معنى صوفياً باطناً فتفسر حافظاً هذا التفسير الصوفي الرمزي الذي نجده خصوصاً عند شراح حافظ من الشرقيين ، وعلى رأسهم شمعى مسرورى ، والنزعة الثانية يمثلها فون همر وأغلبية المؤرخين الفيلولوجيين الذين عنوا بحافظ . وبينما يمثل النزعة الأولى جيته بوجه خاص ، وفي إثره سار الشعراء الذين تأثروا وتأثروا حافظاً ، كريكرت وبلاتن .

فنحن هنا إذن ، فيما يتصل بحافظ ، بإزاء نفس الموقف الذى وقفه الناس من رباعيات الخيام ؛ وإن كان الأمر أعسر بالنسبة إلى حافظ ، والمسألة كلها تتوقف فى نهاية الأمر على الذات المفسرة ، وما تريد أن تفهمه من الذات الأخرى .

أما جيته فقد أعجبه فى حافظ ، كما فهمه : إقباله على السرور ، وعلى التمتع بكل ما تأتى به اللحظة الحاضرة واللحظة الماضية فى اللحظة الحاضرة ؛ كما استهواه فيه سخريته من الزاهدين العازفين عن الحياة ، فقال : إن شعره يفيض منه حيوية متدفقة فى غير إسراف ؛ سعيد حكيم ؛ يأخذ بحظه من مستمتع الحياة ؛ ويتخذ من بعيد إلى طوايا الألوهية ؛ ولكنه ينكر اللذة الحسية ، وممارسة الشعائر الدينية . وبالحملة يكشف عن أثير شك ، ومحمياً قلقه . وإلى هذه الصفة الأخيرة من الأثير الشاك والحميا القلقة فى نفس حافظ يعزو جيته ما يشاهد فى شعر حافظ من تناقض . فعلى رأى جيته إذن ، يكون علينا أن تأخذ بما يقتضيه صريح كلام حافظ ، وألا نلجأ إلى التأويلات الخيالية التى تحيل الظاهر إلى باطن ، وكل صريح إلى رمز . وإن كان هذا لا يمنع من تعمق المعانى التى يوردها ، وعدم أخذ النص بحروفه ؛ فتلك مسألة أخرى لا تتنافى وهذا الفهم وفقاً للظاهر .

وعلى العكس من ذلك يميل أكثر الشراح الشرقيين من فرس وأتراك ، ثم نفر من المتحمسين لحافظ في الغرب تحمساً أعمى ، إلى رفض تفسير جيته هذا ، قائلين إن النعيم الذى يتحدث عنه حافظ هنا ليس النعيم الأرضى ، بل النعيم الخالد فى الفردوس ؛ والعشق الذى يشيد به هو العشق الإلهى المألوف عند كبار الصوفية . وتبعاً لهذا يؤولون ظاهر النص تأويلاً كبيراً لكنى يتفق مع هذه النظرة : فالحب هو الحب الإلهى ؛ والحمد هو المعرفة بالأسرار الربانية ؛ والساقى هو الشيخ الهادى مريده فى معارج الطالبين ، إلى آخر كل هذه التأويلات التى ثار عليها جيته كل هذه الثورة فقال : « لقله لقبوك ، أى حافظ الأقدس ! ، باللسان الصوفى ، ولكنهم ، وهم العلماء بالكلام ، لم يفهموا قيمة كلماتك . إنك تسمى عندهم الصوفى ، لأنهم يفكرون فى شعرك تفكيراً أحق ، ويقدمون خمرهم المذتسة باسمك أنت . حقاً إنك لصوفى ، ولكن لسبب واحد : هو أنهم لا يستطيعون فهمك ؛ أنت ، يا من أنت سعيد ، من غير أن تكون تقياً » .

ولم يكن جيته أول من ثار على هذا التأويل البعيد ؛ بل ثار عليه من قبل فى الشرق سودى الذى أخذ على شرحى شمعى وسرورى أنهما مليئان بالتأويلات الوهمية والتفسيرات الرمزية الخيالية ؛ وسخر منهما مرة السخرية من مبيئاً أن حافظاً يجب أن يفهم كما هو فى صريح لفظه ، كما أن مسألة تفسير حافظ لم تكن من البساطة بحيث يمكن أن يقال إن الشرقيين قد أجمعوا أو كادوا على تفسير حافظ هذا التفسير الرمضى . بل كانت أشد تعقداً ؛ وكان الخلاف على أشده بين المؤيدين للتفسير بحسب الظاهر ، والقائلين بالتفسير الباطن إبان حياة حافظ نفسه ، حتى أخذ عايه شاه شجاع ، شاه شيراز وما حوله ، أنه يخلط فى شعره بين الحب الصوفى والحب الإلهى . ثم بلغ الخلاف أوجه فى العهد التركى ، حيث لقي شعر حافظ إقبالاً جافلاً فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين ، حتى ارتفعت أصوات

الكثيرين متساءلين عن التفسير الواجب أن يؤخذ به في فهم شعر حافظ ؛ واتخذ هذا التساؤل صفة رسمية بأن رُفِع الأمر إلى مفتي الإسلام في ذلك الحين ، أبو السعود أفندي (المتوفى سنة ٩٨٢ هـ - سنة ١٥٧٤ م) الذي كان يتولى منصب الإفتاء في عهد سليمان العظيم وسليم الثاني . فأفتى أبو السعود بأن في الديوان إلى جانب ما هو خير ومقبول ، الكثير مما هو قابل للطعن والتجريح ؛ وعلى كل^١ أن يميز بين الطيب والخبيث في ديوانه^(١) وإلى هذه الفتوى يشير جيته في القصيدة الثالثة من « كتاب حافظ » هذا ، وعنوانها : « فُتُو » . وقد عرف جيته أمرها مما أورده هــمـر (ترجمة ديوان حافظ ، ج ١ ، ص ١٤) . وقد كانت فتوى معتدلة في الحكم ، جمعت بين كلتا النزعتين ؛ لهذا أشاد جيته بصاحبها ، فقال في القصيدة التالية ، بعنوان : « الألمانى يشكر » ، والألمانى هنا هو جيته الذى يريد في هذه القصيدة أن يشكر لمولانا أبى السعود عدالته في فتواه : « أبا السعود ، أيها الولي الطاهر ، لقد أصبت شاكلة الصواب ! إن الشاعر في لطفة إلى أمثال هؤلاء الأولياء ! » .

والمشكلة التي أمامنا الآن من أخطر المشاكل التي لا يزال الجدل يحتدم حولها ، لا بالنسبة إلى شعر حافظ وحده ، بل وأيضا بالنسبة إلى أمثاله من شعراء الفرس ، وبخاصة السعدى والخيام ، ثم بقية الشعراء الصوفية في أدبنا العربى خصوصاً ، والأدب العالمى بوجه عام . أما فيما يتصل بحافظ ، فيكاد الميل العام بين الباحثين اليوم من المستشرقين أن ينتهى إلى اعتبار حافظ جامعاً بين الناحيتين : الحسية الدنيوية ، والصوفية الربانية . فيدوارد براون ، مؤرخ الأدب الفارسى المشهور ، يقول في هذا الصدد : « أما أن كثيراً من قصائد (حافظ) يجب أن تفهم بمعنى رمزى صوفى ، فقليل من الناس

(١) النص التركى لهذه الفتوى موجود في معجم حاچى خلفا ، نشرة فليجل ، ص ٣٠٠
٢٧٢ ، تحت رقم ٥٣٧١ . ولكنه مليء بالأخطاء . وسنوردها بعد قليل في شرحنا للقصيدة .

هم الذين لهذا ينكرون ؛ وأما أن أخرى منها تغنى ما تقول ، وأنها تمجد
 جمالا غير الجمال السماوى ، وتتغنى بخمر غير الخمر الرمزية ، فهذا أيضا
 مما لا يدع مجالا ظاهراً للشك ؛ وأما أنه ، على هذا النحو — وكما أخذ عليه
 شاه شجاع — قد اختلط فيها الحسى بالروحى ، فهذا أمر لا يدهش أحد
 ممن يعرف عادات الفرس ونفسياتهم ونظراتهم فى الوجود : ففى وسع المرء أن
 يشاهد فى يوم واحد رجالاً منهم يترأفون ، طيلة ذلك اليوم الواحد ، بين أن
 يكونوا مسلمين أتقياء ، وأحراراً غير مباليين ، وشكاكاً مقتنعين ، وقائلين
 بوحدة الوجود متصوفين ، أو حلوليين ظاهرين . . . وقارئ حافظ ،
 الذى لا يستطيع التمييز بين ما يجب أن يفهم من شعره بحروفه وظاهر نفسه ،
 وبين ما يجب أن يؤول رمزياً ، يكاد لا يستفيد كثير من شارح يؤكده
 فى غير حرج ويكرر باستمرار أن الخمر معناها الوجد الروحانى ، والساق
 هو اتخافاه^(١) . كما يقول هذا رأى أيضاً هانز هيزش شيدر فى محاضراته
 العميقة التى ذكرناها آنفاً . فبدأ بأن يبين الوضع التاريخى للمشكلة ، فيقول
 إن الشعر الغنائى الديوى الفارسى قد تكون ونضج فى القرن العاشر الميلادى .
 وفى القرن التالى ، انضاف إلى صورته التى تكونت ورسخت ، صور من
 الشعر الشعبى الصوفى ، وخاصيته الرئيسية أن ينقل لغة الحب الديوى
 الحسى ، إلى الحب الإلهى الصوفى . وهذا التيار الثانى قد بلغ أوجه فى
 القرنين الثانى عشر والثالث عشر فكون الصورة العليا للشعر الصوفى على
 يد فريد الدين العطار فى الشرق ، أى فى بلاد العجم الأصلية ، وجلال
 الدين الرومى فى الغرب ، فى مدينة قونية فى بلاد الترك . ومن أكبر الشعراء
 أثراً فى هذا التيار محيى الدين بن العربى ، الذى أتى بالصورة النهائية فى

(١) ادوارد ج . براون : تاريخ الأدب الفارسى تحت حكم التتار ، ص ٢٢٩ ،
 سنة ١٩٢٠ *Edward G. Browne, A. History of Persian Literature under Tartar Dominion* .
 وفى هذا الكتاب فصل قيم ، يعد خير ما كتب عن حافظ (من ص ٢٧١ - ص ٣١٩) ؛ وقد اعتمد فيه خصوصاً على كتاب « شعر العجم » لـ « شمس الدين » ،
 بلخستانية ، طبع حبر سنة ١٩٠٧ ، فى جزئين ، ج ٢ ص ٣١٢ - ص ٢٩٧ .

الحضارة الإسلامية المذهب غنوصي يقول بوحدة الوجود : أما التيار الأول فقد أخذ سبيله قديماً هو الآخر معتمداً على الصناعة الفنية ، مغالياً في التأنيق في الشكل والصورة ، وبلغ درجة عليا قبل حافظ على يد شرف الدين السعدي .

وهنا أتى حافظ فجمع في نفسه بين هذين التيارين ، مما جعل شعره يتسم بها معاً ، على الرغم مما أدى إليه هذا من خلط أخذه عليه معاصروه . ولكنه جمع بينهما في حرية فنية لا حد لها ؛ فتلاعب بالصورة ما وسعه التلاعب ، مخفياً بهذا كثيراً من مقاصده الدنيوية الحقيقية ؛ وترك الناس في حيرة من أمر شعره : هل يفسر كله تفسيراً صوفياً ، أو يفسر كله تفسيراً حسيّاً دنيوياً ؟ أو هل يفسر البعض على النحو الأول ، والآخر على النحو الثاني ؟ وإذا كان هذا هو الوضع الصحيح ، فبأي مقياس نميز في القصائد بين هذا النحو أو ذاك ؟

وجيته قد رجّح الجانب الحسي : ولكنه أخذ حافظاً على أنه جمع بين الناحيتين ، وكان مزيجاً من الصوفية العميقة المرئنة في سماء الألوهية والربوبية ، وبين الحسية النافذة في أعماق الطبيعة الإنسية الأرضية . وهذا فعلاً ما استهواه في شعر حافظ . وهو أيضاً ما فهمه فريدلرش ريكرت ، فعبر عنه أروع تعبير في قصيدته التي يقول فيها : « إن حافظاً ، حين يبدو أنه لا يتحدث إلا عما هو غير حسي ، إنما يتحدث عما هو حسي ؛ وحينما يبدو أنه يتحدث عما هو حسي ، لا يتحدث إلا عما هو غير حسي إن سره ليس بغير حسي ، لأن حسيه غير حسي » (١) .

(١) فريدلرش ريكرت : « يوميات شعرية » (لسنة ١٨٦٣) ، ص ٤٦٣ . وفي هذه القصيدة يقلد ريكرت ، كما في كل أشعاره المستلهمة من الشعر الشرقي الفارسي ، القوافي كما يلتزمها الشعر الفارسي بأن يكرر القافية في آخر كل بيت كما هي ، محاولاً أن ينوع قليلاً ، وبحسب ما تسمح به اللغة ، بين معانٍ مختلفة شيئاً لهذه الكلمة الواحدة المكونة للقافية . ولهذا فإننا في ترجمتها قد كررنا الكلمة الأخيرة في آخر كل بيت ، كما هو محققان بصورة واحدة كما في الأصل .

ذلك رأى شيدر . وأخيراً جاء أرتور كرسستنسن ، العالم بالإيرانيات
الدمركي المشهور ، فوضع المسألة وضعاً مخالفاً لبعض الشيء لرأى براون
وشيدر ، فقال : « إن ديوان حافظ ينتسب إلى روائع الأدب العالمي ،
فالصوفية قد نظروا إلى حافظ — الذي لقبوه بأنه « لسان الغيب » — على
أنه هاديهم وقائدهم الأكبر ؛ وعلى العكس من ذلك كان شعر حافظ في مجالي
اللهو يتغنى به على صوت النار ونغمت الناي العراقي الحزينة وهو ينتسب
إلى هؤلاء الشعراء الذين يمكن أن يفهموا بحسب الظاهر وحسب الباطن معاً ،
والذين فهموا كذلك في الواقع أيضاً . فإنه قد تغنى بكل ما تغنى به الصوفية
ولكن هذه الأشياء المعروفة ، مثل الحانة وغبرها ، قد أصبحت ثروة
شعرية تقليدية : الحانة للدلالة على بيت التأمل والمجاهدة ؛ والجوسي القديم
هو رمز الرائد الروحي ، والساق الذي يدعوه — الذي لم يكن في مجالس
الشراب الحقيقية امرأة ، بل فتى جميلاً — هو خرقه الصوفي ، التي ترهن
للخمر . . أما مسألة كيف يجب أن يفهم حافظ ، فهي مسألة تعتبر مشكلة
حقاً بالنسبة إلى مورخى الأدب الغربيين وحدهم . أما بالنسبة إلى الشرقيين ،
فهى في منتهى البساطة والوضوح ، لأنه من الطبيعى جداً عندهم أن يكون
الشاعر قد « غنى » هذا وذاك : أى أنه جمع بين الشهوانية الأرضية والعشق
الإلهي في مزيج كان له ينبوع إلهام ، وأن النشوة من شأنها أن تكون قوة
موحية ، سواء منها النشوة الناشئة عن الخمر أو تلك الصادرة عن الوجد
والذُّكر^(١) . فكأن كرسستنسن يحاول أن يحل المشكلة إذن على أساس أنه
بالنسبة إلى الشرقيين ، لا فارق بين أن يكون الشاعر قد قصد كلا التفسيرين ؛
ولأنما هي مشكلة فقط بالنسبة إلى الغربيين الذين يريدون أن يفهموا كيف
يمكن الجمع بين الناحيتين : فالجمع في نظرهم عسير ، وبالتالي أمره مُشكَل ،

(١) أرتور كرسستنسن : « مباحث إجمالية في الحضارة الإيرانية ص ٨٨ ، كوبنهاجن
سنة ١٩٣٧ . Arthur Christensen: *Kulturskitser fra Iran* . وقد أوردنا ترجمتنا نقلاً
عن ترجمة شيدر الألمانية في كتاب « تجربة جيته الروحية للشرق » المذكور آنفاً ، ص ١٧٧ .

أما في نظر الشرقيين ، فطبيعي ، لذا لم يكن أمره مشكلة لديهم . ويلاحظ شيدر في تعليقه على هذا الرأي أن الإيرانيين المثقفين يعملون اليوم إلى هذا التفسير الصوفي ، ويعزو هذا إلى انتشار الروح الدينية في تلك الأوساط في العشرين سنة الأخيرة .

فكان آراء الباحثين تميل في السنوات الأخيرة إذن إلى الرجوع إلى رأى جيته شيئاً فشيئاً . والحق أن هذا الرأي هو الأولي بأن يتخذ ، وذلك لعدة أسباب : حضارية ، وذاتية .

فن الناحية الحضارية كان حافظ في الواقع نقطة التقاء للتيارين اللذين أشار إليهما شيدر : التيار الصوفي الرمزي الذي يمثله العطار والجلال الرومي ، والتيار الإنزى الصريح الذي يمثله السعدي فجمع بينهما في نفسه وكون تجربة روحية طريفة تشبه إلى حد ما تجربة الخيام . إلا أن الخيام كان أقل منه عمقاً ، وأكثر منه إيغالا في الشك والحسية ، لذا جاء شعره أظهر في الدلالة على الناحية الحسية من شعر لحافظ ، فلم يختلف في أمره الناس كثيراً ، وما أثر في هذا الصدد من أقوال تحاول أن تأخذ جانب التفسير الصوفي عند الخيام ، فرجعه غالباً إلى نزوات عابرة عند باحثين متحذلقين يبتغون الابتداع والتجديد الزائف ، أو إلى عاطفة دينية عياء متحمسة للخيام ، تريد الدفاع عنه بأية وسيلة . أما شعر حافظ فصادر عن نفس لم تعذبها الحيرة إلا قليلاً ، ولم تحفل ، بالتالي ، كثيراً بتبرئة نفسها ، لهذا جاء شعره صريحاً : سواء في تصوفه أو في شهوانيته الحسية . وطبيعته مزيج من الناحيتين : الصوفية والحسية . يمتدح في كليهما ، وهذا العشق في الناحيتين معاً هو الذي يجعل أمر تفسيره شائناً مشكلاً ، بعكس الخيام الذي كانت الناحية الصوفية عنده ، إن كانت قد وجدت حقاً ، فقيرة أو كالمعلومة . بينما طغت الناحية الأخرى ، ولكن في أناقة ودقة روحية لا حد لها ، مما ارتفع بالناحية الشهوانية الحسية إلى مرتبة ممتازة تقرب بعض القرب من الناحية

الروحانية ، لا كما فعل بودلير وأضرابه ممن ظلوا عالقين كثيراً بالمادة والطين ، أجل في شيء من العمق الكثير الذى لم يتيسر للخيام ، ولكنه مع ذلك عمق ، أى نفوذ إلى أسفل ، وليس ارتفاعاً إلى الناحية الروحانية الصوفية ، وإذا اعتبرنا بودلير يمثل نوعاً من الصوفية ، هى الصوفية إلى أسفل ، فإن حافظاً الشيرازى يمثل صوفية إلى أعلى ؛ والخيام فى مركز وسط بين كليهما . وكل هذا فى داخل الصوفية الحسية ، إن صح هذا الجمع بين المتناقضات . وهذا العلو فى مرتبة التصوف الحسى هو الذى يقرب كثيراً ، إلى درجة المزج ، بين الحسية والروحانية فى شعر حافظ : فهو فى الذروة العليا من الحسية التى تكون أيضاً الدرجة الدنيا للروحانية ؛ أو بعبارة أدق : هو فى القمة التى تلتقى عندها أرقى حسيّة مع أعمق روحية ، فى وحدة مليئة بالتوتر والتناقض الخصب .

وهذه الدرجة هى بعينها التى نشاهدها عند جيته ، والتى تبيينها هو فى حافظ ، ف شعر بأنهما ينتسبان إلى نوع واحد ، وإن اختلفا كفردين يندرجان تحت هذا النوع الواحد . وهذا الاختلاف يكاد ينحصر فى أن جيته كان متأثراً إلى حد كبير بنزعة التنوير التى وجدت فى أواخر القرن الثامن عشر ، بينما لم يتأثر إلا بدرجة أقل بالنزعة الصوفية التى بدأت فى الظهور فى ألمانيا فى ذلك الحين على يد الرومنتيك وروادهم من الفلاسفة مثل ياكوبى وهامان وشلنجر . أما حافظ فلم يظفر بحظ يذكر - فيما نعلم عن ثقافته - من الناحية العقلية الفلسفية ، لذا كان اتجاهه الصوفى بارزاً أكثر من جيته . هذا فضلاً عن سعة الأفق جداً فى هذا الأخير ، وضيقه شيئاً فى شعر حافظ . كما أن الروح الشرقية - بميلها إلى الخوارق والتهويل والإخلاق إلى عدم الفعل وسيادة النزعة السلبية فيها ، وإغراقها فى الأحلام الذهنية البعيدة عن الواقع كل البعد - هى التى تفسر لنا خصوصاً الفارق الرئيسى بين جيته وبين حافظ : فجيته غربى أوربى ، وهو بالتالى تسوده إرادة هائلة .

نزاعة إلى اللامتناهي ، تنشد المعقول والعالية في كل ما يرى حولها وما تراه أمامها ؛ وهذه الإرادة تدفعها أبداً إلى الفعل ؛ لذا تجعل الفعل والتحصيل الإيجاب المحرك الأول لحياة الإنسان ، بينما الروح الشرقية تجعل جانب الفعل والإيجاب عند حافظ ضئيلاً كل الضالة .

وهذا الفارق بين طبيعتي جيته وحافظ الشيرازي هو الذي جعل تفسير جيته لشعر حافظ يحمل طابع التوكيد والإيجاب والإشادة بنعم الحياة المليئة الحسية ؛ فإن كان حافظ لم يقصد إلى هذا بخلافه ، فإن روح شعره العامة تعبر عنه . وتفسير جيته إذن هو التفسير الأعرق الأخاقى بالاعتبار في فهمنا لحافظ . فضلاً عما فيه من قوة دافعة هائلة هي ما يجب أن ننشده في كل شعر جدير باسم الشعر حقاً .

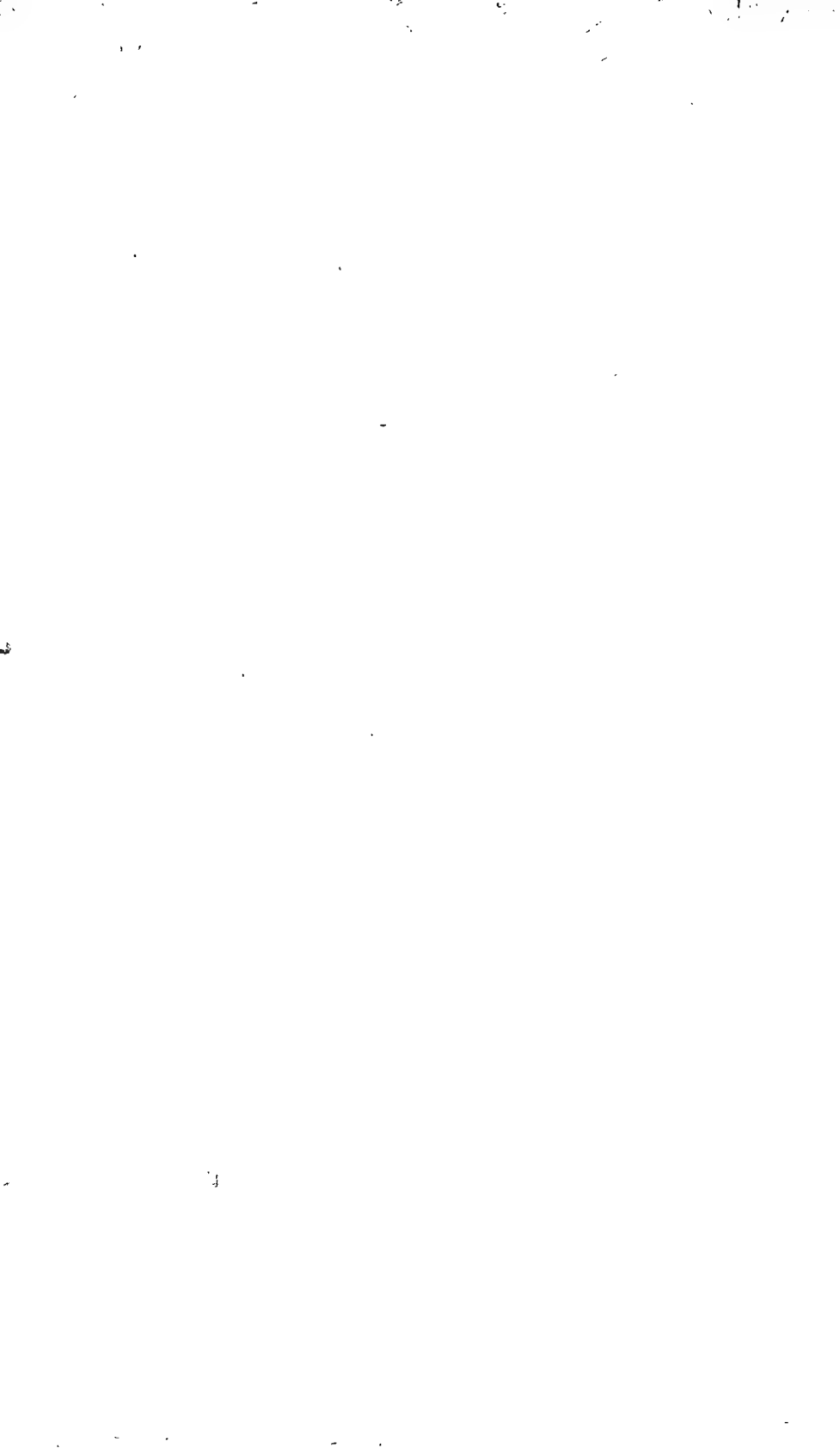
عبد الرحمن بدوي

صيف سنة ١٩٦٦



الديوان الشرقي للمؤلف الغربي

ليوهان قلفجانج جيته



مغنى نامه

كتاب المغنى

أَمْضَيْتَ مِنْ عُمرى مَدَى ،
مَتَّعَ فِيهِ بِمَا تَيْسَّرُ ؟
عَهْدَ جَمِيلٍ قَدْ حَكَى
عَهْدَ الْبِرَامِكَةِ الْمُنْصَرِّ

- ١ -

هجرة

الشمال والغرب والجنوب تتحطم وتتناثر ،
والعروش تُشَلّ والممالك تنزعزع وتضطرب ،
فلتهاجرْ إِذْنُ إِلَى الشَّرْقِ الطَّاهِرِ الصَّافِى
كَيْ تَسْتَرْوِحَ جَوَّ الْهُدَاةِ وَالْمُرْسَلِينَ ؛
هَنَّاكَ ، حَيْثُ الْحَبِّ وَالشُّرْبِ وَالْغِنَاءِ
سَيَعِيدُكَ يَنْبُوعُ الْخِيَضَرِ شَاباً مِنْ جَدِيدِ .
إِلَى هَنَّاكَ حَيْثُ الطَّهَرِ وَالْحَقِّ وَالصَّفَاءِ ،
أُودَ أَنْ أَقُودَ الْأَجْنَاسَ الْبَشَرِيَّةَ ،
حَتَّى أَنْفِذَ بِهَا إِلَى أَعْمَاقِ الْمَاضِى السَّحِيقِ
حِينَ كَانَتْ تَتَلَقَّى مِنْ لَدُنْ الرَّبِّ
وَحَى السَّمَاءِ بِلُغَةِ الْأَرْضِ ،
دُونَ تَحْطِمْ الرَّأْسِ بِالتَّفَكُّيرِ ،

هنالك ، حيث كان الآباء يُقَدِّسون ،
وعما يتقدم به الغريب من خدعة يمتنعون ؛
أجل ، هنالك أودّ التملّى بحدود الشباب :
فيكون إيماني واسماً عريضاً وفكري ضيقاً محدوداً
وأود أن أتعلم كيف تقدّس الكلمات ،
لا لشيء إلا لأنها كلمات فاهت بها الشفاه .

وفي يميني أن أدخل في زمرة الرعاة ،
وأن أجدد نشاطي في ظلال الواحات
حين أرتحل في رفقة القافلة
متجراً في الشيلان والبن والميسك
وفي عزمي أن أسلك كل سبيل :
من البادية إلى الحضر ، ومن الحضر إلى البادية
أي حافظ ! إن أغانيك لتبعث الساوي
إبان المسير في الشّعاب الصاعدة الهابطة
حين يُغنّي حادى القوم ساحر الغناء ،
وهو على ظهر دابته
فيوقظ بغنائه النجوم في أعلى السماء
ويوقع به الرعب في نفوس الأشقياء
وإنه ليحلولى ؛ أي حافلي الأقدس ، أن أحيي ذكراك
عند ينبوع الصافي ، وفي حانات الصهباء .
وحين تكشف المحبوبة عن نقابها قليلاً
فيفغو منه مهتراً ، عبر المسك والعنبر .

أجل ! إن ما يهمس به الشاعر من حديث الحب ،
 ليحمل الحور أنفسهن على أن يعشقن .
 فإن شئتم إلا أن تحسدوا على الشاعر هذا الحظ
 أو أن تحرموه منه وتعكرون صفوه عليه ،
 فاعلموا إذن أن كلمات الشاعر وقوافيه
 تخلق دائماً ، دائماً ، وهي دائماً في تخليق ،
 قارعة أبواب الفردوس بهمس وهدوء
 ناشدة لنفسها حياة خالدة .

كتاب المغنى : هذا الكتاب يكون مع « كتاب حافظ » التالى كتاباً
 واحداً ؛ كما هى الحال كذلك بالنسبة إلى « كتاب العشق » مع « كتاب
 زليخا » . وفى هذا الاسم محاكاة لأحد كتب حافظ الغزلية الذى يتلوه
 « كتاب الساقى » . ولكن « المغنى » عند حافظ هو شخص يخاطبه مثل
 الساقى ؛ أما عند جيته فهو الشاعر نفسه الذى جعل مصيره وآماله وأغراضه
 موضوعاً لفاتحة هذا الديوان . وقد سمي جيته هذا الكتاب فى « تعليقاته »
 على الديوان أيضاً باسم « كتاب الشاعر » .

وجيته قد كتب تفسيراً لهذا الكتاب قال فيه : « إن الشاعر هنا يصور
 نفسه على هيئة رحالة . وها هو ذا قد بلغ الشرق . وهو يريد أن يتملى
 بعوائد الشرق وأحواله ، وما به من موضوعات خاصة ، وما شاعت فيه
 من أفكار دينية وآراء ؛ إنه لا ينكر اتهامه بأنه مسلم حقاً . ففى هذه
 الأحوال العامة نسج الشاعر موضوع قصائده ؛ والقصائد التى من هذا
 النوع تكون الكتاب الأول بعنوان « مغنى نامه » ، كتاب الشاعر »
 (مجلة الصباح للطبقات المثقفة « Morgenblatt » سنة ١٨١٦ ، رقم ٤٧ ،

ص ١٨٩ - مجموع مؤلفاته ، نشرة فهار ، ج ٤١ ، ق ١ ص ٨٦) .

الشعار : راجع فيما يتعلق بمعرفة جيته عن البرامكة ما يقوله في « التعليقات » (على الديوان) حيث يقول : « لهذا فإن أزهى العصور هو العصر الذى كان للبرامكة فيه النفوذ فى بغداد . وهم قد انحدروا من بلخ ؛ وكانوا حماة للمنشآت الثقافية أولى من أن يكونوا علماء ، فعنوا كثيراً بصيانة نار الشعر والبيان المقدسة ، كما استطاعوا أيضاً بما لهم من حنكة وخبرة بالحياة وجلال فى الخلق أن يحظوا بمرتبة سامية فى ميدان السياسة . لذا أصبح عهد البرامكة مثلاً : للعهد الحى القوى التأثير والطبيعة ؛ والذى لا يستطيع الإنسان ، بعد زواله ، إلا أن يأمل بعد سنوات عدة أن يحظى بعوده من جديد فى أماكن بعيدة وتحت ظروف مماثلة » (راجع الجزء الثانى من هذا الكتاب تحت عنوان « الخلفاء ») .

فكان جيته يقصد إذن من هذا الشعار ، الذى يصلح أن يكون شعاراً للكتاب كله ، أن يقول إنه يود أن يحيا فى الشرق بروحه حياة قوية مليئة بالفعال ، كريمة الجوهر .

الهجرة : راجع ما قلناه بالتفصيل فى التصدير العام تحت عنوان : « هجرة جيته » .

وهذه القصيدة ، وكذلك القصيدة رقم ١٤ (« جراءة ») تحمل تاريخ : فهاره فى ١٨١٤/١٢/٢٤ .

أما الخِضر فأخباره معروفة جيداً فى الروايات الإسلامية المتصلة بأخبار الأنبياء ؛ وأهميته كبيرة لأنه كان صاحب موسى الكليم كما ورد فى سورة « الكهف » من الآية ٥٩ إلى الآية ٨١ . وقد ورد ذكره فى هذه السورة مقروناً بذكر ذى القرنين ، ولهذا تذكر كتب قصص الأنبياء أنه

كان على عهد ذى القرنين ، وأنه كان « على مقدمته أيام مسيره في البلاد ، وأنه بلغ مع ذى القرنين « نهر الحياة » وشرب من مائه ، وهو لا يعلم به ، ولا يعلم ذو القرنين ومن معه تحلته ، فخلد ، وهو في الحياة إلى الآن » (ابن إسحق الثعالبي : « عرائس المجالس » ص ٢٣٢ ، طبع مصر ، التزام الخصوصي) ومن هذا النص يتضح إذن أنه يُنسب إلى الخضر أنه شرب من « نهر الحياة » أو كما يسمى أيضاً (راجع الكتاب السابق ، نفس الصفحة) « عين الحياة » وأن هذه العين تكفل للشاربين منها الخلود والحياة الدائمة . لذا كانت هذه الفكرة ملهمة للصوفية وللشعراء الفرس ، خصوصاً حافظاً الذي جدد شبابه بكأس من ينبوع الخضر هذا (راجع مقدمة فون هـمّر لديوان حافظ ، ج ١ ص كج ، وص ١٥١ ، تعليق رقم ٣)

وجيته يصور نفسه هنا وكأنه قد استعاد شبابه بواسطة شرابه من ماء عين الحياة المنسوبة إلى الخضر هذه . وعملية تجديد الشباب هذه قد تمت بالنسبة إليه أولاً في اغترابه الروحي إلى الشرق « الطاهر الصافي » ؛ وثانياً في زيارته في ذلك الوقت عهد طفولته وشبابه على ضفاف الرين والمالين :

وهنا أيضاً نرى تأثير جيته ؛ إذ أن حافظاً قد تمثل له شيخ وقور معه زجاجة في يده ، وهذا الشيخ هو الخضر ، وحارس عين الحياة ، الذي جاد عليه بالشرب منها ؛ ووعدته الخلود في الشهرة .

وفي قوله « هجرة » (وقد كتبها جيته بنطقها العربي في رسمها الفرنسي) إشارة إلى النبي ، وبالتالي إلى الإسلام ؛ وفي قوله « الآباء » إشارة إلى رجال العهد القديم من الكتاب المقدس وبالتالي إلى اليهودية ؛ وفي إشارته إلى الفردوس إشارة إلى الفردوسي ، الشاعر الفارسي الكبير ، وبالتالي إلى الديانة البارسية . وفي هذا كله أراد جيته التعبير عن تجربته الدينية التي كانت مزيجاً من الديانات كلها في صورها الصافية (راجع المقدمة في الفصل المرسوم بعنوان : « جيته والدين ») .

وفي الفقرة الأولى بيان للاضطرابات العنيفة التي سادت أوروبا فيما بين سنة ١٨١٢ و ١٨١٤ ؛ وفي الثانية والثالثة بيان ما في الشرق القديم الذي سبّح الشاعر إليه من إيمان ساذج وهداة يؤمن بهم أقوامهم .

- ٢ -

واهبان البركة

« الطلسمات » في العقيق ،
 تهب المؤمن النعمى والهناء .
 فإن تكن في عقيق يمان
 فقباها بثغر مبارك ظهور .
 إنها تطرد عنك الشر والشيطان ،
 وتحملك أنت وما تأوى إليه من مكان ،
 حيث يكون ما نقش به من كلام ،
 هو اسم الله الطاهر الكريم .
 وهى تهيب بك أن تعمل وتعشق .
 وإن النسوة على وجه التخصيص
 لتهنئنهن الطلسمات .
 أما « الرثى » فشيعة بها في النقش ،
 ولكنها على الأوراق مسطورة ؛
 لذا لا يشعر لديها المرء بالضيق ،
 كشعوره في النقش على الأحجار الكريمة
 فوسع النفوس التيمية

أن نخط فيها الآيات الطوال ؛
والناس على تلك الصحف جد حراس
حرصهم على بردة الأنبياء
ولكن «النقش» لا يخفى شيئاً من وراء
فالنقش هو النقش ، ولن يقدر أن يقول
غير ما تقوله أنت لنفسك
في سرور برىء : أنا أقوله ، أنا !
أما من «الأبركساس» فليس لدى إلا القليل
لأن جودتها غالباً ما تقاس
بما هو غريب عجيب
مما ابتكره الخاطر المظلم والخيال البهيم
فإذا وجدته أتحدث عن غريب من الأشياء
فاعلم بأنى إنما أقدم لك الأبركساس
والخاتم «المنقوش» ما أشق الرسم عليه ؛
رسم أعلى المعانى فى أضيئ مكان !
وحتى لو تيسر لك هذا ورفقت إليه ،

فإن الكلمة ستظل فيه دفينه تكاد أن لا تفكر فيها

والهبات البركة : لم تكتب هذه القصيدة كلها دفعة واحدة ؛ فالفقرة
١ ، ٢ يرجح أنهما كتبا فى ١ / ١ / ١٨١٥ ؛ والفقرة ٣ ، ٤ فى الفترة
ما بين ٢٨ / ٥ إلى ٣ / ٨ / ١٨١٥ ، ولعل ٣ أكثر تأخرأ عن هذا .

وهذه القصيدة والثلاث التالية تُدخل الشاعر فى الجو الشرقى بطابعه
السحرى المميز : من أساطير وخرافات ومعتقدات خارقة . وقد اعتمد

جيتته في هذه القصيدة على بحث كتبه فون كهرر بعنوان : « حول الطلسمات عند المسلمين » ، في « كنوز الشرق » ج ٤ ص ١٥٥ - ص ١٦٦ (سنة ١٨١٤) . وفيه ذكر أن استعمال هذه الأنواع من السحر والطلسمات قد كان في الهند ، ومنها انتقل إلى فارس ثم إلى العرب . ويقول عن التفرقة بين أنواعها : « إن الفارق اليوم بين الطلسمات والتائم هو في أن التمش في الأولى على الحجر ، وفي الثانية على الورق ؛ وفي أن الأولى يحملها غالباً النساء وحدهم (ومن هنا يقول جيتته في القصيدة : « وإن النسوة على وجه التخصيص لهذهن الطلسمات ») في مناطقهن أو على صدورهن ، بينما التائم يحملها الرجال ، والأغلبية من الجنود يحملونها معلنة على ملابسهم » .

والنقوش المكتوبة على الطلسمات أو التائم : من صلوات أو دعوات وعلامات وأشكال ورسوم ، عديدة الأنواع : ففيها تُرى أسماء الله الحسنى ، أو أسماء كثير من الأشياء الأسطورية ، أو آيات من القرآن ، أو علامات فلكية ، أو حروف أبجدية ذات مدلول خاص ، أو مربعات سحرية ، أو علامات مما نجده في علم الرمل ، أو صور بني الإنسان أو الحيوان . وأسماء الله الحسنى ، إما أن تكتب كما هي بالحروف ، أو بحسب قيمة حروفها العددية . ولله إلى جانب الأسماء التسعة والتسعين اسم غير معروف للناس ، لم يُوح به إلا إلى الأنبياء والأولياء . أما أسماء الملائكة فعديدة وأشهرها في هذه النقوش : ميكائيل وجبرائيل وعزرائيل وإشرافييل . كما نجد أيضاً أسماء أهل الكهف . أما الآيات القرآنية فأشهر ما يرد منها فيها المعوذتان : « قل أعوذ برب الفلق ... » و « قل أعوذ برب الناس ... » . فالأولى يعتقد أنها تحمي خصوصاً من الأمراض الجسمية ؛ والثانية من الأمراض النفسية . وكذلك سورة « يس » و « الفاتحة » ، وآية

« العرش » (التوبة : ١٢٩ : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ... » . راجع مادة « حمائل » في دائرة المعارف الإسلامية) .

ويبدو أن هذا النوع من السحر قد وصل العالم الإسلامى عن مصدرين : هندى فارس من ناحية ، ثم هلتنى متأخر ، وخصوصاً الغنوصى ، من ناحية أخرى .

أما « الأبركساس » فهى « أحجار ذات رسوم منقوشة مختاطة فيها ، تذكرنا بالرسومات المصرية ، وفيها الاسم الملىء بالأسرار : أبركساس ، وهو اسم يلعب دوراً غير واضح المعنى في المذاهب الغنوصية عند بيزليوس » ، (متن جيته Goethe-Handbuch ، نشره ي . تسيتلر J. Zeitler فى اشتوتجرت سنة ١٩١٦ — سنة ١٩١٨ ، ج ٣ ، ص ٣٩٠) . فالأبركساس إذن نوع من الأحجار نقشت عليه صور غنوصية ؛ وغالباً ما تكون حروفاً أبجدية يونانية ، تكون ، بحسب قيمتها العددية ، العدد ٣٦٥ ، أى عدد أيام العام .

وقد كان العقيبى اليمانى علامة التفاهم بين رستم وابنه مُهراب فى « الشاهنامه » للفردوسى .

وجيته يقصد كذلك إلى أن يكون امقصاده من التأثير ما لواهبات البركة . هذه ، كما يظهر من قوله : « وهى تهيب بك أن تعمل وتعشق » ؛ كما يظهر أيضاً مما كتبه إلى س . بواسريه S. Boisseree فى ٥ مارس سنة ١٨١٦ ، فقال إن الأوراق الحاوية لبعض قصائده (قصيدة : « جرانيت ، مصور ، معترف به » . مجموع مؤلفاته ، ج ٤ ، ص ١٣٠) تحتوى على كثير من الطلسمات والأبركساس .

الخاطر الحر

دعوني وحيداً أقيم على سرج جوادى
وأقيموا أنتم ما شئتم فى دياركم ومضارب خيامكم
أما أنا فسأجوب من الأنحاء قاصبها على صهوة فرسى
فرحاً مسروراً ، لا يعلو على قلنسوتى غيرُ نجوم السماء
لقد خلق الرب لكم الكواكب فى الأفلاك
كهاد سواء السبيل فى الأرض وفوق الماء
ولكى تتملوا بما لها من فتنة وبهاء
مشرعين العيون دائماً إلى أعلى السماء

الخاطر السارح : نشرت أولاً فى « مجلة الصباح للطبقات المثقفة »
Morgenblatt سنة ١٨١٦ ، رقم ٧١ ، ص ٢٨١ ، وكفترتين سادسة
وسابعة من القصيدة التالية . وتاريخ كتابتها يمكن أن يكون ٢٠ مايو سنة
١٨١٥ ، أو نهاية ١٨١٥ وبداية ١٨١٦ .

والفقرة الأولى ترجع إلى وصف رحلة على جواد قام بها انجلهاردت
Engelhardt فى القوقاز (« كنوز الشرق ») ج ٤ ص ٢٦ - ص ٣٧ ،
وفىها يرد فى ص ٣٦ : « أناس » ، لم تجمع بينهم إلا رابطة الدم واللغة
المشركة ؛ ويمارسون قواهم الباردة فى استخدام السلاح بكل سرور وفى
حرية كاملة ، من أجل أن يبلغوا ما يهونون ، ويعتبرون كل معادتهم
فى مثل هذه الحرية ، أين نجد أمثال هؤلاء فى التارة اللهم إلا فى القوقاز ؟ ...
حتى إننا لنثنى أطيب الثناء على الرجل الذى رفض الخضوع والتسليم :
فهو لا يرى فوق قلنسوته غير السماء .

أما الفقرة الثانية فتقوم على أساس الآية ٩٧ من السورة ٦ : « وَهُوَ
الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لَتَهْتَدُوا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ،
قد فصلنا الآيات لقوم يَعْلَمُونَ » . وقد قرأ جيته ترجمة هذه الآية مكتوبة
بمحروف كبيرة كشعار كتبه فوق هتمز في أول بحثه بعنوان : « حول
صور النجوم عند العرب » (فون هتمز ، « كنوز الشرق » ، ج ١
ص ١) .

أما البيتان الأخيران من هذه الفقرة فيعبران عما قاله جيته في قصيدة
أخرى سابقة : « النجوم ، ليس يهواها الإنسان ؛ ولكنه يسر بجلال
رونقها » .

- ٤ -

طهرسم

لله المشرق ،

ولله المغرب ،

والشمال والجنوب

يستظللان بالسلام بين يديه

الله ، الله هو العدل

يقسم بين الناس بالعدل

فلتسبحوا إذن بهذا الاسم المكين

من بين أسمائه المائة ! آمين

يريد الشيطان أن يسلك بي مسالك الضلال
ولذلك تعرف ، أيها الرب ، كيف تهابني سواك السبيل

فإن أقدمت على عمل أو أنشدت الشعر
 فاللهم أنير لي جادة الطريق .
 وأيضاً ما أفكرت في شأن مما في دنيائى من شئون ،
 فاني لمرتفع به إلى أعلى عالياً .
 إن روحى التى لم تعلق بها أثارة من تراب ،
 لتسمو في أعماق أعماقها إلى الملكوت الأعلى .
 ألا إن في التنفّس لنعمتين :
 نعمة الشهيق ونعمة الزفير ،
 فى الأولى ضيق وفى الأخرى سعة وانتعاش .
 وهكذا ما أعجب مزيج الحياة !
 فلتحمد ربك إذن إن أخرجك أو حلت بك الكرب ،
 واشكره حين يأتيك بالفرج المرغوب

طوسم : كتبت هذه القصيدة قبل ١٨١٥/٥/٣٠ ؛ ونشرت أولاً
 فى « المجلة الشرقية » سنة ١٨١٦ ، رقم ٧١ ، ص ٢٨١ . والفقرات هنا
 وإن كانت منفصلة ، فإنها مع ذلك تكوّن وحدة باطنة ، تكشف عن
 نظرة جيته فى الحياة ، فعنده أن الدين (الأبيات ١ - ٨) هو الذى يحدد
 المعرفة العلمية (الأبيات : ٩ - ١٠) والأفعال عند الشاعر (١١ - ١٢) .
 وهذا الفعل القائم على الدين له قيمة خالدة (١٣ - ١٦) ، ويسير ، ككل
 شىء فى الطبيعة ، وفقاً لقانون الاستقطاب (١٧ - ٢٢) .

والبيتان الأولان ، كما هو ظاهر ، مأخوذان من سورة البقرة آية
 ١٠٩ : « وَلِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ، فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللّٰهِ ،
 إِنَّ اللّٰهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » ؛ والآية ١٣٦ : « قُلْ لِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ؛ يَهْدِى

من يشاء إلى صراط مُستقيم . وقد عرف جيته الآية الأخيرة خصوصاً إذ رآها مكتوبة على صفحة العزنان لمجلة « كنوز الشرق » التي يصدرها هــر كشعار للمجلة .

والبيتان الآخران كانا في الخطرطة هكذا : كذلك لم تغفل عينه عن الشمال والجنوب « : ثم استبدل بهذه الصورة تلك التي أوردناها هنا ، مما جعل للصورة الجديدة طابعاً كلاسيكياً واضحاً ، إذ أصبحت صورة عيانية واضحة الملامح .

أما الفقرة الثانية فتنسب إلى الطلسمات التي تحتوى أسماء الله الحسنى والرسول . وجيته هنا يشيد خصوصاً ، من بين أسماء الله الحسنى ، باسم : العدل ، وهو الاسم التاسع والعشرون .

وفي تمجيد جيته لهذا الاسم خاصة ، ما يدعو إلى افتراض أن جيته قد أحب ، من بين المذاهب الكلامية الإسلامية ، مذهب المعتزلة على وجه التخصيص ؛ لأن هذا الاسم هو الذي تعلق به المعتزلة خصوصاً ، نظراً إلى قولهم بالعدل كأصل من أصول مذهبهم الخمسة ، كما تعلق الجبرية باسم « الحكم » . وفي هذا يقول الفخر الرازي : « واعلم أن المعتزلة تمسكوا بهذا الاسم ، وأبرقوا وأرعدوا فيه ؛ فقالوا : إذا كان يخناق الكفر في الكافر ثم يعذبه عليه أبداً سرمداً ، فكيف يحصل العدل ؟ وأى معنى للجور فوق هذا ؟ وكما أن اسم « الحكم » مُتَمَسِّكٌ أهل الجبر ، فاسم « العدل » مُتَمَسِّكٌ أهل القدر » (أى المعتزلة - الفخر الرازي : « لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات » ، ص ١٨٤ ، طبع مصر سنة ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥ م) .

فهل كان جيته معتزلياً حقاً ، وما مدى معرفته بمذهب الاعتزال ؟ هذه مسألة قد تناولها بالبحث عما قريب .

أما الفترة الثالثة ففيها صدى للآيات الأخيرة من الفاتحة : « اهتدنا

الصَّراطِ الْمُسْتَقِيمِ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ * غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ .

أما الفقرة الرابعة : فصدرها ما قاله السَّعْدِيُّ ، الشاعر الفارسي المعروف ، في مقدمة جُلُستان في الصفحة الأولى منها : « كل نَفْس يتنفسه الإنسان يطيل من محياه ، وكل نفس يخرج منه يسرٌ وجوده : فثمة نعمتان إذن في كل نَفَس ، وكل نعمة ، تستأهل منا الحمد والشكر » . وجيته قد عرف جُلُستان السعدي من ترجمة آدم أوليارس (ص ١ ، هــمـرج سنة ١٦٩٦) .

وقد اتخذ جيته فكرة الشهيق والزفير كفكرة أساسية في مذهبه الفلسفي الحياة و الطبيعة ، فقال : « إن الشهيق والزفير للروح الإنسانية كان عندي كمر للتنفس ثانية ، لا انفصالان وينبضان باستمرار » ، (مجموع مؤلفاته ، طبعة اليوبيل ، ج ٣٩ ، ص ٣٠) ذلك أن جيته يرى أن الحياة تبادل هائل من الشهيق والزفير ، أو التركيب والتحليل ، به ينتقل الوجود من الوحدة إلى الثنائية ، ثم من الثنائية إلى الوحدة ، وهكذا باستمرار . وسنتحدث عن هذه الفكرة بالتفصيل عند كلامنا عن قصيدة « لقاء » من كتاب « زليخا » من هذا الديوان ؛ كما تحدثنا عنها من قبل بوجه عام في « التصدير العام » تحت باب « جيته : والدين » . وراجع أيضاً خاتمة « التعليقات » على الديوان (ج ٢ من هذا الكتاب)

نعم أربع

كما يجتأب الأعراب

بلادهم الشاسعة في يسر وحبور
حباهم الله من النعم أربعاً
حتى يكونوا في السلام آمين :

وهبهم « العمامة » التي تزين
خبراً من تيجان الملوك أجمعين
و « خياماً » بها يقيمون وينتقلون
كما بأروا إلى أى ركن يبتغون

ثم وهبهم « سيناً » يحمى ويندود
خيراً مما يفعل السور العالى والصخرة الصبيخود .
كما منحهم « قصيداً » يشجى وقصيداً يفيد
تلهف شوقاً إليه نفوس الغيد

آواه ! إلى لأتغنى هادئ البال
بالزهر العاطر المتدلى من الشمال ،
وحبيبتى تعلم حقاً ما لها من ذى الأزهار
لذا تظل راضية عني ، ترف على جبينها الأنوار
وإني لأعرف حقاً كيف أتقدم إليكم
بالندى من الأزهار والشهى من الثمار
وإن شئتم معها شيئاً من الحكم
فسأهدى إليكم منها الناصح المعطار

نعم أربع : كتبت في ١٨١٥/٢/٦ ، (وفي المخطوطة كتبت السنة خطأ سنة ١٨١٤) ، ونشرت أولاً في « المجلة الشرقية » ، مارس سنة ١٨١٦ ، رقم ٧١ ، ص ٢٨١ .

وهذه القصيدة على ارتباط وثيق بالقصيدتين التاليتين ، لأن موضوعهما جميعاً « الشعر والشاعر » . كما أنها متصلة بصورة التجار التي رسمها جيته في القصيدة رقم ١ .

أما مصدر القصيدة فيعود إلى ما قاله شاردان في رحلاته : « رحلة في فارس وبقاع أخرى من الشرق » ، أمستردام سنة ١٧٣٥ . (جزء ٥ ص ٢٥٨) : « إن العرب يقولون إن الله فضلهم على بقية الأمم بنعم أربع : العمامة التي تضاف على صاحبها منظرأ أروع مما يضيفه التاج على رأس الملوك ؛ والخيمة ، وهي أجمل من البيوت ؛ والسيف ، الذي يحميم خيراً من القصور والحصون والقلاع عند سائر الأمم ؛ وأخيراً الشعر ، الذي يفضل بكثير جداً في نظرهم ، كتب الشعوب المجاورة وأسفارهم » .

والفقر الثلاث الأولى تعبر عن هذه المعاني .

وقد تتوسع جيته في الكلام عن « العمامة » في قصيدة أخرى في « كتاب زليخا » (قصيدة رقم ١٤ : « إلى إلى » ، أيها الحبيب ! ضع العمامة على رأسي !) من هذا الديوان .

أما الفقرة الرابعة فيفسرها فيهوف (ج ٣ ص ١٧٤) هكذا : « إنني أغنى ، غير مكترث بما عسى أن تظن في الحبيبة ، للغادات الأخريات قصائد يُحجزُ نسي عنها بأزهار ينتزعها من شيلانين » . ولكن لا يبرأ يأخذ على هذا التفسير أنه مصطنع كثيراً ، قائلاً إن الشال ليس شال « الغادات » ، بل شال الحبيبة التي ترمق الشاعر بنظرة تجعله يفيض بقصائد هي أزهار شعرية تساوى أزهار شالها ، تعترف الحبيبة بأنها لها ، لما هنالك من شبه بين أزهار

شالها وهذا، انقصةئذ : فالشاعر إذًا ينظم قصائده من أزهار، كما يكون
الموسيقار اللحن من الذنات .

والشاعر يريد هنا أن يهلى شيئاً من الحكم ، لأن الشعر الشرقى ،
والعربى خاصة ، ملئ بالحكم ، لذا كان على جيته أن يدخل فى شعره شيئاً
منها ؛ ولكنه لا يريد منها أن تكون حكماً مصطنعة تعبّر عن زهد الحياة ،
بل يريد أن يقدم من الحكم « الناضج المعطار » ، أى تلك التى تفيض بالحياة ،
وتشيع فيها سمرة الحياة والسرور والإقبال على ما فى الدنيا من نعيم . وفى
هذا يقوم الفارق الهائل بين شاعرنا الغربى ، والشعراء الشرقيين .

- ٦ -

اعتراف

أى الأشياء أشتى فى الإخفاء ؟ النار !
فعن وجودها يكشف الدخان فى النهار ،
وفى الليل اللهب ، هذا المارد الجبار .
ولكن ثمة ما أشد منها عُسرًا فى الإخفاء ،
ألا وهو الحب . فهما حيل يبنه وبين الإبداء ،
فسرعان ما يصاعد من العيون فى يسر وهناء :
غير أن أصعب الأشياء فى الإخفاء حقاً هو الشعر والغناء
فأنت ، مهما بذلت ، لن تقوى على ستره والإخفاء
لأن الشاعر إن أشد أنشودة
فسرعان ما تسرى حارة فى كل الأعضاء ؛
وإذا سطرها فى جمال ووضوح وبهاء ،

ود لو أحبها الدنيا جمعاء

فتراه يقروها لكل امرئ بصوت عال وهو في انتشاء،

سواء أشاعت فينا الآلام والأشجان ، أو ارتفعت بناحتي السماء

اعتراف : كتبت في فرنكفورت في ١٨١٥/٥/٢٧ في يوم حافل بالشعر والغناء . وكان عنوانها الأصلي : « غير خفي » ونشرت في « كتاب الحبيب للسيدة » لسنة ١٨١٧ بعنوان : « ثلاث مسائل » .

وهنا جيته قد تأثر بمثل غربي يقول : « أربعة أشياء لا تسمح لنفسها بالإخفاء : النار ، إذ حيث توجد نار ، يكون ثمة دخان . . ، وثانيا السعال . : . ، وثالثاً الطفح الجلدي . . . ، ورابعاً الحب ، لأنه أعمر ، ويحسب أن أحداً لا يراه » (بوهان أجريكولا : « مجمع الأمثال » ج ٢ ص ١٣٣ ، برقم ٦٦٣) . كما تأثر أيضاً الشعر الشرقي فيما ينصل بالحب ، فهذا معنى يرد كثيراً في الشعر العربي والشعر الفارسي :

- ٧ -

عناصر

من أى العناصر

يجب على الشعر أن يستمد قوته وروعته

حتى تطرب له العامة وتعنو لصولته

ويستمع إليه الخاصة في شوق وسرور ؟

ألا فليكن الحب أولاً وقبل كل الأشياء

موضوعاً لحديثنا إبان الغناء ،

فبقدر ما يستطيع الشعر النفوذ إلى أعماق الحب
بقدر ما يكون وقعه وجلاله في طوايا القاب

ثم ليكن للكوؤوس جرس ورنين ،
وليأقوت الخمر تلاًلؤً وضَاءً :
فالناس يلوّحون بالإكليل والتاج المضاء
إلى أبناء الكوؤوس والعاشقين .

وليمتلى بقعقة السلاح
وأصوات الأبواق والدفوف
وليقدّس البطل الظافر كإله
حين ترف له أضواء الجدد والهناء
وعلى الشاعر أنخيراً

أن يكره من الأشياء كثيراً ؛
فلا يدع من التبيح فتيلاً
يحيا إلى جوار الحميل

فلماذا قدر للشاعر
أن يمزج هذه العناصر الأربعة القوية
فسيكون في وسعه إمتاع الشعوب
وتحديد قواها ، كما فعل حافظ .

عناصر : كتبت في فيمار في ١٨١٤/٧/٢٢ ، ونشرت لأول مرة في
« لوحة الأغاني » لتسلتر ص ٣١٧ (برلين ، ١٨١٨) . وكان عنوانها
الأصلي في المخطوطة : « حرف مين » (والصواب : مين) غزل ١٣ هـ
وقد كتب جيته إلى اتسلتر يقول في ١٨١٥/٤/٢٢ . « أعطيت للقصيد
هذا العنوان : « مادة القصيد » . وكنت أود أن أسميها : « العناصر الأربعة » ،
لولا أن لسيتر قصيدة بهذا العنوان » .

وفي هذه القصيدة تحديد عام لموضوعات الشعر بأربعة : الغزل ،
والحمر ، والحجاسة والهجاء . وفي هذا التقسيم نرى تأثير جيته بالشعر الشرقي :
العربي في الأول والثالث والرابع خصوصاً : ثم الفارسي — على نحو ما فعل
حافظ ، لا على نحو ما فعل الشعراء العرب في الجاهلية ، أو في العصر العباسي
الأول — في الثاني . وجيته قد عالج هذه الموضوعات الأربعة في هذا
الديوان : فعالج الغزل في الكتابين الثالث والثامن ، والحمر في التاسع ،
والهجاء في الخامس ، والحجاسة في الكتاب السابع ، ثم في ترجمته لقصيدة :
« إن بالشَّعب . . . » في « التعليقات والمباحث » (في الجزء الثاني من هذا
الكتاب) . غير أن جيته لا يفهم هذه الأبواب على نحو ما هو معروف
في الأدب العربي ، خصوصاً فيما يتصل بالهجاء ، فهو يقصد من الهجاء القضاء
على كل قبيح حتى « لا يحيا إلى جوار الجميل » .

وتشبيه الحمر بالياقوت مألوف في الشعر العربي ، خصوصاً في العصر
العباسي والعصور التالية . وجيته قد أخذ عن حافظ مباشرة . فحافظ يقول :
« هاتِ ياقوت العُقَّار » (حرف الراء . رقم ١٢) ؛ ويقول أيضاً : « إنَّ
نسيم الكروم كالياقوت عند الشاربين » (حرف الدال ، رقم ٨٥) .

أما ما يعبّر عنه جيته في الفقرة الخامسة . فنادرًا ما نرى مثيله في موضع
آخر له ، عدا بعضاً من « الإكسينات » ثم ما قاله في أحد أحاديثه : (مما
أورده كراب روبنسون في يومياته ، لندن سنة ١٨٦٩ ج ١ ص ١٨٨ وما
بليها) وهو بصدد الكلام عن المسرحية الهندية « شاكونتالا » تأليف كاليدازا
الشاعر المسرحي الهندي) : حقاً إنني لأكره كل ما هو شرئ (أى الخلو
من الصورة في الأدب الهندي) . وإنني لسعيد أن يكون في وسعي أن أكره
شيئاً ؛ وإلا وقع المرء في خطر أن ينظر إلى كل شيء على أنه جميل نسبياً —
وهذا من شأنه أن يقضى على كل شعور حقيقى .

الخلق والارهاق

آدم كان فيلذة من صلصال مسنون
أحالتها إلى إنسان رب العالمين
ولكنه أتى من بطن أمه
بالكثير من التبيح المشنوم .

ثم نفخ الرب فيه
روحاً طيبة دخلته من أنفه حتى فيه
هنالك صار خلقاً آخر
لأنه بدأ يعطس

وبالرغم من ذا ظل بالرأس وحدها والأعضاء
أشبه ما يكون بكتلة من المادة الموات
إلى أن اكتشف نوح الحقيقة
أين ؟ — في الكأس .

وسرعان ما شاعت في الكتلة الموات ،
حين أصابها ندى الكأس ، سؤرة الحياة ،
شأنها إذن شأن العجينة ،
تبعث الخميرة ما بها من حركة دفيئة
وهكذا ، أى حافظ ! ليكن قصيدك الرائع ،
وليكن مثلك السامى القدوس ،
هادياً يحدونا خلال جرس الكؤوس ،
ويهدينا بعد إلى معبد خالقنا الصانع

الخلق والارضاء : كتبت هذه القصيدة في مدينة بـِرْكا على نهر المـِلم في ١٨١٤/٦/٢١ . وفي ١٢/١١ من السنة نفسها لَحَظْتُها اتسلتر ، ونشرها بعنوان : « الإنسان الأول » في « لوحة أغانيه » (سنة ١٨١٨ ، ص ٣١٦) ، كما عنوانها جيته في الأصل بحرف الـدال . غزلية رقم ١٨ .

والفقرات الثلاث الأولى استوحى فيها أبياتاً لحافظ ، (ديوان حافظ . ترجمة فون كهمر ، ج ١ . ص ٢٣٤) : « تخمير طين آدم ، هذا كل ما يفعله الشاربون ، ويشرح كهمر هذا الموضع فيقول : « ليس للشرب معنى آخر غير تخمير الطين الذي خلق منه آدم ؛ وبدون هذا التخمير سيظل الإنسان عجينة غير مختصرة ، وخالية من كل طعم » ؛ وهذا بعينه قد أخذه بجيته وعبر عنه في الفترتين الثالثة والرابعة .

كما استوحى فيها أيضاً ، إلى جانب ما ورد في سفر التكوين من « التوراة » ، « القرآن » ، سورة الحجر ، آية ٢٦ : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَءٍ مَسْنُونٍ » . ثم ما ورد في الرواية عن خلق آدم مما أورده ابن إسحق الثعلبي في « العرائس » بالتفصيل فقال : « قال العلماء : فلما أراد الله أن ينفخ في آدم عليه السلام الروح ، أمرها أن تدخل في فيه . فقالت الروح : مَدِّخَلْ بعيد القعر . مظالم المدخل . فقال للروح ثانية . فقالت مثل ذلك . وكذلك ثالثة . إلى أن قال في الرابعة : ادخلي كَرَّهًا ، واخرجي كَرَّهًا . فلما أمرها الله تعالى بذلك . دخلت في فيه . فأول ما نفخ فيه الروح ، دخلت من دماغه . فاستدارت فيه مبتدأ مائتي عام . ثم نزلت في حيزه . . . ثم نزلت في خياشيمه ، فعطس . فحين فزاعه من عطاسه نزلت الروح إلى فيه ولسانه » (ص ٢٨ ، من الطبعة المذكورة) . وجيته قد عرف هذه الرواية الإسلامية مما أورده شاردان في كتابه المذكور آنفاً ، ج ٩ ص ٢٩٦ .

وهو هنا يتغنى بالكأس والخمر على نحو ما يفعل الصوفية ، والفرس
منهم خاصة .

- ٩ -

ظاهرة

حينما تعانق الشمس جدران المطر
وتزف نفسها زوجةً إليه
يبدو في السماء خط كأنه القوس ،
بديع الألوان متعدد الأفانين
وفي الضباب أرى مرتسا
دائرة مشابهة

أجل إن القوس بيضاء ،
ولكنها مع هذا قوس السماء
وهكذا أنت أيها الشيخ الزَّوَل النشيط
لأعليك ، ولا تدع للحزن إلى قلبك سبيلا
نعم إن شـعرك لأبيض ،
ولكنك ستظل مع هذا تحترق بلهب العشق

ظاهرة : هذه القصيدة والثلاث التالية قد أنشئت إبان الرحلة أو
« الهجرة » التي قام بها الشاعر فعلا في صيف سنة ١٨١٤ والسنوات التالية
من تيرنجن إلى الرين والمين . ونشرت لأول مرة في « كتاب الجيب
للمرأة » لسنة ١٩١٨ .

وقد أوحى بها إلى الشاعر أثناء رحلته في ١٨١٤/٧/٢٥ ، قوس قزح
تبدت له من خلال ضباب الصباح ، قوس قزح خالية من الألوان .
فاتخذ منه علامة ورمزاً على عالم أروع وأجل وعُد به الشاعر الشيخ سينعم
فيه بالحب والشعر والتعيم مما من شأنه أن يحدد قواه ، ويعيده شاباً من جديد ،
وكأنه قد شرب حقاً من ينبوع الخضر . وهذا العالم الغرامي الذي وعد به
هو عالم غرامه مع مريانه فون فليمير .

راجع ما قلناه تفسيراً لهذه القصيدة في مطلع الفصل الموسوم بعنوان
« جيته والحب » ، في « التصدير العام » (ص ٢٤) .

وجيته قد تغنى أيضاً بظاهرة مماثلة لهذه تنشأ عن أضواء القمر ، وذلك
في رسائله عن رحلة إلى سويسرا في الرسالة الرقيمة بيوم ١٧٧٩/١٠/٢٤ .
كما تغنى بهذه الظاهرة في منتصف الليل شار في قلنهم تل (فصل ٢ ،
منظر ٢) : قوس قزح في منتصف الليل ! هذا ضوء القمر قد ألتفه .
وإنه لعلامة نادرة رائعة ! » .

الطيف

أى أفانين من الألوان هناك .
تربط بين السماء أممي والأفلاك ؟
إن غيوم الصباح ،
تحول دون نظري الجاد
أهذى خيام للوزير بناها
لتحليلاته الحسان ؟
أهنا بساط في حمى العيد ناشر

لأنه يريد البناء بالعشقة ؟
 لم أر من قبل أجل مما أراه الآن :
 من أحمر وأبيض ومفوف ممزوج
 ولكن ، أى حافظ ، كيف أتت
 شيرازك إلى أقاليم الشمال الحزينة ؟
 أجل ، إنها أشجار الخشخاش المتعددة الألوان
 تمتد بدبعة إلى جوارى من حقل إلى حقل
 منتظمة الكل فى صفوف بسرور ،
 نكابة فى إله الحرب وسخرية منه .
 فعلى العاقل إذن ، كى يفيد ،
 أن يعنى برونق الزهر ،
 ألا ليت شمساً كشمس اليوم
 تضىء لى على طول الطريق

لطيف : أنشئت فى نفس الصباح ، بالقرب من إرفرت ، حينما رأى
 حقول الخشخاش فى منطقة إرفرت . وفى هذه القصيدة يبدأ الشاعر الجمع
 بين الشرق والغرب . فالخشخاش الذى يصنع منه الأفيون ينتسب فى الأصل
 إلى الشرق ، وهذا ما عبر عنه جيته فى كتاب « نظرية الألوان » (بند ٥٤) :
 « فى ١٩ يونيه سنة ١٧٩٩ لاحظنا بكل وضوح ، فى أزهار الخشخاش
 « الشرقى » ذوات اللون الأحمر القوى جداً ، شيئاً قريباً من اللهب تبدى
 فى جوارها » .

فروية الخشخاش قد هفا بروح الشاعر إلى الشرق ، لأن الشرق قد
 انتقل ، بهذه الشجرة ، إلى أقاليم الشمال المتدثرة بغيوم الضباب الكثيف ،
 وكان شيراز قد انتقلت إلى إرفرت . وشيراز هى بلد حافظ الذى تغنى بها

في الرباعية الثامنة والأربعين ، فقال : « إن حافظك محمد قد أبصر النور لأول مرة في شيراز الجميلة التي علا صيتها بنمضه في الآفاق » (ترجمة سمّير ، ج ٢ ، ص ٥٣٦) . وشيراز مشهورة بوردتها .

وفي النعمرتين الأخيرتين ترديد لما قاله الشاعر من قبل عن مقصده من الهجرة إلى الشرق ، وهو أن ينعم بالطمأنينة والصفاء ، بعد أن تلوث جو الغرب بالاضطراب والبغضاء ، بسبب ما فيه من حروب شعواء .

— ١١ —

سقا

حين يشدو بالنأي كويلا ،
على شاطئ الغدير عن شمال ،
وعن يمن ينفخ المريخ في البوق ،
تنجذب ثمة الأذن
في غبطة ولذة
ولكنها تنخدع
عن روضة الغناء
إلا أن رعد الحرب
لا يزال يهزم في عنف وصخب .
حتى صرت على وشك أن أصير غاضباً ثائراً ! أحق ؛
فهل هذا غريب ؟
وها هي ذى ألحان النأي تعلو وتزيد ،
ونغمات المترددة في ترديد

لانى حائر ضال قد ملكتنى سورة الغضب
فهل هذا عجيب ؟

مقام : أنشئت في ١٨١٤/٧/٢٦ . وكان عنوانها القديم « الحب والحرب » ؛ وهو أكثر تعبيراً عن مضمونها . وقد استوحاها الشاعر من مقابلاته مع جنود في السوق السنوى في هينفلد ، ومن بواعث أدبية كثيرة أخرى ، منها حافظ في الغزل ، رقم ٢٣ من حرف الشين من ديوانه ، حين يقول : « من ذا يستطيع أن يكون آمناً وسط ضجيج السماء الجشع المغدّمير ، حين يسع هناك الزّهرة تعزف في العود والقيثار ، يدنّم المريخ يدجّج السلاح ؟ » . ويعقب همر على قول حافظ هذا شارحاً فيقول : « كيف يتيسر للمرء أن يكون هنا في الدنيا مطمئناً ، حين يرى الزهرة دائمة الرنين بالعود ، والمريخ يقعقع بالسلاح ، وحيناً يرى الحب والحرب يتورّعان فيما بينهما حياة بنى الإنسان » (ديوان حافظ ، ترجمة فون همر ، ج ٢ ، ص ٧٥) .

فالشقاق الذى يعبر عنه جيته هنا هو الشقاق الأبدى بين الحب والحرب ، بين كيوييد والمريخ .

الماضى فى الحاضر

ورد وزنق ، مجلّلان بأنداء الصباح ،
يزكوان فى بستان الجار ،
ولم الوراء تصّاعد الصخرة فى الأعلى
وعاها الأيئك والائتلاف ؛
والذروة العالية يمتد قوسها

حتى يتألف الوادى ،
ومن حولها غابات باسقة
توجهها قصر من قصور الفرسان
آه ! حين كنا لا نزال نقاسى من الغرام ،
كان العطر فيّاحاً فيه كأمام المذبح ،
وأشعة الصباح تشتجر
على أوتار طنبورى ؛
وكانت أغنية الطرد تتجاوب
من الحماثل مليئة بالأنغام ،
تهيب بإشعال النار
كما نهوى ونشاء

وها هي ذى النباتات فى ازدهار ونماء
فانتشوا أنتم بسورتها وقواها
وما نعمتم به لأنفسكم
دعوا الآخرين به ينعمون
هنالك لن يهخرخ فى وجهنا أحد ،
قائلا إنا نعمنا به منفردين
وعليكم فى كل مرافق الحياة
أن تتملّوا به ناعمين

وبهذه الأنشودة وتلك النبرات ،
صيرنا من جديد فى حضرة حافظ ،
إذ يليق بنا لقضاء النهار ،
أن نتمتع مع المستعسين .

الماضى فى الحاضر: أنشئت هذه القصيدة فى أمسية ٢٦ يوليوسنة ١٨١٤ فى فلندا ، تعبيراً عن الأحساس التى أثارتها فى نفس الشاعر رحلة الصباح فى أيزناخ ؛ وفيها ذكرى للعهد القيماى الماضى وقارتبرج وقصر الفرسان المذكور فى الفقرة الأولى ، حيث قضى الشاعر زمان غرامه السعيد وحيث كان يرافق دوق فيمار كارل أوجُست إبتان نزه القنص فى أيزناخ ، وهو ما يشير إليه هنا فى الفقرة الثانية .

والتجربة الروحية التى يعانها الشاعر هنا هى تجربة المزج بين الماضى والحاضر فى وحدة واحدة ؛ وهى تجربة تتكرر فى هذا الديوان (« كتاب التفكير » ، قصيدة رقم ١٩ : لو مررت خلال إرفُرت) . وعبر عنها بوضوح فى الجزء الثالث من « الشعر والحقيقة » (الكتاب الرابع عشر) وهو يصف رحلته على الرين والتلان ، فقال : « الشعور بوحدة الماضى والحاضر » . هذا موجود فى كثير من مؤلفاتى الكبرى والصغرى ، وله تأثير طيب فى شعرى » .

وهنا يوحى تجددُ الغابات باستمرار إلى الشاعر صورة الإنسانية وهى تتجدد على الدوام ؛ ويلذ للشاعر أن يطبق هذا على نفسه . وهو فى سن الشيخوخة (فى الفقرة الثالثة) . وهو فى هذا إنما تأثر أيضاً بمحافظ حين قال : « رفيقان قد بقيا فى البستان : الورد والزنبق ؛ وكلاهما يرفع عالياً الكأس ، مُشرباً على ذكر الصديق » .

وراجع ما قلناه فى « التصدير العام » فى فصل « هجرة جيته » .

- ١٣ -

أغنية وصور

لل يوناني أن يعبر عن أنغامه في صور ،
وله أن يهتفي بما صنعته يده ؛
أما نحن فيلذ لنا أن نغوص في الفرات ،
سباحين في العنصر السائل هاهنا وهناك ؛
فلو أتى أطفال هكذا لهيب الروح ،
إذن لرت الحان النشيد ؛
وإذا امتاحت يد الشاعر الطاهرة
تواثبت فقاعات الماء .

أغنية وصور : لاتدلنا المخطوطة على تاريخ إنشاء القصيد ؛ ولكنها قد
أنشئت على كل حال بعد ٣٠ مايو سنة ١٨١٥ ، ويرى ليتسمن أن أسبق
تاريخ يمكن أن يوضع لها هو نهاية أكتوبر سنة ١٨١٦ .

وهذه القصيدة مهمة من ناحية الصياغة الفنية للشعر ، إذ هي تتناول
المقارنة بين طبيعة الصياغة في الشعر اليوناني وطبيعتها في الشعر الشرقي
فالشعر اليوناني عياني تجسيمي ، يميل إلى تصوير الشعور الشعري في قوالب
مجسمة أو صور عيانية حسية ، كما يفعل المصور أو المثال ؛ أما الشعر
الشرقي فسيال غير ثابت القوالب . وهذا المعنى يقول جيته في خطاب
كتبه إلى كنيبل في ١١ يناير سنة ١٨١٥ : « حينما ينفذ المرء إلى الشرق بجدة ،
يكون أمره تماماً كأمر من يغوص في البحر . ومع هذا فن السار أيضاً
أن يسبح في مثل هذا العنصر الشاسع وأن يمارس قواد فيه » لأن « الموجة
المتحركة تتكسب ، في القلب السعيد ، والأيدى الورعة ، مكوّنة بجلال

كُرّة من البلور» (أسطورة ، مجموع مؤلفات جيته . ج ٣ ، ص ٩) :
وجيته يشير هنا إلى محاولته في هذا الديوان الجمع بين التجسيم
في الشعر اليوناني والإنمياح في الشعر الشرقي .

- ١٤ -

مرأة

أنى يتيسر للمرأة أن يُشقى ؟
إن كلاً يصغى بسرور إلى الصوت يستحيل لحناً
ألا فلتطرح كل ما يعوق مجراك !
ولا تسع هذا السعى الكئيب !
إن على الشاعر ، قبل أن يغنى ،
وقبل أن ينقطع ، أن يحيا .
فليتردد إذن رنين الحياة في الروح !
فإذا أحس الشاعر بألم في الفؤاد ،
كان في ذلك لنفسه الخلاص .

مرأة : أنشئت هي وقصيدة « الهجرة » في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨١٤ ،
ونشرت في « لوحة الأغاني » سنة ١٨١٤ ص ٤٠٦ .

والشاعر هنا يهيب بكل من يريد قرض الشعر أن يحيا أولاً ، ثم يعتبر
بعدُ عما حسيته ؛ لأن الشعر الحق هو الذى يصدر عن تجارب حياة ثرية ؛
عاناها الشاعر في نفسه بكل قوة ، وعلى الشاعر من أجل هذا أن يعاني
من التجارب الحية أوفر نصيب ، دون أن يحفل بأى عائق قد يعوقه في
هذا السبيل : من قواعد أو تقاليد أو أوضاع ؛ وعليه أيضاً أن يقبل على

الحياة المليئة بكل ما فيها ، يحدوه سرورٌ شامل يريد أن ينتظم كل ما يقلمه إليه الوجود . وليس له أن يسعى هذا السعى الكئيب الحزين ، سعى العازف عن الحياة ، المشيح بوجهه عن تجاربها ، لأن هذا من شأنه أن يُفقر نفسه ، ويحفف عصارة قلبه ، التي يغذى منها شعره . وجيته يدعو إلى هذا مراراً ، فتراه يقول : « الحياة وحدها هي التي تعطي الحياة » ، أى أن تحيا حياة مليئة ، هذا وحده هو الذى يجعلك حياً حقاً ؛ « إن غاية الحياة هي الحياة نفسها ... هذا قول أدين به وأحاول أن أنشئ نفسي على وفقه ؛ ونحن إذا قمنا بنصيبنا فى داخل نفوسنا ، تلا ذلك سائر الأشياء » (من حديثه إلى ماير ، سنة ١٧٩٦) . أما أن ينطوى المرء على نفسه ، فهذا لن يحدى فتيلاً فى إشعال الروح وإثراء النفس ، لأن « الحياة الباطنة لا تسقيظ إلا بواسطة الحياة الخارجية الظاهرة ، لا بالتأمل البارد ، ذاك الذى لا يفيد إلا فى استنفاد عصارة الحياة » (من حديثه إلى إشميت سنة ١٨٠١) .

— ١٥ —

ثابت ماهر

الشعر فيض فلا يلمنى إنسان !
فليكن دمكم حاراً حراً مسروراً مثلى
وإذا قدر لآلام كل ساعة أن تغمرنى ،
فسأظل دائماً متواضعاً ، بل وأكثر منكم
لأن التواضع جميل حين تزهو الغادة :
إن من تتجنب الفج الطباع
تهوى أن تصاد برقة وأناقة
والتواضع خير ، بهذا يقول حكيم ،
يستطيع أن ينبت عن الزمان والسرمدية

الشعر فيض ، فاقرضه وحلك في سرور
والأصدقاء والغانيات النابضات بالدم الحار
يشاركون أيضاً فيه !

أيها الرويب بلا طرطور ولا زنا
لا تخض في حديثي ولا تثرثر من حولي
أجل ، إنك تحطمني ، ولكنك لا تجعلني متواضعاً
إن ألفاظك الجوفاء تبعدني عنه ،
وها أنذا قد ألقيت به تحت أقدامي
حينما تدور طاحونة الشاعر ، فلا تفقها :
لأن من يفهمنا ، يغتفر لنا زلاتنا .

نابت ماهر : أنشئت في ٢٦ يوليو سنة ١٨١٤ إبان رحلته ؛ وهي
عقريّة الشبه بالقصيدة السالفة :

وجيته في هذه القصيدة غربي ، اللهم إلا في هجومه على الرهبانية
وأصحاب الزناير ، فإنه هنا قد تأثر حافظاً كما تأثر النرش فون هُتِن ،
كما أشار إلى هذا في القصيدة رقم ٤ من « كتاب الغضب » من هذا الديوان :
والشاعر يسخر هنا من هؤلاء الرومتيك النائحين الذين هاجهم في
« الإكسينيات » فقال : « إنهم يطفئون نور البهو في أرض الله ، يحيلون إياه
إلى وادي أحزان وبؤس ؛ هنالك نكتشف سريعاً ، كم هم أنفسهم بائسون » ،
لأنهم استقالوا من الحياة فعاقبتهم عن هذا بإشقاتهم . كما هاجهم أيضاً في
أحاديثه مع إكزمن (١٨٢٩/٤/٢) فنتع الكلاسيكي بأنه الصّحّي ،
بينما الرومتيكي مَرَضِيّ ، واتهمهم بأنهم يريدون أن يحيلوا العالم إلى ملجأ
للعجزة والمشوهين ،

وحافظ من قبل قد سخر من هؤلاء المترهين المتفقيهن ، فقال :
« ألا بعداً لكم أيها الوعاظ ، ولا تثرثروا أُمّى بِتُرَّهاتكم الجوفاء » ، حرف
الميم ، رقم ٤٠ ؛ ترجمة هـ ، ج ٢ ، ص ٢١٩ .

- ١٦ -

الحياة السكنية

التراب ، يا حافظ ، عنصر من العناصر
التي أسلست لنفسك قيادها بمهارة ،
حينما تغني أنشودة أنيقة تحية للحبيبة
لأن التراب على وصيدها خير من السجاد
الذى تجعل أزهاره المطعمة بالذهب
خليلات محمود يركعن :

إن الريح تدفع من أبوابها
سحباً من التراب الرشيق
إن العطور أعز لديك
من المسك وماء الورد

التراب ، لقد استغنيت عنه طويلاً ،
في بلاد الشمال المغطاة بالضباب
أما في بلاد الجنوب الضاحية الحارة
فقد صار عندي مرغوباً محبوباً

ولكن زماناً طويلاً قد مضى ،
والباب المحبوب صامت في ركنه ،
فلتشفني إذن ، يا مطر العاصفة ،

ودعنى أستنشى عبير الحضرة
 وحينما يهزم كلُّ رعد
 وتبرق السماءُ بأسرها ،
 سيبتل تراب الريح الوحشى ،
 وهو يساقط على الأرض ،
 وسرعان ما تنبت حياة ،
 ويتماوج تأثير قدسى لطيف
 وتنبت الحضرة والنضرة
 فى محان الأرض الغضيرة

الحياة الكلية : أنشأها الشاعر فى جنح الليل إبان الطريق فى ٢٩ يوليو
 سنة ١٨١٤ .

والتغنى بالتراب من قسّمات الشرق ؛ وجيته تأثر هنا حافظاً فى قوله :
 « من هذا العالم والعالم الآخر لا يثب إلى عينيه (أى حافظ) إلا تراب عتبة
 بابها » (حرف التاء ، رقم ٦٧ ؛ ترجمة فون همر ، ج ١ ، ص ١٤٧) ،
 وقوله : « يا رياح الصباح ! أثبتنى بتراب مبارك من تراب باب الأحباب »
 (ترجمة فون همر ، ج ١ ، ص ٥٧) .

ولكن التراب لا نجد له فى الشعر العربى هذا النعت الجميل ، بل يرتبط
 بالأطلال أو بأرض الحبيبة باعتبار أنها تمنحه الطيب . إنما الذى يلعب دور
 التراب هذا فى الشعر العربى هو الرياح نفسها وبخاصة ريح الصبا . وفارق
 كبير بين الاثنين : فالرياح أكثر تجريداً من التراب ؛ ولذا استخدمه الشعر
 العربى بطابعه التجريدى الظاهر ، بينما الشعر الفارسى بطابعه العيى القريب
 من الطابع الأوربى اليونانى قد استبدل به التراب لأنه أكثر عينية ، إذ هو
 التراب الذى وطنته أقدام الحبيبة .

أما محمود الذى يشير إليه جيته هنا ، فلا يُقصد به شخص بالذات ، بل السلاطين عموماً ، باعتبار السلطان محمود الغزنوى بن سبكتكين هو أشهر سلاطين الفرس .

ولقد كان لرحلة الرين وقراءة حافظ والرحلة إلى إيطاليا أثر تجديد قوى جيته : لهذا نراه هنا يرمز إلى هذه الأشياء بالعاصفة والرعد والبرق التى تثير التراب على الأرض فيساقط المطر ، وعن هذا تنشأ حياة جديدة كلها نضرة ، وتشيع روح قدسية لطيفة ، هى تلك التى ستشيع فى كيان الشاعر فتجدد قواه ،

- ١٧ -

الحنين السعير

لا تتحدث بهذا الحديث لغير الحكماء ،
فالعامة سرعان ما تلقاه منك بالاستهزاء ؛
إنى أريد أن أعجد الحى ،
الذى يتحرق شوقاً إلى هيب الموت .
فى قشعريرة ليلالى الحب ،
تلك القشعريرة التى ولدتك وفيها أنت تلد ،
يغزوك شعور غامض غريب ،
حين تضىء الشمعة الوديعه ،
حينئذ لا تظلم غارقاً ،
فى ظلال الظلام الظليلة ؛
بل تمزق فؤادك نزعة جديدة ،

نحو اتحاد أعلى وامتزاج سام

ولن يعوقك البعد مهما طال
بل ستأق سريراً قد أخذك السحر
فتعشق النور ،

وأخيراً تحترق كما تحترق الفراشة

وطالما لم تفهم هذا الحديث :
مُتْ واستحل إلى شيء جديد !

فستظل ضيفاً مجهولاً مُعْتَمِداً
على هذى الأرض المُظلمة

الحنين السعير : أنشئت في فيزبادن في ٣١ يوليو سنة ١٨١٤ ، ونشرت
في سنة ١٨١٦ بعنوان « كمال » . وفي المخطوطة قد كتب أعلاها : حرف
الصاد ، غزل ١ : وذلك لأن الغزل الأول من هذا الحرف في ديوان
حافظ هو الأساس في قصيدة جيته هذه . فحافظ يختم قصيدته بقوله :
« هل يدرى العوام ما قيمة الدر الكريم ؟ كلا ، لا تُعطي الجواهر إلا
للعالين ! » وهذا يطابق قول المسيح : « لا تُلقي بالدر أمام الخنازير »
(انجيل متى ، ٧ : ٦) .

وجيتبعنا قد استهل قصيدته هذه بهذا المعنى . وما يتلو هذه الفقرة
مأخوذ أيضاً من قصيدة حافظ المذكورة في قوله فيها : « إن الروح تحترق
كما تحترق الشمعة ؛ قدمت جسدي قرباناً ناصعاً للهب الغرام ، وأنا
طاهر الذيل نقي الضمير ، فإن لم تحترق كما تحترق الفراشة ، فلن تجد
إلى الخلاص من عناب الحب سبيلاً » (هز ، ج ٢ ، ص ٩١) .

وهذا التشبيه بالفراشة التي تحترق باللهيب من وجدها به يرد كثيراً

في شعر حافظ ، فتراه يقول : « خذ ، أيها النور ، كل نذة من لذائذ غرام
الفراشة غنيمة لك » ، (ج ١ ص ٢٩٦) ؛ و « قلبي المحترق كان كالفراشة »
(ص ٣٦٤) ، و « الفراشة تحترق في النور استعذابا للحب » (ج ٢ ص ٣٧) .
كما يرد أيضاً بغزارة في شعر أكثر الشعراء الفرس . فالسعدى يقول في
« البستان » (الباب الثالث : الفصل الثالث ، « الحب ») : « أولا تحرق
الفراشة نفسها في النور ، أو ليس هذا خيراً لها من أن تموت حتما بدون
الشمعة في ركن مظلم ؟ » ويورد قصة بهذا المعنى في « جلستان » (الباب
الخامس ، القصة السابعة) . وجلال الدين الرومي يرمز بالتشبيه للحب
« الإلهي » : « إن فراش الليل ليلقي بنفسه في ضياء الشموع ؛ فألقى بنفسك إذن
في بحر نيران الإله » ، (من ترجمة تولاك ، في مجموعة الأشعار المختارة
بعنوان « مجمع الأزهار » *Blüthensammlung* ص ٧١) .

والفقرات الأربع الأولى تدعو إلى الفناء بواسطة الموت ، في حياة
أخرى أعلى من هذه وأسمى ؛ ولذا وسم جيته القصيدة أحياناً بعنوان :
« التضحية بالذات » . ولكنه أتى في الفقرة الخامسة فعدل من هذه النظرة
الصوفية السلبية ، بأن طبق هذه التضحية بالذات على الحياة الدنيوية ،
بدلاً من الحياة الآخرة . ولعله تذكر طبيعته الحقيقية ، تلك الطبيعة الإيجابية
التي تدعو إلى الأفعال وإلى الإقبال على الحياة ، فأضاف هذه الفقرة الخامسة
بعد أن استسلم لنزوة صوفية عابرة . ولهذا فمن الأرجح أنه أنشأ هذه
الفقرة بعد الفقرات الأربع السابقة لمدة من الزمان . ويتأيد هذا الافتراض
من الناحية الشكلية ، من حيث كون الفقرة الخامسة تفتقر عن الفقرات
الأربع السابقة بأن القافية فيها مذكّرة ، وفي الأخرى مؤنثة .

وفي هذه القصيدة العميقة أودع جيته كل فلسفته : فهي فلسفة ترجح
بين الصوفية الزاهدة والإقبال على الحياة الفعّال ؛ وليس في هذا تناقض ،

لأنه يريد من الإنسان أن يحقق هذه الحياة الزاهرة السامية على هذه الأرض .
وتتضمن مزيجاً من كل الثقافات الروحية التي وعها جيته في نفسه : اليونانية
والشرقية والرومانية المسيحية : فعن الثقافية اليونانية قد أخذ هنا فكرة التحول
إلى طبيعة أعلى باستمرار في سلم من التصاعد الروحي . والعلاء على الذات
بالقضاء المستمر على الصورة الراهنة من أجل الارتفاع إلى صورة أسمى
وأتم ، مما يتمثل في القول اليوناني المشهور المنسوب إلى بندار : صِرْ إلى
من تكون ! أي تحول وفقاً لإمكاناتك ، محققاً إياها من جديد شيئاً فشيئاً ،
ولا تستقر عند حالة واحدة ، لأن حركة التحول أو التحقق بالصورة ليست
نهائية بل في سير مستمر . وعن الروح الشرقية أخذ فكرة العشق الإلهي
للذي يحاول فيه المرء أن يفنى ذاته ، أي صورته الراهنة ، لكي يتحد
بصورة عليا هي صورة الصور ، وهي هي الله . وهذا العشق نوع من
احتراق المحب في نار المحبوب ، مما قد تغنى به الصوفية الفرس خصوصاً
وغالبية الصوفية المسلمين . وعن الروح المسيحية قد تلقى فكرة العزوف
عن الدنيا والنزوع إلى عالم أسمى . ولكن جيته لا يستسلم لأية نزعة من هذه
النزعات الثلاث ، ولا يأخذها بحروفها ، بل هو يحلها كلها في بوتقة
نفسه إلى طبيعته هو الخاصة ، مكوناً تجربة واحدة طريقة لا يمكن أن
تسمى إلا بتجربة جيته ونظرته في الوجود .

وهذه القصيدة ، وقصيدة « لقاء » (في « كتاب زليخا » من هذا
الديوان) ، هما المظبيان اللذان يدور من حولهما كل الديوان .

ألا فليبدُ براع كي يشيع في العالمين العنوبة !
وألا ليت قلبي بقطر بما هو جميل !

هذه القصيدة الصغيرة هي نوع من الخاتمة للكتاب الأول كله .
وقد تأثر فيها أولاً حافظاً الشيرازى فى قوله : « أى يراع عجيب هو
قلمك ، أى حافظ ! إنه ليحمل ثماراً أعذب وأشهى من العسل والسكر »
(حرف التاء رقم ١٦ ، ج ١ ص ٦٩ من ترجمة هجر) ، وثانيا السعدى ،
حين قال عن نفسه فى « جلستان » : « إن الكلم السائل من يراعه يتذوق
كأنه السكر » (مقدمة « جلستان » ، ص ١٦ من الترجمة الفرنسية
لدفمرى ، باريس سنة ١٨٥٨) .

حافظ نام

کتاب حافظ

فَلَنَسْمَّ الرُّوحَ عِرْسًا
وَلَنَسْمَّ اللَّفْظَ عَرُوسًا ؟
قَدْ دَرَى ذَا الْعُرْسِ مُطَرِّفٌ
حَافِظًا ، هَذَا الْفَقِيرُ

- ۱ -

لقب *

الشاعر

إِيهِ شَمْسُ الدِّينِ قُلْ لِي لَمْ لُقِيتُ بِحَافِظٍ

حافظ

لَمْ لُقِيتُ ؟ لَأَنِّي حَافِظُ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ
سَاهَرُ الْوَعْيِ عَنَدِيَّةِ ذَلِكَ الْإِرْثِ الْعَظِيمِ
مَنْ أَعَادَى الدَّهْرَ أَحْمَى كَثُرَ بَعُوثُ كَرِيمِ
وَأَنَا الْمُؤْمِنُ حَسْبِي ذَاكَ فِي الْيَوْمِ الْجَسِيمِ

الشاعر

وَأَنَا أَيْضًا أَرَى صَدَقَ ذَا الرَّأْيِ الْمُتَيْنِ
فَإِذَا كُنَّا نَرَى مَا يَرَاهُ الْآخَرُونَ
اشْتَهْنَا أَجْمَعِينَ

واشتبهنا نحن أيضاً ! فن السفر المقدس
قَبِستْ نفسى صورَه مثلما رَقَّتْ بملابس
صورةُ الغادى الأَنس
وعن النكران رغباً نَشِرتْ بالصدر نورَه

كتاب حافظ : أعلن جيته عن هذا الكتاب في « مجلة الصباح للطبقات المثقفة » (سنة ١٨١٦ ، برقم ٤٨ ص ١٨٩) كما يلي : « هامو ذا حافظ تاهه ، أو كتاب حافظ ؛ وقد كُرمَ لوصف هذا الرجل العظيم وتقديره وتمجيده . كما أن به تعبيراً عن الصلة التي تربط بين الشاعر الفارسي والشاعر الألماني الذي تَحَمَّسَ له وتعلق به إلى درجة من الوجد هائلة ونعته هنا بأنه لا يستطيع أن يبلغ شأوه ، ولا أن يلحق به » .

وكما قال جُندولف (ص ٦٤٤ من كتابه : « جيته » ، ط ٤ ، برلين سنة ١٩١٨) : « هذا الكتاب ، كتاب حافظ ، وكتاب زليخا هما عمودا هذا الديوان كله . فكتاب حافظ يعرض نظرة جيته في الحياة وأحواله وموقفه ، جيته الشيخ ، من وجهة نظر عامة غير شخصية ، في لحظات مفردة غنائية ؛ بينما كتاب زليخا يعبر عن التجربة الحية الخاصة التي أشاعت الحركة والشعور في هذه الحال العامة » .

الشعار : هذا الشعار قد وضع في الأصل على أنه شعار « للديوان الألماني » المتأثر خصوصاً بحافظ . وقد وضع قبل ١٨١٥/٥/٣٠ . وهو تعبير آخر عن الشعار الذي وضعه فون مهرلديوان حافظ . وأخذ من الغزل برقم ١٠٩ من حرف الدال ، وهو : « لم يكشف أحد القناع عن أفكار رائعة كما فعل حافظ ، منذ عَصِيصَت غدائر الكلم العروس » .

لقب : أنشئت في بركا في ١٨١٤/٦/٢٦ ، ونشرت لأول مرة في كتاب الجيب للسيدة سنة ١٨١٧ (برقم ٢٦ ص ط) .

وفي هذه القصيدة تعبر واضح عن تمجيد الكتب المقدسة ؛ فهو يقرم الإنجيل كما يصون حافظ القرآن . وجيته في الواقع قد أعجب كثيراً بالكتاب المقدس كله ، وبخاصة التوراة (راجع ما قلناه في الفصل الأول من التصدير ص ٤) . وأسلوبه في كل كتابه يكشف عن هذا التأثير ، حتى قال هو النشيد الأول من أناشيد هرمن ودوروتيه التسعة : « إنه مليء بالقيمة العليا للكتب المقدسة » .

كما أنه يعبر عن تجربة روحية خاصة ، هي تجربة المعرفة عن طريق الإيمان الساذج . لهذا يشير إلى انطباع وجه المسيح على ثوب فيرونیکا الأبيض ، كما تزعم الأساطير المسيحية ، التي تقول إن فيرونیکا كانت امرأة يهودية قد مسحت عن وجه المسيح ، وهو يصعد الجبل الذي صلب عليه . بقماشن أبيض فانطبع عليه صورة وجه المسيح . وتعتبر فيرونیکا قديسة . وعن هذه الحادثة تعبر لوحات تصويرية عديدة رأى جيته بعضها في مجموعة صور بواسريه .

- ٢ -

شكوى

أتدري لمن يقوم الشيطان بالمرصاد .
في الفياق بين الصخور والأسوار ؟
وكيف يحيل فيهم النظرات الحداد .
مقتاداً إياهم إلى أبواب النار ؟
إن هؤلاء هم الكذّابون الأشرار .
والشاعر ، لماذا إذن لا يرتاع ،
من الدخول في زمرة هؤلاء الرعاع !

فهل يعرف إذن من يرافق ويصاحب ،
 هذا الذى لا يعمل إلا فى حال من الجنون غالب ؟
 سيم عل وجهه فى القفار والبيد
 لا يحذوه غير حب عنيده
 وأغانيه الشاكية المسطورة فى الرمال
 ستجعلها الريح أبداً فى ترحال
 إنه لا يعنى مـ اذا يقـول ،
 وما يقوله لا يقوم عليه كحافظ ووكيل
 والناس سيتركون قصيده يذهب حيث شاء
 لأنهم لا تنفق * والقرآن
 فعلّموا الناس إذن أنها الراخون فى العلم ،
 والمثـدثرون بدثار الحكمة ،
 علّموا المسلمين المخلصين واجبتهم المتين
 إن حافظاً خصوصاً يخاق المخازى والفضائح
 وميرزا يقذف بالروح فى هاوية المجهول
 فأنبثونا ماذا منها تأخذ وماذا ندع ؟

شكوى : أنشئت فى ١٠ / ٣ / ١٨١٥ . وهذه القصيدة والتاليتان تكون
 وحدة : فموضوعها هو حرية الشاعر وشرعية الله . ومطلعها مأخوذ من
 سورة « الشعراء » (آية ٢٢١ - ٢٢٥) : « هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ
 الشَّيَاطِينُ ؟ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ
 كَاذِبُونَ * وَالشُّعْرَاءُ يُتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ *
 وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » .

ومرزا اسم لثلاثة شعراء فرس مشهورين ، ولكن جيته لا يشير إلى
أحد منهم هنا ؛ بل يشير مجرد إشارة إلى شاعر ممتاز كمحافظ .

- ٣ -

فُتوى

أغاني حافظ تسلك إلى الحق السبيل القويم
وإن جارت حيناً قليلاً عن نطاق المرسوم
فإن شئت السير مأمون النهج والمساق
فأعرف كيف تفرق بين سمّ الأفعى والثرىاق
ولكن أسمى فعال الرغبة الطاهرة :
أن تَذَر نفسك مسرور المزاج ،
وتتجنب سبيل من لا يتشدون غير الأحرار
نعم ! اهجرهم في حكمة غير متوان
فهذا خير مما يجعلك لا تفقد الأحسن :
سَطَرْتَ هذا يراعة الفقير أبي السعود
غفر الله له كل ألوان الذنوب

فتوى : أنشئت هذه القصيدة في يوليو سنة ١٨١٤ في بركا ، وعنوانها
الأول هو : « فتوى فارسية » ، للتمييز بينها وبين الفتوى الآتية بعد ،
برقم ٥ .

ومصدر هذه الفتوى . كما أشرنا من قبل في « التصدير العام » (ص
٥٥) فتوى أصدرها أبو السعود أفندي المفتي الأكبر للإسلام في أيام
السلطان سليمان الأول ، حين رفع إليه أمر رجل طعن في حق رئيس العلماء

اللى أفنى بعدم قراءة ديوان حافظ . وصورة هذه الفتوى قد أوردتها صاحب « كشف الظنون » (ج ٣ ص ٢٧٢ - ص ٢٧٣ من نشرة فليجل ؛ ج ١ ، ص ٣٨٩ من نشرة دار الطباعة المصرية سنة ١٢٧٤ هـ = سنة ١٨٥٧ م القاهرة) فى نصها التركى ، وترجمتها هكذا (وقد وقفنا بين النصين المختلفين فى هاتين الطبعتين) : « صورة فتوى : إذا قال زيد المذكور فى حق حافظ هو لسان الغيب ؛ وقال عمرو إن التعبير عنه بلسان الغيب خطأ ؛ وقد أفنى رئيس العلماء بعدم قراءته ؛ وإذا أساء زيد المذكور فى حق رئيس العلماء وقال : إن هذا من الذوقيات وليس من ملعة فقه (أى لا يستطيع مثل رئيس العلماء ، هذا الفقيه ، أن يتنوق شعر حافظ أو الشعر إطلاقاً) ؛ فإذا يلزم فى حق زيد شرعاً ؟ » فأجاب مولانا أبو السعود : « وقعت فى مقالات (أى قصائد) حافظ فى مواضع كثيرة كلمات حق من حكم واثقة ، وتكت فائقة . ولكنها تحمل فى تضاعيفها جزأفات خارجة عن نطاق الشريعة الشريفة . والذوق الصحيح هو فى تمييز بيت من بيت ، وعدم حسيان السم الزعاف تريباً ؛ وفى تحصيل مبادئ ذوق النعمة ، والاحتراز عن أسباب الخوف الأليم (أى عذاب السعير) . كتبه الفقير أبو السعود ، عفى عنه » ، وهذه الفتوى قد ترجمها فون هممر إلى الألمانية وأوردتها فى ترجمته لديوان حافظ (ج ١ ص ١٠٠ لد) ومن هنا عرف جيته أمرها .

الولائى بسكر

أبا السعود ، أبا الولى الطاهر ! لقد أصبت شاكلة الصواب
إن الشاعر فى لفظة إلى أمثال هؤلاء الأولياء الانجباب
فهذه الشطحات الخارجة عن نطاق الشريعة

هي عينها التراث الذي يخلفه الشاعر
حين يفبض ، وهو مسرور ، حتى في مواكب الأحران
ولا مناظر له من أن يقدم هذا وذاك :
ممّ الأفاعي والترياق
والأول لن يقتل ، والثاني لن يشقى :
لأن الحياة الحقّة هي البراءة الخالدة للفعل
تلك التي تبدو وكأنها لا تضر شيئاً أكثر مما تضر نفسها
وهكذا يستطيع الشاعر القديم أن يتملى برجاء
رجاء أن تحسن الحوريات في الجنة استقباله كفتى مستنير .
أيها السعود . أيها الولي ، لقد أصبت شاكلة الصواب

الألماني بـسـكر : أنشئت هذه القصيدة في ١٨ / ١٢ / ١٨١٤ . والألماني
هنا هو جيته الذي يشكر لأبي السعود تسامحه الواسع في هذا الحكم .
ونعل الأبيات من ١٠ إلى ١٢ أن تكون متأثرة خصوصاً بالآية ٤٦
من سورة « فصّات » : « مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلْيَنفُسِهِ ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ،
وَمَنْ رَبَّاتٌ بِضَلَالٍ لِّلْعَبِيدِ » : ويقول فريد الدين العطار : الشاعر الصوفي
الفارسي العظيم : « الخير أو الشر الذي يأتيه امرؤ إنما يأتيه ضد نفسه
أو ضد » (پندنامه ، فصل ٣٢) . وقد قرأ جيته هذا القول في ترجمة فرنسية
لسلفستر دي سامي : نشرت في « كنوز الشرق » التي يشرف على إخراجها
فون سمتر (ج ٢ ص ٢٢٩) .

وجيته هنا يطبق هذه الفتوى على أشعاره هو ، فهيب بالناس أن
يحكموا بعدل وإنصاف على شعره كما فعل أبو السعود في حكمه على أشعار
جوافظ . ولاحظ خصوصاً البيت التاسع : ففيه كشف عن فاسفة جيته
كلها ، تلك الفلسفة التي تقوم على تمجيد الفعل .

فتوى

قرأ المفتى قصائد « المصرى »
الواحدة تلو الأخرى تجرى ،
وبعد تفكير ألقى بها فى النار ،
فاحترق الكتاب ذو الخط السار .

وصاح القاضى الجليل : « ألا فليُحرق
كل من يعتقد كالمصرى -

وليسُستثنى هو وحده من عذاب النار :
لأن الله قد منح كل شاعر هبة الأشعار ،
فإن أسماء استخدمها إبان خطاياها ،
فعليه أن يُعنى بإرضاء الله . »

فتوى : أنشئت فيما بين ١/٢٥ و ١٨١٥/٢/٨ . وعنوانها الأصلي :
« فتوى تركية » ، تميزاً لها من الفتوى الفارسية الواردة برقم ٣ . فالأولى
قصده منها إلى تركة القصائد ، وهذه إلى تركة الشاعر .

وجيته قد عرف أمرها من فقرة فى كتاب تودرينى بعنوان « أدب الترك »
(ترجمة هوسلويتز ، كينجسبرج سنة ١٧٩٠ ، ج ١ ، ص ٢٠٧) ، لفت
نظره إليها كتبل ، وهى : « إن الشاعر التركى ، مصرى ، قد اتهم بأنه
قليل الإسلام بسبب ما ورد فى أشعاره وبعض أقواله . ورفع الأمر إلى
المفتى ليقضى فى أمرها ، وهل هى تتفق أو لا تتفق مع القرآن . فأصدر
الفتوى التالية : « إن معانى هذه العتائد لا يعلمها إلا الله ومصرى » . فأبيح
تداول أشعار مصرى ، ولكن مع هذا التحذير الذى يقول : « بعد أن

اقرأ المفتي هذه الأشعار والأقوال ، قذف بها في النار ، وأصدر هذه الفتيا :
إن من يتحدث ويعتقد كما فعل مصري أفندي ، يجب أن يحرق ؛ أما
مصري أفندي فيستثنى من هذا الحكم : لأنه لا يمكن إصدار فتوى ضد
من استولى عليهم الوجد والإلهام .

ومن أقوال مصري المشهورة قوله من قصيدة : « أنا الخاتم العظيم
الذي خُتِمت به الظواهر والغيوب ؛ أنا من وهبت جوهرى الوحيد
لكل مخلوق ؛ أنا دائماً مع المسيح ، وسأبقى معه أبداً ؛ أنا المصرى ،
قد كنت لنفسى مَلَك مصر . ما أعمق معانى أقوالى . ولكن لها تفسيراً سرياً
ينظرى على سر مكنون » .

- ٦ -

غبر محروود

أما أنك لا تستطيع الانتهاء ، فهذا ما يجعلك عظيماً !

وأما أنك لا تبدأ أبداً . فهذا نصيبك !

إن قصيدتك يدور كما تدور الأفلاك :

فالبداء والنهاية دائماً عنده سيان

وما يأتى به الوسط هو بعينه

ما يبقى إلى النهاية ، وما كان منذ البداية

أنت ينبوعُ السرور الحقيقي بين الشعراء

والأمواج تجرى منك أفواجا تلو أفواج

أنت فم متأهب أبداً للتقبل

أنت نشيد من الصدر جميل

أنت غدير ساحر السقيا ،
 أنت قلب يفيض بالمنح العليا
 وليتفنن العالم كله ، أى حافظ !
 فإنى لا أريد أن أنافس غيرك ،
 غيرك أنت وحلك !
 فلتنقسم سوبا ، نحن التوأمين ،
 كل ليلام وكل سرور
 فا تحبه أنت وما تحتسيه ،
 يجب أن يكون مفخرتى ، بل وحياتى ،

فهما الآن غنينا ، بنار الوجد المشبوب !
 لأنك الأقدم ، ولأنك الأحدث .

غير محمود : لعلها أنشئت فى ١٠/١١/١٨١٤ ؛ وكانت تحمل هذا
 العنوان : « طبيعة حافظ الشعرية » . ولما نشرت أولاً كان عنوانها :
 « حافظ » ، وذلك فى « كتاب الحبيب للمرأة » ، لأن فيها تعبيراً عن طبيعة
 شعر حافظ الشرقية : من انسياب وتوالٍ فى الترتيب . وقد أوحى بها لى
 جيته ، ما قاله فون همر فى ترجمته لديوان حافظ (ج ١ ص ١٠٤) : الحمر
 والحب ، والساقى والحبيبة ، والورد والببل ، والربيع والشباب ، ولذة
 الرضال ومرارة البعاد والانفصال ، والأنتقاء المزيفون ، والسخرية من
 الزهد ، والإشادة بالجمال ، وتمجيد الشاعر لنفسه والفخر ، تلك هى
 الأقطاب التى يدور من حولها فى أنين وحنين عالم حافظ بين الشمس
 والقمر ، ونجوم الصباح ونجوم الثريا .

وفون همر قد أشار أيضاً إلى طابع السيوالة فى الشعر الشرقى فقال :

« إن وحدة الكل الجميل ، وكمال الأثر الفني المصبوب في قالب واحد ،
هذا كله لن تجده في قصائد حافظ ؛ فإذا فككت البناء الجميل ، ونثرت
الأيات فرادى ، فلنك حينئذ تمتلئ إعجاباً بهذه الدرر اليتيمة الكثيرة ؛
أما قوله : لأنك الأقدم ، ولأنك الأحدث - أما الأقدم فلأن جيته كان
قد بلغ النروة في النضوج الشعري قبل معرفته حافظاً ؛ والأحدث من
حيث أنه أتى فأنثر في جيته حديثاً ، أو لأنه يلبس في شعره حديثاً وجديداً
كل الجدة .

- ٧ -

مقامة

رجائي أن أشارك في مذهبك الشعري :
إن في التكرار لنفسى لذة وانتشاء ؛
سأكون أولاً معنى ، وسرعان ما أجد اللفظ ؛
وللمرة الثانية لا أريد لرنين أن يتجاوب ،
وإلا وجب أن يكون ذا معنى جديد ،
كما فعلت أنت ، أيها المحظيُّ قبل الجميع
وكما أن الشرارة قادرة على أن تحرق مدينة السلطان
إذا سار اللهب ، وأنتج بنفسه الريح ،
فاشتعل من ربح نفسه ؛ حتى إذا ما انطفأ
اختفى في أعلى السماء :
كذلك احترق بلهيبك الخالد

قلبُ ألمانيٍّ قد أشعت فيه القوة من جديد ،

إن الإيقاعات الموزونة لتسحر حقاً

والقريحة تسر بها كل السرور ؛

لكن ، ما أقيح القناعات الجوفاء

لعارية عن المعنى ، الخالية من الدم !

إن الروح نفسها لتبدو غير سعيدة ،

حينما لا تقضى على تلك الصورة الميتة

بعد أن تكون قد أفكرت في صورة جديدة

ملاحظة : أنشئت في ١٨١٤/١٢/٧ ، وكانت تحمل العنوان الآتي :

القوافي الفنية : ثم صرح بجيته بأنه يدين بإلهامه الشعري هنا لحافظ
(الأبيات ١١ وما يليه) ، ولكنه ينكر تقليد الصناعة الفنية للقوافي
الموجودة في الشعر الشرقي ، فلا يحاول محاكاتها (الفقرة ٣) .

والقصيدة يبدو في أظاها أنها تنقسم إلى قسمين ، يناقض الثاني (الفقرة ٣)

منهما الأول (الفقرة ١ ، ٢) . ولكنها في مجموعها تبين عن موقف حافظ ،
فهو يقول هنا إن قصائده الشرقية لا يقدمها كمحاكاة ظاهرية ، في الشكل
والصورة ، لأشعار حافظ ، بل كمحاكاة حرة ألمانية لها ، فلا يلتزم فيها

تلك القيود النمائية في القافية التي يلتزمها الشعر الشرقي ، وبخاصة الفارسي

وإنما المهم في شرقية قصائده جيته ، هو تأثيرها بالروح الشرقية عامة ، لا بهذا
الشكل الخارجي الصناعي الفني ، مما استلهمه جيته من شعر حافظ . وقد

لا يكون بجيته ، قد قصد من هذا إلى الخط من قدر هذه الصناعة الفنية ،
إنما الذي عناه خصوصاً هو الروح الشرقية في صفاتها وجوهرها ، لا في

مظهرها الخارجي ، ذلك المظهر الذي تعلق به ريكرت وبلاتن فجعلوا

أنفسهما أسيرين - لتلك القيود التي يعسر اتباعها في الألمانية ، وقد تكون
يسر في الفارسية أو العربية .

وه « الشراة » التي يشير إليها في أول الفقرة الثانية هي حافظ .

- ٨ -

سر ظاهر

لتد ، لقبوك أي حافظ الأقدس

اللسان الصوفي ،

ولكنهم ، وهم العلماء

لم يفهموا قيمة كلماتك

أنت تسمى عندهم الصوفي

لأنهم يفكرون في شرك تفكيراً أحق

ويقدمون خمرهم المدنسة

باسمك أنت

حقاً إنك لصوفي ولكن لسبب واحد

هو أنهم لا يستطيعون فهمك

أنت ، يا من أنت شعيد ، من غير أن تكون تقياً

ولكنهم لا يريدون بهذا لك اعترافاً

سر ظاهر : أنشئت في ١٠/١٢/١٨٤١

وكان همر قد أورد في مقدمته لترجمة ديوان حافظ (ص ١٢٠)

يه) ، اعتماداً على المترجمين والشرح الشرقيين لحافظ أن حافظاً قد لُقِّبَ

بأنه « لسان الغيب » بسبب المعنى السري المغيب في أشعاره . إذ لم

الجمهرة العظمى من الشرقيين أن تفسر حافظاً بحسب الظاهر كما أشرنا إلى هذا من قبل في « التصدير العام » عند كلامنا عن تفسير حافظ في فصل « جيته وحافظ » . وما أورده همر قول دولتشاه في ترجمته لحافظ : « إن كلمات حافظ في معناها الظاهر بسيطة خالية من التعمية ؛ ولكن لما مع ذلك معنى عميقاً باطناً يكشف عن السر والحقيقة والكمال المطلق . إن شعره أقل أفضاله ومزاياه ، لأنه ليس أقل شهرة في باب قراءة القرآن والزهد والمجاهدة » . فنظراً لما في ظاهر معنى قصائده من حسية وشهوانية ، أحال المتشددون من الشراح والمترجمين له أشعاره الحسية إلى أشعار ذات معان سرية صوفية ، فاعتبروا لغته لغة سرية صادرة من وحى الغيب ، لا من وحى الحس والمشاهدة ، ولذا نعتوه بأنه « لسان الغيب » .

وجيته قد ثار على هذا التفسير كما عرفنا ذلك بالتفصيل في « التصدير العام » فنكتفي هنا بالإشارة إلى الفصل الخامس من هذا التصدير . ويبدو هذا بوضوح من مجرد عنوان هذه القصيدة . أجل ، هكذا يقول جيته في هذا العنوان ، إن حافظاً سر ، ولكنه سر ظاهر ، وليس سرّاً مخياً ، كما يزعم هؤلاء المتزمتون . وقد فسرنا البيت التاسع وفقاً لملاحظة شيدر الوجهية (تجربة جيته الروحية في الشرق ، ص ١٧٦ ، في التعليق على رقم ٢٤) .

نظرة

وهم ، مع هذا ، على صواب ، هؤلاء الذين أزرهم :

فن البين الظاهر

أن الكلمة لا تعنى شيئاً بسيطاً

ألا إن الكلمة لمروحة !

بين ثنائيلها : يرنو زوجٌ من العيون فتان .
وما المروحة إلا نسيج بديع ،
أجل : لأنها تخفى عنى وجه الحبيب ،
ولكنها لا تخفى الغادة نفسها
لأن أجل ما لديها ، وهو عينها ،
نرنو برآقة إلى عيوني .

نظرة : أنشئت هذه القصيدة بعد ١٨١٤/١٢/١٠ ، وقبل
١٨١٥/٥/٣٠ . وكان قد أعطاها هذا العنوان : « استدراك » أو « نسخ »
لا قاله في القصيدة السابقة .

ذلك أن جيته قد اعترف في إنشائه لقصيدة « الشتاء وتيمور » (وهى
القصيدة الأولى من « تيمور نامه » من هذا الديوان) أن تفسيره لحافظ
كصوفى كان خاطئاً ؛ وبأن قصائد حافظ تتضمن أيضاً بالأحرى معنى
ثانياً أعمق هو المعنى الصوفى . لذا كان عليه أن يتجنب التناقض الواقع بين
رقم ٨ هنا وبين قصيدة « الشتاء وتيمور » التى يجب أن تفسر تفسيراً
صوفياً ؛ فلهذا وضع هذه القصيدة . ولعل جيته قد تذكر هنا قول
شرف الدين السعدى فى « البستان » (ترجمة أوليارس ص ٨٣) : « كل
قول من أقوالى . . . كقناع مُسبّل على محيا غادة رائعة الجمال ؛ . . .
فتحت كل حرف اختفى معنى ، كما تخفى الصورة الجميلة تحت غطاء » .
فهذا يشبه كثيراً ما ورد فى الأبيات الأربعة الأخيرة من هذه القصيدة » .

إلى مافظ

لقد عرّفت ما يريدك الكن
وفهمته خير القهم :

لأن الحنين يقيدنا جميعاً
 بأصفاد شداد ، من التراب إلى العرش .
 إنه يؤلم أولاً ، ومن بعد يسر ؛
 فمن يقوى على مقاومته ؟
 إذا تحطمت رقبة الواحد ،
 فسيظل الآخر مستقيماً في ثبات
 ألا فلتغفر لي ، أيها الأستاذ ،
 فأنت تعرف أني كثيراً ما أضل الطريق ،
 حين يجذب البانُ السائر
 إليه عين العاشق الناظر
 إن أقدامها لتهاذى كشعيرات الجذور
 ملاطفة الأرض في رقة وحبور
 وإن تحيتها لتدوب بيسر كما تدوب الغيوم
 وإن أنفاسها لتهمس كالنسيم
 وهذا يُزجي بنا ، تملحونا الأمانى والخواطر ،
 إلى حيث تعانق الغدائرُ الغدائر
 نامية في وفرة من السُّمُرة ذات الزرافين ،
 وفرة سرعان ما تهمس في أعطاف الريح الحنين
 وها هي ذى النجمة ترف في برقان
 كي تصقل قلبك وتضئ عليه اللّمعان
 فأرعى السمع إلى هذا القصيد الجدلان الصريح
 وأرقدى فيها كل الروح

فإذا ما تحركت الشفاه
بكل رقة وأناقة وأناة
تركت لك كل سبيل
للولوج في هذى القيود والدخول

لا يريد النَّفْسُ بعد أن يرتد ويعود ،
والنَّفْسُ إلى النفس لا تقر ولا تقود
إن العطور لتدور على حفافى الهناء
مثرة غيوماً تسرى في خفاء

فإذا اشتعلت بكل قوتها وحالها ،
فأمسِكْ سرباً بشالها
وليمرع الساقى في المسير
وليأت مرة بل ليأت مرات متواليات
إن عينها لتبرق ، وقلها في خفقات ،
وآمالها تتعلق بأفوالك
تود إذا ما سمعت بالروح الخمر والكاس
أن تستمع إليك وهى عالية الإحساس
هنالك تفتتح الأكوان ،

وفى الباطن يشيع نظام وأمان
والصمدن يعلو والشعر يبدأ الاشمزار
آه ! لقد استحال شاباً من جديد

وإذا لم يبق لديك من بعد سير

مما يحتويه القلب والأكوان
فدلفت إلى الحكيم في إخلاص وحنان
حتى يتكشف لك المعنى الممكنون

وليق لنا كنز الأمراء
معتوداً بلواء العروش
وهب الشاه أطيب الكلام
وهبه أيضاً للوزير المعلم

كل هذا أنت تعرف ،
وتغني اليوم والغد تغني
فلتحملنا مصيبتك إذن في إخوان
خلال الحياة بما فيها من نعيم أو أعباء

إلى حافظ : أنشئت هذه القصيدة في كركيزباد في ١١/٩/١٨١٨ ؛
ونشرت لأول مرة في نشرة الديوان الأولى ١٨١٩ في « التعليقات »
على الديوان ، ثم نشرت في هذا الموضع من الديوان نفسه في مجموع
مؤلفاته (المنشور سنة ١٨٢٧) في الجزء الخامس من هذا المجموع الذي
بديء ينشر في اشتوتجوت وتينجن سنة ١٨٢٨ وما يليها . وفي النشرة الأولى
اتبع القصيدة بهذه التعليقة : « إن شاء الخبراء أن يروا صورة حافظ في
هذه القصيدة ، فإن هذه المحاولة ستسر قلب الغربي » ، أي جيته نفسه يسره
أن يرى الخبراء صورة حافظ جلية فيها ؛ فهذا « الغربي » يصور نفسه
هنا على أنه تلميذ وتابع لحافظ ، ويصرح بأن كل ما تغني به أستاذه
(حافظ) في قصائده من حب وخر ، ونصح للشباب ، واتصال بالشيوخ

الحكماء ، ومدح للشاه والوزير - قد ملأ حياة الشاعر الغربي (جيته)
وشعره .

والذشيه بغصن البان السائر الشهور معروف في الشعر العربي ، ومنه
انتقل إلى الشعر الفارسي فأصبح كثير الورد جداً فيه . ومنه قول جامي
في غزلياته : « قد هفت نفسى وقلبي مع البان السائر ، حين مرت بي
تفتى ، مروراً لست أنساه » (عن ترجمة ريكرت ، المنشورة في « مجلة
الجمعية الشرقية الألمانية » ج ٢ ص ٣٥) .

والفقرة الأولى تكشف عن الشبه الكبير بين مسلك كل من جيته
وحافظ : فكلاهما قد خبر الحياة بكل ما فيها ، وتعلق بكل أجزائها من
أدناها (من التراب) حتى أعلاها (إلى العرش) ، ولم يقتصر في شعره
على اتخاذ جانب واحد من جوانب الوجود ؛ ولم يتأثر كثيراً مما يجره عليه
هذا من قيود . فحافظ قد ارتبط بشاه شجاع ، وجيته هو الآخر قد تعلق
بكارل أوجست ، دوق فيمار . ولا ضير على الفن من هذا التصفيد ؛
فإن على الشاعر أن يحافظ على التوازن بين مقتضيات الفن الخالص
ومطالب الحياة العامة ، بدلا من التضحية في سبيل الواحد بالآخر .

ثم ينتقل جيته في الفقرة التالية إلى تأثيره بحافظ في أوصافه وتشبيهاته
فيتغنى بالحب (إلى البيت رقم ٣٢) وبالحمر (إلى البيت رقم ٤٤) ،
وبالحكمة (إلى البيت رقم ٤٨) وبإزجاء المدح للشاه والوزير (إلى البيت
رقم ٥٢) .

ففي الفقرة الثالثة يتغنى بالمحوبة مشبهاً إياها بغصن البان السائر المتنقل ؛
وفي التالية وما بعدها يتغنى بمواطن الأقدام وأنفاس الثغور المتبردة ،
متأثراً في هذا بذكر طيب النثر وتضخ العبير في الشعر الشرقى . ويقصد
جيته من العطور المذكورة في الفقرة الثامنة خصوصاً رائحة المسك ، لأنها

المميز الرئيسي للعطر الشرقى كما يتغنى به الشعراء الشرقيون ؛ كما فى قول
المُرَقَّش الأكبر :

النَّشْر مِسْكٌ وَالْوُجُوه دَنَا نِيرٌ وَأَطْرَافُ الْبَنَانِ عَنْنَمٌ
أَوْ فِى قَوْلِ غَلْقَمَةَ :

كَأَنَّ فَآرَةَ مِسْكٍ فِى مَفَارِقِهَا لِلْبَاسِطِ الْمُتَعَاطِ وَهُوَ مَزَكُومٌ
(راجع « المفضليات » ج ٢ ص ٣٨ ، ص ١٩٧ ، من نشرة
الأستاذين أحمد شاكر وعبد السلام هارون ، طبع القاهرة ، سنة ١٣٦٢هـ =
سنة ١٩٤٣ م) .

وتفتَح الأَكْوَانُ (فى الفقرة ١١) يَأْتِى من استيعابِ تعاليمِ حافظ :
فَبِوَاسِطَتِهَا سَيَسْتَجِيلُ جِيتَهُ إِلَى شَابٍ مِنْ جَدِيدٍ ، فَيَزُولُ الْبَيَاضُ مِنْ رَأْسِهِ .
وَيَسْتَعِيدُ الشَّعْرَ سَمَرْتَهُ ثُمَّ تَتَنَزَّى فِيهِ قَوَى النَّمَاءِ ، فَيَعْلُو صَدْرُهُ وَتَسْرَى بِهِ
سَوْرَةُ الْحَيَاةِ الشَّابَّةِ الْمُتَوَثِّبَةُ .

عشوقه نامه

كتاب العشق

أُنبتني ما الذي يهواه قلبي ؟
إنما قلبي لديك فاحفظيه

— ١ —

نماذج *

- ، إن الأحبة سنة ،
- العشق بينهما مثل .
- زوج هدته كلمة :
- روذا ورستم البطل .
- عاشا ولم يتعارفا :
- هذي زليخا يوسف :
- عشقا بحب لم يجد :
- شيرين تلك وفرهد :
- هاما فجئن أخو الهوى :
- ليلي ومجنون الفلا .
- نعما بحبهما الطويل :
- هذي بثينة مع جميل .
- هوى على مرّ النسيم :
- بسلقي وسلمان الحكيم .

فإذا عرفت هواممُ ،
أيقنت أنك منهمُ .

كتاب العُشوق : أعلن جيته عن هذا الكتاب في « مجلة الصباح »
(سنة ١٨١٦ ، رقم ٤٨ ، ص ١٨٩) هكذا : « كتاب العشق يعبر عن
وجد مشبوب بموضوع خفي مجهول . وإن كثيراً من القصائد التي به لا تنكر
الحسية ، ولكن كثيراً منها أيضاً يمكن أن يفسر تفسيراً روحياً على الطريقة
الشرقية » . وكان العنوان الأول لهذا الكتاب هو : « زليخا نامه . كتاب
زليخا الأول » ثم استبدل به هذا العنوان « كتاب العشق » ، وهذا إنما يدل
على أنه في هذا الكتاب إنما يتحدث عن العشق عامة ، أما في « كتاب
زليخا » فقد تحدث عن تجربة غرامية خاصة به ، هي تجربة غرامه مع مريانه
فون فليمر ، بينما هو في كتاب العشق يقصد العشق عامة ، لا تجربة معينة .

الشعار : هذا الشعار مستعار من حافظ (ترجمة فون همر ، ج ١
ص ١٥٢) حين يقول : « انظر ! إن قلبي يقف أمام الباب ! ولكن
متجده مع هذا وبجّله » (حرف التاء ، ٧٠) .

نماذج : أنشئت في مايو سنة ١٨١٥ أو قبل هذا بقليل ، وكان عنوانها
الأول : « عُشاق » .

وجيته يذكر هنا أسماء ستة أزواج من العشاق المشهورين ، وكل منهم
يمثل نوعاً خاصاً من العشق :

فالفردوسي يحدثنا في « الشاهنامه » كيف التهب قلبا زال وروذابه
بالعشق من مجرد الأخبار التي يرويها الآخرون لكل منهما عن الآخر قبل أن
يتلاقيا . وجيته قد خلط بين زال وبين ابنه رستم ، البطل الفارسي المشهور ،

فظن أن ذلك العشق كان بين رسم وروذابه . فهذا العشق بالخبر هو ما قصده جيته من قوله : « هدته كلمة » أى أوصاف الآخرين منها عن الآخر .

أما الزوج الثانى فهو زليخا امرأة فُطْفِير ، ويوسف النبى . وما كان بينهما أمره معروف وخصوصاً كما ورد فى سورة « يوسف » وفى قصص الأنبياء . أما تصوير جيته لهذا العشق على أنه تم دون أن يعرف أحدهما الآخر فمرجه إلى تصوير الشعراء الفرس لهذا العشق بينهما على أنه المثل الأعلى للحب العذرى البرى . فقد قرأ فى كتاب ديتس بعنوان « ذكريات عن آسيا » (ج ١ ، ص ٣٠) : « لما كان هذا الحب قد انبثق من رؤية جمال يوسف الباهر ، وظل دون أن يظفر بإشباع حِسِّى ، فقد نظر إليه المسلمون على أنه النموذج الأعلى للحب العذرى البرى ، وإن كان عنيفاً ؛ هذا الحب يفضى إلى الحب الإلهى ، لأنهم يروون أن زليخا قد اهتمت فى نهاية الأمر إلى الإيمان . فكان هذا مصدراً لقصة كتبها جامى بالفارسية بعنوان « يوسف وزليخا » . وفيها صُوِّرَ العشق على أنه الميل إلى كل ما هو جميل وخير ونيل ، ومن شأنه أن يرتفع إلى حب الله وعبادة خالق كل جمال ، عن طريق تأمل الجمال الحسى . »

أما الزوج الثالث فهو فرهاد وشيرين اللذين عرف جيته أمرهما من كتاب فون همر بعنوان : « شيرين » ، قصيدة فارسية عاطفية مأخوذة من المصادر الشرقية ، فى جزئين ، ليبتسج سنة ١٨٠٩ .

فهم يذكرون أن المعمار فرهاد قد فقد عقله حينما رأى الأميرة الأرمنية شيرين ، زوج الشاه خسرو الثانى المعروف بخسرو أبرويز (سنة ٥٩١ - سنة ٦٢٨) . ولما جاءه نبأ وفاتها ، وكان نبأ كاذباً ، ألقى بنفسه يائساً من فوق قمة جبل بيستون . وشيرين بدورها قد انتحرت بعد موت فرهاد

وخسرو ، لأن الشاه قد أراد إرغامهما على حبه ، فقد مات كلاهما إذن من أجل الآخر ، ولم يسعدا بجهما ، لذا قال جيته : « ماتا بحب لم يجد » .
 وغرام ليلي والمجنون معروف جيداً لكل قارئ عربى فلا داعى لذكره ، إنما نكتفى بالإشارة إلى أنه كان موضوعاً لقصة جميلة كتبها چامى بعنوان « مجنون ليلي » وترجمها هـرممن إلى الألمانية (ظهرت فى أمستردام ؛ فى جزئين سنة ١٨٠٨) ؛ ثم لقصة أخرى كتبها نظامى أروع من قصة چامى وأشهر ، كما كانت موضوعاً لقراءة عشرين قصة غرامية أخرى فى الشرق (راجع قوليم : « الأدب القومى عند شعرب الشرق » ، ج ٢ ص ١٣٣ ، تعليق رقم ٣) .

والأمر على هذا النحو أيضاً بالنسبة إلى غرام جميل وبثينة ، الذى قال عنه جيته فى « التعليقات » : إن جمبلا وبثينة : قد بقيا مرتبطين بالغرام حتى سن متقدمة جداً . وقد عرف جيته أمر غرامهما من كتاب هربوليه : « المكتبة الشرقية » (باريس سنة ١٧٨١ - سنة ١٧٨٣) ، ترجمة ي . شولتس (هله ، سنة ١٧٨٥) .

والزوح الأخير : سليمان وبلقيس ملكة سبأ ، قد عرف جيته قصته من كتاب « شيرين » لفون همر كما عرفه أيضاً من العهد القديم « ، فى كتاب « الملوك الأول » ، اصحاح ١٠ : ١ - ١٣ ؛ و « الأخبار » ، اصحاح ٩ : ١ - ١٢ ، أو من « نشيد الأناشيد » . كما عرفه أيضاً من سورة « النحل » الآيات : ٢٠ - ٤٥ .

وزوج آخر

أجل ، إن الحب لنعمة كبرى !
 فمن ذا يجد كسباً أجمل منه ؟

نعم ، لن تكون به أقوى ولا أغنى ،
ولكنك ستكون مثيلاً لبطل الأبطال .
إن الناس سيتحدثون عن وامق وعذراء
كما يتحدثون عن الرسول
أو بالأحرى لن يتحدثوا ، بل لاسمهما سيذكرون :
فاسمهما معروف العالمين .
ماذا كفعلاً ، ماذا أتيا :
هذا ما لا يعرفه إنسان !
أما أنهما أحبّا ، فهذا للكل معلوم .
وكفى هذا ، حين يسأل عن وامق وعذراء

وزج آخر : نشرت لأول مرة في « التعليقات » في الفصل الموسوم
« بعنوان : « الديوان المقبل » ، مع هذه الكلمات : « وامق وعذراء مثلاً ،
الذان لا نجد عنهما خبراً عدا اسميهما ، يمكن أن يقدمهما هكذا . . . » .
ويحتمل أن تكون هذه القصيدة قد أنشئت في خريف سنة ۱۸۱۸ حينما
قرأ خبر هذا الزوج من العشاق في كتاب هـ مـ بعنوان « تاريخ فنون القول
الجميلة عند الفرس » (قينا ، سنة ۱۸۱۸) ص ۳۵ ؛ وفيه يذكر هـ مـ
أن قصة غرام هذين العاشقين تقع في زمان النبي ، والمخطوطات التي فيها
ذكرت قصيدة غرامهما قد مُزّقت بفعل التعصب ؛ ولم يتبق لدينا عن هذه
القصة إلا قصة تركية .

والأصل فيها قصة فارسية يزعم أنها مأخوذة من أصل فهلوى ؛ وأنها
قدمت في نيشاپور إلى الأمير عبد الله بن طاهر (المتوفى سنة ۳۳۰ = ۸۴۴ م)
على هيئة كتاب قديم مهدي إلى خسرو الأول أنوشروان (۵۳۱ -

٥٧٩ م) ؛ وأن الأمير عبد الله بن طاهر قد أمر بإحراقها لأن كاتبها زرادشتي . وأيا ما كان الأمر فقد وضعت شعراً ، وضعها عنصري الشاعر الفارسي الكبير ، ومن بعد وضعها فصيحى الجرجاني في سنة ٤٤١ هـ (= ١٠٤٩ م) . وهناك ما لا يقل عن ست تصويرات لها ، كلها فقدت وفي نهاية القرن الثاني عشر الهجري كتب مرزا محمد صادق ، تحت اسم مستعار هو ناي ، قصة منظومة تحمل نفس العنوان .

وتناول هذا الموضوع من بعد في لغة تركية عثمانلية بهشتي (وكان معاصراً للسلطان بايزيد الثاني) وأدخلها في كتابه «خمس» . ومن المحتمل أنه وضعها وفقاً لقصة عنصري وفصيحى . كما تناولها لامعى (المتوفى سنة ٩٣٧ هـ = ١٥٣٠ م أو سنة ٩٣٨ هـ = ١٥٣١ م) . وخلاصة هذه القصة الأخيرة أن وامق ، ابن إمبراطور الصين ، هام غراماً بعنراء ، ابنة أحد الملوك ، وارتحل سعيّاً وراءها ، مرّ بكثير من الصعاب والعقبات التي استطاع اجتيازها بفضل الجن . ثم وجد حبيبتة ، ولكنه وقع في أسر العدو . فلما أرسل إلى الهند ، حيث أراد الناس إحراقه بالنار ، لم تمس النار وامقاً ، فعبده الهنود كإله . فتخلص البطل من أيديهم ، ووجد عنراء وتزوجها . (انظر « دائرة المعارف الإسلامية » ، تحت المادة) .

كتاب قراءة

إن أعجب الأسفار سفر الحب :
لقد قرأته بكل إمعان واهتمام :
قليل من صفحاته تتحدث عن سرور الصب ،
ومصاحف بأسرها تفيض بالأسقام

فالفراق له قسم الأقسام
أما اللقيا من جديد ففصلها ضئيل نحيل
وأسفار الأحزان ، تطيل منها .
والتفاسير ، أوه ما أطولها ، إنها بلا انتهاء ؛
أى نيشانى ! - لقد استطعت فى النهاية ،
أن تكتشف الطريق القسويم ؛
هذا السرُّ المستغلق ، من ذا يقدر على كشفه ،
فيتلاقى العشاق من جديد ؟

كتاب قراوة : أنشئت فى نهاية ديسمبر سنة ١٨١٥ ، أو يناير
سنة ١٨١٦ .

وجيته هنا إنما يحاكى أبياتاً للشاعر التركى المعروف نيشانى ، الذى
كان على عهد سليمان الأول (سنة ١٥١٩-١٥٦٦) ، يقول فيها : « حينما بدأت
تعلم فن الحب ، قرأت بكل عناية فصولاً جديدة من كتاب ملى* بنصوص الآلام
وفصول الفراق . أما فصل الوصال فما كان أقصره وأوجزه ، بينما أسهب
فصل البعاد والفراق والسقام ، وامتلاً بالشروح بلا حد ولا نهاية . إيه
يا نيشانى ! فى النهاية قد هداك دليل الحب سواء السبيل . وإن الأسئلة العديدة
المستعصية الحل لا تجد لها جواباً إلا عند المحبوب » . ويضيف ديتس
(« ذكريات من آسيا » ، ج ٢ ، ص ٣٧١) ، الذى قرأ جيته فى كتابه
هذا القول ، التعليق التالى : « إن قوله : دليل الحب والمحبوب ، يشير هنا
إلى الله . وكل بيت من هذه الأبيات لا يتحدث إلا عن الحب الإلهى » .
غير أن جيته قد خلط بينه وبين الشاعر الفارسى نظامى فى « التعليقات »
على الديوان (ولذا كتبه فى القصيدة هكذا بدلا من : نيشانى) .

أجل ، لقد كانت العيون هي التي ردت إلى ،
 وكان القم ، هو الذى قبلى ،
 والأفخاذ ضيقة ، والجسم مستدير مليء
 يكاد ينبئ عن نعيم الفردوس .
 أكانت هناك ؟ وإلى أين ذهبت ؟
 نعم لقد كانت إياها ، وهى التى أعطيتها ،
 وأسامت قيادها وهى فارة ،
 وملكت على كل حياتى .

أجل ، لقد كانت العيون : أنشئت فى ١٨١٨/٧/٣١ تحت تأثير ذكرى
 مريانه فون قليمير ، ولذا نشرت فى طبعة سنة ١٨٢٧ .

وفى حنين عنيف إلى الأيام العذبة التى قضاهما مع مريانه ، وما نعم
 به منها من لذائذ تفوق كل وصف ، وكلها تعبق بذكرى غرامية ،
 تمكنتها شهوات جامحة .

* متن

لذلى التصفيد فى قيد الغدائر ،
 فجرى ، حافظ ، لى ما قد جرى لك
 ضفروا من شعرها زوج الضفائر
 فعرفنا بينها عذب الممارك
 إنما العاقل من لا يؤسر :

فلذا خاف قيوداً تكسير ،
كان يسرى في قياد ، يحصر

مفتي : إن ذكرى مريانه (في القصيدة السابقة) وغداثرها السمرء
تجعلنا نوّرخ هذه القصيدة قبل ٣٠ مايو سنة ١٨١٥ . وكان عنوانها الأول
« غداثر وعقائص » ، وفيه سخريّة من طريقة تصنيف الشعر واختلافها
بين الشرقيين والغربيين المحدثين ، الذين يعقص النسوة منهن شعورهن على
هيئة ما يشبه الخوذة فوق الرأس ، بينما ترسل الشرقيات غداثرهن
على ظهورهن .

وجيته قد استلهم فيها قول حافظ في مطلع الغزل رقم ٦١ من حرف
التاء (ج ١ ص ١٣٨ من ترجمة فون همر) : « في أحابيل غداثرك أُخْتَلِبُ
قلبي » ، ثم قوله في الغزل رقم ٦٧ : « لئننى نشوان من كثر غداثرك
المجدولة » .

- ٦ -

غارق

هذا الرأس المستدير مليءٌ بالغداثر المتجمّدة !
فلذا ما تنقّلتُ بأيّد مبسوطة في مثل هذا الشعر الجفّال ،
شعرتُ من أعماق قلبي بالشفاء .
وإذا قبلت الجبين والحاجب والعين والفم ،
أصابتنى هزة واستحلت أبدأ إلى جريح .
إن المُشط ذا الأسنان الخمس أين يجب أن يوضع ؟
لقد عاد من جديد إلى الغداثر .

والأذن لا تحجم عن اللعب ،
فليس هنا لحم ، وليس هنا جلد ،
إنه أنيق حتى المزاح ، لطيف كل اللطف !
فإذا لطف المسره الرأس ،
تنقل مرتحلاً دائماً بين هذا الشعر الجفال .
وهذا ما فعلته أنت من قبل ، حافظ ،
أما نحن فقد أوشكنا على البدء به .

غاري : أنشئت قبل ١٨١٥/٥/٣٠ . وكان عنوانها الأول « غدائر »
مما يدل على ارتباطها كل الارتباط بالقصيدة السابقة .
وهي مزاح على طريقة الشعراء الفرس .
أما المشط ذو الأسنان الخمس فهو اليد .
وهي تشبه أيضاً ما يقوله حافظ (القصيدة الثانية من حرف التاء) :
هل مشطت غدائك العنبرية بمشطك ؟ لأن ريح الصبا تنفَس راحة
المسك ، والأرض تعبَق بالعنبر .

- ٧ -

مُقلو

هل لي أن أتحدث عن الزمرد
الذي يكشف عنه بنالك الرخص ؟
أحياناً يحوج الأمر إلى الكلم ،
وغالباً يكون من الخير الصمتُ
وأقول إن اللون أخضر ،

ويبدو مثيراً للعيون !
ولا تَقُلْ لى : إن الألم والتدبة
على وشك أن يثرا الفزع
ليكن ! وفى وسعك أن تقرأيه !
فلماذا تؤثرين ؟ كل هذا التأثير !
« إن جوهرك خطر
بقدر ما الزمرد مثير »

مفلو : أنشئت فى ١٨١٥/٩/٣٠ فى مَهنيم ، فى نفس اليوم الذى
أنشئت فيه قصيدة « حاتم » (« إن الغدائر تخلبنى ») . ولهذا فإن المقصود
بها هنا هو مريانه ، الذى كان تأثيرها فيه مثيراً للقلق والخطر والإنعاش
معاً ، وأكفها الجميلة كانت تشبه الزمرد الأخضر ، وهذا ما أشار إليه فى
أول الفقرة الثانية . وجيته قد قال فى « الأنساب المختارة » (ق ١ ، ف ٦) :
« إذا كان الزمرد يسر الحيا بلونه الرائع ، أجل بل أيضاً يحدث تأثيراً
كالترياق فى هذا الحس النبيل ، فإن الجمال الإنسانى يؤثر تأثيراً أعمق وأقوى
فى الحس الخارج والباطن » .

فالمُتَقَاتِ هنا هو هذا التعارض بين شفاء العيون بلونها الأخضر
الزمردى ، وبين الجرح الذى يحدثه فى القلب البنانُ الحامل لفص
من الزمرد .

وكان الأقدمون يعرفون تلك الخاصية للزمرد ؛ لذا نسبوا إليه قيمة
أعلى من الياقوت . فهم يذكرون أن خاتم بوليكراتس المشهور كان
من الزمرد .

- ٨ -

حبيبي ، أواه ! في أصفاد ثقال
غسّلت الأناشيد الطليقة
التي ترتق هنا وهناك
في أرجاء السماء الصافية الزرقاء ،
كل ما في الكون يفنيه الزمان
وهي وحدها باقية على الدوام !
فكل سطر منها يجب أن يكون خالداً ،
خالداً خلود الحب نفسه

حبيبي أواه ! : أنشئت في منتصف أغسطس سنة ١٨١٩ ، ونشرت
في سنة ١٨٢٧ في هذا الموضع . ويبدو أن جيته قد جعلها كإهداء لنسخة
الديوان التي أهداها إلى مريانه .

وفيها يقول إن ما بهذا الديوان من قصائد خالد خاود حب جيته لمريانه :

- ٩ -

سلى بأنة *

في هزيع الليل ذرّفت الدموع
زافراً أبكى على بُعدك عنى
فانت حينئذ أشباح ليل ،
إذ تبدت ، خجلت نفسى منى :

« أيتها الأشباح إني أشتكى ،
 بعد أن كنت أرى في النوم أسيح .
 إنما يعوزني أعظم خير ،
 لا تسيء فهمي إذن يا ليل واصفح .
 إن من لقيت من قبل حكيماً ،
 قد عرته الآن أحداث جسام ! »
 قلت هذا ، فضت كالحقة ،
 بالحجا والحمق من غير اهتمام .

ملوى بأمة : أنشئت في ١٨١٥/٥/٢٤ في ايزناخ في يوم مليء
 بالأغاني .

وفيها توسع لما يقوله حافظ (حرف اللام ، رقم ٢) : « من أجل
 الدم الذي زرفته عيناي في ليلة الأمس ، استحييت نفسي من أشباح الليل »
 (ترجمة هـ ، ج ٢ ، ص ١٣٢) . ويذكر قُرْم أن جيته تأثر هنا أيضاً
 سفر « أيوب » (أصحاب ٤ : ١٣ - ١٧) . ولكنه في الواقع تأثر بعيد ،
 لأن الأشباح التي تبدت هنا في الليل لها معنى غير المعنى الذي يرمى إليه
 جيته في هذه القصيدة .

رأى

واهم أنت إذا ما كنت تحسب
 أن بالحجب تقاد الغانيات .
 إن هذا ليس بالآمر لبي :

مَلَقًا يفهمن معسول الصفات

الشاعر

سعيدٌ باقتنائها ؛

وعنرى عن تجنبها :

بأن الحب ، ذا جودٌ ،

وفى التمليق تمجيدٌ

رأى : الأشبه أنها قد أنشئت بعد ١٨١٥/٥/٢٤ ٥

والشاعر هنا يقول إنه إذا كان من الخطأ أن يظن الإنسان أن المرأة تماد بالحب الخالص ، كمعاطفة بريئة من كل تملق أو تمجيد أناني ، فإنه كشاعر لا ضير عليه من أن يتملقها وأن يسلك سبيل الملق من أجل الظفر بحبها ، وعنره في هذا أن الحب منحة يهبها صاحبها حراً مختاراً فلا يقدر إنسان على قسره عليها ، ويكفيه هو أن يتغنى بها لأن ما يعنيه حقاً هو أنه يحبها ، لا أنها هي أيضاً تحبه .

- ١١ -

نحية

آه ، ما أسعدَ جندى !

في بلاد الهدهد ،

سِرْتُ ؛ عن قوقع بحر

باحثاً في كل صخر ؛

فأتى الهدهد قربى ،

ناشراً تاجاً بهدب ؛
وعلى الميئت المسجى
كلُّ حى قد تجنى .
قلتُ : « يا هدهد ، ويك !
لماثرٌ للحسن أحكى ،
فسراعاً اذهبين
لحيبي واعلين
كلَّ حبي أبدا
وغرامى المُخلدا .
كن رسولاً بالنبأ
مثلما فى الحقب
بين بلقيس سبأ
وسليمان النبي

نحية : تاريخها فرنكفورت فى ١٨١٥/٥/٢٧

وفىها كما فى القصيدتين التاليتين يعيد جيته ذكرى قصة الهدهد مع سليمان النبي ، حين كان رسولا للغرام بينه وبين بلقيس ملكة سبأ ، كما وردت هذه القصة فى « العهد القديم » (« الملوك » الأول ، ١٠ ؛ « والأخبار » الثانى ، ٩) ؛ وكما أوردتها القرآن خصوصاً فى سورة « النمل » (آيات : ٢٠ - ٤٥) ، ورددها هتر فى مقدمة ترجمته لديوان حافظ (ج ١ ، ص ١٠) وديتس فى « الذكريات » (ج ١ ، ص ١١٥) . وقد تغنى بها حافظ فقال : « نبأ يسرك يا فؤادى ! فالريح الشرقية قد عادت ، وعاد معها الهدهد مز سبأ بالنبأ السعيد » (ترجمة فون هر ، ج ١ ، ص ٢٦٧) . وقد رأى جيته هدهداً حين كان يمر فى ناحية فرنكفورت فى المنطقة المائية الواقعة

بين تاونس وأودنفلاند ودونترزبرج ، فلما رآه توسم فيه رسولا لحب جديد . وقد ذكر جيته هذا أيضاً في رسالة من رسائله إلى مريانه .
أما قوله : « ناشرأ تاجاً بهُذَّب » ، فلعله تأثر فيه قول فريد الدين العطا في قصيدة « منطق الطير » حين قال المدهد في هذه القصيدة : « إن من يبدو رسولا ، لا بد أن يحمل فوق رأسه تاجاً » .

نسيم*

« أنت تَفنى ، ثم تبدو كالخليل ،
أنت تَصوى ، ثم تشلو بالجميل »

الشاعر

إن حبي دائماً يقسو على
ويح نفسى منه جباراً عتياً
إنما أشدو بقلب يَحْتَقُ

ألمُ الحب أوى ركننا خلياً
فرأى فيه فؤادى الصَّفَرِ حياً
فتوى الإثنين فى القفر سويا

نسيم : بتاريخ ١٨١٥/٥/٢٧ فى فرنكفُرت ، ونشرت فى « كتاب الحبيب للمرأة » (لسنة ١٨١٧) تحت عنوان : « مشاركة » . فيها هذا الأبيات الأربعة الأخيرة التى أدخلت فى سنة ١٨٢٧ .

وهى تشارك القصائد رقم ١٠ ، ١٤ ، ١٥ فى موضوع : مشاركة الناس

الشاعر في غرامه ، ومن هنا كان عنوانها الأصلي : مشاركة .

وفى تأثر جيته حافظاً في قوله :

سلوا ، أيها الأخوان عن حال حافظ

شموعاً دواماً في احتراق وفي صهر

(ترجمة فون همر الألمانية ، ١ ، ص ١٤٣) ؛ وقوله :

احترق كالشمع في بشر أليم شاكراً ، ما دمت تحظى بالصدق

(ترجمة فون همر ، ج ٢ ، ص ٣١) .

ويعلق فون همر على هذا الموضع فيقول : « تعلم من الشمعة كيف

تضحك وتبكي معاً : لأن الشمعة تضحك في نور باهر خلال الاشتعال ،

بينما هي تسكب ، منصهرة ، دموعاً حارة » .

والفقرة الأخيرة أيضاً متأثرة بقول حافظ : (حرف اللام ، ١) :

لم يجد سقمك قفراً مثلما في القلب ألا

ولذا اختار مضيق القلب وكرأ فيه حلاً

(ترجمة فون همر ، ج ٢ ، ص ١٣١ ؛ ترجمة روزنستشيج ، ج ٢ ،

ص ١٨٣) ،

ولكن مأس E. Mass يرى في كتابه : « جيته والأوائل » (ص ٤٤٤ ،

برلين سنة ١٩١٢) أن جيته إنما تأثر في هذه الفقرة مقطعة افلاطون الهجائية

ضد أرسطوفانيس : « إن اللطائف (وهم بنات فينوس من جوبيتر

أوباخوس أجلايا ، طاليا وأويفروزيه ، وكن عذراوات جيلات يخدمن على

فينوس) قد نشدن منزلاً لأنفسهن لا ينهدم أبداً : هنالك وجدوا نفس

أرسطوفانيس » .

و مناص

من ذا يستطيع أن يرجو الطائر ،
أن يصمت وهو على المرج الناض ؟
ومن ذا يمنع الشاة أن ترتعص ،
أثناء ما صوفها يجرز ويقص ؟
فهل أتبرم إذن وأتمرد ،
حينما صوفى يتجعد ؟
كلا ! فإن الجزار الذى يقصنى
ليحول بين التبرم وبينى .
من ذا يريد أن يحول بينى
وبين الشدو مسروراً ، للسماء أغنى ،
مستودعاً غنائى السحاب ،
مثل ما حدث معى فى سالف الأحقاب ؟

و مناص : تاريخها : فيزبادن ، ١٨١٤/٨/٣١ ، ونشرت سنة ١٨١٦
« فى كتاب الجيب للمرأة » لسنة ١٨١٧ بعنوان : « غير صابر » : وكان
عنوانها فى المخطوطة : « حرف الشين غزل رقم ٢٢ » ، وفى هذا إشارة
إلى أنه تأثر هنا حافظاً فى قوله (حرف الشين غزل رقم ٢٢) :

أين من يرجو : من الأطيّار صمّتا

وهى تشدو بالأغاني فى المروج ؟

فإذا كنتُ إلى إترك أصبو
فإذن أين أنأتى ، أين صبرى !
(ترجمة فون اهر ، ج ٢ ، ص ٨٧) .

على عيون الحبيب ،
دارت جميع القلوب ؛
إني بهذا عليم ،
معناه عنلى مقيم
معناه أنى بهواها
أحيا وما لى سواها
فامضوا بهذا الحنين
أو بالهوى فالأنين
حقا ! بعين قوية
جئت يجر البرية
وامت ترف السعادة
للصّب عند الوسادة

سر : تاريخها كالسابقة ؛ وقد نشرت أولا بعنوان : « سر سعيد » ،
وأعلن عنها هكذا فى « مجلة الصباح » سنة ١٨١٦ ، برقم ٤٨ : « وجد
مشبوب بموضوع خفى غير معلوم » .

وقد استلهم فيها أبياتاً لحافظ يقول فيها (حرف الدال ، ١١٠) :

دُهِشَ الأغْرار من عَيْنِ حبيبي ؛
وأنا مثلُ الذي أيدو عليه ،
بينما يدرون من أمرى خلافة

(ترجمة فون همر ، ج ١ ، ص ٣٦٨) .

- ١٥ -

أكبر سرا

نحن في جد واهتمام ، كى نعرف ،
نحن المولعين باصطياد النوادر ،
من ذا يكون حبيبك ،
وهل كان لك كثير من الأصهار

أما أنك مُدّله بالغرام ، فهذا بادٍ نراه
فليت نفسك تنعم بمن تهواه
أما أن حبيبك هكذا يهواك
فهذا ما لا نستطيع أن نوّمن به ،

ألا فلتبحثوا عنها ما شئتم يا أحبابي ،
ولكن استمعوا إلى قولى :
سترتاعون حين تكون واقفة هناك !
فإذا غالت ، ناغيتم خيالها

فهل تعرفون كيف خلع شهاب الدين

ثيابه وهو فوق عرفات :
لأنكم لا تصفون بالحمق
من يأتي مثل ما فعل

فلذا ذكر اسمك
أمام عرش السلطان
أو أمام الحبيبة
فليكن ذلك لك أعظم جزاء

لذا كان أعظم الأحران ،
أن يطلب « المحنون » وهو يموت
أن لا يذكر اسمه بعد
أمام « ليله »

أكبر سرا : أنشئت قبل ١٨١٥/٥/٣١ :

وهذه القصيدة تتعلق بمارية لدوفكا ، امبراطورة النمسا الفاتنة الشابة
التي كان جيته يقدسها حتى العبادة . ولكنها شاعت ألا يذكرها الشاعر
في أى مؤلف من مؤلفاته . فوعدها جيته بأن يظل مخلصاً لها في قلبه ؛ وأن
يضلل الباحثين عن تقديمه لها ، بأن يجعل إشاراته إليها عسيرة الفهم كل
العسر ، فلا يستطيع « المولعون باصطياد النوادر » أن يعرفوا « ماذا
يكون حبيبه » .

وفي الفقرة الرابعة يرمز جيته إلى مكانته العالية لدى هذه الحسنة
الممتازة بقصة عرفها من « كنوز الشرق » (ج ٤ ، ص ١٧٠) تُروى عن
الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي ، شيخ مشايخ الصوفية في عصره ،
وخلاصة القصة أن الشيخ كان يصعد جبل عرفات ؛ فلما رأى خلقاً كثيراً

قد تبعه قال لنفسه : أوتحسبن أن مكانتك عند الله كما يتصورها هؤلاء الناس ؟ هنالك ظهر أمامه عمر بن الفارض وقال له : « إني أحمل إلى قلبك رسالة سعيدة ! اخلع ثيابك (كى تظهر شكرك لله) ؛ لقد كنت موضوع تفكير من تهواه ، على الرغم من كل ما فيك من عيوب ونقائص » . فخلع الشيخ شهاب الدين ثيابه ودخل الحرم .

أما الفقرة الأخيرة فتعبّر عن شعور الشاعر بعذاب الفراق ، رامة إلى هذا بقصة مأخوذة من « بستان » للسعدى (ترجمة أوليارس ، ص ٤٤) : « قال مجنون (ليلي) : إني لا أستطيع أن أكون رضى البال ، لأنى بعيد عنها كل ذا البعد الكبير . فسأله الآخر : فهل لديك شيء أكون رسولك إليها به ؟ ولكن المجنون أجاب : لا حاجة لأن أنكر حيث هى توجد » .

ولما كانت مارية لدوفكا قد توفيت في ١٨١٦/٤/٧ ، فقد كان لهذه الفقرة الأخيرة معنى مؤثر كل التأثير في جيته حينما نشر الديوان سنة ١٨١٩ .

تفكير نامہ

كتاب التفكير

-- ١ --

استمع إلى النصيح تسديه القيثارة ؛
وما يفيد إلا إن كنتَ ذا جداره ؛
إن خير الكلام ليقابل بالازدراء .
حين يكون السامع ذا أذن صماء .

« بماذا تغني إذن القيثارة ؟ » إنها ترن :
« إن أجمل العرائس ليست خيرهن ؛
ولكن ، إذا كان علينا أن نعدك من بيننا ،
فعليك أن تريد الأجل الأصلىح »

كتاب التفكير : أعلن عنه جيته في « مجلة الصباح » (سنة ١٨١٦ ،
برقم ٤٧ ، ص ١٨٠) هكذا : « إن كتاب التفكير نوع من الأخلاق
العملية وحكمة الحياة ، وفقاً لعادات الشرق وطباعه » .

وكما يلاحظ جُندولف (ص ٦٥٥) على هذا الكتاب بحق ، « إن هذا
الكتاب غير ظاهر الوحدة ، يكاد أن يكون مجموعة من الخواطر المتناثرة
التي وضعها جيته في ظروف مختلفة ثم جمها من بعد في هذا الكتاب ؛ ثم
في كتاب « الأمثال » الذي يشبه في هذا التفكيرك .

والطابع البارز في هذا « التفكير » هو النزعة الواقعية الساخرة
في تشاؤم رشيق .

اسمع الى : أنشئت في يوليو سنة ١٨١٤ .

وتعتبر هذه المقطوعة شعاراً « لكتاب التفكير » كله . وفيها تأثر حافظاً
حين قال (حرف الياء ، رقم ٧١ ؛ ترجمة فون همر ، ج ٢ ، ص ٤٥٩) :
اسمع النصيح من القيثارة يُسَدَى !
ليس يجدى النصيح إلا كنت أهلاً

- ٢ -

خمسة أشياء

خمسة أشياء لا تلد خمسا ،
فأزع سمعك لهذا المذهب :
القلب الصفيق لا ينبت الصديق ؛
أبناء الوضاعة سوء الأدب عندهم بضاعة ؛
لا يبلغ السوء مهما علأ أى علأ ؛
الحسود لا يرحم المفقود ؛
الكاذب الميآن ينشد عبثاً الإيمان .
احفظ هذا عني ولا تدع أحداً يسلبك إياه

خمسة أشياء : أنشئت في ١٨١٤/١٢/١٤ في بينا ؛ والمخطوطة تذكر
كمصدر لها الفصل السادس والأربعين من « بندق نامه » (كتاب الإرشاد)
لفريد الدين العطار ، وقد قرأه جيته في ترجمة سلفستر لى ساي الفرنسية
(المنشورة في « كنوز الشرق » ، ج ٢ ص ٢٢٩) ، وفيه يقول العطار :
« إن خمسة أنواع من الأشياء ليست مطلقاً ناجحة عن خمسة أخرى ، ولا يمكن
أن تصدر عنها : فانقش في ذاكرتك هذه النصيحة التي تتلقاها عني :

إن الصداقة لا توجد مطلقاً في قلوب الملوك ؛ فلك حقيقة لاشك فيها
تؤيدها شهادة الراسخين في العلم أجمعين . لن تجد أديباً عند قوم لثام . الرجل
السيئ الخلق لن يبلغ مكانة عظيمة أبداً . الحسود ليس أهلاً لأن تتوقع
منه إخلاصاً .

- ٣ -

خمسة أخرى

أى شيء يقصّر الزمان ؟

إنه العمل !

أى شيء يجعله غير محتمل ؟

إنها البطالة !

أى شيء يجلب الخطايا ؟

المثابرة والتساهل

أى شيء يأتي بالكسب ؟

عدم التكبر الطويل

أى شيء يرتفع بك إلى صدر الشرف ؟

النخوة والمروءة

خمسة أخرى : أنشئت في ١٨١٤/١٢/١٦ كقطوعة معارضة للمقطوعة

السابقة ، كما يظهر خصوصاً من العنوان الأصلي الذي وضع لها : « خمسة
أشياء عقيمة » و « خمسة أشياء منتجة » .

وفي « الشيء » الأول إشادة بالعمل والنشاط ، مما يمثل نزوع جيته
الأصيل . فهو قد أشاد بالفعل في كل مؤلفاته ، فجعل « الفعل » في البدء

لا « الكلمة » ، أى التفكير والعقل ، كما فى « فاوست الأول » ؛ وكرر هذا المعنى هنا فى هذا الديوان ، فقال : « لا زال النهار ، فانهض أيها الرفيق ! لا تضع من وقتك فتيلًا ! فقد أوشك الليل على المحبىء ، حيث لا يستطيع العمل إنسان » . وقال : « لأن الحياة الحقنة تحيا فى براءة الفعل الخالدة ، دون أن تؤذى فى هذا أحداً غير نفسها » . وقال فى « بَندورا » : لا أريد لنفسى أعياداً أو حفلات ! فإنى لست أهواها : فالليل يكفل للمتعب الراحة والسلام . والفعل البديع هو العيد الحقيقى للإنسان » . كما قال أيضاً فى « الأمثال المقتفاة » : « هات شيئاً أعمله ! إن ذا خير الهدايا ! ليس يرتاح فؤادى : إنه ينشد خلفاً » . ويقارن بين العقل والفعل فى « سنوات نشئة فلهم ميسر » فيقول : « إن العقل يوسع ، ولكنه يُضعف . والفعل يُجىء ، ولكنه يُحدِّد » . وقيمة الفعل عنده فى عملية الفعل ، لا فى نتيجته : « عملية الفعل هى البديعة ، لا الشئ المفعول »

وهذا الميل هو الذى جعله فى « الشئ » الراجح يعتبر الكسب من نتاج عدم التفكير الطويل . لأن هذا هو الذى يجعل المرء يشك ، بينما قلة التفكير تجعل العزيمة ماضية . وفى هذا المعنى قال لانتلتر فى سنة ١٨٢٨ : « نحن لا نعرف إلا طالما كنا لا نعرف إلا القليل : فكلما ازدادنا تعلمًا ، ازدادنا شكًا » .

ما أبجل نظرة الغادة حين ترنو بعينها ،
وما أبدع نظرة الشارب قبل أن يشرب ،
وسلام على السيد الذى يستطيع الأمر ،
وتحية للشمس المضيئة فى أيام الخريف .

ولكن الأروع من ذا كله أن ترى بعينيك
أكفئاً ناحلة تراحم في لطف
من أجل عطايا صغيرة ،
شاكرة برقة وهي تتلقى ما تقدمه إليها ،
أى نظرة ! أى تحية ! وأى سعى جميل !
نأمله جيداً ، تجدد دائماً

ما أحمل : أنشئت إبان الرحلة في تبرنجن في ١٨١٤/٧/٢٦ . وقد طبعت
هذه والتالية من أجل إعانة المحاربين ، في « عطايا المحسنين » لجوبتس
(ج ٢ ، ص ١ ، برلين سنة ١٨١٧) بعنوان مشترك هو : « لذة العطاء » ،
وفي هذا المعنى قال جيته أيضاً : « لو كانت للإنسان عين ترى أى
جمال في اليد الآخذة الهبة ، لأعطى كثيراً من الصدقات » . وقال مرة أخرى
في « الأمثال المُقَفَّاة » : « إن شئت أن تحظى بخير من الخير الذى في داخل
نفسك ، فاصنع الخير في العالم الموجود خارج نفسك » .

- ٥ -

ما ورد في « پند نامه » مسطور في صدرك :
كل من تعطيه بنفسك ، يحبك كما تحب نفسك ،
فقدّم الدرهم مسروراً ، ولا تكنز من الذهب تراثاً ،
وقدم الحاضر على الذكري .

ما ورد في بند نامه : أنشئت ونشرت كالسابقة .

والموضع في « پند نامه » الذى تشير إليه القصيدة هو الفصل التاسع
الستون من كتاب العطار هذا ، وفيه : « إن أردت التصديق بشيء ،

فلتكن يدك هي التي تقدمه ، ولتكن ثروتك التي توزعها بنفسك وصية
وهبة لإقامة أود الفقير . فالأفضل أن تعطى درهما بيدك من أن تخلف
مائة بعد موتك ، (من ترجمة دى سامى ، فى « كنوز الشرق » ، ج ٢ ،
ص ٤٥٩) .

و « الذكرى » (فى البيت الرابع) هي الذكرى بعد الموت :

- ٦ -

لست تدرى ، حين بالقيس تمر ،
أى يوم ينتهى نعل جوادك ؛
لست تدرى ، حين بالكوخ تمر ،
إن يكن فيه ثوى مهوى فؤادك ؛
ربما تلتقى فتى ذا فتنة ،
لست تدرى ، غالب أم تغلبه ؛
عن يقين تنبئ عن جفنة
أنها تحمل خيراً تطلبه ؛
وهنا بالكون والدنيا تسر
وعدا هذا فلا أبغى أكرر

أنشئت فى فرنكفورت فى ١٨١٥/٥/٢٧ .

وهذه القصيدة غامضة فى معناها ، غموضها فى مصدرها . ولعل جيته
يقصد منها إثارة الاهتمام بكل شيء حتى ولو بدا حقيراً ؛ فلعلك أن تجد
يوماً ، فى الكوخ الذى تمر به ، مهوى فؤادك ومنتهى آمالك ، وعلى الإنسان
إذن أن يلاحظ كل شيء ، حتى المشكوك فيه ، الباعث على القلق . كما
يهيب بنا أن نترى قليلاً ونحد من طامحننا ، لأننا « لا ندرى متى ينتهى

نعل جوادنا ، أى لا نعلم مصير ما نأتى به من أفعال ، ومتى تم ، وعلى
أى نحوٍ ستم .

- ٧ -

نحية المجهول بجلها كالخليل

وبعدما قليل توادع الرحيل

لمشرق تسير ومغرباً يدور

وتغرب المدهور كلا كما يحور

هنا اللقاء من ثان فيهتف الإثنان :

« أأنت حقاً دأى من بعدذا الزمان !

من بعد ما ارتحال وكثرة التجوال

فى البحر والأدغال فى الماء والرمال ! »

تبادلا البضائع وقسماً المنافع

ورفا المدامع لحسن هذا الطالع

وأول التحية ذو قيمة سنية

فبادل التحية من يبدأ التحية

أنشئت فى بينا فى ١٨١٩/٧/١٢ وأدخلت فى الديوان فى سنة ١٨٢٧ ،
وهى موجهة إلى الكونت فون جنسيناوكستسيل ، لأنها رد على خطاب
أرسله هذا إلى جيته ، فكتب جيته هذه القصيدة وأرسلها إلى أوتيليا فى
١٨١٩/٧/١٢ مع هذه الكلمات : « إن ذكائك لن يعد من يعرف ما فيها .

من إشارة موجهة إلى الكونت جنسيناو ، كما ترين : جواب ، وذكرى ، واعتذار ، وشكر وماذا أيضاً مما أتوسم منه خيراً .

وجيته قد تأثر فيها بالآية : « وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا ، أَوْ رُدُّوها ؛ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً » (النساء : ٨٨) ؛ ثم بكثير من الأمثال الألمانية . التي من هذا الباب .

- * ٨ -

هُمُ تَغْتَوُوا بِخَطَايَاكُمْ كَثِيراً ،
بَذَلُوا فِي نَشْرِهَا جَهْداً كَبِيراً
لَيْتَهُمْ أَيْضاً بِخَيْرٍ تَمْلِكُ
حَدَّثُوا ، أَوْ أَى دَرْبٍ تَسْلُكُ !
لَيْتَهُمْ ! ! وَاها إِذْنٌ سَجَدَتْ مِنْهُ
بِالْتَّنَا الصَّافِي عَلَيْهِ الْكُلُّ ضَنْ
صَرَتْ تَلْمِيزاً يَرْوِينِي الْحِكْمَ ،
فَإِذَا أَخْطَأْتُ أَدْرَانِي النَّدَمَ .

هم تغتوا بخطاياك : أضيفت في طبعة سنة ١٨٢٧ .

وفي هذه القصيدة يرد جيته على هؤلاء الذين دأبهم الإنكار والجحود واقتناص الشارد من الأخطاء ؛ والاقتصار على هذا النقد السلبى ، وإن كانوا يزعمون من ورائه أنهم يقصدون به التقويم لا التحطيم . فهو يقول لهم : إن ذكر الأخطاء والنقائص وحدها لا يفيد فى التوجيه والتهذيب ، بل لا بد أن ينضاف إليها أيضاً ذكر المحاسن وتعداد الفضائل . وبإليتهم قد دلوا على السبيل القويم مع هذا النقد ! إنهم سيكونون صادقين فى النقد

مشكورين ، وسيكون المرء على استعداد لأن يتلقى عنهم هذه العظات وأن يكون لهم تلميذاً ، وأن يفيض عليهم بالحمد والثناء الجميل ؛ فأندم حينئذ على ما أرتكب من أخطاء ؛ وهذا الندم سيكون أستاذى الأكبر .

- ٩ -

إن السوق ليغريك بالشراء ،
ولكن العلم فى ازدياد ونماء .
إن من ينظر حوالىه فى سكون وانقهاد ،
يعرف كيف يهديه الحب سبيل الرشاد .
فإن كنت أجهدت نفسك فى الليل والنهار ،
راغباً فى السماع وللعلم فى استكثار :
فاستمع إلى باب آخر
كيف يخلق بك أن تعلم .
إن كان الحق عندك واحداً
فاشعر فى الله بما هو حق
وإن من يحترق بلهب الحب
لهو الناعم برضا الرب

إنه السوق ليغريك بالشراء : أضيفت هى الأخرى فى طبعة سنة ١٨٢٧ .

وهى سلسلة متوالية من الأمثال التى تدور حول موضوع أن العلم بدون الحب ليس بذى غناء ولا قيمة . ودثتستر ، شارح جيته المشهور ، يفسر كلمة السوق هنا على أنها معاهد العلم . ونظن أن هنا إشارة إلى « أوهام السوق » التى تحدث عنها فرنسيس بيكون ، وهى الناشئة عن العلم الموروث المحفوظ فى اللغة .

والمعنى الباطن لهذه القصيدة هو أن المعرفة الحقيقية هي تلك الصادرة
عن الحب ، لا تلك المأخوذة من بطون الكتب . وهذا الحب هو الحب
[الإلهي الصوفي الذي هو عاطفة ومعرفة معاً . والذي يجعل له هذه القبة هو
أنه تجربة حية روحية ، وليس نوعاً من المعلومات التي لا تتصل
بدم الإنسان .

- ١٠ -

سَمِعْتُ - هَبَاءَ - ان أَكُون مَهْدَبًا
فَأَمْضَيْتُ مِنْ عَمْرِى السَّنِينَ هَهْدَبًا
تَهْدَبْتُ ، لَكِنْ مَا تَهْدَبْتُ مَشْرَبًا
فَحَاوَلْتُ أَنْ أَتَنَّى لِنَمَاءٍ وَثَلَبًا
وَلَكِنْ نَفْسِي لَمْ تُطَقْ ذَاكَ بِطَلَبًا
فَقُلْتُ لَهَا : الْاَوَّلَى بَقَاىِ مَهْدَبًا ؛
فَذَلِكَ أَبْقَى ، رَغْمَ أَنْ كَانَ أَصْعَبًا .

سَمِعْتُ هَبَاءَ ... : أُضِيفَتْ أَيْضًا فِي طَبْعَةِ سَنَةِ ١٨٢٧ .
وَفِيهَا بِسْطٌ لِمَثَلِ أَلْمَانِي قَدِيمٍ يَقُولُ : « الشَّرِيفُ يَلُومُ ، وَالتَّنْدَلُ هُمُومٌ » .
وَلِمَثَلِ آخَرَ يَقُولُ : « الشَّرَفُ يُغْنَى ، وَإِنْ كَانَ بَيِّطًا يَأْتِي » .

- ١١ -

لَا تَسْلُ مِنْ أَىِّ بَابٍ
فِي بِلَادِ اللَّهِ جَنَّتَ ،
وَالزَّمْ دُونَ ذَهَابِ
أَيْمًا بَيْتًا نَزَلَتْ
وَتَفْقَدُ بَعْدَ هَذَا

كلّ قَرَمٍ وحكيم ،
فخذ الحكمة عن ذا
واستفد بأس العظيم
فإذا صرت مفيداً
وسعيداً في البلاد
صِرْتَ محبوباً فريداً
ليس يَقلِّيك العباد
وهنا كلُّ أمير ،
يعرف الإخلاص حقاً ،
ولمّا جنب الأخبِر
القديم العهد يبقى .

أنشئت في ١٨١٥/٥/٣٠ في فيزبادن ، كتحية لليوبيل الحسيني للخدمة
للمستشارين كروس وشرت في فيمار . وفي ذلك اليوم كانت لا تشتمل
إلا على هذه الفقرات الأربع ؛ ولكن أضيف إليها في ١٨١٥/٦/١٠
الفقرات التالية :

فإذا أتممت ، بقوة ورفق ،
الدائرة الطاهرة لمجرى حياتك
صرت أيضاً صورة نموذجية
للشباب يحتذون مثالك
وهكذا أنتم ، يامن يحتفل بكم اليوم
أيها المختاران قبل عديد الألوف
اشعروا ، من جديد بهذا الواجب

الذى كان عندكم دوماً مقدساً
ولتغفر أبها الحفل السعيد
لهذا المتأخر من النشيد
الذى يمجد يومكم الجميل
من ضفاف الرين العتيق

وفي هذه الصورة أرجلها جيته في ١١/٦/١٨١٥ من فيزبادن إلى فيمار
باسم أوجست فون جيته ، مع هذه الكلمة : « سلمها إلى الاثنين المحتفل
بهما مع تحيتي الحارة الجميلة » . وفي الفقرة الأخيرة من هذه الفقر الجديدة
يعتذر عن تأخره في الاحتفال هما .

ثم أدخل جيته القصيدة في « الديوان الشرقى » في سنة ١٨٢٧ على
الصورة الأولى (أى الأربع فقرات الأولى ونحدها) ، ووضعها في هذا
المكان لأنها تكون والقصيدة التالية نظرة في حياته .

وهو في الأبيات ٩ - ١٤ قد تأثر ديتس (« كتاب قابوس ») ، ص
٨٤١ ، برلين سنة ١٨١١) : « بعد أن وجدك القيصر أهلاً للخدمة ؛
وأنت ساهر مخلص أمام بابه : فإن ثقته بك ستتمو وتزداد » .

جث من أين ؟ وما أصل سبيلي
كيف عشت ، كيف سرت ، لست أدري ؛
في ليالى الأنس واللهم الجميل ،
تلتقى الأحزان أخدانا لبشرى ؛
آه ما أسعد لقياء الحاليتين !
فوحيداً كيف لهوى ، كيف حزنى ؟

مُت من أين : في ١٨١٨/٧/٢٥ التي جيته ، إبان رحلته إلى كرازباد بالدوقة أودونل ، التي كانت وصيفة نشيطة للقيصرة ماريا لدوفكا التي توفيت في ١٨١٦/٤/٧ ؛ وكان التقاء من غير انتظار في عودته من رحلته ، مر في ١٣ سبتمبر بفرنسبادن وحيداً ، فانسابت الحواطر في نفسه ذكرى لتلك المحادثة ؛ وعبر عنها في هذه القصيدة الصوفية التي هي « تحية أرواح عذبة في اللانهاية ، وصدى حلو أخير لأيام اجتماع آليف قد مضت » .

والقصيدة تتضمن أفكاراً شرقية وغربية معاً . ففيها تشابه مع قول حافظ : « لماذا أنيت ، ومن أين جئت ، هذا مجهول على الدوام » (حرف الميم ، ١٩ ، في ترجمة فون همر ، ج ٢ ص ١٨٠) ومع ماورد في « أمثال سليمان : « دروب الإنسان تأتي من المنان . فأى إنسان يفهم دَرْبِه وسبيله ؟ » (أصحاح ٢٠ : ٢٤) . كما تتفق مع أمثال الألمانية قديمة شائعة مثل : « أنا أحياء ، ولكن لست أدري إلى متى ؛ وسأموت ، ولكن لست أدري متى ؛ أنا أسافر ، ولكن لا أعلم إلى أين : وإني لأعجب من كوني مسروراً » .

وجيته قد كرر هذا المعنى ، فقال في « اجونت » : « إلى أين المسير ، من يدري ؟ إنه لا يكاد يذكر من أين أتى » (٢ : ٢) ؛ وقال مرة أخرى : « لماذا ؟ متى ؟ أين — لا جواب عنه من السماء ! اقتصر على كيف ، لا تسأل عن لم ! » (الله والقلب والعالم) :

وفي البيت الأخير تعبير مؤثر عن حزن جيته العنيف على ماريا لدوفكا .

الواحد تلو الآخر يجري وسير ،
بل وقبل الآخر أحياناً يصير ؛

فاجعل سُبُل الحياة إذن تنساق
مندفعة سريعاً في جراءة وانطلاق
إن الأزهار تنظر إليك عن عُرْض بقاءه ،
مستوقفة إياك كي تقطف منها ما تهواه ،
ولكن لا شيء أدعى إلى النكوص
من أن تكون من قبل زائف الطريق .

الواحد تلو الآخر : أضيفت إلى الديوان في طبعة سنة ١٨٢٧ ، وفيها استمرار لتأملات جيته في سبيل الحياة . وهي متأثرة بأنشودة روحية ليوهان باپتس بعنوان : « التوكل على الله » ، مطلعها : « فوضت أمري للإله » ، وفيها يقول : « المرء يحمل الواحد تلو الآخر » . وقد اقتبس جيته هذا البيت في خطابه إلى كنيبل (١ : ١٠) . ويمثله أيضاً قول جلال الدين الرومي (ترجم في « كنوز الشرق » ، ج ٥ ، ص ٢١٣) : « اليوم يموت هذا ، وغداً يموت ذاك ؛ فانتفع بالفرصة سعيداً بها ؛ فهذه هي اللحظة التي يمكن فيها فعل الخير على الأرض » .

حذارٍ من النسوان في كل مَدرَج ؛
بَراهن من ضُلُوعٍ ، إلهي ، أعوجِ
ولم يستطع إبراءهن قويمَة
فإن شئت أن تثني ، تكسرن فجأة
وإن شئت أن تبقي ، تلوين أكثرَا
آدم ؛ حقاً كان أمرك أعسرا ؟

حذار من النسوان في كل مطلع
فلا خير تجني أنت من كسر أضلع

مزار من السَّوانه : أنشئت قبل ١٨١٥/٥/٣٠ .

وهي ترديد للحديث النبوي المعروف : « إن المرأة من ضلَّع ، وإنك
إن تُرد إقامة الضَّلْع تكسرها ، فدارها تعش بها » ؛ أو في صيغة أخرى :
« استوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن خلقن من ضلع ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ،
وإن تركته لم يزل أعوج » ؛ أو في هذه الصورة : « إن المرأة خلقت من
ضلع عوجاء لن تستقيم لك على طريقة ، فإن استمتعت بها ، استمتعت
بها وبها عوج ، وإن ذهبت تقيمها كسرتها ، وكسرها طلاقها »
(عن أبي هريرة) .

وقد قرأ جيته هذا الحديث مترجماً في « كنوز الشرق » (ج ١ ، ص
٢٧٨) ، وهو قد قال في محادثاته مع أكرم (١٨٢٨) : « إن النسوة أوان
من الفضة نملأها نحن بالفاكهة الذهبية : وإن فكرتي عن المرأة ليست
ناشئة من التجربة الواقعية ؛ إنما ولدت معي ، أو نمت يعلم الله كيف » .
ولكن حكمه هنا على المرأة فيه متابعة للشرق أولى من أن يكون معبراً عن
رأيه الحقيقي فيها .

إِنَّمَا الدُّنْيَا مَزَاحٌ	أَسْقَمَ الْفَمَ وَمَرَا
فَالَّذِي يَعُوزُ زَيْدًا	غَيْرُ مَا يُعُوزُ عَمْرًا
ذَاكَ يَكْفِيهِ قَلِيلٌ	ثُمَّ ذَا يَبْغِي الزِّيَادَةَ
وَالَّذِي فِي الْوُسْعِ يَلْهُو	بِالَّذِي فِيهِ السَّعَادَةُ

وإذا البؤس تجلّى حمّل المرء كبريها
هكذا حتى يُوارى دون أن ينعم فيها

إنما الدنيا : أضيفت إلى الديوان في طبعة ١٨٢٧ ، لارتباطها
بالقصيدة التالية :

وفيها نظرة متشائمة كتلك التي تشيع في أكثر كتاب التفكير هذا

- ١٦ -

حياةُ المرء في الدنيا كمثّل الوَزَّ في السير
فكلُّ يبلّغ المقصود د بالقدر الذي يجري

ولا ينبغي به وفقا

ثمّول الناس إن الوَ زّ معتوه ؛ فلا تحفل
بما قالوه بهتانا فإن الوز إن أجفَل

أشارت نحوه خلفا

ولكن الذي في الكو ن ، حيث الدفع ، مقلوب
فإن أخفقت لن يسأل صديق عنك محبوب

وما خلفاً يُرى طرفا

مياة المرء : أنشئت في بينا في ١٨١٤/١٢/١٥ .

وقد اختلف في المعنى المقصود من التشبيه بالإوز ، فقال بعض النقاد
إنه يشير إلى لعبة خاصة من نوع الرّد تلعب على لوحة مقسمة إلى خانات .
تقوم فيها أشكال إوز تدفع إلى أمام بالقدر الذي توضع فيه نقط في الخانات .
ولكن بعضاً آخر منهم يرى أنه لا يشير إلى شيء من هذا هنا .

وعلى كل حال فالمعنى واضح على العموم : وهو أن الناس في الدنيا يدفع بعضهم بعضاً في طريق الحياة ؛ ومن يستقط منهم لا يحفل به الآخرون ، بل يستمرؤن في سيرهم قديماً دون أن يلتفتوا إلى الوراء .

— ١٧ —

تقول : « إن الأيام قد أخذت منك في غير إقتار :
أخذت لذة التلاعب بالمعاني والأفكار ،
وذكرى المداعبات العذاب
ولا غناء في التجوال
خلال الأرض الواسعة التي عرفناها في غابر الأزمان ؛
بل ولا رونق المجد يُعترف به من الأعلون
ولا الثناء الذي كان قبلاً يسرك ؛
ولا لذة بعدُ تفيض مما تأتي به أنت من أفعال
بل تُعوزك هربة تدفع بكل جسارة !
ولست أدري ماذا بقي لك بعد خاصة ؟ »
بقي لي ما يكفيني : بقيت الفكرة والحب !

تقول إنه الأيام : أنشئت في ١٨١٨/٢/١٩ في مُنزل الصنوبر في كامسدورف بالقرب من بينا ونشرت في طبعة ١٨٣٧ .

والشاعر في هذه القصيدة يريد أن يتألمى على العهود الحالية التي كانت الدنيا تعطيه فيها أكثر مما تأخذ ، بينما العهد الحالي يأخذ أكثر مما يعطي ، وهذا شبيه بقول هوراس المشهور : « إن السنوات المقبلة (أى الشباب) تأتي بالكثير ، بينما السنوات المدبرة (أى الشيخوخة) تساب الكثير » . فن

بين ما سلبته إياه الشيخوخة ، يذكر جيته السرور بالحب (بيت ٢) والمزاح في الغرام (بيت ٣) .

ولكنه إذا كان قد سلب الكثير من الحياة الواقعية بالممارسة مباشرة فقد بقيت لديه الفكرة والحب كذكرى .

وهذا المعنى أيضاً قال جلال الدين الرومي : « اعزِفْ عن الدنيا ، تكن سيد الورى ! » ؛ « اعزف عن النفس والعالم ، كما تحظى بالنفس والعالم » (همز ، تاريخ فنون القول الجميلة ، ص ١٩٤ ، ص ١٩٥) .

— ١٨ —

ضع نفسك دائماً أمام العارفين
فهذا ، على أى حال ، مكان أمين .
فإن عذبت نفسك طويلاً ،
عرفوا ما يعوزك وإن كان فتيلاً ؛
ولك أيضاً أن تأمل في الشئ ،
لأنهم يعرفون قدرك حق المعرفة

ضع نفسك : أنشئت في ١٨١٩/١١/١٦ وأضيفت إلى طبعة سنة ١٨٢٧ .

وهذه قاعدة اتبعها جيته ، إبان حياته ، فأفاد منها كثيراً ، خصوصاً في أبحاثه في العلوم الطبيعية ، بفضل استماعه إلى نصيح الكسندور فون هنبولت . وقد يكون تأثير بمثل فارسي (أوردة شاردان : ج ٥ ، ص ١٦٥) يقول : « الرغبة في سؤال الحكماء نصف الحكمة » .

- ١٩ -

الأجواد سيُخدعون
والبخلاء سيُنزفون
والعالمون سيضلون
والعقلاء سيهيمون
وسيُخلص من القاسى
وسيُعقل الأبله
فانصر على أقوى الأكاذيب
واخدع أيها الخلدوع

الأجواد سيُخدعون : أنشئت قبل ١١٨٥/٥/٣٠ .
وجيته هنا يبين كيف يسير العالم ، وكيف أن كل شيء فيه لا يلقى
جزاءه الحقيقي ، وفيها لهجة شرقية ، ألمانية معا .

- ٢٠ -

من يَسْتَطِيعُ للأمر يزجر
وإذا أراد كذاك يمدح
أى خادى الموثوق فيه
اسمع كلا الأمرين تُفلح
يُطرى اقليل ؛ وغالباً ،
حيث المديحُ يحق ، يزجر
فإذا بقيت مشابراً
فى الخبر مُمتحناً تُقدّر

فعليكموا يا سادق
أن تفعلوا نحو الإله
كفعل عبد نحوكم :
قاسوا ولكن أنخلصوا

من بسطع لمؤمر : أنشئت قبل ١٨١٥/٥/٣٠ . وقد استلهم فيها
قول السعدى فى « جلستان » : « إن خشيت الله كسبوك وسبحت بحمده ،
فن ذا الذى لن يقول إنك ملك !

- ٢١ -

إلى شاه شجاع وأمنائه

خلال الرنين خلال الهدير
ورا النهر حتى بخارى يسير
غنائى ! جريثا على أرضكم ؛
ولا خوف مادمت أحياء بكم
فقد إلهى إذن عمره
وصن ملكه ، رافعا قدره

إلى شاه شجاع وأمنائه : لعلها أنشئت فى الفترة ما بين يناير ومايو
سنة ١٨١٥ : وفيها حاكى للشعر الشرقى فى المدح ، وبوجهها هنا إلى دوق
فيهار ، كارل أوجست ، الذى كان فى تلك الأثناء يحضر مؤتمر فينا .
أما شاه شجاع فهو جلال الدين بن محمد المظفر ؛ وقد تولى الأمر
فى شيراز وماحولها بعد عزل أبيه مبارز الدين سنة ٧٥٩ (أغسطس
سنة ١٣٥٨ م) . غير أن مبارز الدين قد استطاع بعد بضعة أشهر أن يستولى

على القلعة التي كان معتقلا بها ؛ وتحصن فيها . وبعد حرب مع ابنه شاه شجاع عُنِدَ بينهما صلح اشترط فيه أن يعود مبارز الدين إلى شیراز وأن يذكر اسمه في الخطبة . ولكن بعض أنبائه حاول بعد فترة قتل شاه شجاع ؛ غير أن مؤامرتهم أكتشفت وقتلهم شاه شجاع ، وسجن أباه من جديد ؛ وعدا هذا قد نشب النزاع بينه وبين أخيه شاه محمود . ولما غزا تيمور لئلك يجنوده بلاد فارس . بعث إليه شاه شجاع بالكثير من الهدايا النفيسة استرضاء لهذا الغازي الكبير . وقد طالب منه تيمور ، كضمان لإخلاصه وولائه له ، ابنته لأحد بنيه . وتوفي شاه شجاع ، في أكثر الروايات شيوعاً ، في ٢٢ شعبان سنة ٧٨٦ (= ١٣٨٤/١٠/٩) وسنه إذ ذاك ثلاث وخمسون سنة وبضعة أشهر .

وفي عهده عاش حافظ الشيرازی ؛ وكان هذا يكره مبارز الدين ؛ فلما استولى شاه شجاع على الملك تعلق به حافظ ومدحه بالكثير من القصائد ، فقال :

« الآن عهد الشاه شجاع عهد العدالة والحكم »

(ترجمة فون همر ، ج ١ ، ص ١٩٧) . وقال فيه أيضا :

إن جمدى معلق بعلا الشاه والنعم
بامتداد لعمره ثم سلطانیه السنم

(همر ، ج ١ ، ص ٤٤٢) .

وجيته يصور نفسه هنا في صلته بالدوق كارل أوجست ، بحافظ في صلته بشاه شجاع . فكما كان شاه شجاع في نضال ومنازعات ، كان كارل أوجست في حرب التحرير التي قامت بها ألمانيا وبقيّة أمم أوروبا ضد نابليون . وهذا ما عذّه في قوله : « خلال الرنين خلال الهدير » . فهو يقصد من هذا قعقة السيوف في الحرب بين شاه شجاع وأبيه ثم أخيه شاه

عمود ، ويطبق جيته هذا على تلك الحرب الدائرة في أوربا في ذلك الحين .

- ٢٢ -

النمرة العظمى .

حينما كنت جموحا شرس الطبع ، وجدت
سيّدا

بعدها صرت سليما ذاب لطفها ، فوجدتُ
سيّده

محضاني فإذا بي مخلصاً حقاً وُجِدْتُ
أبداً

حفظاني وكأني كنز إخلاص وُجِدْتُ
جيّداً

ليس في الوسع معاً خدمة اثنين ؛ وُجِدْتُ
مُسَعّداً

بهما ، قد أطلعنا بهجةً لي إذ وُجِدْتُ
مُفرداً

قد تجلّى نجم سعدى إذ كلا ذين وجدت
فرقداً

النمرة العظمى : بتاريخ ٢٧/٥/١٨١٥ ، في فرنكفُرت .

وقوله « سيّد » يمكن أن يفسر رمزياً على أنه الساقى ، و « سيّدة »

على أنها الحبيبة : كما يمكن أيضا أن يفسر على أنه الدوق كارل أوجست ،
والدوقة لويزة ؛ وبهذا تكون هذه استمراراً للقصيدة السابقة .

وجيته قد سارء في التزام القافية على طريقة الشعر الفارسي ، فجعل
الآبيات الزوجية تنتهي دائماً بكلمة واحدة في القصيدة هي : « وجدت » ؛
وحاكيناه نحن هنا في هذا .

- ٢٣ -

الفردوسي يقول :

« أيها العالم كم إنك سافل !
أنت تغزو ، أنت تُنشى ، أنت قاتل »

إن من ، عززه رب السماء
نفسه يغزو ويُحشي في ثراء
ما الغنى ؟ إن الغنى شمس تضيء
وبها المسكين يدفا كالوضئ
ليس للمُشترى إذن أن يشترى
لذة المسكين إذ ما يشتري

الفردوسي يقول : العنوان يتعلق بالبيتين الأولين فحسب . وفي
الآخرين إجابة جيته عليهما : أما الأولان فأخوذان من « الشاهنامه »
للفردوسي حين يقول :

« أيها العالم كم كنت دنيء
أنت تغزو وتربئ وتبديد »

وقد عرفهما جيته من « كنوز الشرق » (ج ٢ ، ص ٦٤) .

وفي رد جيته عليهما مناقضة واضحة للشاعر الفارسي . فقوله : « يحيى في ثراء » يناقض به قول الفردوسي « يبيد » ؛ لأن الله هو الذي يغنونا أجمعين .

والبيتان الأخيران مستقلان بأنفسهما وإن ارتبطا بكلمة « ثراء » في البيت السابق عليهما مباشرة .

— ٢٤ —

جهل الدين الرومي يقول* :

« إن تُقيم في الكون ولتي كفرار الحلم
فإذا جئت تبدى ضيقاً مثل الفهم
أنت لا تحمل البر د ولا الحر الطويل
وإذا أزهر شيء* صابه حالا ذبول »

جهل الدين الرومي يقول : أنشئت قبل ١٨١٥/٥/٣٠ . ولا يعلم على وجه الدقة الموضع الذي يشير إليه جيته هنا من أقوال جلال الدين الرومي ؛ إذ لا يوجد في مجموعة أشعاره المختارة التي ترجمها هـر (« تاريخ فنون القول الجميلة ») ولا ترجمة « مثنوى » التي قام بها روزن . وعلى كل حال ، ففي هذه المقطوعة تعبير عن العزوف عن الدنيا والزهد فيها مما يتجلى في شعر جلال الدين الرومي ؛ فلعل جيته قد قصد هنا إلى التعبير عن روح شعر جلال الدين الرومي العامة ، لا إلى ترجمة قول خاص .

زليخا تقول :

« تنبئ المرأة نفسى أننى تاج الجمال !
أنت تنبئ أن حُسنى هو أيضاً للزوال
كل ما فى الكون باق أبداً عند الإله
فأحبَّ الله فى ذا نى تظفرُ بالنجاه »

زليخا تقول : هذه المقطوعة معارضة للمقطوعة السابقة ، فزليخا ترد عليه قائلة إنها جميلة ؛ والجمال ينقض هذه النظرة السوداء إلى العالم ؛ لأن الله يحقق بواسطة الجمال الخلود فى الزمان . فعليك أنت ، أى جلال الدين الرومى ومن يذهب مذهبك ، أن تحب الجمال ، حينئذ ستعرف معنى الخلود ، وستعلم أن كل شيء باق أبداً عند الله .

وزليخا هنا إنما تعبر عن نظرة جيته الخاصة ، تلك النظرة المقبلة على الحياة بكل ما فيها ، والتي تريد أن تنعم بكل ما فيها ، والتي تريد أن تنعم بكل ما يتجلى لها منها ، بدلاً من الزهد فيها ، مما لا يجعل للحياة أدنى قيمة . فإذا كان قد انساق أحياناً وراء الروح الشرقية السلبية المستسلمة الزاهدة ، فإن ذلك لم يكن إلا من أجل إتقان التمثيل والمحاكاة ، لا عن إيمان ، وما هو ذا هنا يعود إلى طبيعته الحقيقية ، فيفتند زعم هؤلاء العازفين عن الدنيا ، الزاهدين فيها ، صارخاً فى وجوههم : انظروا فيما فى الدنيا من جمال ، تنكروا نظراتكم هذه السود ، وتعرفوا أن الدنيا جديرة بأن يحيا فيها الإنسانُ أعمق حياة .

رنج نامة

كتاب الحزن (أو سوء المزاج)

- ١ -

« أننى لك هذا ؟
وكيف أتمكن أن يأتبك ؟
وكيف استخلصت
من أسمال الحياة هذا ، الذبالة
التي تيسر لك من جهد
أن تمضأ آخر شعلة
في نيرانك ؟ » .

ولا يخطرن ببالك
أن هذه الشعلة معتادة ؛
في أقصى الأقصى ،
في محيط النجوم ،
لم أضل
بل كنت أحيا حياة جديدة .

في الليالى الرهيبة
تحت تهديد الغارات
بينما هدير الإبل
منفذ في الأذن والنفس

وبملاء الحداة

بالخيال والفخر

وباستمرار تقدم السير

وباستمرار اتسع المكان

وسيرنا كله

بدا فراراً أبدياً

وخلف البيداء والجيش

يرف شريط أزرق من بحر خداع .

كتاب الخزنة : فيما يتعلق بالروح العامة التي أملت هذا الكتاب راجع ما يقوله جيته في « التعليقات » حيث يذكر أنه على الرغم من مشاعر الرحمة والإحسان والتسامح ، فإن للحزن حظّه ، ويطالب دائماً بنصيبه ؛ وهو متكبر ، لا يسرّ أحداً ؛ لكن الإنسان لا يستطيع دائماً أن يكبت هذه النزاع ، بل هو مضطر إلى التفريج عنها بانفجارات من الحزن .

وقد أشار إليه جيته في « أحاديثه مع أكرمن » بتاريخ ٤ يناير سنة ١٨٢٤ ، وأعان عنه في « صحيفة الصباح » سنة ١٨١٦ (برقم ٤٨ ص ١٨٩) فقال : إن هذا الكتاب يتضمن قصائد أسلوبها ولهجتها ليسا غربيين عن الشرق . لأن الشعراء في المشرق يفقدون كل اعتدال حين لا ينالون الجوائز من ممدوحهم أو لا يجازون الجزاء الوافي . ثم هم كثيراً ما يقعون في نزاع مع الصوفية والمتملقين ، ومع الدنيا أحياناً .

أتى لك هذا : ألقت هذه القصيدة قبل ٣٠ مايو سنة ١٨١٥ ، وقد قصد بها أن يرد على الأسئلة السخيفة التي وجهها إليه البعض متسائلين كيف نشأ الشعر الشرقي في هذا « الديوان » .

وفي الفقرة الثانية يجب قائلًا إن هذا الشعر ليس الشعلة الأخيرة من إلهام أعيد إشعاله ، بل هو بعث أثارته رحلة إلى الأفاصى القاصية ، في محيط الكواكب ؛

وفي الفقرات الثلاث الأخيرة يعرض مناظر مميزة لهذا العالم الجديد المجهول : ففي الثالثة يعرض حياة الرعى الرقيقة لدى البدو وكرمهم ؛ وفي الرابعة يذكر الغارات الليلية التي يقوم بها الصعاليك ضد القوافل ، وفي الخامسة يصف السير المضني خلال الصحراء وما يلقاه المسافر من وعاء الطريق والعطش وأوهام السراب ؛

والفقرة الأخيرة تقوم على أساس ما ورد في ديوان حافظ (ج ٢ ص ٥٤٧) حيث يقول : « هل يرتوى الظمآن في البیداء من سراب الماء ؟ وقد علق على هذا يوسف فون همر فشرح ظاهرة السراب وكيف تغلو الأفراس وراء السراب طمعاً في الظفر بالماء ، ولكن دون جدوى ؛

- ٢ -

لن نجد شويبراً
لا يظن في نفسه أنه أفحل الشعراء
ولا عويزيفاً لايفضل
أن يعزف ألحانه هو
وما كنت لألومهم ،
لأننا لا نستطيع أن نغدق الشرف على الآخرين
دون أن ننال من أنفسنا .

هل يحيا الإنسان إذن ، إذا كان الآخرون يعيشون ؟
وهذا ما وجدته فعلاً

في بعض غرف الانتظار
حيث لم يكن يعرف التمييز
بين زبيل الفأر والكزبرة
إن المكانس العتيقة تكره
هذه المكانس الجديدة الصلبة
وهذه بدورها لا تريد أن تقرّ
بما كان مكانس من قبل
وحين يفترق الشعوب
في ازدراء متبادل بين بعضهم وبعض
فلا واحد منها يريد الإقرار
بأنهم جميعاً يهدفون إلى نفس الغاية
وهذه الأثرة الفاحشة
أنحى عليها باللوم
قوم يعزّ عليهم
أن يكون للآخرين شيء من الفضل .

ألفت هذه القصيدة في ٢٦ يوليو سنة ١٨١٤ إبان الرحلة من إيزناخ
وقولدا ؛ فيما عدا الفقرة الأخيرة فقد نظمت في ٢٤ ديسمبر سنة ١٨١٤ ؛
وفيها نقد لاذع للأثرة التي لا تريد للاعتراف بالفضل لأهله ، وتهكم
بالشاعر المغرور الذي لا يريد أن يصغى إلّا إلى شعره هو ، وسخرية من
أهل البلاط والنفاق ، والشعوب التي تتناطح ويزدري بعضها بعضاً ،
ويسود بينها سوء التفاهم ؛

والفقرة الأولى تذكر بما ورد في « تسكلانات » شيشرون ٥ : ٢٢ ،

٦٣) : والثانية قصد بها التهمك : والثالث تذكر بغرف الإنتظار في قصور
الأمراء . والخامسة تشير إلى الكراهية التي تفصل بين الفرنسيين والألمان ،
وقد قال جيته في رسالة إلى ساره فون جروتوس بتاريخ ١٧/٢/١٨١٤ :
ويود الألمان في هذه المناسبة (التحرر من سيطرة فرنسا) أن يقوموا
بالخطوة العظيمة الثانية ، وهي أن يعترف كلا الشعبين بما قام به الآخر من
أعمال جلية في العلم والفن ، لا أن يتنازعا كما كانت الحال حتى الآن ، وأن
يعملان معاً . . . وأن يتغلبا على نوازع الحقد والارتياب فيما بينهما .

- ٣ -

ما يكاد المرء يشعر بالراحة والصفاء
حتى يأخذ جاره في تعذيبه بالعناء ؛
وطالما عاش ذو الفضل أو عمل
راح الناس يرجونه عن طيب خاطر
حتى إذا مات

أسرعوا في جمع الاكتتابات

ليشيدوا له نصباً تذكاريّاً

تمجيداً لشقائه في الحياة

لكن الجمهور ينبغي عليه أن يدرك

أين مصلحته :

فيرى من الأفضل

أن ينسى هذا الرجل الفاضل ، إلى الأبد ؛

نظمت هذه القصيدة في ٧ فبراير سنة ١٨١٥ .

وفيها يتهكم بالحساد الذين يسعون بكل طاقتهم انتقاص قدر الممتاز في

حياته ، حتى إذا مات تلهفوا لفتح الكتاب لتخليد ذكراه لكنه لا يشير
إلى تمثال بالذات .

- ٤ -

تستطيع أن تدرك جيداً
أن القوة العالية لا يمكن نفيها من العالم ؛
ويطيب لى التحدث
مع الماهرين والطفاة .

لما كان الحمقى المضطهدين
يقبأهون على نحو وقاح
والمساومون والمحدودون
تهبأوا لإخضاعنا تحت نيرهم
فقد أعلنت أنني حرّ
من الحمقى ومن الحكماء ؛
ففریق أدعه وشأنه ،
والفریق الآخر أتمنى أن يمزق نفسه

لأنهم يحسبون أنه ينبغي علينا ،
في التمهّر والحب أن نتحد
وهم يغفلون شمسي بالظلام
وينتزعون من الظل نصارته

وحافظ هو الآخر وألرّش هوتن
اضطراً إلى حمل السلاح من غير شك

ضد أصحاب الخِرَقِ السَّمراء والزرقاء ؛
وأعدائي يروحون ويحيئون كسائر النصارى
« إذن ! فقل لنا ما أسماء أعدائك ! »
لا أريد لأحد أن يميزهم :
فحسبي ما أعانيه
منهم بين الناس .

نظمت في ٢٦ يوليو سنة ١٨١٤ .

ويدافع فيها عن أرستقراطية نظراته ، التي تتجلى خصوصاً في إعجابه
البالغ بناپليون ضد ، أولئك الذين ينزعون إلى تسوية القيم وبالتالي إهدارها ،
وجيته عدوٌ للود لهذه التسوية التي تسوى بين الوضع والنيل ، بين العالى
والسافل ، بين القيم النبيلة والقيم الوضيعة .

والرّش فون هوتن (١٤٨٨ - ١٥٢٣) مصلح دينى مشهور ، انضم
إلى لوثر فى حركة الإصلاح الدينى ، ولقى فى سبيل ذلك أشد الاضطهاد ،
ولقب بشيشرون ألمانيا وديموستينها لأنه كان خطيباً فحلاً . وقد مجّد هردير
كفاحه ضد الرهبان فى عصره . أما عن حافظ فجيتة يتذكر هنا بعض أشعار
حافظ فى هذا المعنى وخصوصاً ما ورد فى ديوانه (ج ١ ص ٨) .

ألا يا أيها الساقى أدر كأساً وناولنى

وادفن همومى فى الخمر ؛ ناولنى الكأس وصبّ الخمر ، واطرح
الخرقة الزرقاء ؛ ولقد يرن هذا كأمر غريب فى أذن الحكيم ، لكنى
لا أهتم بالسمعة .

إذا استرحت في الخير بسلام
فلن أنحى عليك باللائمة ؛
وإذا صنعت الخير
فيسضني عليك النُّبْل ! .
لكنك إذا أقمت سداً
حول ما لديك من خير
فسأحيا حرّاً ، نعم حرّاً
لا يخذعني أحد

لأن الناس أنخيار
وكانوا سيقون أفضل
لو أن ما يفعله الواحد
لا يفعل مثله الآخر في الحال
وهناك مثل برئ من الذم
يقول : إذا قصدنا نفس المكان
فأولى بنا أن نسير معا في الطريق

وسنلتقي خلال المسير
صعباً جمّة :

وفي الحب لا يرجو المرء
عونا ولا رفيقاً أبداً ،
والمال والشرف يود المرء

أن يناهما وحده ؛
والخمر ، هذا الصديق الأمين .
ينتهي بإشاعة الاضطراب في نفسك

وعن كل هذه المتاعب
تكلم حافظ ،
وحطم رأسه بالتفكير
في كثير من البلايا
ولست أرى فيماذا يفيد
النجاة من هذه الدنيا
فإن ساءت الأمور إلى أقصى حد
فأنت حرّ في خوض المعارك .

نظمت في ٢٦ يوليوسنة ١٨١٤ في فولدا ، مثل القصيدة الثانية والرابعة ،
والمعنى الإجمالي هو : أن الراحة في الخير الذي أسداه المرء أمرٌ
مقبول ، والسعى إلى الخير أمرٌ حميد ؛ لكن الأفضل هو الاعتزال
في الخير الخاص بالإنسان : إذ يستطيع المرء حينئذ أن يعيش بالحرية
اللازمة . ويمكن الاشتراك مع الغير والعيش معاً أثناء رحلة فحسب ، وإن
كان الكثير من الأحداث قد يفصل بيننا مثل المنافسة على الحب ، وتنازع
المصلحة ، والخمر . وبالجملة لاجدوى في الفرار إلى خارج العالم : وإذا
ساءت الأمور إلى الحد الأقصى فعند المرء دائماً الوسيلة للتحرر في النضال ،
بالتزام بالأكثاف بين الناس والظفر والانتصار .

وعلى الرغم من اللهجة الشخصية فإن المقصود من القصيدة أن
تعبّر عن حقيقة عامة ، والشاهد على ذلك إشرته إلى حافظ الشيرازي ،
وكذلك كون العنوان الأصلي لهذه القصيدة كان : « مسير العالم » ،

كما لو كان الأمر يقوم على الاسم فحسب
مما لا يفتح إلا في الصمت !
نعم ، إني أحب الجمال والخير
كما يصدران عن الله .

أحب إنساناً ، هذا ضروري ؛
ولا أكره أحداً ، لكن إذا كان عليّ أن أكره
فأنا أيضاً مستعد لذلك ،
وفي الحال أكره جماهير عديدة !

أتريد مزيداً من العلم بهم ؟
انظر إلى الخير ، وانظر إلى الشر :
إن ما يسمونه جيداً
من المحتمل ألا يكون هو الخير

إذ لتعرف الخير
لا بد أن يعيش المرء بجد وعمق
وثرثرة الدجالين
تبدو لي سعيّاً لا غناء فيه .

ماذا ! إن المنكر يمكن
أن ينضم إلى المنتقِص
بحيث يبدو أخيراً المدمر
أنه هو الأفضل !

حتى يتيسر ، أثناء التجديد ،
أن يسمع كل إنسان شيئاً جديداً باستمرار
وفى نفس الوقت يقضى التشبث
على حمل إنسان من الداخل

وهذا ما يريد ، مواطننا ويرجوه ،
سواء سمى نفسه « ألمانيا » أو « جرمانيا »
فالأغشية تتردد فى همس :
كان الأمر هكذا وسيكون كذلك دائماً

نظمت هذه القصيدة فى ٢٧ يوليو سنة ١٨١٤ ، فى اليوم التالى لرقى
٢ ، ٤ ؛ وأعاد النظر فيها فى ١٨١٤/١٢/٢٣ .

والمعنى العام : إني أحب الخير ، وأكره ؛ كل ما يقف فى سبيل الخير ،
ولا أسأل عن اسمه ، بل أعتمد على تقديرى وحكمى (الأبيات من ١ —
١٢) . والحى حياة مليئة يدرك الخير ، أما أعمال الثرثارين والمتفقهين فلا
قيمة لها ، (الأبيات ١٣ — ٢٠) . ومن هذا النوع الأخير الصحف
اليومية : فهى تريد شيئاً جديداً كل يوم ، فتشر أسباب التحطيم والتدمير :
ويظهر هجومه على الصحف من الصورة الأولية لهذه القصيدة ،
فقد كانت :

« والصحيفة الصباحية يمكن أن تنضم إلى الملاجين
وهناك يبدو المتأفقون أنهم الأفاضل »

وهذا ما ظنه المواطنون فى كل الأزمان ، ولكنى أعلم أن هذا لن يغير
فى الأمر شيئاً .

« المجنون » ، يعنى - لا أريد أن أقول

إن هذا يعنى من فقد عقله ؛

لكن ينبغى عليك ألا تهمنى

حين أفخر بأننى « مجنون »

حين يفيض القلب الملىء بما فيه

ابتغاء إنقاذك ،

فلا تصيحن : هذا هو المجنون !

هاتوا حبالا ! احضروا قيوداً وسلاسل !

وإذا رأيت فى النهاية

أن أحكم العقلاء يثنون فى القيود

فستشعر بما يشبه الإحراق

وأنت تتأمل هذا المنظر دون أن تستطيع شيئاً .

ونظمت قبل ٣٠ مايو ١٨١٥ .

وفىها يهاجم أولئك الذين ينعنون العبقري بأنه مجنون : فى اليوم الذى

فيه ترون النفوس الممتازة تثن فى الأغلال والقيود ستشعرون بالندم الشديد
على ما ارتكبتم من جريمة .

والذى دفع جيته إلى نظمها هو تضايقه الشديد من عدم اعتبار رأيه فى

مسألة الصحف .

- ٨ -

هل أسديت إليكم نصائح
فيما يتعلق بإدارة شئون الحرب ؟
وهل قرعتم حين أردتم
عقد السلام بعد أعمالكم الجلية ؟

وكذلك تركت الصيد
يطرح شبابه في هدوء ،
ولم أحتج إلى تلقين النجار الماهر
كيف يستخدم الزاوية

لكنكم تريدون أن تعلموا
المزيد مما أعرف وما تأملت فيه
فيما يتعلق بما منحتني الطبيعة
من مواهب خاصة

فإن استشعرتُم مثل هذه القوة ،
إذن فاعرضوا شئونكم !
وإذا رأيتم أعمال

فتعلموا أولاً أن تقولوا : هكذا أراد أن يعمل

نظمت قبل ٣٠ مايو ١٨١٥ ، وترتبط بالقصيدة السابقة في الدعوة إلى
سرية الشخصية .

وفيها هجوم على الحق الأدهياء الذين يدعون أنهم يعلمون أكثر من
أولئك الذين كوّسوا حياتهم لدراسة الموضوع .

لمائة المسافر :

ألا لا يشكون من الوضاعة إنسان
لأنها هي الأقوى ، مهما قيل لك
إنها تؤكد نفسها في الشر لصالحها الأكبر ،
وتتصرف في الخير وفقاً لها وما ونزواتها
أيها المسافر ! - أتريد التمرد على هذا القدر ؟
دع دوامة الرمال

والطين الخفاف يدورا ويشيرا الغبار !

نظمت في ١٩ نوفمبر سنة ١٨١٤ في فيمار .

المغنى : الوضاعة والحقارة قوة تحكم العالم ، ولا جدوى من التمرد
عليها .

وقد استنهم جيته في الفقرة الأخيرة ما ورد في « الشاهنامة » حيث يرد
في ترجمة ديتس (ص ٢٠٢ ، برلين سنة ١٨١١) : « أسمى إلى العزلة ،
حين يلور العالم في دوامة ، ودوران الحظ أسوأ من أسوأ غبار في العالم . »
وقد حرف جيته هذا النص لأول مرة من المقال الذي كتبه يوسف فون همر
عن كتاب ديتس Diez ، في « مجلة بينا الأدبية » (عدد يناير سنة ١٨١٣
ص ٧١) ، ونقل فيه ترجمة ديتس ، واقترح بدلا منها ترجمة هذا معناها :
« إلى أنشد العزلة ، حتى إذا ما دار القدر ، مثل دوامة التراب ، واضطرب
العالم ، لم يصبنى من ذلك شيء . » وقد جمع جيته في الفقرة الأخيرة بين
كلتا الترجمتين .

- ١٠ -

من يود أن يطلب من الدنيا
ما توده الدنيا وتحلم به ،
ويتلفت إلى الخلف أو إلى الجوانب ،
تاركاً نهار اليوم يمضى ؟
إن سعيه ، ونيتة الطيبة
يتشبهان بالحياة السريعة وحدها ،
وما كان من الممكن أن يكون مفيداً لك في سالف الأيام
تريد الحياة أن تهلك إياه اليوم

نظمت قبل ٣٠ مايو سنة ١٨١٥ .

وفيها مثل السابقة دعوة إلى الاستقلال بالنفس عن الدنيا لأنها لا تحقق
أبداً رغبات المرء في الوقت الذي يرجو فيه أن تتحقق ، بل الحياة تدور
حولتها السريعة دون أن تحفل بأمالى الناس .

- ١١ -

أن يمدح المرء نفسه : هذا خطأ
لكن يرتكن كل من يفعل خيراً ،
فإن لم يخف في كلامه شيئاً ،
فإن الخير يظل ، رغم كل شيء ، خيراً أبداً

قد دعوا إذن أيها الحمقى هذا السرور
للحكيم الذي يعتقد في نفسه الحكمة ،

حتى يبدد ، أحق مثلكم ،
الشكر الأحق للعالم .

نظمت في ٥ يناير سنة ١٨١٦ .

وفيها استخدم مثلاً أورده ديكنس (ج ٢ ص ٥٤) يقول : « أن يكشف
المرء عن حماسه ، هذا حسن ؛ أما أن يمدح نفسه فهذا خطأ . »
والفقرة الثانية فيها تمكم رومنتيكي يبدو في تعارض مع ما ورد في الفقرة
الأولى . ويحتمل أن يكون قد أضافها جيته فيما بعد .

- ١٢ -

أنظن أن ما يذهب من الفم إلى الأذن

مكسب شريف حق ؟

أيها الأحق ، لعل النقل نفسه

أن يكون مجرد وهم !

لكن هاهي ذى لحظة الحكم والقرار ؛

من أغلال الإيمان

يمكن العقل وحده أن يخلصك

لكنك تخليت عن العتل من قبل .

نظمت قبل ٣٠ مايو سنة ١٨١٥ .

والمعنى : أن النقل الشفوي في أمور الدين غير دقيق ، ويتلون بلونه
شخصي ويربط بحكم العادة . ولهذا تحتاج إلى العتل لتصحيح النقل ، لكن
الإيمان قد أطرَحَ العقل من قبل .

من يتبع الطريقة الفرنسية أو البريطانية
أو الإيطالية أو الألمانية
كل منهم لا يريد إلا ما يريد الآخرون
كما يقتضيه حب الذات

لأن المرء لا يقدر بسمو الكثير
أو واحد من هذه الآداب
إلا إذا كان يجهد ناحيته
يريد أن يلمع فيها

ألا فليجد الحق غداً
أخوانه يصطفون معه
بشرط أن يحتفظ الشر
بمكانته اليوم ومنزلته

إن من لا يستطيع أن يحسب
حساب ثلاثة آلاف سنة من التطور
عليه أن يبقى جاهلاً في ظلام
وأن يعيش من يوم إلى يوم .

نظمت في ٣٠ مايو سنة ١٨١٨ :

وفيها يهاجم لوتة أولئك الذين يلهثون وراء البدع (الموضات) الأدبية .
تلك اللوثة التي يعلبها الغرور ويضمحى بالحق فيها للجدّة الذائلة . فالذي لا يقدر
على استيعاب ثلاثة آلاف عام من التطور الأدبي سيظل دائماً غارفاً في التفاعيل

وبعش من يومه ليومه فجيتة ينصح الأدباء بعلم للتعلق بما هو جديد لأنه جديد ، وإلا لصار الأديب نهياً لكل نزوة أدبية طارئة .

— ١٤ —

قديماً حين كان المرء يستشهد بالقرآن الكريم
كان يذكر اسم السورة والآية ،
فكان كل مُسلم ، كما هو الواجب ،
يشعر براحة الضمير والهيبة والطمأنينة .

ولا يستطيع الدراويش المخدثون أن يفعلوا خيراً من هذا
لأنهم يترثرون عن القديم ، ويصفون الجديد ،
فيزداد التشويش كل يوم
أيها القرآن الكريم ! أيتها الطمأنينة الخالدة !

لا يعرف تاريخ نظمها .

وقد دعاه إلى نظمها تطور اللاهوت الجديد على نحو غير في المضمون
الحق للكتاب المقدس ، تطوراً طغى اليوم على علماء الدين ذوى النزعة القديمة
الذين يهتمون خصوصاً بتحديد السورة والآية .

— ١٥ —

النبي يقول :

إذا اغتاز أحدٌ من أن الله
شاء أن يهب محمداً الأمن والسعادة
فليربط حبلًا متيناً بأقوى الأعمدة
في قاعة بيته .

وليشنق نفسه به ! فهذا مفيد له :

إذ سيشعر حينذاك بأن غيظه سيذهب عنه :

نظمت في ٢٢ فبراير سنة ١٨١٥ في قمار ، وأشار تحتها إلى السورة ٢٢ (سورة الحج آية ١٥) : « مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ ، فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كُيْدُهُ مَا يَغِيظُ » .

وقد استلهم فيها جيته الآية القرآنية ، وقد قرأها في كتاب ك . ا . أولزور عن النبي (ص ٢١٧ ، تعليق ١ ؛ فرنكفورت على العين سنة ١٨١٠) .

- ١٦ -

تيمور (يقول :)

ماذا ؟ هل تقلحون في العاصفة العاتية

للكبرياء ، أيها الفقهاء الكذابون !

لو قدر الله عليّ أن أكون دودة ،

لخلقني دودة .

في هذه الكلمة يدافع تيمور عن امتياز الشخصية العبقريّة الفذة ضد المتفهبين والمنافقين ، ويقرر جيته بها حق العبقريّة وإمّيازها ، وييسل أحكام التافهين والوضعاء الذين يسوؤهم امتياز الممتاز وتفوق المتفوق ، لا

حكمت نام

كتاب الحكم

١

سائر الطلسمات في هذا الكتاب

ومن شأن هذا أن يحدث توازناً

إن من يخط غرزة بإبرة الإيمان

يسرّ دائماً بالكلمة الطيبة :

كتاب الحكيم : أعلن جيته عن هذا الكتاب في « صحيفة الصباح »
(سنة ١٨١٦ برقم ٤٨ ص ١٨٩) على النحو التالي : « كتاب الحكمة أشد
إبهاماً ، ويتألف من قصائد قصيرة ، استلهمت في الغالب أمثالا شرقية . -
لكنه في نفس الوقت استعان بأمثال ألمانية ، أخذ في دراستها ابتداءً من
أكتوبر سنة ١٨١٢ ، فاستعار من مكتبة فيمار مجموعات من كتب الأمثال :
وخصوصاً مجموعة أجريكولا ومعظم الأمثال الواردة في « الديوان الشرقي »
تاريخ نظمها في مستهل سنة ١٨١٥ ؛ والبعض الآخر أضيف في نهاية السنة
نفسها وأوئل سنة ١٨١٦ .

وهذه القصيدة الأولى بمثابة مدخل إلى الكتاب ، وفيها يقول إن القارىء
الذى يلتقط من الحكم الواردة فيه بيد مؤتمنة سيجد فيه كلمة طيبة
وموعظة حسنة .

والقصائد من ١ إلى ٥ نظمت في نهاية سنة ١٨١٤ أو أوائل

سنة ١٨١٥ .

— ٢ —

لا تطلب من هذا اليوم ومن هذه الليلة
إلا ما جاءك به الأمس

هذه القصيدة نظم للكلمة كانت مكتوبة على خان ، وأوردها شلوردان
(٨ ص ٢٨) ، ومؤداها : لا تطلب من هذا اليوم ومن هذه الليلة
إلا ما كان لك من قبل .

— ٣ —

من وُلِدَ في أيام نحسٍ
سرّه النحس

نظم لمثل مستخلص من مجموعة أمثال نثرية جمعها ديتس ، وهذا المثل
يقول : « من لم يعيش أيام سعد يحسب أيامه النحس سعداً » (مجموعة
أمثال أوغز خان ، ديتس : ذكريات من آسيا ، ١ ص ١٩٢) .

— ٤ —

كم الشيء سهل
هذا أمرٌ يعرفه من ابتدعه و صنعه

مثل مأخوذ من نفس المجموعة ، وأصله فيها : « كم الأمر سهل ، هذا
ما يعرفه صانعه ، ومنه نستفيد » (ديتس : « ذكريات من آسيا »
١ ص ١٩٥) .

— ٥ —

البحر تهرأ أمواجه باستمرار
ولا يحتفظ أبداً باليابسة

كان جيته ينظر إلى الماد والجزر على أنه رمز المجهود الأولي الأسمى
العنايت (راجع « فاوست » ، البيت رقم ١٠١٩٨) .

- ٦ -

لماذا تسومني العذاب كل ساعة ؟ -
إن الحياة فقيرة ، واليوم طويل
والقلب يودّ دائماً الانطلاق
ولست أدري هل ذلك نحو السماء
لكنه يريد دائماً الانطلاق هنا وهناك ،
ويودّ لو يفرّ من نفسه ،
ولو حلق على صدر حبيته ،
فإنه يستريح في السماء من دون شعور
إن دوامة الحياة تسوقه إلى بعيد ،
وهو دائماً يتشبث بموضع واحد ،
ومهما أراد ، ومهما أضع
فإنه يبقى في النهاية محنونا بنفسه

نظمها في ٢٢ يوليو سنة ١٨١٨ ، ونشرها في سنة ١٨٢١ في
« سنوات أسفار فلهلم - مليستر » ، ثم نقلها إلى « الديوان الشرقى » في هذا
الموضع سنة ١٨٢٧ ، لكن كتاب « الحكم » ليس موضعها المناسب ،
وكان الأحرى وضعها في كتاب « العشق » أو كتاب « التأملات » .

- ٧ -

إذا امتحنك القدر ، فهو يعلم جيداً لماذا :
إنه يريد منك القصد والاعتدال : فأطع واسكت

أستلهم فيها جيته ديوان حافظ (ترجمة يوسف فون همر ، ج ١ ص ١٣٢) حيث يقول : « إن أمهلك القدر ، فلا تهمل الطريق » ولا تسأل لم وكيف ، بل كن كالعبد المطيع ، يعمل كل ما يأمر به السلطان :
وقد نظمها جيته في الفترة ما بين سنة ١٨١٩ وأبريل سنة ١٨٢٠ :

— ٨ —

لا يزال النهار طالماً والإنسان في حركة !
فإذا أقبل الليل لم يستطع أحداً الحراك !

في هذين البيتين نظر جيته إلى ما ورد في إنجيل يوحنا (الفصل التاسع ، آية ٤) : « طالما كان النهار طالماً فلا بد لي من القيام بأعمال من أرسلني ، وسيأتي الليل الذي لا يمكن أحداً فيه أن يعمل » .

كذلك نظر إلى ما ورد في « بوستان » السعدي (أوليارس ، ص ٩٦) :
« طالما كنا نعيش فخلق بنا أن نكون مبتهجين نشطين ، أما إذا جاء الموت وأشاع فينا النوم ، فإذا نستطيع أن نأتي من أمر مفيد ؟ وإذا حلت الشيخوخة محل الشباب ، صار النهار ليلاً » .

— ٩ —

ماذا تريد أن تغير في العالم ؟ لقد تم صنعه

ورب الخلق قد دبّر كل شيء

وتحدد نصيبك ، فاتبع الطريق المرسوم .

لقد بدأ الطريق ، فأتم الرحلة :

فألهوم والغموم لن تغير من الأمر شيئاً ،

كل ما هناك أنها ستلقى بك خارج الاتزان .

هذه الأبيات منقولة عن « الشاهنامة » للفردوسى حيث ورد : « ماذا تريد أن تصنع بالدنيا ؟ لقد تم صنعها : ورب الخلق وفتر كل شيء : ورزقك مقسوم : فإذا يفيدك أى شيء آخر ؟ وكما هو مكتوب ، ستم رحلتك ، ومضى ما دخل قلبك فى قصر المموم ، هاجمك السم والنوم بغير مهادنة » .

وتاريخ نظمها ربما كان فى ٢٩ يونيه سنة ١٨١٨ فى فيينا ، وأن جيته غارقاً آنذاك فى قراءة كتاب يوسف فون همر : « بلاغة الفرس » (فيينا ، سنة ١٨١٨) وفيه أورد هذه الأبيات نقلاً عن « شاهنامة » فردوسى .

— ١٠ —

حين يشكو المظلوم
أنه محروم من العون والأمل
يبقى له دائماً بلسم الكلمة الحلوة .

كتبت فى ٢٢ يوليو سنة ١٨١٨ ، وأدرجت فى « الديوان الشرى »
فى سنة ١٨٢٧ ،

— ١١ —

« كم أسأت التصرف
حين حل الحظ ببينك ! »
لم يستأ الحظ من ذلك ،
فعاود الهجى مرعبين .

لا يعرف تاريخ نظمها ، نشرت لأول مرة سنة ١٨٢٧ ، وفيها نظرة متفائلة تصف الحظ بأنه كالفتاة اللعوب التى تعاود بذل الآمال .

- ١٢ -

ما أروع ميراثي ، وما أوسع وأوفره !
فالزمان صنفني ، والزمان حقل .

ربما تأثر جيته في هذين اليتين بما ورد في كتاب « تاريخ بلاغة الفرس »
ليوسف فون همر (ص ١٢٦) حيث ورد الاقتباس التالي : « اللغة والزمان
الذي نعيش فيه ، هما لغتي وزماني . . . إني أحزو إلى الزمان والمكان
الفهم والعقل . ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ، فالزمان ملكي » ،
وهذا القول يذكر بقول آخر أوردته جيته في رسالة إلى فرتس فون هتين
بتاريخ ٢٦ أبريل سنة ١٧٩٧ : « . . . وإن كنت أحترف بأن شعاري
القديم أمم وهو : « الزمان ثروتي ، والزمان حقل » .

وقد نظمها جيته ، فيما بين نهاية سنة ١٨١٩ وأبريل سنة ١٨٢٠ ، ونشرها
لأول مرة في « سنوات أسفار فلهلم ما يستر » سنة ١٨٢١ .

- ١٣ -

افعل الخير من أجل الخير فحسب !
وسلبه إلى دمك ،
فإن لم يبق لأولادك ،
فسيستفيدون منه أحفادك .

طبعت في « الديون الشرقي » لأول مرة في سنة ١٨٢٧ ، وتمثل رواية
أخرى لرقم ٢٥ .

- ١٤ -

يقول أنوري ، وهو رجل عظيم بين الناس ،
يعرف خفايا القلب ، وقمة الفكر :

في كل زمان ومكان يفيدك الاستقامة
وسداد الرأي والاحتمال .

نظمت بين ٣ مايو و ١٢ أغسطس سنة ١٨١٨

وتقوم على أبيات للشاعر الفارسي أنورى ، أوردها يوسف فون همر
في « تاريخ بلاغة الفرس » (ص ٩٢) ، يقول فيها أنورى : « يارجل
الوطن ، هافلا كنت أو أحق ، قدم ثلاثة على كل الأمور . . . فإن
شئت أن تعرفها فاعلمها الآن : الاستقامة ، وسداد الرأي ، والاحتمال »
وابجع هن أنورى « التعليقات والمباحث » التي كتبها جيته على « الديوان
الأشرف » .

- ١٥ -

لماذا تشكو من أعدائك ؟

أتى لم أن يكونوا أصدقاءك

وجوهر مثلك يظل دائماً في صمتٍ

مصنوع ملام أبدى لم ؟

كلمة عظيمة صادقة فيها عزاء للممتازين الذين لا يجدون من الناس
حبا ولا صداقة ، لأن امتيازهم بمثابة تقريع دائم للناس لضالة منزلتهم بإزائهم .

- ١٦ -

لا حماقة أشق في الاحتمال

من قول الحمقى للعلاء :

في الأيام العظيمة

يثبني أن تدينوا عن تواضع .

— ١٧ —

لو كان الله جاراً شيئاً

مثلي ومثلك

لكان لنا من الشرف نصيب أقل ؛

إنه يدع كل امرئ كما هو .

حكاية لمثل قاله سعدى هو : « الله العظيم يرى كل شيء ويضع خجلاً على كل شيء ؛ وجارى لا يرى شيئاً ، ومع ذلك يتبرم ويهز ولا يدعى في سلام » . (« جاستان » ، ترجمة أوليارس ص ١٨٤) .

• — ١٨ —

اعترف ! بأن شعراء الشرق

أعظم منا نحن شعراء الغرب .

لكن الأمر الذى نبلى شأومهم تماماً فيه

هو كراهية بعضنا لبعض

فكرة شبيهة بتلك التى عبر عنها حافظ الشيرازى فقال : « قاي مشغول دائماً بمن ينافسى : فالقاص يكره القاص » (ديوان حافظ ، ترجمة فون همر ، ج ٢ ص ٩١) .

— ١٩ —

فى كل مكان يريد كل إنسان أن يكون رئيساً

وهكذا الحال فى العالم

ويمكن كل إنسان أن يكون وقحاً

لكن فقط فيما يُحسن فهمه .

كل إن مايريد أن يكون له الصدارة ؛ ولكنه لا يحق له أن يُشعر بتفوقه
وافتناره وتكبره إلا حين يكون متفوقاً حقاً .

— ٢٠ —

اللهم ارفع غضبك عنا !
إن أقزام الملوك صارت لهم الكلمة .
القطع من ٢٠ إلى ٢٢ ترجع إلى مصدر واحد هو شاردان .
ولئن كان مقصد جيته متوجهاً إلى ميدان الأدب ، فإن رأيه هنا يمكن أن
ينطبق على سائر الميادين .

— ٢١ —

إذا أراد الحسد أن يمزق نفسه
فدعه يشبع نهمة

— ٢٢ —

لفرض الاحترام على الناس
ينبغي أن يكون المرء قوى الشكيمة ؛
إن الإنسان يصيد كل شيء بالصقر ،
فيما عدا الخنزير البري ؛
قرأ جيته لدى شاردان (ج ٤ ص ٩٣) عن الصيد بالزاة أو الصقور :
« ويدربونها على مهاجمة كل الحيوانات الوحشية فيما عدا الخنزير البري » ؛

— ٢٣ —

ماذا يفيد رجال الدين
أن يسدوا على الطريق ؟
ما لا يمكن أن يُدرك على استقامة
لا يمكن أن يُعرف على التواء وقبيل

قطعة يهجو فيها جيته التدين المحدود الذى دعا إليه الرومنتيك . وقد نظمها
في ٢٧ يناير سنة ١٨١٦ ليهاجم التقوى الزائفة المحدودة الأفق التى انتشرت
بين معاصريه من الرومنتيك .

— ٢٤ —

مدح البطل والتنويه به
من شأن المناضل الجسور
ولا يمكن أن يقرّ بقيمة إنسان
إلاّ من عانى الحرّ والزمهرير .

الأرقام من ٢٤ إلى ٢٨ نظمت بعد نهاية ديسمبر سنة ١٨١٥

ومصدر القطع ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ هو كاتبي رومى فى كتابه « مرآة
البلدان » ، وهو وصف لرحلة ، ومؤلفه عاش فى القرن السادس عشر .
وقد قرأ ذلك جيته فى ترجمة ديتس .

والقطعة التى أمامنا مصدرها ديتس ج ٢ ص ٢٣٩ وما يتلوها : « هل
يمكن أن يعرف قيمة إنسان إلاّ من عانى الحرّ والزمهرير ؟ » .

— ٢٥ —

افعل الخير من أجل الخير فحسب ؛
وما تفعله لن يبق لك ،
وحتى لو بقى لك
فلانه لن يبق لأولادك

وردت فى باردان العبارة التالية : « لا تقل إن ما تفعله يبق لك ؛
لو بقى لك ، فلن يبق لأولادك » (ديتس ، ج ٢ ، ص ٢٤٤) .

- ٢٦ -

إذا أردت ألا تُنْهَبَ نبياً شائناً
فاكتم ذهبك وسفرك ، وإيمانك

نفس المصدر : حيث ترد العبارة التالية : « قلت لأصحابي : اعملوا
بالمثل الذي يقول : خبىء ذهبك وذهابك وإيمانك » . (ديتس ج ٢ ص
٢٤٦) . كذلك يورد يوسف فون همر في « كنوز الشرق » (ج ٣ ص
٣٤٦) حديثاً نبوياً بهذا المعنى : « اكتم ذهبك وطريقك وفرقتك » :

- ٢٧ -

كيف حدث أنه في كل مكان
يسمع المرء الكثير من الأمور الحسنة ومن الحماقات ؟
إن الشباب يرددون أقوال الشيوخ
ويعتقدون أنها لهم ومن عندياتهم :
يسخر جيته من ادعاءات الشباب الذين يكررون أقوال الشيوخ ويزعمون
مع ذلك أنها من ابتكارهم .

- ٢٨ -

لا تدع نفسك أبداً
تنساق إلى المجادلة والمناقضة !
فالعقلاء يقعون في الجهل
إذا جادلوا الجهّال .
المعنى أخذه جيته من « مرآة البلدان » حيث ورد : « لا تجادل في
الحب ، ولا تتنازع ، ياقلبي ، مع الأتقياء ! فالعقلاء يقعون في الجهل إذا
تجادلوا مع الجهلاء » (ديتس ، ج ٢ ص ٢٣٦) .

- ٢٩ -

« لماذا كانت الحقيقة نائية بعيدة ؟
ولماذا تخنئ في أعماق الهاوية ؟
لا أحد يفهم في الوقت المناسب ! -
لو فهم المرء في الوقت المناسب ،
لكانت الحقيقة قريبة وانتشرت واسعا
وصارت لطيفة رقيقة محبوبة
خاتمة رسالة بعث بها جيته إلى بواسريه في أول مايو سنة ١٨١٨

- ٣٠ -

ما الفائدة في البحث
عن المكان الذي يفيض إليه الإحسان ؟
أَلْتى بكمكك في الماء ،
فلا يلزى أحد من سينعم بها .
إشارة بالكرم ، عن مثل شرقى واسع الانتشار ، أورده ديتس بالرواية
التالية : « افعل الخير ، وألْتى بخبزك في الماء ، فسيرد لك ذلك ذات
يوم » (ديتس : كتاب إقابوس ص ٣٣٤ ، برلين سنة ١٨١١ وتعليق
رقم ٣) . ويشير جيته إلى هذا المثل في رسالة إلى روزته اشتيدل
Rosette Städle بتاريخ ١٠/١٠/١٨١٥

- ٣١ -

لما قتلت عنكبوتا ذات يوم
تساءلت هل كان ينبغي على أن أفعل ذلك ؟
ألم يشأ الله أن يكون لها مثل
نصيبها من هذه الأيام ؟

استلهم فيها جيته قطعة في «جلستان» سعدى ورد فيها : « ألا تعرف بماذا تشعر الغلة حين تكون تحت قدمك ؟ إنها تشعر بمثل ما تشعر به حين يطؤك فيل » (ترجمة أوليارس ص ١٧) . وقد استبدل جيته العنكبوت بالغملة ، لأنه ورد في القرآن (سورة العنكبوت آية ٤١) : « وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتُ لَبِثُ الْعَنْكَبُوتُ » .

والقطع ٣١ إلى ٤٩ نظمت قبل ٢٦ يناير سنة ١٨١٥

— ٣٢ —

« الليل مظلم وعند الله النور » ،
فلماذا لم يبرأ الله على هذا النحو ؟
مصدر هذا القول غير معروف بعد

— ٣٣ —

يا لها من جماعة مختلطة متنوعة !
إلى مائدة الله يجلس الأصدقاء والأعداء .
مصدر هذه القطعة هو مقدمة سعدى « لبوستانه » (أوليارس ص ١)
حيث يقول : « الأرض سماطه (سماط الله) المحدود أمام كل الناس ، حيث لا فارق بين صديق وعدو » . كذلك وجد جيته عند شاردان هذه الجملة
« إلى مائدة الله يجلس الصديق والعدو » .

— ٣٤ —

أنت تقول غنى لأنى بخيل ،
أعطني إذن ما أستطيع تبذيره !
استلهم فيها جيته مثلاً عربياً أورده أوليارس ، يقول ما معناه : إن

الطبيعة لم تجعلني بخيلاً ؛ يعوزني ما أستطيع أن أنفق منه عن سعة وكرم «
(أوليارس ص ١١٧ برقم ١٨) .

— ٣٥ —

إذا أردت مني أن أريك المنطقة المحيطة بنا
فعليك أولاً أن تصعد إلى السطح

نفس المصدر مثل رقم ٣٤ (أوليارس ص ١١٨ برقم ٤١) حيث
ورد : « إذا كنت لا تريد الصعود على السالم ، فلانك لن ترقى إلى السطح » ،
وكذلك ورد : « خادم القوم سيدهم » .

— ٣٦ —

من يلزم الصمت لا يهاب إلا قليلاً ؛
فالمرء مخبوء تحت لسانه .

مأخوذة من المثل الوارد في البيت الثاني ، وهو مثل عربي شائع جداً ،
وقد أورده ديتس في « كتاب قابوس » ص ٣٨٣ .

— ٣٧ —

مَنْ لَهُ خَادِمَانِ
لَا يُخَدَّم جَيِّدًا .
والدار التي فيها امرأتان
لا تكنس كنساً نظيفاً

نفس المصدر (« كتاب قابوس » ص ٦٢٩ برقم ٣٦) إذ ورد فيه :
« إذا أمرت فلا تأمر رجلين في نفس الوقت إذا أردت أن يُنْقَذَ ؛
إذ يقال : إن طعاماً يطبخه شخصان سيكون إما كثير الملح أو بغير ملح ،
والدار التي فيها امرأتان لن تكنس كنساً نظيفاً » .

- ٣٨ -

مكانهم يا إخوتائي ،
وقولوا فقط : هو نفسه قال هذا !
لماذا نقول طويلاً : رجل وامرأة ؟
لقد كُتِبَ : آدم وحواء .

هجوم على الإيمان الأعمى بالسلطة . وكلمة : « هو نفسه قال هذا »
(antos epha) كانت الصيغة التوكيدية التي يستخدمها أتباع فيثاغورس
لتأييد أقوال رئيسهم . « وآدم وحواء » الصيغة التقليدية لعقيدة الكتاب
المقدس التي يؤمن بها جمهور الناس إيماناً أعمى ، بدلاً من معنى « الرجل
والمرأة » التي هي فكرة طبيعية تحتاج إلى بحث طويل مفصل . فجئته بسخر
إذن من المتمسكين بالتقليد الأعمى .

- ٣٩ -

لماذا أشكر الله أجزل الشكر ؟
لأنه فصل بين الألم والمعرفة .
فلو عرف كل مريض عِلَّتَهُ
كما يعرفها الطبيب لانتابه اليأس
يقول بورداخ إن بين هذه القطعة وبين بيتي شعر شلر : « الخطأ
وحده هو الحياة ، والعلم هو الموت » - شَبْهاً .

- ٤٠ -

من الجنون أن يفرض كل إنسان
في كل حالة رأيه ويمجّده !
إذا كان « الإسلام » معناه التسليم لله
فعلى الإسلام نحيا ونموت جميعاً

راجع ما قلناه في التصدير في الفصل الخاص بـ « جيته والدين » . وكان جيته يؤمن بوجوب التسليم المطلق لإرادة الله ، والإيمان الواثق بالعناية الإلهية التي تنظمت كل الأشياء .

- ٤١ -

من يأت إلى الدنيا يَبْنِ بيتاً جديداً
ثم يـُحَل ويتركه لثان
يرتبّه على نحو آخر
ولا أحد يُنمّ البناء

يقول شاردان أن الفارسي يكره أن يسكن البيت الذي توفي فيه أبوه ، وبهذا يفسّر قصيدة لسعدى يوردها وجيته يترجمها هنا : وقد جذبه إليها ما ترمز إليه من قانون طبيعي للتنافر بين الأجيال ، إذ كل جيل يستأنف نفس المهمة دون أن يصل أبداً إلى غاية ونهاية .

وقصيدة سعدى وردت في مقدمة « جلستان » (ترجمة أوليارس) وهذه ترجمتها كما في الأصل . كيف نمضي أزمان الحياة الحميلة ؟ إننا نملؤه بالمرارة من جراء الترهات : هذا يبدأ في البناء ، وذاك يستمر فيه ، وقبل أن يسكن فيه حقاً ، عليه أن يرحل إلى دار الظلام » . وقد أرسل جيته هذه القصيدة في ٣٠ مارس سنة ١٨١٦ إلى هانز جرانافون اسلنس .

- ٤٢ -

من يدخل بيتي يمكنه أن يذم
ما تحمّله طوال عدة سنوات ؛
لكن ينبغي عليه أن ينتظر لدى الباب
إذا أبيتُ اعتقاداً أنه يستحق .

يعنى : إن الزائر الأجنبي له حق فى أن ينتقد كل ما يجرى فى بيتى .
لكن إذا صار خارج الباب ، فعليه أن يتحمل دوره ويعانى بدوره النقد
الذى أبداه .

- ٤٣ -

رب ارض
عن هذا البيت الصغير !
يمكن بناء ما هو أكبر ،
لكن لن ينتج عن ذلك شيء أكثر .

« البيت الصغير » يقصد به « الديوان الشرقى » ، وفى رسالة كتبها
جيته إلى كوز جارتن بتاريخ ١٦ يوليو سنة ١٨١٦ أشار إلى أن قطعة هذا
المبنى ينبغي أن يختم بها « الديوان الشرقى » ، إذ قال : « وأود فى ختام أن
أضع مثلاً شرقياً ، مضمونه هكذا تقريباً : رباه ! تقبل هذا البيت الصغير ،
إن الأمر ليس بأكبر الحجم ، فالتقوى هى التى تصنع المعبد » .

- ٤٤ -

ها أنت ذا متردد
بما لا يستطيع أحد أن يسلبك إياه :
صديقان ، بغير هموم ،
كأس من الخمر ، ومجموعة من الأغاني

المقصود بالصديقين اللذين لا يسببان هموما : كأس الخمر ، ومجموعة
من الأغاني .

- ٤٥ -

« أى شيء لم يأت به لقمان
الذى نعتوه بالدمامة والقبيح ؟ »
ليست الحلوة فى العُود (البراع)
بل السكر هو الحلو

تقول الأخبار إن لقمان كان معاصراً لموسى أو نوح أو داود ،
وأنه كان عبداً حبشياً ، أسود دميماً مثل إيسوفوس صاحب
الخرافات (إيسوب) ، ويبيع لليهود . وكان غليظ الشفتين ،
ملتوى الساقين .

وقد ترجم أوليارس حكم لقمان : وألحقها بترجمة لجلستان سعدى .

والفقرة الأخيرة (البيتان الأخيران) حاكى فيهما سعدى
فى جلستان (ترجمة أوليارس) ص ١٠٢ ، برقم ٧٦) حيث يقول
سعدى : « حلوة السكر ونفاسته ليست من العود الذى يوجد فيه ،
بل من طبعه » .

- ٤٦ -

إن الشرق اجتاز
البحر المتوسط اجتيازاً باهراً مجيداً ؛
ومن يعرف حافظاً ويحبّه
هو وحده الذى يدرك ما تغنى به كالدرون

فى رسالة كتبها جيته إلى جريس بتاريخ ٢٩ مايو سنة ١٨١٦ أننى على
كالدرون وقال عنه « إنه لم يتنكر لثقافته العربية » . وكان جيته يعد كالدرون
من بين الشعراء « الشرقيين الغربيين » وقد أيد هذا الرأى جون دولف فى كتابه

عن جيته ص ٦٩٠ ؛ بينما أنكره ك . فولف في مقال له نشر في «كتاب جيته السنوى » (الذى ينشره جيجر في فرنكفورت ابتداء من سنة ١٨٨٠) المجلد ٣٤ ص ١٣٢ . وعلى كل حال فإن مسألة تأثير كالدرون بالثقافة العربية الإسلامية لا تزال بحاجة إلى مزيد من البحث ، وعسى أن تتاح لنا فرصة للدراسة هذا الموضوع

— ٤٧ —

« لماذا تزين إحدى يديك

أكثر مما ينبغي ؟ »

ماذا ينبغي أن تفعل اليسرى

إذا لم تزينتها اليمينى ؟

استلهم فيها جيته حكاية أوردها سعدى في «جلستان » (ترجمة أوليارس ، ص ١٠٩ برقم ١٤٤) : « كان جمشيد أول من زين يده بخاتم . وقد سأله أحدهم : لماذا وضع كل الزينة في اليد اليسرى ، بينما اليمينى أحق بذلك ؟ فأجاب جمشيد : يكفى اليمينى زينة أنها يمينى » .

وقد فسر لير هذه القطعة بأنها ترمز إلى ما عسى أن يوجه إلى جيته من نقد ولوم ، من أنه مدح الشرق على حساب الغرب في هذا «الديوان الشرقى » .

— ٤٨ —

لو بُعِثَ إلى مكة بحمار المسيح

فلن يكون بهذا أحسن شأنًا

بل سيظل دائماً حماراً

هذه النطعة مأخوذة عن سعدى ، إذ ورد في « بوستانه » : « لو أرسل

حمار المسيح إلى مكة فلن ينصلح شأنه ، بل سيظل دائماً حماراً ، (ترجمة أوليارس ، ص ٧٨) .

الطين المدوس
بنداح ولا يتصلّب
لكنك لو ضربته بشدة
في قالب صلب لا تأخذ شكلاً
وستتعرف أمثال هذا الحجر
ويسميه الأوروبيون پيزه

مأخوذة عن مثل أورده ديتس (ج ١ ص ١٩٦) وانتشر بين التتر ، وأصله : « إذا دسّت على الطين عثرت . أما البيزه فطين مضروب على هيئة حجر الخاتم ؛ وربما استمدجته بمعلوماته عنه من ديتس « تذكارات من آسيا » ج ٢ ص ٥٢٤ وما يتلوها .

لا تحزني أيتها النفوس المطمئنة
لأن من لا يخطئ يعرف متى يخطئ الآخرون
لكن من يخطئ في وضع أحسن ،
إنه يعرف بوضوح ما فعلوا من خير
تهكم من دعاة الأخلاق الذين يثرون ضد الشاعر : فإن من لا يخطئ
يعرف جيداً متى يخطئ الآخرون ، لكن من يخطئ بقدر أيضاً ما يأتون
من أفعال حسنة ، الأول مشغول بنوائص الغير ، أما الثاني فيقر لذوى
الفضائل بفضائلهم .

وهذه القطعة والقطعتان التاليتان نظماً سنة ١٨١٥ وسنة ١٨١٦ حتى شهر مايو.

- ٥١ -

« أنت لم تشكر
كفاء ما قدّم لك من خير ! »
لم ينلني مرض بهذا السبب
وصنائعهم تحيا في قلبي
كان جيته من أشد الناس حرصاً على الاعتراف بالجميل والإقرار
بالفضل لأصحاب الفضل . وبما يدين به للسابقين ؛ وصنائعهم ظلت تحيا
في قلبه باستمرار .

- ٥٢ -

اظفر بحسن السمعة
وميز جيداً بين الأمور ؛
من يرد أن يفعل أكثر يضيع
مصدر هذه القطعة هو « پند نامه » لفريد الدين العطار ، بترجمة سلفستر
دى ساسى (وردت في « كنوز الشرق » ليوسف فون همر ج ٢ ص ٩) :
« ينبوع السعادة أمان : حسن السمعة وسلامة التميز ، وكل من يريد غير
هذين يضل ويهلك » . وهو نفس مصدر « خمسة أشياء » ، « الألمانى
يشكر ، وما هو مكتوب في « پند نامه » .

- ٥٣ -

تيار الشهوة يعصف عبثاً
مهاجماً الأرض الراسخة غير المقهور

ويبقى بلآلى شعيرة على الشاطئ
وهذا مكسب للحياة

نظمت في مستهل فبراير سنة ١٨١٦ ، ونشرت أولاً كشعار في
« صحيفة الصباح » سنة ١٨١٦ رقم ٧١ ص ٢٨١ ، ثم دخلت في « الديوان
الشرقي » طبعة سنة ١٨١٩ كخاتمة لحكمة نامه .

ولا نعرف المصدر الذي استمد منه جيته هذه القطعة .

- ٥٤ -

أعين السر

لقد حققت العديد من الالتماسات
حتى لو كان فيها ما يؤذيك ،
وهذا الرجل الطيب لا يطلب إلا شيئاً بسيطاً
وهذا الشيء البسيط ليس فيه خطر

الوزير

هذا الرجل الطيب لا يطلب إلا شيئاً بسيطاً
وإذا حققته له في الحال
لضاع فوراً

نظمها جيته في ١٢ يناير سنة ١٨١٦ ، ويرى بورداخ (نشرة اليوبيل
ج ٥ ص ٣٧٢) أن الباعث عليها مناسبة شخصية جداً
ولا يعرف مصدرها بعد .

والأيتام ٥٤ - ٥٦ أضيفت إلى حكمة نامه في طبعة سنة ١٨٢٧ التي
تشمل مجموع مؤلفات جيته ، عند الناشر كونتا في اشتوتجرت وتوينجن .

— ٥٥ —

من المؤسف — لكنه أمر يقع كثيراً —
أن الحقيقة تتسلل وراء الباطل ؛
وأحياناً يكون هذا هواها ؛
فمن يستطيع أن يسأل هذه المرأة الجميلة (الحقيقة) عما تفعل ؟
إذا شاء السيد « باطل » أن ينضم إلى « الحقيقة »
فإن السيدة « حقيقة » لا بد ستتضايق من ذلك
نظمت في « فندق الدلب » في كامسدورف في ٦ أبريل سنة ١٨١٨
وربما كان جيته قد تذكر « السيدة حقيقة » في قول هانز ساكس :
« السيدة حقيقة لا تريد أن تؤثر أحداً » .

— ٥٦ —

اعلم أنى أتضايق جداً
من كون كثير من الناس يغنون ويتكلمون !
من يطرد الشعر من العالم ؟
— الشعراء !
يقول جيته في رسالة إلى ريوميه Riomaو بتاريخ ٢٦ مارس سنة
١٨١٤ : « إن جمهرة الشعراء هي التي تسبب في تقليل اعتبار الشعر
وتأثيره . »

تيمور نامہ

کتاب تيمور

— ۱ —

السناء وتيمور

هكذا أحاطهم الشتاء بغضبه الهائلة
ناشراً أنفاسه الثلجية بين الناس
مثيراً كل الأرياح ضدهم
وأعطى السلطة المطلقة عليهم للعواصف المزودة بإبر الجليد
ونزل في مجلس استشارة تيمور ،
وناداه بتهديدات شديدة وقال :
على رسلك ، رفقا ، أيها البائس !
تقدم ، يا طاغية الظلم
أما من بُدّ أن تحترق القلوب وتستهلك في الحرائق بعد ؟
إذا كنت أحد الأرواح اللعينة ، فاعلم إذن أنني الروح الآخر
انت عجوز ! وأنا أيضاً ! وقوتنا تحجر الأرض والناس .
أنت المريخ ! وأنا زُحل ، وكلانا كوكب نحس
في قراناتنا أفتقع الحوادث والكوارث ؟
إذا قتلت النفوس ، وبردت الهواء -
فإن أهويتى أشد بروداً مما تستطيع . أنت
إن جيوشك الوحشية تصب العذاب على آلاف المؤمنين

ليكن ، ففي زمانى - إن شاء الله - سأجد ما هو أسوأ
وأيم الله إنى لا أقلُّ عنك فى شيء ،
لأسمع الله ما أعرضه عليك !
نعم ، والله ! لن يستطيع حمايتك من الموت ،
أيها اليقظ الكبير ، ، لهيب النار الكبيرة
ولا أى نار فى شهر كانون

كتاب تيمور : أعلن عنه جيته فى « صحيفة الصباح » سنة ١٨١٦ فى مدينة
عدد رقم ٤٨ ص ١٨٩ كما يلى : « كتاب تيمور يعكس أحداثاً عالمية كبرى
فى مرآة نرى فيها ، لغزائنا أو لبلائنا ، انعكاس مصائرنا نحن » . وراجع
ما يقوله جيته فى « تعليقاته » .

السَّاء وتيمور : نظمها جيته فى ١١ ديسمبر سنة ١٨١٤ فى مدينة بينا
كبرهان على إمكان التفسير الرمزى للشعر الشرقى ، لأن بواسريه (ج ١
ص ٢٦٤) يصف حملة تيمور فى الشتاء بأنها مناظرة لحملة نابليون فى الشتاء
على روسيا وموسكو .

ودعا جيته إلى نظم هذه القصيدة فى مقال فى « مجلة بينا الأدبية »
(عدد مارس سنة ١٨١٤) ألهمه فكرة مادة للمحمة وطنية ألمانية . كذلك كان
جيته يتذكر عبارة وردت فى رسالة كتبها كارل أوجست إلى الكونتيسة أودونل
بتاريخ ٢٩ ديسمبر سنة ١٨١٢ ، تصف هروب نابليون عائداً من روسيا ماراً
بشمار : « لقد مرَّ المتجمد العظيم (= نابليون) من هنا دون إعلان عنه وهو
يركب أفضل عربة » .

أما مصدر القصيدة فهو قطعة شعرية وردت فى كتاب « عجائب
المقدور فى نوائب تيمور » لابن عربشاه ، وترجمها جونز إلى اللاتينية
Poesios Asiaticae Commentarorum Sex ، نشره يوهان جوتفريد

ايشهورن لييتسك سنة ١٧٧٧ م وكان تيمور قد هلك أثناء الاستعداد
لحملة في الشتاء ضد إمبراطورية الصين . ومن هنا أدرك معاصرو جيته
في الحال الشبه بين هلاك تيمور وبين ضياع نابليون في حملة روسيا الشتوية
التي أدت إلى نهاية نابليون .

- ٢ -

إلى زليخا

للاطفنك بأطيب العطور
وإشاعة المزيد من الحبور
لا بد لآلاف من براعم الورود
أن تفنى أولا في اللهب

لإحراز قارورة صغيرة
نحتفظ بعطرك إلى الأبد
رفيعة مثل أطراف أناملك النحيلة
ثم حاجة إلى عالم بأسره

عالم من دوافع الحياة ،
في اندفاعها الحافل
تستشعر حب البلبل
وغناءه الذي يهزّ النفوس
هل لا بد لهذا العذاب أن يعذبنا ،
لأنه يزيد في سرورنا ؟

ألم يستهلك طغيان تيمور
آلافاً مؤلفة من نفوس بني الإنسان ؟

نظم جيته هذه القصيدة في ٢٧ مايو سنة ١٨١٥ في فيزبادن ؛ وكانت في الأصل بعنوان « زيت الورد » ولا تضم غير ثلاث فقرات ؛ أما الرابعة فقد أضافها جيته لما وضع هذه القصيدة في كتاب تيمور ورأى ما في ذلك من تعسف واصطناع ، فأراد بهذه الفقرة الرابعة أن يبرر وضعها في كتاب تيمور ؛ ولكن هذا لم يُجند ، فلا تزال في غير موضعها رغم كل ذلك .

زليخا نامہ

كتاب زليخا

حَلَمْتُ فِي اللَّيْلِ أَنِّي
رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ بِدْرًا
فَا تَنَبَّهْتُ إِلَّا
وَالشَّمْسُ تَطْلُعُ فُورًا

— ١ —

دعوة

يَنْبَغِي عَلَيْكَ أَلَّا تَهْرَبَ أَمَامَ النَّهَارِ
لَأَنَّ الْيَوْمَ الَّذِي سَتُبْلَغُهُ
لَنْ يَكُونَ خَيْرًا مِنْ الْيَوْمِ الْخَاضِرِ ؛
لَكَنْكَ إِذَا بَقِيتَ مَسْرُورًا فِي هَذَا الْمَكَانِ
الَّذِي أَتَجَنَّبُ فِيهِ الْعَالَمَ ابْتِغَاءَ اجْتِنَابِ الْعَالَمِ إِلَى
فَسَتَكُونُ فِي أَمَانٍ مَعِيَ :
الْيَوْمَ هُوَ الْيَوْمُ ، وَالْغَدَ هُوَ الْغَدُ
وَمَا يَتْلُو وَمَا مَضَى
لَا يَسُوقُ وَلَا يَبْقَى مَا كُنَّا
ابْتَقَى يَا حَبِيبِي الْأَعَزَّ ؛
لَأَنَّكَ أَنْتَ الَّذِي تَأْتِي بِهِ وَتُعْطِيهِ

كتاب زليخا : يقول جيته وهو يعلن عن هذا الكتاب في « صحيفة الصباح »

(سنة ١٨١٦ برقم ٤٨ ، ص ١٨٩) : «كتاب زليخا يحتوى على قصائد عاطفية عنيفة ، ويتميز من كتاب العشق بأن المحبوبة مذكورة بالاسم ، وأنها تتجلى بطابع واضح صريح شخصى على أنها شاعرة تنافس الشاعر ، الذى لا ينكر علوّ سنه ، فى الوجدان المشبوب . والمحيط الذى تجرى منه هذه الدراما الثنائية كله فارسى . وهنا أيضاً تنفذ بعض المعانى الروحية ، وحجاب الحب الدنيوى يخفى علاقات أسمى » .

والكتاب تعبير عن الحب المشبوب بين ماريانة فون فليمر وجيته على النحو الذى عرضناه فى «التصدير» بالتفصيل ، فليراجع هذا الفصل قبل قراءة هذا الكتاب .

الشعار : هذه الأبيات الأربعة (وقد نظمناها شعراً) نظمت فى الوقت اللاحق على ٢١ أغسطس سنة ١٨١٤ ، وقصد بها فى الأصل أن توضع فى «كتاب الحكيم» .

وهو ترجمة منظومة لمثنوى للسلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠) ترجمة ديتس فى «ذكريات من آسيا» (ج ١ ص ٢٥٤) .

لكن عند تقسيم «الديوان الشرقى» إلى كتب ، وضع جيته هذا الشعار هنا ، تعبيراً عن الحادث المفاجئ الجميل ، حادث حبه لماريانة فون فليمر ، الشمس التى أشرقت فى سماء غرامه فجأة على غير توقع .

دعوة : نظمت هذه القصيدة فى ليلة رأس السنة لسنة ١٨١٤ وكان القصد بها أن تكون جملة ختامية «للديوان الألمانى» .

ولا ندرى على وجه الدقة من المقصود «بالحبيب الأعز» هنا : هل يقصد به محبوبة معينة ، أو يقصد به كارل أوجست . لكن بعد أن وضعت فى هذا المكان أصبح من الممكن تفسيرها بأن يكون المقصود هو حبيبته الجديدة (التى عرفها بعد نظم القصيدة) ماريانة فون فليمر .

وتم شبه بينها وبين قول حافظ الشيرازي (ديوانه ، ترجمة فون هممر ، ج ١ ص ٢) : « أتريد أن تعثر على الحبيب ؟ إذن دع الدنيا بما فيها » .

- ٢ -

ما من عجب في أن تسحر زليخا يوسف
 فقد كان شاباً ، وللشباب امتياز
 وكان ، فيما يقال ، جميلاً جماًلاً خللاً
 وهي الأخرى كانت جميلة ، فكان في وسع كليهما أن يسعد الآخر
 أما أنك ، يا من جعلتني أطيل الانتظار ،
 ترشقتني بنظرات مشوبة فتية
 وتحببني اليوم ، وغداً تغمريني بالنعيم ،
 فهذا ما ستغتني به قصائدي ،
 وستكونين عندي زليخاي إلى أهد الأبدن

- ٣ -

ولما كنت منذ الآن ستدعين زليخا
 فلا بد لي أنا أيضاً من اسم
 حين تتغنين بحبيبك ،
 حاتم ! هكلنا ينبغي أن يكون اسمه .
 فإن تعرفني أحد تحت هذا الاسم
 فإن يكون هذا ادعاءً :
 فن يلقب نفسه بآقب فارس القديس جورج
 لا يحسب نفسه في التو أنه كفاء للقديس جورج .

فأنا بما أنا عليه من فقر لا يمكن أن أكون
 حاتم الطائي أكرم الكرماء
 ولا حاتم الطغرائي ، أسخى الأحياء
 بين الشعراء ؛
 لكن أن أضع كليهما نُصِبَ عيني
 هذا أمرٌ ليس بالديم تماماً ،
 فقبول مواهب السعادة وبذلها
 سيكون دائماً لذة بالغة
 وأن يحب كلانا الآخر ، ويبذل نفسه للآخر
 هذا فيه نعيم الفردوس .

هاتان القصيدتان مرتبطتان ، وقد نظمنا في يوم ٢٤ مايو سنة ١٨١٥
 وفيهما ذكريات الأيام الحافلة بالسعادة والوجد المشبوب التي قضاهما جيته
 مع مريانة فون فليمر .

وقد اختار جيته اسم زليخا لقباً لحبيبتة ماريانة ، لأن حبّه عذرى ؛
 وعبد الرحمن الجامي في قصيدته الكبرى « يوسف وزليخا » (راجع
 التصدير) صورّ الحب بين يوسف (سيدنا يوسف ، النبي) وبين زليخا
 (امرأة العزيز ، فرعون مصر) على أنه حب طاهر لم تخالطه شهوة ، بل
 أفضى إلى إيمان زليخا بالله . وجيته يرمز إلى حبّه لماريانه بهذا الرمز
 الصوفي ، ليقول إن جيهما عذرى هو الآخر ، حب روحى خالص خالده ،
 وهذا اللون من الحب هو نعيم الجنة حقاً .

أما لماذا سُمّي جيته نفسه باسم « حاتم » فأمر لم يفهمه النقاد حتى الآن ،
 ولكننا فسّرناه في التصدير ، فنحيل القارئ إليه :

وكان جيته قد قرأ عن حاتم الطائي في ترجمة يوسف فون همر لديوان حافظ الشيرازي (ج ٢ ص ٤٤٥) إذ ورد في شعر حافظ : « من يحب حباً يعدل ألف حاتم » وقد علق يوسف فون همر على ذلك بقوله : « حاتم الطائي هو أكرم العرب » .

أما حاتم الطغرائي فقد قرأ عنه جيته في « المكتبة الشرقية » لدربوليه (ج ٢ ص ٤٨٨ ، طبعة ١٧٨٧) أنه : « رجل غني بالفضائل والصفات الحميدة ، لطيف الطبع ، مؤدب مع جميع الناس » .

- ٤ -

حاتم

ليست الفرصة هي التي تخلق اللص
بل هي نفسها أسوأ اللصوص
لأنها سلبتني بتمية الحب
الذي كان لا يزال في قلبي.

ثم أسلمتها إليك
يا أعظم مكسب في حياتي
حتى صرت أنا المسلوب
لا أرجو الحياة إلا منك

بيد أني أستشعر الرحمة
في رفيف نظرتك
وأنعم بين ذراعيك
بمصير جديد

زليخا

أما وقد غمرني حبك بالسعادة
فلست أنحى باللائمة على الفرصة
حتى لو كانت بالنسبة إليك لصاً ،
فما أسعدني بهذه السرقة !

وفيمَ التحدث عن السرقة ؟
هبنى نفسك عن طيب خاطر ؛
ويلد لي كثيراً أن أعتقد -
نعم ، إنني أنا الذي سرقتك .

إن ما أعطيتَه بإرادتك
سيجلب لك كسباً رائعاً ؛
وراحتي ، وحياتي الحافلة
أقدمهما إليك بسرور ، فتقبلهما !

لا تمزح ! ولا تتحدث عن تافهات !
أولا يجعلنا الحب أغنياء ؟
حين أمسك بك بين ذراعيّ ،
لا تقل سعادتي عن أية سعادة .

هاتان القصيدتان متكاملتان .

والأولى (رقم ٤) نظمت في ١٥ سبتمبر سنة ١٨١٥ ، وهي أقدم
قصيدة وجهها جيته إلى مريانه . والثانية (رقم ٥) قصيدة من نظم مريانه
نفسها ردت بها على جيته في اليوم التالي .

وفي قصيدة جيته شبه بقصيدة لحافظ الشيرازى (ترجمة يوسف فون همر ، ج ٢ ص ١٣٩) يقول فيها : « سرقت قلبي ، وأعطيتك نفسي بنفسى » .

- ٦ -

العاشق لا يفضل

هما أظلمت الدنيا من حوله .

لو بعثت ليلي ومجنون

لعرفا منى طريق الحب .

نموذج هذه القطعة في « بوستان » سعدى (ترجمة أوليارس ص ٧٤) حيث ورد : « لو أحببت إنساناً حباً صادقاً لوجهت إليه قلبك وأغمضت عينيك عن سائر ما في الدنيا . لو بعثت ليلي والمجنون من جديد ، لتعلمنا فن الحب من كتابي » . كذلك بنفس المعنى يقول حافظ الشيرازى (ترجمة يوسف فون همر ، ج ٢ ص ٤٠٥) : « من لم يسلك طريق الحب ، فاذا يعرف عن الحب » .

- ٧ -

أهذا ممكن ، يا حبيبتى ، أن ألاحظك

وأن أستمع إلى صوتك الإلهي ؟

مستحيلة تبدو الوردة دائماً ،

والبلبل يبدو غير مفهوم .

راجع ما يقوله جيته في « التعليقات » .

وفيها استلهم لما يقوله حافظ (ج ٢ ص ٥٩) : « البلبل يغرد وينغى

بكيف جعل الورد صديقه ، لقد تعلم البلبل الغناء من الورد . وكذلك لما يقوله جلال الدين الرومي (أوردته فون همسر في « تاريخ البلاغة عند الفرس » ص ١٨٦) : « العالم لا يحيط بصورة الورد ، والخيال لا يحيط بالوردة » .

والقصيدتان رقمًا ٦ ، ٧ ربما نظمنا قبل نهاية يناير سنة ١٨١٥ وتبعاً لهذا ليستا موجّهتين إلى مريانة ؛ وربما قصد بهما أن توضعاً في كتاب « الحركم » . لكن بعد وضعهما في كتاب زليخا صار من الواجب تفسيرهما على أساس أنه قصد توجيههما إلى مريانة .

وقد وصفنهما جيته هنا ليفصل بين الحوار السابق والحوار التالي :

— ٨ —

زليخا

لما كنت أركب السفينة في الفرات

انزلق الخاتم الذهبي

الذي تلقيته منك

على طول إصبعي وغاص في أعماق الماء

هكذا حلّمت . ورفّ الفجر

في عينيّ خلال الشجرة .

قل لي ، أيها الشاعر ؛ قل لي ، أيها النبيّ

بماذا تعبّر هذه الرؤيا ؟

أنا على أتم استعداد لتعبيرها !
ألم أرو لك مراراً
كيف تزوج دوج البندقية
بالبحر ؟

وهكذا من أناملك الرخصة
وقع الخاتم في نهر الفرات
آه ! أيها الحلم الرقيق
أنت تلهمني آلاف الأناشيد السماوية !

أنا الذي همت من الهندوستان
حتى دمشق
حتى أمضى إلى البحر الأحمر
مع قوافل جديدة

وأنت تزوجيني بنهرك
وبهذه الرابعة وهذه الخميلة
وهنا ستظل نفسي مخصصة لك
حتى آخر قبلة .

هاتان القصيدتان نظمتا في ١٧ سبتمبر سنة ١٨١٥ .

وفيها مزج بين معالم الشرق والغرب : الشجرة والرابعة والخميلة
عند جرير . ميله على اليمن ، ونهر الفرات ، ورحلة دوج البندقية على

على السفينة بوشنيرو في أثناء الاحتفال بتزويجه بالبحر عن طريق
إلقاء خاتم في الماء ، والبحر الأحمر والقوافل الغادية إليه من هندوستان
ودمشق .

- ١٠ -

إني أعرف تماماً نظرات الناس
الواحد منهم يقول : « إني أحب وأعاني الآلام !
وأرجو ، بل وأيأس ! »
والآلاف أخرى من الأمور التي تعرفها الفتاة ،
وكل هذا لا يفيدني فتيلاً ،
وكل هذا لا يؤثر في ،
لكن النظرات ، أي حاتم ،
تهب اليوم رؤاه .

لأنها تقول : إنها هي التي تعجبنى ،
أكثر من أي شيء آخر حتى الآن ،
إني أشاهد وروداً وأشاهد أفاحي
وهي زينة كل الحقائق وشرفها ،
وأيضاً صفصافاً وآساً وبنفسجاً ،
خلقت لتكون زينة الأرض .
إنها تحت زينتها أعجوبة
تحيطنا بالدهشة والإعجاب

وتجد نفوسنا ، وتشفيها ، وتبارك حولنا ،
حتى لنود ، ونحن في تمام الصحة ، أن نصير مَرْضَى ،

هناك شاهدت زليخا
ولما وجدت الصحة في المرح
والمرضى في الصحة
تبسمت وأنت تنظر إلى
كما لم تبسم من قبل للعالم .
وزليخا تستشعر في هذه النظرة
اللغة الخالدة : « إنها هي التي تعجبني ،
أكثر من أي شيء آخر حتى الآن » .

نظمت في ١٢ ديسمبر سنة ١٨١٧ . وفيها مشابه من قول حافظ
الشيرازي (ترجمة فون همر ج ٢ ص ١٧٠) : « لا طبيب لديه دواء
لحزني ، إني بالحبيب فقط أصح وأمرض » .

مجنون يابلوبا

ورقة هذه الشجرة التي جاءت إلى الشرق
وأودعت في حديقتي
تكشف عن معنى مستور
يلهم العارفين

هل هي كائن حي واحد
انشق إلى شقين من نفسه ؟
أو اثنان اختار كل منهما الآخر ،
حتى ليعدان شيئاً واحداً ؟

للجواب عن هذا السؤال ،
أعتقد أنني عثرت على المدلول الصحيح ؛
ألا تحسُّ من أغانيّ
أننى واحد واثنان معاً ؟

أرسل جيته هذه القصيدة في آخر سبتمبر سنة ١٨١٥ مكتوبة بخط
يده على ورق مزوّق مع ورقة الشجرة إلى مستشار البلاط كرويتسر
هيدلبرج ذكرى لحديث جرى بينهما دار حول المعنى المزدوج في الأساطير
اليونانية . فكأن الورقة بمثابة رمز لما في الأساطير ، وفي الطبيعة كلها ،
من ثنائية : انقباض وانبساط .

وجنجو بلوبا Gingo Biloba : شجرة عجيبة نمت منذ أقدم الأزمان
حول المعابد في الصين ، حيث تعدّ نباتاً مقدساً . ولا يعرف لها وجود
على هيئة برية ، وإن كان يقال إن منشأها في غربي الصين . وهي شجرة
ناعمة اللمس غير وافر الأغصان ، ترتفع أحياناً إلى ١٢٠ قدماً ، وتتساقط
أوراقها كل عام ، وعرض الورقة من ٢ إلى ٤ بوصة وطولها حوالى
بوصة واحدة . ونظراً إلى قدمها فهي تعدّ كنوع من « الحفريات الحية »
وبقيت بدون تغيير حوالى عشر ملايين سنة ، أو أقدم من أى شجرة
حية نعرفها . وتزرع كشجرة زينة في المناطق المعتدلة ، وتنمو بدون حماية
في كثير من أنحاء أوروبا وشمال أمريكا .

وبالجملة فالقصيدة تعبّر عن الثنائية في الطبيعة بوصفها قانونها
الأساسى .

وقد قال بواسريه (ج ١ ص ٢٧٩) عن هذه الشجرة : « هل هي
كائن واحد ينشق إلى اثنين أو ثناء يتحد في واحد » .
وتفسير القصيدة يذهب لمذاهب شتى : الرمز إلى ثنائية الطبيعة ؛ الرمز
إلى الديوان الشرقى للمؤلف الغربى ، إلى تضافر الواقع والخيال عند

الشاعر ؛ الرمز إلى التعاون بين جيته ومريانة في نظم كتاب زليخا .
الرمز إلى ما شب بينهما من غرام ... الخ .

— ١٢ —

زليخا

قُلْ لى : لقد كتبت كثيراً
ووجهت قصيدك هاهنا وهاهناك ،
وخططت بيدك كتباً جميلة ،
فاخرة التجليد ، ذات جوانب مُذهّبة
ممتنة فى كل شيء ،
مجلدات أنيقة فاتنة ؟
وللى حيث وجهتها ،
لا شك أنها كانت رهائن غرام ؟

هانم

نعم ، النظرات القوية والرقيقة
والبسمات الساحرة ،
والأسنان ذات البريق الباهر ،
والأهداب التى ترشق بالسهم ؛ والغدائر كالأفاعى ،
والجيد الفاتن والصدر المشير ،
— كل هذا أوقعنى فى آلاف الأخطار !
قد رى إذن منذ أى زمان كان التنبؤ بزليخا
نظمت فى ٢٢ سبتمبر فى هدلبرج .

وبعض الصور الواردة هنا له مشابه عند حافظ الشيرازى ، مثل قوله
(ترجمة فون همر ج ٢ ص ٢٥٠) : « لا تجرح قلبى بسهام الأهداب » .
وقد ادعت مريانه فون فليمير أنها هى التى نظمت هذه القصيدة ؛
لكن النقد بوجه عام متفقون على أن أسلوبها أسلوب جيته المحكم الموجز ،
وكان نصيب مريانه لا يتجاوز المداعبات المتعلقة بغراميات جيته القديمة .

- ١٣ -

زُلخا

ها هى ذى الشمس أقبلت ! يا لروعة منظرها !
إن الهلان يعاقها بقوة .
من ذا الذى استطاع أن يجمع هذين الزوجين ؟
هذا اللغز كيف يُفسّر ؟ كيف ؟

هانم

السلطان استطاع ذلك ،
نعم ، جمع بين أعظم زوجين فى العالم ،
ابتغاء تكريم الممتازين الصفوة
أشجع الشجعان فى جيشه الأمين
وليكن هذا رمزاً لسعادتنا !
هأنذا أرانا ، أنت وأنا ،
أنت تنادبنى ، أى حبيبى ، بقولك : يا شمسى ،
فتعال ، أيها القمر ، وضمّى بين ذراعيك !

كانت مريانه قد اشترت لحيته من سوق فرنكفورت كقناع ساخر
وساماً تركياً مؤلفاً من الشمس والتدريز وفاجأته به ، فاتخذ منه رزاً
عميقاً ، هذا الجمع بين الشمس والقمر ، على الجمع بينه وبينها . وتذكر
جيتة هذا الحادث وهو ينتظر لقاءها في ٢٢ سبتمبر سنة ١٨١٥
في هيدلبرج . فهذا الوسام العثماني الذي يجمع بين الشمس والقمر صار
صورة الحب الذي يجمع بين مريانه وجيتة .

— ١٤ —

إلى ، إلى ، أيها الحبيب ! ضع العمامة على رأسي !
فن يدك وحدها تكون العمامة جميلة ؛
وإن عباس ، على أعلى عرش في إيران ،
لم ير رأسه تُوجَّ بعمامة أجمل وأروع !
وكانت عمامة تلك التي تهدلت من رأس الإسكندر
على هيئة عُنُقَد جميلة ،
وأعجبت كل خلفائه من بعده
كزينة تليق بالملوك .

وكذلك كانت عمامة تلك التي زينت إمبراطورنا ؛
وهم يسمونها تاجاً . ولا مشاحية في الأسماء ؛
جواهر ولآلي ! يالها من فتنة للعين !
على أن أجمل زينة هي دائماً الموصلي
وهذه الزينة الصافية المنقوفة بالفضة ،
لغنها ، يا حبيبتى حول جبينى .

ما السموّ إذن ؟ إنه مألوفٌ لى !
أنت تنظرين لى ، وأنا كبير مثله .

نظمت فى ١٧ فبراير سنة ١٨١٥

ومعنى القصيدة أن علامة السلطة هى العمامة ، منذ أقدم الأزمنة ،
العمامة الموافقة من الشيلان الموصلية . والشكل والاسم تغيرا .

وقد قرأها جيته لمريانة ، فاستفادت منها فى الاحتفال بعيد ميلاد جيته
فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨١٥ . أما شاه عباس فقد حكم إيران من سنة
١٥٨٦ إلى ١٦٠٨ ، ولهذا فإن ذكره هنا تخلف تاريخي ، إذ المفروض
أن الشاعر يعيش فى عصر حافظ الشيرازى (المتوفى سنة ١٣٨٩ م)
وتيمور لك (المتوفى سنة ١٤٠٥ م) .

والبيتان الأخيران محاكاة لبيتين لقولتير فى « العذراء » (نشيد ١ بيت
شعر ٧٦ - ٧٧) : « آه ! ليكن ملكاً ، وأكن ليحمل حسداً لى : إن لى
قلبك ، فأنا ملك أكثر منه » .

وتوجد شذرة تصور القصيدة على هيئة حوار هكذا :

[زاجا]

لكن خبرنى إذن كيف أليفها ؛
فكل طبقة تحملها على طريقها .

[مامم]

يطيب لى أن أشعر بيدك على رأسى ،
حتى يرى الناس بعد ذلك أننى لك :
هذا يا حبيبتى هو طبقى ومركزى .

قليلٌ ما أطلبه

لأن كلَّ شيءٍ يرضيني

وهذا القليل ، منذ زمان بعيد

يعطيني العلم إياه عن طيب خاطر

مراراً أجلس مسروراً في الخانة ،

ومسروراً أيضاً في بيتي المحدود ؛

لكني ما أكاد أفكر فيك

حتى تنفتح روحي وتشرع في الغزو

إن ممالك تيمور يجب أن تكون ملك يمينك

وأن يدين لك جيشه العرمرم بالولاء

وأن تدفع لك بدخستان جزية من الياقوت ،

ويدفع لك بحر هورقانيا جزية من الفيروز

ولك الفاكهة المجففة الحارة كالشهد

من بخارى ، وبلاد الشمس ،

وآلاف القصائد الجميلة ،

على أوراق حرير من سمرقند

وينبغي عليك أن تقرئي بسرور

كل ما أتيت به من أجلك من هرمز

وكيف إن كل هيئة التجارة
إنما تحركت حباً فيك

وكيف من بلاد البراهمة
آلاف الأصابع اشتغلت
من أجل أن تزهر لك
كل مفاتن هندوستان على الصوف والحرير

نعم ، واحتفاءً بالحبيبة
كيف نقب في سيول سُمليور
وفصل من الطين والحصى
والحصباء ، الماسُّ من أجلك ؛

وكيف قام الجسورون من الغواصين
فانتزعوا من الخليج [العربي] كنز اللؤلؤ
وسرعان ما أخذ ديوان من العارفين المهرة
متلهفين على سلاكنها من أجلك

وإذا أضافت البصرة كتقدمة أخيرة
الأفاويه والبخور
فستأتى لك القافلة
بكل ما يفتن الدنيا

لكن كل هذه النفائس الملوكة
ستبهر في النهاية نظراتك

والنفوس العاشقة حقاً

لا تشعر بالسعادة إلاّ مع بعضها بعضاً

نظمت القصيدة بحسب ما ورد تحتها في ١٧ مارس ، ١٧ مايو
سنة ١٨١٥ ، وربما كان التاريخ الثاني هو تاريخ إضافة الأبيات من
١٧ - ٣٢ .

والشاعر يتصور نفسه أنه فاتح العالم مثل تيمورلنك ، لأنه يعلم بأنه
يأتى إلى حبيبه من كل البلاد بخير ما فيها : من بدخشان على نهر سيحون ،
وبحر هورقانيا (بحر الخزر) ، وبخارى فيما وراء النهر ، وسمرقند في
شرق بخارى ، والبصرة على مصب نهر الفرات ، والخليج العربى ، ومن
هرمز على الخليج العربى ، وسمليور في إقليم البنغال (بنجاله) .

ويقطع هذا التعداد الأبيات ١٧ - ٣٢ حيث يزعم أن الحبيبة تقرأ في
« أوراق حرير سمرقند » أصناف الهدايا التى أوصى بها حبيبها من هرمز على
الخليج العربى ، أو من سمليور في بنجاله .

ولهذا تساءل النقاد : ربما كانت الأبيات ١٧ - ٣٢ إضافة لاحقة .
أضافها جيته ، وأيدوا ذلك بالتاريخ المزدوج (١٧ مارس و ١٧ مايو
سنة ١٨١٥) الذى وضعه جيته للقصيدة .

هل أتردد لحظة واحدة ،
أى حبيبتى الحلوة ، فى أن أهبك
بلخ وبخارى وسمرقند ،
والنشوة والبهرج فى هذه المدن ؟

لسألى الإمبراطور
هل يوافق على إعطائك هذه المدن ؟
لأنه أروع وأعقل ،
لكنه لا يعرف كيف يحب المرء .
أيها الحاكم ، إنك لن تقدر أبداً
أن تهب مثل هذه الهبات !
إذ لا بد أن تكون لك حبيبتى مثل حبيبتى ،
وأن تكون شحاذاً مثلى .

نظمت فى ١٧ مارس سنة ١٨١٥

وقد استوحى فيها حافظاً الشيرازى (ترجمة فون همر ، ج ١ ص ١٣) ،
حين قال : أو أخذ الفتى الجميل من شيراز بقلبي فى يديه لوهبته ممرقند
وبخارى من أجل خال وشرحها فون همر (ج ١ ص XVII) فقال :
سأل تيمورلنك كيف خطر بباله أن يهب خير مدنه لفتى . فأجاب
حافظ : « ياسلطان العالم ، انظر إلى الواهب ، وستغفر له وقوعه فى
هذه الزلة » .

كذلك يقول حافظ (ج ١ ص ٢٤٤) : « لا تحتقر الشحاذين فى
الحب : فهو لاء الناس ملوك بغير تيجان ولا عروش » .

— ١٧ —

هذه الأسفار المكتوبة بخط جميل
المزدانة بالتذهيب البهيج ،
هذه الأوراق الفياشة
تثير فى نفسك الابتسام ؛
أنت غفرت لى أن أتباهى

بحبك وبنجاحي الراجع إليك
وغفرت لي التفتي بمديح نفسي بلطف
مدح النفس ! لا تنبعث منه رائحة كريهة إلا في أنوف الحساد
وله عطر زكيّ الرائحة في أنوف المحبين
وعلى حسب ذوق أنا !

السرور بالوجود عظيم
وأعظم منه التمتع بالوجود
فحين تغمريني ، أي زليخا ،
بسرور لا حد له ومتعة
وحين تلقينني إلى بوجدانك
كأنه كُرّة ،
حتى ألتقاها وأمسك بها ،
وأبعث إليك في مقابل ذلك
بذاتي المخلصة المكرّسة لك :
فتلك لحظة عظمى !
ثم ينتزعي منك
الفرنجي أو الأرمني .
لكن الأيام تمرّ ،
والأعوام تكرر حتى أُخلّق من جديد ،
وفيض سخائك يتزايد إلى غير نهاية
وبجلّ عبقرك لآلئ سعادتي ،
الذي خلطته آلاف المرات
أي زليخا !

لكن ما هي ذى ، فى مقابل ذلك ،
لآلى شعرية

ألقى بها التيار العرم لوجدانك .

على شاطئ حياتى المهجور

وقد اختبرت بتألق

بأنامل رخصة

ووضعت فى حلية غنية من الذهب .

فتنازلى واحملها فى جيدك

وعلى نحرك !

هذه القطرات من وابل .

نضجت فى محار متواضع .

نظمها جيته فى ٢١ سبتمبر سنة ١٨١٥ بعد وصوله إلى هيدلبرج بيوم
وفىها يشكر للحبيبة (مريانة) ما أثاره حبها فى نفسه من دوافع على الشعر
الرقيق المشبوب العاطفة .

وفىها شابه مما يقوله حافظ الشيرازى (ج ١ ص ١٧ من ترجمة فون
همر) حين يقول عن قصائده إنه « يود لو تنظم هذه الآلىء فى سلك ،
يزين نحر معاصريه » .

ولما كانت قد نظمت فى ٢١ سبتمبر فلإنها لا يمكن أن تشير إلى قصائد مريانة
عن الريح الغربية والريح الشرقية لأنها بعدها بأيام .

حُبَّ بحب ، وساعة بساعة

وكلمة بكلمة ، ونظرة بنظرة

وقبله بقبله من ثغر أمين ،
ونفس بنفس وسعادة بسعادة .
هكذا في المساء ، وهكذا في الصباح !
لكنك تشعرين في أناشيدى
دائماً بما يشبه أثر الهم المستور ؛
بودى لو استعرت فتنة يوسف
لأجيب بها عن جمالك .

نظمت في اليوم الأخير من لقاء جيته ومريانه في هيدلبرج ، في ٢٥
سبتمبر سنة ١٨١٥ .

- ١٩ -

زليخا

الشعب والخدام والظافر
يعترفون في كل وقت :
بأن الخير الأسمى لأبناء الأرض
هو الشخصية وحدها .

كل حياة يمكن احتمالها
إذا لم يُضْمَع المرء نفسه ؛
ويمكن المرء أن يفقد كل شيء
مشرط أن يظل كما هو هو

حاتم

هنا جائز ! وهذا ما يعتقده الناس ؛
لكننى أفتنى أثراً آخر :
فكل ما تنطوى عليه الأرض من سعادة ،
أنا لا أجده إلا فى زليخا .

فلتبذل نفسها لى
تصبح ذاتى آمن عندى ؛
ولو انصرفت عنى
لأضعت ذاتى فى الحال .

وحينذاك سينتهى حاتم ؛
لكنى اخترت مصيراً آخر :
سأنجسد حالاً
فى العاشق السعيد الذى تغازله

وأود أن أكون ؛ إن لم أكن ربّانياً
فتلك فكرة لا تخطر ببالى ،
بل أود أن أكون الفردوسى أو المتنبئى ،
أو على الأقل الإمبراطور .

نظمت فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٨١٥ فيما عدا الفقرتين الأخيرتين فقد
أضيفتا فيما بعد .

ومعنى الفقرات الأربع الأولى أن من الجائز سلوك أى حياة بشرط
ألا يضيع الإنسان ذاته ، وأن يبقى هو ما هو ، أى أن يحافظ على شخصيته .

لكن حاتم يعارضها قائلاً إنه بدون زليخا لا توجد سعادة ، لأنه من دونها سيفقد ذاته ، ولا تصبح له شخصية .

- ٢٠ -

هاشم

مثلاً دكان الصائغ في السوق
يرفّ بالجواهر التي تعكس جوانبها الأضواء
كذلك الفتيات الجميلات
يُحطن بالشاعر الذي وخط الشيبُ رأسه .

الفتيات

هل تريد أن تنغني بزليخا من جديد !
لسنا نقوى على احتمال هذا ،
إننا لا نحسدها عليك أنت -
بل على قصائدك فيها .

لأنها حتى لو كانت قبيحة ،
فأنت تجعل منها أجمل المخلوقات ،
كما قرأنا مراراً
عن جميل وبثينة

لكن لأننا جميلات حقاً
فلأننا نود أيضاً أن نُرسم
فإن قمت بهذا بثمن قليل ،
دفعنا لك أجرِك بلطف

هائم

تعالى ، أيتها السمراء ! الأمور تسير ؛
غداً ، وأمشاط كبيرة وصغيرة
تزين الصفاء الفاتن لرأسك ؛
كما تزين القبة المسجد .

وأنت أيتها الشقراء ، أنت أنيقة ،
أنت لطيفة بخيلة في كل شيء ،
لم يخطئ المرء إذن
حين يذكر المآذن في الحال .

وأنت ، هناك في الخلف ، لك عينان
فرد وحبان ، وتستطيعين الاستعانة
بكل واحدة منهما على حدة كما تشائين ؛
لكن ينبغي على أن أتجنبك .

تحت ضغط الجفون الرقيق ،
الجفون التي تحمي الحدة ،
الواحدة تكشف عن أخبث الخبائث ،
بينما الأخرى تنظر ببراءة ونزاهة

فبينما الواحدة تلقى بالصنارة التي تجرح
تبدى الأخرى عن معاونة وإشفاء
ولن أعد سعيداً
من يفتقر إلى هذه النظرة المزدوجة

وهكذا أستطيع أن أمدحكن جميعاً ،
وأن أحبككن جميعاً ،
لأننى وأنا أطرى مناقبككن
أحمد أيضاً سيدتى .

الفنيات

يطيب للشاعر أن يصبح عبداً
لأنه بهذا يظفر بالسيطرة ؛
لكنه قبل كل شيء ينبغى أن يعتبر نفسه سعيداً
إذا كانت حبيته نفسها تنظم الأغاني :

فهل هى تعرف نظم أغان
مثل تلك التى تزهى على شفاهنا ؟
لأنها تنثر الرية والظنّة
إذ هى تعمل فى السر .

هائم

أوه ، من ذا يعرف ماذا تفن !
أو نعرفن سرّ عمقها ؟
إن قصيدة استشعرتها لتنبثق من قلبها
وإن قصيدة نظمها لتنبثق من شفيتها .

لا واحدة منكن أيتها الشاعرات
تعلمها ،

لأنها تغنى لترضىنى
أما أنتن فلا تغنين ولا تحبين غير أنفسكن

. الفتيات .

لاحظ إذن أنك
ذكرت زوراً إحدى تلك الحوريات !
فليكن ! لكن لا تدعين
واحدة على الأرض أنها منهن .

نظمت في ١٠ أكتوبر سنة ١٨١٥ في مينجن ،

ويتصور الشاعر نفسه في دائرة من الفتيات اللواتي يحسدن زليخا لأنه
يصر على التغنى بها والإخلاص لها مثل إخلاص جميل لبثينة .
وهن يرجين أن يصورهن بثمرن رخيص ، وهنالك يعدنه بمكافأة
شريفة . - فيوافق حاتم على هذا العرض ، ويتغنى بالسمراء وبالشعراء ،
وباللعوب التي تعرف كيف تغمض إحدى عينها بينما الأخرى مفتوحة كلها
أمامه . ويلتذئ أن يتغزل فيهن جميعاً ، لأنه يجد في كل واحدة منهن ملامح
من حبيبته . - فتجيبه الفتيات :

هل زليخا شاعرة ؟ - فيرد حاتم قائلاً : إن عظمة زليخا في أنها تنظم
الشعر من أجل إرضائه فقط ، بينما الفتيات لا يفكرن إلا في أنفسهن .
وتحتم القصيدة بفترة هازلة تعزى فيها الفتيات أنفسهن بأن تهن حاتم
بأنه زور لهن صورة إحدى الحوريات اللواتي يتخذن صورة المحبوبات
من أجل الاحتفاظ بعشاقهن في الفردوس . وهن يوافقن على ذلك بشرط
ألا تندس إحدى هؤلاء الحوريات على الأرض .

هاتم

أيتها الغدائر ، أنت تأسريني
في دائرة المحيّا !
ولست لدى ما أحتمي به
من هذه الأفاعى السمراء المحبوبة .

وهذا القلب وحده يعتصم بالثبات
إنه ينتفخ في ازدهار شبابه ؛
وتحت الثلج والضباب
ينفجر أمامك بركان كبركان أتنا .

أنت تسربليني بالحجل مثلما يفعل الفجر
في جدار هذه القمم الكأبي ،
ومرة أخرى يشعر حاتم
بأنفاس الربيع وشواظ الشمس .

هيا أيها الساقى ! إلى بزجاجة أخرى !
إني أشرب هذه الكأس على ذكر الحبيبة !
فإن وجدت كومة صغيرة من الرماد ،
فستقول : لقد احترق من أجلى .

نظمت في ٣٠ سبتمبر سنة ١٨١٥ .

وقد لاحظ ريكرت Rückert وبعده سمروك Simruck أن البيت

الحادى عشر يقتضى وضع اسم «جيت» بدلاً من «حاتم» حتى يتفق مع القافية الواردة فى البيت التاسع .

ويبدو أن الفقرة الرابعة أضيفت فيما بعد : فإن رد زليخا احتجاج ضد «الغداثر...» ، لا ضد فكرة التضحية فى الحب الواردة فى البيتين الآخرين .

- ٢٢ -

زليخا

لا أريد أبداً أن أفقدك !

إن الحب يُقوّى الحب .

وأنت تزيّن شبابى

بعاطفتك المشبوبة القوية .

آه ! كم تهتز عواطفى

حين يمدح أحدُ الناس شاعرى .

لأن الحياة هى الحب

والروح هى حياة الحياة !

نظمت بعد السابقة بوقت قصير ، ومن المشكوك فيه أن تكون من نظم مريانة نفسها ، وإن كانت هى تدعى ذلك :

- ٢٣ -

لا تسمحى لفمك العذب الذى يشبه الياقوت

أن يلعن المضايقات والفضول .

أى سبب ومبرر لدى آلام الحب
غير أن ينشد شفاءه ؟

استلهم جينته فى هذه القطعة أشعاراً شرقية أوردتها ديتس (« ذكريات من آسيا » ج ٢ ص ٢٣٦) ورد فيها : « من العار ، أيها الساقى ، أن تقابل بين القمر وياقوت الحبيب . — أى غاية لآلام الحب غير البحث عن دواء ! » .

إذا كنت مفصُولاً عن المحبوبة
انفصال الشرق عن الغرب ؛
فإن القلب ينطلق خلال كل الفياق ،
ومعه صحبة تصحبه باستمرار ،
وعند المحبين بغداد ليست بعيدة .

نظمت فى فيمار فى ٣١ يناير سنة ١٨١٦ .

واستلهم فيها ما أوردته ديتس (« ذكريات من آسيا » ج ٢ ص ٢٣٢) :
« لو كان ما بينك وبين الحبيبة بُعد ما بين الشرق والغرب ، فاجترأ
أيها القلب لأنه عند المحبين بغداد ليست بعيدة » .

فليجبر نفسه بنفسه

عالمك المكسور !

هذه العيون الصافية تلمع

وهذا القلب يخفق دائماً من أجل .

أوه ! لماذا تعددت الحواس !
إنها لا تحدث غير التشويش في السعادة .
حين أراك ، أود لو كنت أحرص
وحين أسمعك ، أود لو كنت أعمى .

وحتى على البُعد أنا منك جد قريب !
وفجأة يأتي الألم ،
هنالك أسمعك من جديد ،
وفجأة تكونين هنا من جديد !

في ٢٥ استلهم جيته حافظاً الشيرازي (ج ١ ص ١٨٤) : « منذ الآن .
لم يبق شيء أعمله في أمور الدنيا ، فإن طلعتك زينت لعيون الدنيا ، وربما
كان نظمها في سنة ١٨١٥ ، ولكنها لم تنشر إلا في طبعة سنة ١٨٢٧ . »

أننى لى أن أبقي هادئاً
وأنا بعيد عن النهار والنور ؟
كأننى أريد أن أكتب الآن ،
وما عندي رغبة في الشراب

ولما جذبني إليها
ثعلت لغة الكلام

ولما توقف اللسان
توقف القلم كذلك
اسقني مرة أخرى ، أيها الساق الحبيب
واملاً الكأس في سكوت
لا أقول غير : تَذَكَّرْ !
فعلوم ما أريد

— ٢٩ —

حين افكر فيك
يسألني الساق في الحال :
« سيدي لماذا أنت ساكت ؟
إن الساق يريد باستمرار
أن يعرف شيئاً عن مذهبك
إذا نسيت نفسي
تحت البان
لا يهم ،
وفي المجلس الهادي
أكون حكماً عاقلاً
ماهرأ مثل سليمان .

هاتان القطعتان متكاملتان : والأولى نظمت في أول أكتوبر سنة ١٨٩٥
والشاعر يتذكر في الوحدة حين يرى شجرة البان (وبها يشبه قوام
الحبيب في الشعر العربي والفارسي) ويكون في حضرة الساق الشاب ، يتذكر

الحبيبة البعيدة . والساقى ، وهو يريد أن يعرف المزيد من كلمة الشاعر ،
بتضايق حين يراه غارقاً فى تأمل صامت عميق تحت شجرة البان .

— ٣٠ —

كتاب زليخا

بودى لو ركزت هذا الكتاب
حتى يكون موجزاً بقدر سائر الكتب
لكن أنى لك بلإيجاز الكلمات والصفحات
إذا اقتادك جنونُ الحبِّ بعيداً ؟

يحاول الشاعر أن يبرر طول هذا الكتاب بالنسبة إلى سائر كتب « الديوان
الشرقى » ، إذ فيه ٤٧ قطعة شعرية ، مما يجعله غير متناسب مع سائر أجزاء
« الديوان » . نشرت فى طبعة سنة ١٨٢٧ .

— ٣١ —

على هذه الفصوص المصقحة
القصي نظرة ، أيتها الحبيبة !
ودعني أرك الثمار
عاطة بقشرة خضراء ذات أشواك
هذه الثمر معلقة هناك منذ زمان طويل متكوّرة
فى صمت ، لا تعرف نفسها ؛
والغصن الذى يتحرك بركة
يهددها فى صبر .

لكن بقوة باطنة تتضج

وتنتفح النواة السمراء
إنها تود أن تستنشق الهواء .
وتود أن ترى الشمس .
وتنفجر القشرة ، فتنفصل
البذرة وتساقط في سرور ؛
وهكذا تساقط أغاني
وتتجمع في صلبك .

نظمها جيته في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨١٥ واستلهم فيها نزهة جميلة قام بها
مع مريانة في مخاريف الكستناء حول قصر هيدلبرج وجيته يشبه الإلهام
الشعري وانبثاقه من القلب بانطلاق الكستناء من قشرتها الخضراء .

زليخا

على حافة الزنبوع الضاحك
الذي يتلاعب على هيئة شباك من الماء ،
لم أدّر ماذا أمسك بي ؛
لكن كان قد نقش هناك
بيدك ، رمزي المرقوم ،
فخفضت عيني وأحببتك

وهنا عند نهاية القناة
في المشي الكبير الرائع النظام ،
أنظر من جديد في الهواء
وأرى حينئذ مرة أخرى

حروفي مرقومة بأناقة :

ابقَ ، ابقَ ، واجبِنتي !

هائم

ألا ليت المياه المتدفقة المتهاوجة

هي وأشجار السرو تعرف لك :

من زليخا إلى زليخا

جبِنتي وذُهوني .

نظمت في ٢٢ سبتمبر سنة ١٨١٥ ، قبل وصول مريانة بيوم ؛ ولهذا

لا تصف تجربة جيته في لقاء هيدلبرج بين جيته ومريانة ، بل استلهم منها

فراءاته الشرقية : وصف بييترو دلاً فله للقناة الكبيرة في أصفهان ،

وما أورده شاردان ج ٥ ص ١٦٨ وما يتلوها .

وفيها يعبر جيته عن رجائه المشوب في اللقاء المنتظر مع مريانة ..

- ٣٣ -

زليخا

لم أكد ألقاك من جديد

وأنعشك بقبلاقي وأغاريدى ،

حتى صرت ساكناً منطوباً على نفسك ؛

ماذا يضايقك ويرهقك ويشيع الاضطراب فيك ؟

هائم

آه ، يا زليخا ، هل لي أن أفصح ؟

بدلاً من أن أمدح ، أودّ أن أتشكى !

من قبل كنت لا تتغنى إلا بأغاريدى ،
متجددة دائماً ومتكررة باستمرار .
ربما كان على أن أمتدح تلك أيضاً ،
لكنها مؤجلة فحسب ؛

ولست لحافظ ، ولا لنظاى ،
ولا لسعدى ، ولا بلحاى

إنى أعرف كل أغاريد أجدادى ،
مقطّماً مقطّماً ، ونغمة نغمة ،
كلّها منقوشة فى ذاكرتى ،
لكن هذه ولدت حديثاً جداً .

لقد نظّمت بالأمس ،

قولى لى هل تعهدت بمهود جديدة ؟

وهل تجرئين ، فى حياتك المسرورة ،
أن تنفخى فى وجهى نفساً غريباً ؟
نفساً يبعث فىك الحياة أنت أيضاً ،
ويُحسِّق فى الغرام

ويمحِّبنا إليه ، ويدعونا إلى الاتحاد
فى انسجام مثل أنفاسى ؟

ولها

ظل حاتم بعيداً وقتاً طويلاً
وحبيته تعلمت شيئاً ؛

لقد تغنى بها أجمل التغنى ؛
ثم وضعها الفراق موضع التجربة ،
ومن الخير ألا تبدوا لك هذه الأغاريد غريبة ؛
إنها لزليخا ، إنها لك !
نظمت في ٢٧ أكتوبر سنة ١٨١٥ .

وفيها يتذكر جيته أيام لقائه النهائية مع مريانة في هيدلبرج في الفترة من
٢٣ إلى ٣٥ سبتمبر سنة ١٨١٥ . ومن المفروض أن جيته كان قد تلقى منها
قصيدتها ؛ « ماذا تعنى الحركة ؟ » (التي نظمتها في ٣٣ سبتمبر) و « آه ،
كم أحسبك أينما الريح الغربية » (ونظمتها في ٢٦ سبتمبر) .
وجيته يمدح هنا ملكتها الشعرية ، ويتظاهر بأنه يستشعر نبرة جديدة
في قصائدها الأخيرة ، ويخشى أن يكون قد ظهر له منافس في حبها .
ولكن زليخا تطمئنه ، وتعترف له بأنه في غيبة حاتم عرفت كيف تستفيد
مما علمها إياه ، وأنه إنما يجد في قصائدها نفس الحنين الواله الذي ألهمه
هو إياها .

يقال إن بهرا مجورا اكتشف القافية
وكان ينطق بحماسة عن دافع من نفس صافية ؛
وسرعان ما أجابت عليه دلارام ، صديقة عمره ،
بكلمات وأنغام مماثلة .
وهكذا قُبِضَتْ لى يا حبيبتى ،
لاختراع استعمال القافية الحلو الرقيق
حتى لم يعد ينبغى لى أن أحسد
بهرا مجورا الساساني : فقد ظفرت بنفسى النعمة .

لقد ألهمتني هذا الكتاب ، ومنحتني إياه ؛
لأن ما قلته في فرحة قلبي
لم يكن غير صدى لحياتك الفاتنة ،
كما تجيب النظرة على النظرة والتفافية على التفافية .

ألا فلتصل إليك هذه الأنغام ، ولو من بعيد ؛
والكلمة تصيب الهدف ، حتى لو اختفت النبرة والرنين .
أليست هذه عباءة النجوم المنتثرة ؟
أليس هذا هو الكل المتساقط لاجب ؟

نظمت في ٣ مايو سنة ١٨١٨ أثناء طبع كتاب زليخا
ولهذا ينبغي أن تفهم على أنها خاتمة وتوديع لتجربة غرامه ، وتوديع
للتجربة الشعرية ، وشكر لمريانة على إسهامها في هذا الكتاب . وفي الوقت
نفسه هي إهداء جديد لاكتاب إلى حب الشاعر الراسخ لحبيته .
وقد استلهم فيها جيته أسطورة اختراع بهراجور الساساني للقافية
وحبيته دلارام ، أمته .

أن أتألف مع نظرتك ،
مع فك ، مع صدرك ،
وأن أدرك صوتك ،
كان آخر لذاتي وأولاها .

وبالأمس ، وأسفاه ، كانت آخر لنة
وبعدها انطفأت الشعلة والمصباح ؛

وكل هذا المزاج الذى أمتعنى ،
صار عندى حافلاً بالأخطاء غالباً .

وقبل أن يشاء الله
أن يجمعنا من جديد ،
لن نعطينى الشمس والقمر والعالم
غير مناسبات للبكاء

ربما تكون قد نظمت فى ١٩ سبتمبر ، من ارتحال جيتيه من
فرنكفورت ، أو فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٨١٥ ، بعد انفصاله عن مريانة
فى هيدلبرج

زليخا

ماذا تعنى الحركة ؟
هل تأتبنى الريح الشرقية بنبأ سار ؟
إن رفرفة أجنحتها النضرة
تسكن حرارة جرح قلبى العميق
لأنها تغازل ، لعبةً بالغبار ،
وتنبه على هيئة غيوم رقيقة ،
وتزجى إلى عريش الكرم الأمين
الأسراب الهائلة من الحشرات
ويخفف برقة حرارة الشمس

وتلطف أيضاً خلودي المشوبة
وفي مرورها تقبل الأعناب
التي تزهى فوق الحقول والروابي .
ويأتيني همسها الرقيق
بآلاف من نحيات الحبيب ؛
وقبل أن ينتشر الظلام على هذه الروابي ،
نحيني آلاف القبلات .

وهكذا نستطيع أن نتابع مسرك !
عاون الأصدقاء والمكروبين .
وهناك ، حيث تتعد الأسوار العالية
سأعثر على الحبيب العزيز عما قليل
آه ، إن أنباء القلب الصادقة ،
ونسمة الحب ، والحياة المنتعشة
تأتيني من فوه وحده ،
ولا يستطيع أن يعطيني إياه غير نفسه .

نظمها مريانة فون فليمير أثناء الرحلة من درمشتات إلى هيلمبرج في
٢٣ سبتمبر سنة ١٨١٥

وهنا أيضاً استلهمت مريانة ، شعر حافظ الشرازي حيث يقول (ج ١
ص ٦ من ترجمة يوسف فون همر) : « أيتها الريح الشرقية ، هل تمرين
بمرج الورد ، بلتحي أنبائي إلى الحبيب الأمين » .
والآيات ١٣ - ٢٠ كانت في الصورة الأولى لها هكذا :

وعلى همسها الرقيق
أن يأتيني بتحية جميلة من الحبيب ،

وقبل أن تنتشر الظلال على هذه الروابي
سأجلس ساكنة عند قدميه

وتستطيع الآن أن تتابع المسير ،
هلون الأصدقاء والمكرويين ،
وهناك حيث تتعدّ الأسوار العالية
سأجد حبيبي العزيز .

وقد علقت مريانة على التعديل الذي أجراه جيته بقولها : « لم يغيّر
جيته غير فقرة واحدة ، ولا أفهم حقاً لماذا عدّلها ، فإني أرى أن نظمي
لها جميل حقاً » (« الحوليات الروسية » ج ٢٤ ص ١٣ ، ١٨٦٩) .
والبيت رقم ١٩ يشير إلى قصر هيدلبرج .

صورة سامية

الشمس ، هليوس اليونان ،
تتابع سيرها الرائع في طريق السماء
وهي واثقة من الانتصار على العالم
وتتلف حوالها في أسفل وإلى أعلى
وهو يرى أجمل الآلهات تبكي ،
بنت الغيوم ، طفلة السماء ،
ويبدو أنه لا يشرق إلا من أجلها وحدها ؛
أعنى عن كل الأماكن الأثرية .

إنه غارق في الألم والحزن ،
وعبرات الإلاهة كفيض باستمرار ؛
ويمزج اللنة بأحزانه ،
ولدى كل دُرَّة قُبْلَة بعد قبلة .
والآن تستشعر قوة نظره ،
وتتطلع إلى أعلى دون أن تحول نظرها
ويلوح أن الآلىء تود أن تتخذ شكلاً ،
لأن كل واحدة منها تلقت في داخلها صورته
وهكذا ، وهو متوج بتاج ذى ألوان
ومجياه يضىء في هدوء ،
يمضى إلى لقاءها ؛
لكنه ، واأسفاه ، لا يستطيع اللحاق بها .

وهكذا ، بقرار قاس من القدر
تنصرفين عن أيتها العزيزة المحبوبة ،
وحتى لو صرت « هليوس » الكبير ،
فإذا عسى أن يفيدنى عرشى العربة ؟

نظمت في ٧ نوفمبر سنة ١٨١٥ في فيار

وتعبر عن حب حاتم وزليخا برمز قائم على فكرة التسليم . فعبتاً
بمرّ هليوس (الشمس) الظافر في السماء ، غامراً بأشعته إلاهة الغيوم
وقوس قزح ، حبيبته إيريس ، مضيقاً كل قطره تتحلب منها : فيشرق
وجه إيريس هكذا في قوس قزح ، وهايوس يطاردها باستمرار دون
أن يقلدر على اللحاق بها أبداً .

غائمة

كم يرنّ جيلاً رائعاً أن يشبه الشاعر نفسه
مرة بالشمس ومرة بالإمبراطور ؛
لكنه يحجب سيأه الخزيئة
حين يتسلل في الليالى الكابية :

إن زرقة السماء الصافية ،
وهى محاطة بسور السحاب ، قد تحولت إلى ليل وظلام ؛
ونحدودي نخلت وشجبت
ودموع قلبي صارت رمادية اللون .

لا تتركنى هكذا لليل والألم ،
أى عزيزى . أئى محيا القمر !
يا نجمة صباحى ، يا شمعتى ،
يا شمسى ، يا نورى !

نظمت في نفس اليوم كالسابقة .

والبيتان ٥ ، ٦ يمهذان لتأثير الريح الغربية :

والأبيات ٩ - ١١ فيها شبه بما يقوله حافظ الشيرازى (ج ٢ ص ٢٨٤) : « وجهك الذى يشبه القمر ، أيها الحبيب ، هو ربيع الجمال » ،
وقوله (ج ٢ ص ٢٩٣) : « مادام لا يضىء نجم في ليل الفراق ، فتعال
إلى الشرفة وأضىء الليل بوجهك الذى يشبه القمر » .

زُلخا

أيتها الريح الغربية كم أحسدتك
علي أجنحتك الرطبية :
لأنك تستطيعين أن تحملى إليه
نبأ ما أعانيه من آلام الفراق !
إن خفقان أجنحتك
يشير في قلبي حنيناً ساجياً ؛
والأزهار ، والعيون ، والغابات الروابي
كلها تذرف الدموع في هبوبك .
لكن نسيمك العليل الرقيق
يرطب جفوني المقروحة ؛
آه ، سأهلك من الألم
إذا لم أَرَجَ رؤياه من جديد .
طيري إذن إلى حبيبي ،
وامسى في قلبه برقة وحنان ،
وتجنبي مع ذلك أن تضايقيه وتخزنيه
وأخف عنه آلامي .
قولى له ، لكن قوليه بتواضع وخياء :
إن حبه هو حياتي ؛
والشعور بالسرور في كليهما
سيتحقق بقربه .

هذه القصيدة من نظم مريانة فون فليمير في ٢٦ سبتمبر سنة ١٨١٥ أثناء عودتها من هيدلبرج ، حين كان لا يزال ثم أمل في أن يمر جيته بفرونكنورت وهو في طريق عودته إلى فيمار .

وهذه القصيدة معارضة لقصيدة الريح الشرقية (رقم ٣٦) .

ولم يغير جيته فيها غير تغييرات طفيفة جداً في البيت الرابع .
وفي القصيدة محاكاة لما يقوله حافظ الشيرازي (ج ٢ ص ٥٢٨ م :
« أتيت الريح الشرقية أنبئني ، أرجوك بكل رقة وحنان ، إن مئات الألسنة
تتحدث عن هيب القلب . ولا تكلميه بحزن ، حتى لا تبعثي الحزن
في نفسه . قولي الكلمة ولكن قولها بفطنة » .

عودة اللقاء

أهذا ممكن " يا كوكب الكواكب ،
أن أضملك إلى قلبي من جديد !
أواه ، يالأسيل الفراق من هاوية ،
ويا له من ألم !
أجل ! أنت أنت شريكتي العذبة في النعم
إني لأتذكر آلامي الماضية
فأقشعراً فزعاً من الحاضر .

حين كان العالم ، في الهاوية اللانهائية ،
يرقد على الحضن الأبدي لله ،
أمر بأن تكون الساعة الأولى

في رغبته السامية للخلق

وقال الكلمة : ليكن العالم !

هنالك رنت آهة أليمة !

حينما تتأثر الكون ، بقوة هائلة ،

في تفاصيل الواقع

وانبثق النور : وفي نفس اللحظة

انفصلت عنه الظلمات بفزع ،

وإذا بالعناصر ، في الحال

تفصل عن بعضها بعضاً وتهرب .

وبسرعة ، في أحلام وحشية مبهمة ،

اندفع كل شيء إلى بعيد ،

متصلباً ، صوب النواحي اللانهائية ،

دون حين وبغير رنين .

وران الصمتُ على كل شيء ، ساكناً قفراً ؛

ولأول مرة كان الله وحيداً !

هنالك خلق الفجر ،

الذي أشفق على هذه الوحشة ؛

فسمَّى الفجر ، من الوسط العكر ،

اللعبة المنسجمة للألوان ،

وهناك أمكن أن يتجاوب من جديد

ما كان قد افترق وانفصل .

وبحاسة متلهفة
بحث كلُّ عما ينتمى إليه ؛
وصوب الحياة اللانهائية
توجهت العاطفة والنظرة .
طوعا ، أو كرها ، ماذا بهم ،
مادام ثم تمالك واعتناق !
ولم يَعتد الله بحاجة إلى أن يخلق بعد هذا
فإننا نحن الذين سنخلق عالمه

وهكذا طيرتُ إلى ثغرك
على أجنحة الفجر الوردية
والليل المرصع بالنجوم
يُوثِّق ما انعتد . بيننا من رباط بآلاف من خواتمه
وكلانا على الأرض
ممثلٌ نموذجي في السَّراء ، والضَّراء
ولن تستطيع كلمة ثانية : « كُنْ ! »
أن تفرِّق بيننا من جديد .

نظمت هذه القصيدة في ٢٤ سبتمبر سنة ١٨١٥ في قصر هيدلبرج

وهي أعظم قصيدة في « الديوان الشرقى » ، ومن أعظم قصائد جيته
عامة . وفيها مزيج من أفكار أفلاطون (في « المأدبة » ، « وفدرس »)
والأفلاطونية المحدثة ، والكتاب المقدس من ناحية والقرآن الكريم من
ناحية أخرى ؛ فضلا عن نظريات جيته في البصريات .

وقد لخصناها في « التصدير » ، وبيننا ما فيها من أفكار ، وخلصتها أن الله خلق الفجر ، أعنى التلاعب بين الألوان والنفحات وفقاً لقوانين العدد . ومن ثم نشأت في العالم النزعة إلى الاتحاد ، وذلك هو الحب الذي يدفع الكائنات التي انفصلت عن بعضها البعض في فعل الخلق الأول - إلى الاتحاد من جديد . والرابطة الجديدة بين زليخا وحاتم هي مثل على هذه الظاهرة نفسها : أعنى شوق كل نصف إلى الاتحاد بنصفه الآخر الذي انفصل عنه نتيجة فعل الخلق الأول .

وجيته يريد أن يكشف عن نظريته في العالم وهي تلخص في أنه يرى أن قوى الطبيعة كلها في الكون تؤلف وحدة .

وكان في الصورة الأصلية لهذه القصيدة أبيات تأتي بعد البيت العشرين هذا نصها مترجماً :

« وهنالك دوى في نواح

ما كان يربط الأبدية

وفي أيام شديدة اليمه

شعر بأنه وحيد . »

وبعد البيت رقم ٢٤ :

« لأن الأعلى والأدنى

أدركا لأول مرة

وتحت دائرة السماء الطلعه

بني عماء الأرض العميق .

وهكذا تم الانفصال إلى الأبد ،

وقضى الأمر !

مياه النار في السماء

ومياه الأمواج في البحار .

لقد عثر حاتم على زليخا بعد فراق أليم ، وهذا اللقاء الحديد صار عند الشاعر رمزاً للاتحاد النهائي بين روحين اجتذبت كل منهما الأخرى بالقانون السرى للأنساب المختارة ، وبوجه عام رمزاً لتاريخ الكون : فعند نشأة الكون حين كان العالم لا يزال مدفوناً في حضن الألوهية السرمدي ، أمر الله بأن توجد الساعة الأولى ، ونطق بكلمة الخلق : كُنْ ! (« كلمة الحضرة » في اصطلاح الصوفية) . هنالك ألقى الكون بنفسه في الواقع ، بمجهود أليم ثقيل ، فانبثق النور ، وانفصلت عنه الظلمات في فرع ؛ وتبددت العناصر وفرت : وكل منها ألقى بنفسه جثة هامة في الامتداد الهائل بغير رغبة ولا ضواء . هنالك بقي كل شيء صامتاً ، ساكناً ، خاوياً ، موحشاً : ولأول مرة كان الله وحيداً . لكنه أشفق على هذه الوحشة . ولهذا خلق الفجر في هذا العالم الكثيب الموحش ؛ ومن التقاء النور بالظلمات نشأت الألوان . ومن هنا بدأت حركة في الاتجاه المضاد : حركة اتحاد وتركيب ، بعد الفراق والانفصال : فالعناصر ، بعد أن انفصلت بشدة بواسطة فعل الخلق ، تنحو من جديد إلى الالتقاء وفقاً للأنساب القائمة بينها ، والتي جعلها جيبته موضوعاً لقصته الخالدة « الأنساب المختارة » (راجع ترجمتنا لها والتصدير) . فسرت في الكون كله رعدة حب طويلة . وانضم الجزىء إلى الجزىء ، وكل روح بحثت عن الروح التي انفصلت عنها . وهكذا بطير حاتم ، على أجنحة الحب الوردية ، إلى زليخا التي صارت له وصار لها منذ الآن إلى أبد الآبدين .

نبذة البدر

سيلدى خبرينى ، ما معنى هذا الهمس ؟
ولماذا هذه الحركة الرقيقة من الشفاه ؟
أنت تنفثين دائماً همساً
أرق من هيزة الخمر المداق !
هل تودين أن تجذبى إلى شفتيك
شفتين آخريين ؟

« أريد قبلة ! قبلة ! قلتُ لك . »

انظرى ! فى الظلام المبهم
تتقد كل الغصون المزهرة ،
وتحمر نجمة وراء نجمة ،
وآلاف الومضات
تصب أضواء الزمود خلال الخنازل :
لكن روحك تظل بعيدة عن كل هذا .
« أريد قبلة ! قبلة ! قلتُ لك . »

وحبيبك ، على النأى ، ممتحن
بحلاوة المرارة هو الآخر ،
يستشعر سعادة مصنوعة من الألم .
وعدت نفسك وعداً مقدساً

بأن أحبك في ليلة البدر ؛

وها هي ذى اللحظة المنشودة

« أريد قبلة ! قبلة ! قلت لك . »

في عشية ارتحال جيته من جريرميله ، في ١٨ أكتوبر سنة ١٨١٥ ،
عندما أثر البدر ، تعاهد الحبيبان (جيته ومريانه) على أن يتلاقيا بالروح
في ليلة البدر في الشهر التالي ، فيفكر كل منهما في الآخر ، ويتصلان على
البعد بالروح والفكر : وبالفعل أرسلت مريانه في ١٨ أكتوبر سنة ١٨١٥
إلى جيته رسالة رمزية (راجع « التعليقات ») ومعها هذه الأبيات من
شعر حافظ الشيرازي : « ما لي حيلة إلا أن أحبا في صمت . فإن لم أستطع
عناقها ، فإذا سيؤول إليه أمري ؟ إن قلبي يحن دائما إلى الشفاء . » - وفي
٢٤ أكتوبر رد عليها جيته بالحوار الجميل بين العاشقة وقهرمانتها ، وهو
يعالج نفس الموضوع ، وفيه يمزج مع كلمات حافظ السابقة أشعار أخرى
لحافظ يقول فيها : « بالأمس ، رأيت بين الغدائر خدود حبيبتى ؛ وكانت
تضمها كما تضم الغيوم البدر . أقول لها : « أريد قبلة ، قبلة » ، فتجيب :

انتظر حتى يخرج البدر من برج العقرب . »

والأبيات ٨ - ١٣ كانت في الصورة الأولى هكذا :

انظر ! إن الورود النضرة

ترف في الليل البليل

والنجم يجرى في إثر النجم .

وآلاف الومضات

تصب الزمرد خلال الحمائل

لكن روحك بعيدة عن هذا كله .

كتابة رمزية

أيها الدبلوماسيون ، أرحموا
لهذا الأمر غيرار عزائمكم ،
وأسلدوا إلى مواليككم الأقوياء
صامدق الرأى وسديد النصيحة !
ولينشغل العالم
بإرسال كتابات رمزية ،
حتى تتخذ هذه المسألة كلها
وضعا يتسم بالاتزان .

والكتابة الرمزية من سيدتى العذبة
مألوفة لى

وأجد متعة بالغة

فى كونها هى التى اخترعت هذا الفن ؛

لأنه فبض الغرام

فى أمتع مقام

والإرادة العذبة الخلصة

هى التى تجمع بيننا

لأنها باقة من مختلف الأزهار

من آلاف وآلاف البراعم ،

وبيت كله عامر

بالأرواح الملائكية ،
وسماء مرصعة
بطيور متعددة الريش ،
وبحر يرن بالأغاني
تهب عليه نسيمات عاطرة .
إنها التعبير المُستَسِرُّ المُبْهِمُ
عن وجدان مطلق ،
ينفذ في لُبِّ الحياة
مثل سَهْمٍ يتلوه سهم .
وما كشفت لكم عنه
كان منذ زمان بعيد استعمالاً تقياً ،
فإن حَزَرْتُمْ ما هو ،
فاسكتوا واستخدموه .

نظمت في ٢١ سبتمبر سنة ١٨١٥ في هيدلبرج .

وجيته يشير هنا إلى الرسائل الرمزية التي تبادلها مع مريانه ، ويشبهها
بالرسائل الرمزية التي يتبادلها الدبلوماسيون المجتهدون في مؤتمر فيينا بعد
سقوط نابليون . وكان الحبيبان (جيته ومريانه) قد اتفقا على استخدام هذا
اللون من المراسلة حين رحل جيته عن فرانكفورت في ١٩ سبتمبر سنة ١٨١٥ .

انعطس

وقَعَتْ لى مرآة
يَسْلَدُ لى أن أنظر فيها

وكان أمر الإمبراطور
معلق في رقبتى بلمعان مزدوج ؛
وما ذلك لأننى أبحث
في كل شيء عن نفسى على نحو أنانى ؛
لكنى أحب الاجتماع
وهذه هى الحالة المعروضة هنا .

حين أقف أمام المرأة
في بيتى الهادئ أنا الأرملة
تتجلى فجأة
حبيبتي وتتطلع في
وفي الحال أتلفت حوالتي ، ومن جديد
تختفي تلك التي رأيته ؛
هنالك ألقى نظرة على قصائدي ،
ومن جديد تكون ماثلة هناك .

وأنا أنظمها أجمل باستمرار ،
وعلى نحو مناسب لذوق ،
رغم التويقدين ، والسويخرين ،
من أجل متعتي اليومية .
وصورة حبيبتي ، في إطار ثمين ،
تزداد جمالاً

بين أغصان الورد الذهبية
ولإطارات الزرقة السماوية .

هذه القصيدة لغز وحلته ، وربما نظمها جيته في ٢٦ أكتوبر سنة ١٨١٥ .

والمرأة يقصدها هنا القصائد الواردة في «كتاب زليخا» هذا ، التي تتألق فيها صورة الحبيبة البعيدة لحبيبها الشاعر وهو في بيته الخاوي من الأحباب (بيت أرمل) .

- ٤٤ -

زليخا

بأى سرور باطن ،
أيتها الأغنية ، أدرك معنك !
يبدو أنك تريد أن تقولى
إننى بجواره .

فليفكر فى دائماً ،
وليوجه دائماً هناء حبه
إلى الحبيبة النائية
التي كرست له حياتها .

نعم ، إن قلبى هو المرأة ،
يا حبيبى التى فيها تألمات نفسك ؛
وهذا الصدر الذى نقش خاتمك
عليه قبلة تلو قبلة .

أيتها الشَّعر العذب ، أيتها الحقيقة الصافية ،
قيِّدنى فى المشاركة الوجدانية !

صفاء الحب المتجسد خالصاً
تحت غلالة الشعير

هذه القصيدة من نظم مريانه ، فيما عدا الفقرة الثالثة إذ أضافها جيته .
وقد نظمها في ٢٣ ديسمبر سنة ١٨١٥ .

وفيهما تحلّ اللغز الذي وضعته القصيدة السابقة رقم ٤٣ .
وقد استلهمت فيها حافظا الشيرازي في قوله (ج ١ ص ١٤١) :
« تأمل في محياك معجزة إلهية ، وإني مرسل إليك مرآة الله هدية ، وعلق
على هذا الشعر يوسف فون همر قائلاً إن معناه هو : « أريد أن أبعث
إليك بقلبي حتى تستطيع أن ترى فيه نفسك كما تراها في مرآة »

دَعْ للإسكندر مرآة العالم ،
إذ ماذا تُظْهِر ؟ — هنا وهناك
شعوباً هادئة يريد هو أن يضمها إلى غيرها
بتقهرها وهزّها واحداً بعد آخر :

أما أنت ! فلا تَسْعَ إلى بعيد ، إلى الغريب !
غنّ لي ، أنا التي جعلتها لك بأغانيك .
وَفَكَّرْ أنك امتوليت عليّ .

تقول الأسطورة الشرقية للإسكندر إنه كان يستخدم مرآة كان فيها
يرى كل خِطَط دارا ملك الفرس (يوسف فون همر ، ترجمة ديوان
حافظ ، ج ١ ص ٩ تعليق ١) . وحافظ الشيرازي كثيراً ما أشار إليها ؛
ومن أمثلة ذلك قوله : « إن روح حبيبتى كالمرآة التي ينعكس فيها العالم »
(ج ١ ص ١١١) .

العالم كله جميل للنظر
وعلى الأخص عالم الشعراء جميل ؛
وعلى الحقول المتعددة الألوان ، الصافية
أو الفضية الكابية ، تلمع الأضواء في الليل والنهار .
واليوم كل شيء رائعٌ عندي ؛ آه لو دام هذا !
لأنني أنطلق اليوم من خلال منظر الحب .
نظمت في ٧ فبراير سنة ١٨١٥ ، وهو يتذكر مريانه .

قد تحتجبين تحت آلاف الأشكال
ومع ذلك أيتها الحبيبة ، فوراً أتعرفك ؛
وتستطيعين أن تنقبي بنقُيبٍ سحرية ،
أيتها الحاضرة في كل شيء ، ومع ذلك فوراً أتعرفك
في انطلاقة السَّرو الصافية الفتية ،
يا ذات القوام الزائع ، فوراً أتعرفك ؛
في تموج أمواه القناة الصافي ،
أيتها الفاتنة ، فوراً أتعرفك ،
وحين تنتشر نافورة الماء وهي تصاعد ،
أيتها اللعوب المرحّة ، ما أسعدني أن أتعرفك ؛
وحين يتكون السحاب ويتحول ،

أيها المتغيرة دائماً ، جيداً أتعرفك ؛

في بساط المروج المفوّف بالأزهار ،
تحت زينتك المؤلفة من آلاف النجوم ، جميلةً أتعرفك ،
وحين يتمدد اللبلاب بآلاف سواعده في كل النواحي ؛
أيها المعانقة للكل ، أتعرفك .

وحين يتوهج الجبل في الفجر
في الحال ، أيها المثيرة باستمرار ، أحبيك ؛
وإذا استدار فلك السماء من فوق ،
يا مَنْ تفتحني القلوب ، أنتفسك .

وما أعرفه بمحاسن الخارجية والباطنية ،
يا منيع كل علم ، أعرفه بك ؛

وحين أسَمَى الله بأسمائه المائة ،
مع كل اسم منها يرن اسمك من أجلك .

نظمت هذه القصيدة في ١٦ مارس سنة ١٨١٥ .

وفيها نوع من التالية للمحجوبة بوصفها قوة الطبيعة ، وكأنها نموذج
الأنوثة الخالدة .

ساقى نام

كتاب الساقى

— ١ —

نعم ، كنت أغشى الحانات ،
وسقونى نصيبى مثل غيرى ،
وكانوا يثرثرون ويتصايحون ويتحدثون عن اليوم ،
فرحين أو حزينين ، حسبما يقتضى اليوم ؛
لكنى كنت أجلس ، سعيداً فى أعماق نفسى ،
وأفكر فى حبيبتى ، — كيف تحب ؟
لست أدرى ؛ لكن ما يضايقنى
هو أنها أحببها كما يأمر القلب
الذى بذل لها نفسه وصار لها عبداً هى وحدها .
أين كان البرشمان ، وأين البراع
اللاذنان قيذا هذا ؟ — ومع ذلك قد كان الأمر هكذا ، نعم هكذا !

كتاب الساقى : أعلن جيته عن هذا الكتاب فى « صحيفة الصباح » سنة ١٨١٦ رقم ٤٨ ص ١٩٠ هكنا : « تنازع الشاعر مع صاحب الحان المعتاد ، واختار صديقاً زولاً ، زاد فى متعة الشراب بحسن الخدمة اللطيفة ، وسيكون الفتى تلميذه ، وأمين سره ، وإليه سيفضى بالأفكار العالية .
وتشيع الحياة فى الكتاب كله بفضل ميل متبادل » .

وقد تأثر جيته هنا بكتاب الساقى لحافظ الشيرازى (ترجمة يوسف فون

هرج ٢ ص ٤٨٩ وما يليها) وفيها يتغنى حافظ بالساق وبالخمر كرمز
على الحب الطاهر والحاسة الصافية ؛ كما تأثر أفلاطون في « المأدبة »
ونظرته في الحب .

نعم ، كنت أغنى . . . : نظمت قبل ٢٧ سبتمبر سنة ١٨١٥ . وهي
بمثابة تمهيد للانتقال من « كتاب زليخا » إلى « كتاب الساق » .

- ٢ -

إذا جلست وحدى ،
هل ثمّ ما هو أفضل ؟
خمرى
أشربه وحدى ؛
لا إنسان يفرض على قيوداً ،
وهكذا تكون كل أفكارى لى وحدى .
نظمت قبل يونيه سنة ١٨١٨ .

- ٣ -

مولاي اللص استطاع
حتى في سُكْرِهِ أن يكتب خطاً جميلاً
نظمت قبل يونيه سنة ١٨١٨ .
لكن لم يتبين ماذا يقصد جيته بـ « مولاي اللص » هذا .

- ٤ -

هل القرآن قديم ؟
هذا أمرٌ لا أسأل عنه !

هل القرآن مخلوق ؟

لست أدري !

أما أنهم كتاب الكتُب ،

فهذا ما أؤمن به ، كما هو فرضٌ على كل مسلم ؛

أما أن الخمر قديم منذ الأزل ،

فهذا ما لا أشك فيه ؛

أو أنه خُلِقَ قبل الملائكة ،

ربما هذا أيضاً ليس حديث خرافة .

فالشارب ، مهما يكن ،

ينظر إلى الله في وجهه بحسرة .

نظمت في ٢٠ مايو سنة ١٨١٥ .

وجيته يشير هنا إلى مشكلة خلق القرآن المشهورة^(١) والتي أحدثت الكثير من الخلافات العنيفة بين المتكلمين والفتهاء المسلمين ، وكان من رأى المعتزلة أن القرآن مخلوق ، بينما يرى أهل السنة والجماعة أنه قديم . وفي عصر المأمون امتحن كثير من أهل السنة والجماعة في هذه المحنة ، إذ رأى المأمون فرض رأى المعتزلة في هذه المسألة ، وبسببها امتحن أحمد بن حنبل امتحاناً شديداً فسجن وعُذِّب إلى أن أفرج عنه في عهد المتوكل الذي انحاز إلى مذهب أهل السنة والجماعة .

وجيته ، الشاعر ، لا يريد أن يحطم رأسه بهذه المشاكل الكلامية ، ويكفيه أن يمجِّد الخمر شأن شعراء العصر العباسي الأول وشعراء القرمس مثل حافظ الشيرازي .

(١) راجع « مقالات الإسلاميين » للأشعري ج ٢ ص ٢٣١ - ٢٣٥ . القاهرة - سنة ١٩٥٤ .

سُكَّارِي ينبغي أن تكون أجمعين !
والشباب هو السكر من غير خمر ؛
وإذا الشيخوخة جدّدت شبابها بالشراب
فتلك فضيلة عجيبة .

والحياة العزيزة تهتم بتزويدنا بالهموم ،
ومهمة الأغراب طرد الهموم

نظمت في الفترة بين يونيو سنة ١٨١٤ و ٣٠ مايو سنة ١٨١٥ .

والبيت الثاني مأخوذ عما أورده ديتس في « كتاب قابوس » (ص ٤١٩) :

في عهد الشباب يكون الناس سكارى من غير خمر .

لا أحد بعد يهتم بهذا !
الخمر مُحَرَّم حقاً .

فإن كان لا بد من الشراب ،

فعلى الأغفل لا تشرب غير أجود الخمر :

وستكون زنديقاً مرتين

بمواجهة العذاب بسبب الخمر الرديئة .

نظمت قبل ٣٠ مايو سنة ١٨١٥ .

وتقوم على أساس ما ورد في ديتس : « كتاب قابوس » (ص ٤٤٤) :
« ومن هنا فإن الخمر حرام . فإن ارتكبت هذه الكبيرة ، فارتكبتها على الأقل
في سبيل أجود الخمر ؛ وإلا فإنك سترتكب الذنب مرتين : مرة بسبب

الحرمة ، ومرة ثانية بسبب رداءة الخمر . والله إن هذا سيكون
أسوأ السينات .

- ٧ -

طالما كان المرء في صحوٍ

اغتبط بالسوء ،

وإذا شرب

عرف الخير ؛

لكن سرعان

ما يكون ثمّ إفراط !

أى حافظ خبّرني

كيف فهمت هذا الأمر !

لأن رأبي

لا مبالغة فيه :

من لا يعرف الشراب

ينبغي ألا يعشق ؛

أما أنتم أيها الشاربون

فلا تحسبوا أنفسكم بهذا أفضل :

إننا لم يعرف المرء كيف يحبّ

فينبغي عليه ألا يشرب .

في العنوان الأصلي إشارة إلى حرف نون الغزلية رقم ١٥ ؛ حكم
صائب - ولكن هذه إشارة إلى قصيدة لحافظ لا تتفق مع قصيدتنا هذه .

ولهذا افترض النقاد أن المتصود ربما أن يكون إلى الإشارة إلى ديوان حافظ
ج ٢ ص ٢٣٣ (ترجمة فون همر) حيث يقول : تلقيت من السائق فتوى
تقول إن الشراب حرامٌ حيث لا يوجد الحبيب .

و قد نظمها جيته في ٢٦ يوليو سنة ١٨١٤ إبان رحلته من إيزناخ إلى
فولدا ، وطبعت أولاً في « لوحة الأغاني » لتسليتر سنة ١٨١٨ .

— ٨ —

زليخا

لماذا تكون في أحيان كثيرة سبي الأدب ؟

هانم

أنت تعلم أن الجسم سجن ؛
حبست فيه الروح بالخدبة ،
ولا تستطيع أن تمد ذراعها فيه بحرية .
ولما كانت تريد أن تنجو من هنا ومن هناك
فقد قيّد السجن نفسه بالأغلال :
وهكذا الروح المسكينة في خطر مزدوج ،
ولهذا تتصرف مراراً تصرفات غريبة .

نظمت في ٢٤ مايو سنة ١٨١٥ في إيزناخ .

وتعبّر عن المعنى الشائع في الشعر العربي والفارسي والأوربي ، والمأخوذ
من أقدم المذاهب ، وبه قال خصوصاً أفلاطون ، وهو أن الروح سجين
في البدن .

إن كان الجسم سيجناً ،
فلماذا هذا السجن شديد العطش ؟
إن الروح ترتاح فيه ،
وتود لو تبقى راضية هادئة ؛
لكن لا بد لهذا من أن تدخل
فيه زجاجة خمر ، ثم أخري .
والروح لا تستطيع أن تتحمل أكثر ،
وتكدهمها عند المدخل
نظمت في ٢٧ مايو سنة ١٨١٥ في فرنكفورت .

إلى النادل

أيها الجلف ، لا تصنع الإبريق
هكذا أمام أنبي يجفاف !
إن على من يقدم إلى الخمر أن يتلقاني بطلعة حلوه
وإلا لتعكر نبذ السنة الحادية عشرة في كأسى .

نظمت قبل ٣٠ مايو سنة ١٨١٥
وبها يندأ القسم الثاني من « كتاب الساقى » .

١٠ مكرر

إلى الساقى

أيها الصبي اللطيف ، تعال ، ادخل ،
لماذا تبقى هكذا على الرصيد ؟

كن ساقى منذ الآن ،
وكل خمر ستكون لذينة صافية .

كانت هاتان القصيدتان واحدة ، ثم فصل بينهما في أول يوليو
سنة ١٨١٥ .

الساقى يقول :

أنت بغدائك السمراء
أذهبي عن أيتها القحبة الخبيثة !
حين أصب لسيدى على هواه
يقبلنى فى جينى .

أما أنت ، فإنى أراهن
أن هذا لن يكفبك
خدودك ، ونهودك
تبعث الملل فى نفس صاحبي .

أتظن أنك تخدعنى
وأنت تبغدين وعلى سيما الحجل والاضطراب ؟
سأنام على الوصيد
وأستيقظ إذا تسللت إليه .

نظمت فى أكتوبر سنة ١٨١٤ .

محاكاة حرفية لحافظ الشمرالى فى تفضيله الساقى على المحبوبة .

بسبب سُكْرنا
أنحوا علينا باللائمة ،
ومع ذلك فلأنهم لم يقولوا كل شيء
فيما يتعلق بسُكْرنا
في العادة يبقى الخُمار حتى الصباح ؛
أما أنا فخُمّارى
جعلنى أهول طول الليل ،
لأنه خُمار الحب ،
الذى يعذبني على نحوٍ أليم ،
ومن النهار إلى الليل ، ومن الليل إلى النهار
يتردد في قلبي باهتزاز .
في قلبي الذى ينتفخ ويضطرب
في نشوة الأغاني ،
حتى لا يجسر سُكْر ناصع
أن يساوى نفسه به ،
سُكْر الحب ، والغناء ، والخمر
في الليل وفي النهار
سُكْر إلهي
يسحرنى ويعذبني

نظمت في هيدلبرج في ٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٥
وفىها إشادة بالنشوة محاكاة للغزليات ، مثل رقم ٤

آه ! أبها الخبيث الصغير !
أن أبقى صاحبيا في وعبي ،
هذا هو المهم .
وهكذا أتبهج
أيضا بحضورك ،
أبها الفتى العزيز ،
إن كنت سكران .

نشرت لأول مرة في طبعة الديوان سنة ١٨٢٧

ويقول فيها جوندولف ص ٦٥٠ : « الآن وصل إلى الحكمة وإلى
قمة النزعة الأبولوجية ، فصار يرى في كل ارتفاع في قوته ارتفاعا في
علمه ، وصار على ديونوسوس أن يخدم أبولون ، بتحول الدم إلى روح :
لأن الخمر روح » .

واعجبا لما كان اليوم في الحانة
من ضجيج عند مطلع الفجر !
صاحب الحان والخدمات ! والمشاعل ، والناس
أية مشاعل ، وأية شتائم !
كان الناي يعزف ، والطبل يبدق !
وكان ثم نزاع شديد . -
ومع ذلك فقد شاركت بنصبي
وأنا ممتلئ سرورا وحباً .

أما أنتي لم أتعلم شيئاً من الأخلاق ،
فقد لأمنى الكل على هذا ؛
لكنى أبتعد بحكمة

عن منازعات أصحاب المذاهب والمنابر .

نشرت في طبعة سنة ١٨٢٧ من « الديوان الشرقي » ، وتاريخها في المخطوط
١٨١٨/٩/٨ .

وفيها استلهم حافظاً الشرازي (ج ١ ص ٣٩٢) : « آه ! آه ! كم
كان في الحانة صباح اليوم من ضجيج ! حيث الساق والحبيب والمشعل
والنور كانت كلها في أشد اضطراب ، وحيث (وإن كانت أقاصيص الحب
ليست في حاجة إلى تفسير !) النأى والطلبة في اضطراب . ومن دخل
في هذه الزمرة من المجانين حباً في النزاع والعراك ، ابتعد عن نزاع
المذاهب والمنابر » .

الساق

على أى حال يا سيدى تتسلل
هكذا من غرفتك !

الفرس يسمون هذا « بي دماغ بودن » (١)
والألمان يقولون « بلاء القط » (٢)

(١) فارسية بمعنى : « يصير بلا دماغ » يذهب عقله من السكر والخمار .

(٢) أى التدوين الناجم عن شدة السكر .

السَّاعِر

دعني وشأني الآن ، يا ولدي العزيز !
العالم لا يلدن لي ،
ولا عطر الورد ولا لألاؤه ،
ولا غناء البلبل ؛

السَّاقِ

وهذا عينه هو الذي أريد أن أعالجه
وأعتقد أن هذا سيفلح ؛
خذ ، استمتع بهذا اللوز الطازج ،
وستجد الخمر شهيء المذاق .

ثم أريد أن أقنادك إلى الشرفة
لتستروح الهواء العليل ،
وحين أنظر إليك ،
ستعطي الساق قبلة .

انظر ، إن العالم ليس كهفاً ،
إنه غني دائماً بالأوكار والمولودين ،
بعطور الورد وزيت الورد !
والبلبل أيضاً يغني مثل بالأمس .

نحمل القصيدة تاريخ سنة ١٨١٤ ، ويرى جريف أنه ربما كان الأصح
أن يكون سنة ١٨١٥ .

وكان جيته قرأ عند شاردان (ج ١٠ ص ١٢٠) أن « الفرس يسمون هذه الحالة باسم « بي دماغ بودن » أى بغير سرور ولا هجة ، وأن يكون الدماغ خاوياً مضطرباً » .

ومعنى القصيدة أن الخمار الذى أصاب رأس الشاعر السكران بالتدويخ والدوار يمكن أن يزول بكلمات الساقى الساذجة ، الذى يتصور العالم على أنه ينبوع لا ينفد من الحياة المتجددة أبداً .

- ١٦ -

هذه الثرثرة الخفيفة

هذه اللعوب الداعرة ،

التي نسميها الدنيا ،

قد خلدعتنى

مثل سائرهن .

انتزعت منى إيمانى ،

ثم رجأتى ؛

والآن أرادت

أن تنازعنى الحب

هنالك انطلقت وأفلت .

ولأحافظ إلى الأبد

على الكنز الذى اسقنته ،

وزعته بحكمة

بين زليخا والساقى .

وكل واحد منهما

تنافس مع الآخر

في أن يعطيني فائدة أكبر .
وهأنذا أغنى مما كنت :
استردت الإيمان !
الإيمان بحبها ،
وهو ، بالكأس ، يعطيني
الشعور الرائع بالحاضر -
فإذا أعمل بالرجاء !

نظمت في ٢٥ أكتوبر سنة ١٨١٥

والفكرة التي تقول إن الدنيا كالبغيّ منتشرة في الأدب الأوربي
والشرق الفارسي على السواء . وقد أورد ذلك ديتس (ص ٢٦٩ تعليق ١
في « كتاب قابوس ») ، كذلك ورد هذا التشبيه عند حافظ الشيرازي
(ج ١ ص ٦١) : « لا تثقنّ بالدنيا ولا تأمن لها ، فإنها بغيّ فاجرة ؛
ولها آلاف العشاق هذه العروس السيئة السيرة » .

الساقى

اليوم أكلت أكلة طيبة ،
لكن شربت أكثر ؛
وما نسيته أثناء الطعام
وقع في هذا الخوض .
انظر ، نحن نسمي هذا « بلشونا »
كما يطيب للضيف الشبعان ؛
وهذا هو ما آتى به لبلشوني

الذى يذبحة على الأمواج .
ويزعم الناس أنهم يعرفون أن البلشون وهو يغنى
إنما ينشد نشيد رثاء نفسه ؛
وأنا أعزف عن كل غناء
قد يشير إلى نهايتك .

- ١٨ -

الساقى

ينادونك باسم الشاعر الكبير ،
حين تظهر فى السوق ؛
وأنا أصغى بشغف حين تغنى ،
وأصيح السمع ، حين تسكت .
لكن أحبك أكثر
حين تقبل قبلة الذكرى ؛
لأن الكلمات تمضى
لكن القبله تبقى فى أعماق القلب .
نظمُ القافية تلو القافية أمرٌ له قيمته ،
والأفضل زيادة التفكير ،
غنىً لذن لسائر الناس
وأبقى صامتاً مع الساقى ٥

نظمت هاتان القصيدتان فى أكتوبر سنة ١٨١٤ ، وأرسلتا فى أول
يناير سنة ١٨١٥ إلى ابن الأستاذ پاولس ، الأستاذ فى هيدلبرج ، وكان
ابنه فى سن الثالثة عشرة .

وكلمة « بلشون » (= بجمعة) في البيت الخامس من القصيدة الأولى يتلاعب به جيته بثلاثة معان : الأول بمعنى دارج للدلالة على الحلوى ، وآخر ما يقدم في المأدبة ؛ والثاني بمعنى بلشون حقيقى ، والثالث فيه إشارة إلى نشيد البلشون ، إذ يقال إن البلشون حين يشعر بدنو أجله يغنى ، ومن هنا جاء التعبير : « نشيد البلشون » للدلالة على آخر الأعمال الفنية للشاعر أو الكاتب .

— ١٩ —

الشاعر

هيا أيها الساقى ، هاتنى كأساً أخرى

الساقى

سيدي ، لقد شربت بما فيه الكفاية ؛

إنهم يسمونك الشارب المتوحش !

الشاعر

هل تأتيني أبداً مجندلاً على الأرض ؟

الساقى

النبي حرمها .

الشاعر

عزيزى !

لا أحد يسمع ، سأخبرك .

الساقى

إذا تكلمت يوماً بارتياح

فلا حاجة إلى سؤالك طويلاً

الشاعر

اسمع ! إننا معاشر المسلمين
يجب علينا أن نظل في صَحْو ؛
بينما هو في حماسه المقدسة
يكون هو وحده النشوان بالإيمان .
نظمت قبل ٢٣ فبراير سنة ١٨١٥

الساقى

فكّر ، يا سيدى ، أنك حين تشرب
يصاعد حولك هيب النار !
وآلاف الشرارات تلمع وهى تتواثب ،
ولست تدري ، أين هذا يستقر .

إنى أرى فى الزوايا رهباناً ،
حين تضرب على المنضدة ؛
لأنهم يجتنبون فى نفاقٍ
بينما أنت تفتح قلبك .

قلْ لى فقط لماذا الشباب ،
دون أن يتحرّر بعدُ من نقائصه ،
وقد خلا من كل فضيلة
لماذا الشباب أعقل من الشيخوخة ؟
أنت تعرف كل ما فى السماء

وكلّ ما تحمل الأرض ،
ولا تخفى الاضطراب
الذى يعجّ في قلبك .

حاتم

ولهذا ، أيها الصبي العزيز ،
ابنّ شاباً وابنّ حكيماً ،
إن الشعر هبة من السماء حقاً
لكنه خداع في الحياة الأرضية .
يبدأ المرء بالهدوء في السرّ
ثم يثرثر من الصباح حتى المساء !
وعبثاً بصمت الشاعر ،
فالشعر نفسه كشف وخيانة .

لا يعرف تاريخ نظمها ، وطُبعت لأول مرة في طبعة سنة ١٨٢٧ .

ابن صيف

الشاعر

غربت الشمس ،
لكنها لا تزال تلمع في المغرب ،
بودى أن أعرف كم من الزمان
سيستمرّ هذا البريق الذهبي ؟

الساقى

إن شئت ، يا سيدى ، بقيت
أنتظر خارج هذه الحيام ؛
وحين يتغلب الليل على البريق
سأهرع لإنباتك .

لأنى أعلم أنك تحب النظر
إلى الأعلى وإلى الانتهائى
حين يمدح كل منهما الآخر ،
هاتان الناران فى زرقه السماء .
والأصفى يريد فقط أن يقول :
« الآن أُلْع فى مكافى ؛
لو شاء الله أن يزيد فى نورك
لكان لمعانك أشد من لمعانى » ؛
إذ كل شىء أمام الله رائع ،
لأنه هو الأحسن ؛
وهكذا تنام الآن فى أوكارها
الصغيرة والكبيرة - كل الطيور ؛

أحدهما يحث من غيرتك
على أغصان السرور ،
حين يهدده النسيم العليل
حتى الوقت الذى فيه يندى الهواء بأنداء الفجره

هذا ما علمتني إياه ،
أو شيء مثل هذا ،
وما سمعته منك
لن يُغْلِيَت من قلبي .

كالبومة أريد أن أجم
على الشرفة من أجلك
حتى اللحظة التي فيها أشد
الدورة . الشائبة للنجم القطبي .

هناك سيكون منتصف الليل
حين توقفني مراراً قبل الوقت ،
وسيكون أمراً رائعاً ،
أن أتمكّي معك بالكون

الشاعر

لا شك أن ألبيل يغني
طوال الليل في هذه الحديقة العاطرة ،
لكنك تستطيع أن تنتظر طويلاً ،
حتى اللحظة التي يكون فيها الليل قد انتصر

ففي أوان فلورا هذا ،
كما يسميها شعب يونان ،
أرملة القس ، أورورا ،
تتقد نجاً في هسبروس

تلفتْ حواليك ! إنما تعدو بسرعة !

فوق امتداد حقول الأزهار !

لألاء هناء ، ولألاء هناك ،

نعم ، إن الليل قد أُحْدق به .

وعلى أقدامها الرشيقة الوردية

تهرع لتمسك ، في ضلالها ،

بمن هرب مع الشمس

ألا تستشعر نفحة غرام تهب ؟

اذهب إذن ، يا أعز الأولاد ،

إلى أعماق مأواك ، واغْلِقِ الأبواب ،

فقد تخطف جمالك

حاسبة أنه هسبروس

في أطول النهارات في السنة لا يكون ثمّ ليل بمعنى الكلمة في بلاد الغرب ، بل يكون ثمّ أصيل متواصل من حين غروب الشمس حتى مطلعها في اليوم التالي .

وفي هذه القصبيدة يقترح الساقى على الشاعر أن يجثم على الشرفة كالبومة ليعلن للشاعر اللحظة التي فيها يكون الظلام تاماً ؛ كان الشاعر يبين له خطأه ، مستخدماً رموزاً مستعارة من الأساطير اليونانية . ففي ليالى الصيف القصيرة تندفع الإلهة أورورا (للفجر) التي خلقت وراءها زوجها العجوز تيثونوس الذي حبسته في غرفة بيتها ، تندفع مليئة بالحمية الغرامية ، على إثر هسبروس ؛ نجم المساء . لكن على الرغم من أن البريق الوردى للأصيل يلمع

فى الشرق والغرب ، مضيقاً المكان المخصص لليل ، فإن أورورا لن تلتحق
أبدأً بحبيها ؛ فليدخل السائق إذن إلى داخل البيت ، حتى لا تخطفه أورورا
حاسبة أنه هسپروس .

وقد بدأ جيته نظم هذه القصيدة فى يونيو سنة ١٨١٤ ، وانتهى منها
فى ١٦ ديسمبر سنة ١٨١٤ فى مدينة يينا .

الساقى (وقد غالبه للنشعاس)

لقد حصلت عليه منك أخيراً
حضور الله فى كل العناصر .
كم وهبتنى هذه الهبة بلطف !
لكن اللطف الأكبر هو أنك تحب .

حاتم

لأنه ينام برقة وله الحق فى النوم .
أيها الصبي الطيب لقد سقيتى ،
ومن الصديق والمعلم ، بغير قهر ولا عقاب ،
تعلمت شاباً ما يفكر فيه العجوز .
والآن ينفذ فى أعضائك .
ملاء من الصحة حتى تتجدد .

إني لا أزال أشرب ، لكنى مع ذلك هادئ ، هادئ ،
حتى تهجنى بعدم إيقاظك .

نظمت في ٢١ يوليو سنة ١٨١٨ ، ونشرت في طبعة سنة ١٨٢٧ .

وهي خاتمة هادئة جميلة رقيقة ، فيها تعبير عن الشعور الأبوى الذى
"يحس" به الساقى نحو الشاعر الذى علّمه بغير قهر ولا عقاب ، وخير جزاء
له عن تعليمه إياه هو النوم الهائى .

مَثَلُ نَامِهِ

كتاب الأمثال

- ١ -

من السماء نزلت في رُعبِ البحار العاصفة
قطرة مرتعدة ، ضربتها الأمواج بعنف ؛
لكن الله جازى شجاعة الإيمان المتواضعة
ووهب القطرة قوة ورسومها .
فغلفها الحار الهادئ .

ومنذ ذلك الوقت رقت اللؤلؤة ،
لمجدها وجزء خالدا لها ، على تاج إمبراطورنا
بلمعان غريب وبريق رقيق .

كتاب الأمثال : أعلن جيته عنه في « صحيفة الصباح » سنة ١٨١٦
(برقم ٤٨ ، ص ١٨٩) هكذا : « كتاب الأمثال يتضمن تصويرات مع
تطبيقات على الأحوال الإنسانية » . وراجع « التعليقات » .

من السماء لا بد أن تكون قد نظمت قبل ٣٠ مايو سنة ١٨١٥ ،
وربما في الفترة من ٨ إلى ١١ ديسمبر سنة ١٨١٤ .

وقد تأثر فيها جيته ما قرأه في كتاب جونز : « أشعار آسيوية
وشروحها » حيث ورد : « نزلت قطرة من غيوم العاصفة في صحب البحر
المائج ؛ لكنها لما رأت الأمواج تهدير بشكل هائل ، توقفت فزعزعةً ومكتتة
من فرط الحياء وزفرت وهي قائلة : وأسمفاه ! ما أشتأني ! بسبب هذا

اليوم المشنوم الذى أُهِنْتُ فيه أكثر من قشرة التمرة ، وعلى الرغم من أننى لمعت بالأمس بين الغيوم ، فإنى أشعر اليوم بأننى فى العدم . وما كادت القطرة الصغيرة تقول هذه الكلمات بمذلة وتواضع ، حتى لمعت فجأة ؛ لأز الإله غطّاها بزينة نبيلة وأودعها فى محار ، جزاء تواضعها ، (ص ٢٢٨ وما يتلوها ، ليبنتك سنة ١٧٧٧) .

— ٢ —

غناء البلبل فى الليل يصاعد
خلال التشعيرية إلى عرش الله الوضاء ،
وجزاء غنائه الرخيم
حبسه فى قفص ذهبي .
هذه أعضاء الإنسان .
والفقير يشعر حقاً بالضيق ؛
لكن إذا فكرنا فى الأمر كما ينبغي
فإن الروح الصغيرة تأخذ دائماً فى الغناء من جديد :

أنشئت فى الفترة ما بين ١٢ ديسمبر سنة ١٩١٤ ، لما قرأ جيتيه لأول مرة ديوان حافظ ، و ٣٠ مايو سنة ١٨١٥ :

وقد استلهم فيها حافظاً الشيرازى (ج ٢ ص ١٠٩) حين يقول :
« هذا البلبل الحبيس ، الذى يسمى الروح ، لا يخدم البدن ، الذى هو
على العكس قفصه » .

١٠٠ بحانه بالمعجزات

حطمتُ يوماً كأساً جميلة
وكننت على وشك اليأس ؛
ورعوتني واندفاعي
ألقيت بهما للشياطين .
في البداية ثارت ثائرتي ، وبعد ذلك بكيت بهدوء
وأنا أجمع البقايا المتناثرة بحزن ؛
فرق الله الحالى ، وخلق الكأس من جديد
كاملاً صحيحاً كما كان .
نشرت في طبعة سنة ١٨٢٧ .

وهي مستوحاة من المثل الفارسي الذي أورده شاردان (ج ٤
ص ٢٥٨) : الزجاجاة المكسورة تُشعَّب ، فكم بالأحرى يعاد سبك
الإنسان بعد أن يحطمه الموت ؟ »

اللؤلؤة التي نجت من محارها
أجل الآتي ومن أصل نبيل
للصانع ، الرجل الطيب ،
قالت : لقد ضيعتُ !
إذا ثقبتني فإن كياني الجميل
يتحطم فوراً ،

لا بد لي ، كما يحدث في حالة حالة ،
أن أنظّم مع أخوات لي أسوأه
وإني لا أفكر الآن إلاّ في مكسبي ،
فعليك أن تغضري لي :
لكن إذا لم أقسّ معك ،
فأنتى للعقد أن يتم ؟

وجيته يعبر فيها ساخرأ من هذه الفكرة وهى أنه إذا أريد نظم فقد
جميل فعلى الدرّة اليتيمة أن تدعن فتتظم جنباً إلى جنب مع لآلى أقل قيمة .
وهكذا الشأن فى الممتازين : مقدّر عليهم أن يذعنوا لوضعهم بين الأوساط
والأردباء .

- ٥ -

شاهدت بدهشة وارتياح
ريشة طاووس بين صفحات القرآن :
مرحباً بك فى هذا المكان المقدس ،
أيها الكنز الثمين الأرفع بين المخلوقات الأرضية
فيك ، كما فى نجوم السماء ،
ندرك فى الأشياء الصغيرة عظمة الله ،
ونرى أنه وهو الذى يحيط العوالم بنظرة :
قد وضع هنا طابع عينه ،
وزين هذه الريشة الخفيفة
زينة لم يفلح الملوك

في محاكاة روعتها في هذا الطائر .

انعمى في تواضع جم بمجلك ،

تكونى جديرة بالمعبد الذى ترقدين فيه .

نظمت في ١٧ مارس سنة ١٨١٥ .

وتأثر فيها بموضع في « جلستان » سعدى ورد فيه : « قُلْتُ اريشة
طاووس جميلة شاهدتها موضوعة بين أوراق المصحف : من أين لك
بالمكانة التى تجعلك جديرة بأن توضعى في هذا الكتاب العظيم ؟ — فأجابتنى
كما يلى تقريباً : الجميل أكثر حرية من الدميم فى أن يضع قدمه حيث
يريد ، ولا يمكن أية يد أن تبعده عنه بسهولة »

— ٦ —

كان عند إمبراطور محاسبان ،

أحدهما للدخل ، والثانى للمصرف ؛

والأول كان تفيض يداه بالمال ،

والثانى لم يكن يعرف أين يجد المال .

ومات المُصرف ؛ ولم يدر السلطان

لمن يكل أمر الصرف .

ولم يكده يمضى وقت للالتفات

حتى كان المحصل قد صار غنياً غنى لا حد له ؛

ولم يُعرف ماذا يُفعل بكل هذا الذهب ،

لأنه لم يُصرف شئ طوال يوم واحد .

هنالك فقط صار واضحاً لدى الإمبراطور

السبب فى كل البلاء .

معرفة كيف يستفيد من الصدقة ؛
وقرر ألا يكمل أمر هذه الوظيفة (الصرف) لأحد .

نظمت في ٢٥ فبراير سنة ١٨١٥ .

ليس من المؤكد أن لهذه القصيدة مصدراً شرقياً . ولكن قبل بوجود
تشابه بينها وبين هذه الفقرة في « كتاب قابوس » : « يجب عليك أن تكون
محاسباً دقيقاً ، أعني أن تعرف الدخل والمنصرف عند الإمبراطور وألا تبذر
في أمواله . ويجب عليك أن تتقن التجارة لتعرف من ينبغي أن تشتري وإلى
من ينبغي أن تعطى . » (ديتس : « كتاب قابوس » ص ٧٧٢)
على أن جيته استخدم هذا القول بتهكم وسخرية .

— ٧ —

يقول القيدّر الحديد للمقلّة :

كم بطنك أسود !

« هذا هو المعتاد عندنا في المطبخ :

تعال ههنا ، أيها الصعلوك اللامع ،

تسقط عنك كبرياؤك في الحال :

إذا كان وجه المقبض صافياً ،

فلا تغترّ

وما عليك إلا أن تنظر في مؤخرتك » .

نظمت في سبتمبر سنة ١٨١٨ ، ونشرت لأول مرة سنة ١٨٢٧ ،

ومصدرها ما ورد في ديتس : « ذكريات » (ج ١ ص ٢٠٠) من مشل

يقول : « التعب يقول للتعب : مؤخرتك أسود ، وقد أصلحه يوسف فون

هر (مجلة بينا الأدبية يناير سنة ١٨١٣ ص ٦٠) هكذا : « قال قلدر

اللحم لقلدر اللحم . . . » . — وقد جمع جيته بين هاتين الترجمتين المتعارضتين ،

كل الناس ، كباراً وصغاراً ،
ينسجون لأنفسهم نسجاً رقيقاً ،
حيث يجلسون في الوسط بلطف
ومعهم مقصاتهم الحادة .
لكن إذا جاءت ضربة مكنسة
شكوا وقالوا :
لقد حُطِّمَ أجمل قصر .

نظمت في ١٧ مارس سنة ١٨١٥ .

يسخر جيته هنا من أوساط الناس الذين يقومون بأعمال عادية أو تصدر
عندهم أفكار مبتذلة ، لكن يخيل إليهم أنهم أتوا بالأعاجيب ، فإذا هدم
أو نقد المرء أعمالهم وأفكارهم صاحوا وصرخوا : لقد هُدمَ القصر
المنيف ، يا لها من جريمة نكراء ! وما هو إلا غرورهم بتفاهتهم هو الذي
يهول عليهم شأن ما يفعلون أو يقولون .

لما نزل عيسى من السماء
أتى معه بالكتاب المقدس ، الإنجيل
وقراه على حواريه ليل نهار ،
وفعلت الكلمة الإلهية فعلها ونفَّذَتْ .
ثم صعد إلى السماء وحمل معه الكتاب ؛
لكنهم هم شعروا به وأحسّوا ،
وكل منهم كتب ، سطرأ سطرأ ،

كما حفظه في قلبه ،
أعني على نحو متفاوت . لكن لا يهم :
فلم تكن لديهم جميعاً نفس المواهب .
لكن النصارى يمكن أن يعيشوا على هذا
حتى يوم الحساب الأخير .

- نظمت في ٢٤ مايو سنة ١٨١٥ .

يعتقد المسلمون أن الإنجيل كتابٌ أنزل على عيسى عليه السلام من
السماء ، وأنه تلقاه بوحي من جبريل لينذر به قومه .

ولكن النصارى لا يتصورون الإنجيل على هذا النحو ، بل إن
ما بأيديهم من أناجيل هو من وضع بعض الحواريين والرسل : متى ، لوقا ،
مرقس ، يوحنا ، وأنهم إنما سجلوا تاريخ حياة المسيح وأوردوا أقواله
بحسب إدراكهم .

وجيته يوفق بين التكرتين ، كما فعل ذلك في الكتاب الثاني عشر من
« الشعر والحقيقة » حين قال : « قد يناقض واضعو الأناجيل بعضهم
بعضاً ، لكن بشرط ألا يناقض الإنجيل نفسه » .

- ١٠ -

حسن

على ضوء القمر ، في الجنة ،
وجد « يهوا » آدم غارقاً في سبات عميق
فوضع برفق إلى جانبه
حواء لطيفة نامت هي الأخرى .

وهكذا رقدت ، في غلافهما الأرضي ،
أجل فكرتين من أفكار الله . -
حَسَنَ ! ! ! هكذا قال جزاءً عن عمله الرائع ؛
بل لم يبتعد إلا على أسف .
فما من عجب إذن أن تنابنا نشوة
حين تنظر العين في العين ،
كما لو كنا وصلنا
إلى حد الصعود إلى ذلك الذي تصوّرنا .
وإذا صاح بنا : كُنْ !
لكن بنا نحن الاثنين معاً !
هنالك تعانقك هذه الأذرع
يا أعز أفكار الله كلها !

نظمت في ٢٤ مايو سنة ١٨١٥ ، وقرئت لبواسريه في ٦ أغسطس
فأعجب بها أشد الإعجاب ، ورأى فيها مزيجاً من السمو الرائع والبساطة
الساذجة الجميلة « وأحدثت في نفسي - كما قال - نفس الانطباع الذي
تحدث أروع أعمال النحت اليوناني » .

واغتباط الله لما رأى آدم وحواء نائمين هو في نظر الشاعر خير تبرير
يتلمسه المحبون الذين يرى كل منهم في الآخر « أعز أفكار الله كلها » .

پارسی نامه

کتاب البارسی

— ۱ —

وصية الريانة الفارسية القديمة

يا إخواني ! أية وصية يمكن أن تأتيكم
من ذلك الذي يفارقكم ، من هذا الرجل التقى المسكين ،
الذي أطعمتموه أيها الشباب ، بصبر وطول أناة
فشرقتم بعنايتكم أيامه الأخيرة ؟

حينما كنا نشاهد الملك مراراً يمرّ راكباً فرسه ،
ويرف كله بالذهب الذي عليه ومين حوله ،
وتلمع الجواهر عليه وعلّى كبراء رجاله
وتنتشر كحبات البرّد الغليظة :

فهل حسدتموه يوماً على هذا ؟

ألم تشبع عيونكم خيراً

حين هبت الشمس ، على أجنحة الفجر ،
قائمة على الذرى العديدة لروابي درناوند ،

على شكل قوس ؟ من ذا الذي يستطيع أن يمنع نفسه

من النظر إليها ؟ لقد شعرتُ ، شعرت

ألف مرة ، طوال حياتي الطويلة ،

مدفوعاً معها ، عند قدميها ،

إلى تأمل الله على عرشه ،
لأسميه رب عين الحياة ،
ولكى أكون شاهد صدق على هذا المنظر السامى
ولأستمر فى سبرى على ضوئه .

لكن حين برز القرص المشتعل كله ،
شعرتُ ، كأنما عثبت عيناي ، فى الظلمات ،
فضربت على صدرى ، وأعضائى المتبعشة
مددتها ساجدة على الأرض ، وجيئنى محنّ .

والآن ها هى ذى وصية مقدّسة
أستودعها لإرادة الإخوة وذاكرتهم :
« الأداء اليومى للواجبات الشاقة » .
ولا حاجة إلى تنزيل آخر ووحى .

حين يحرك الوليد يديه التقيتين
ليديروه فى الحال صوب الشمس ،
غطوه ، جسماً وروحاً ، فى حمام الشمس
يشعُرُ ببركة كل صباحٍ جديد .

وكلّوا أمواتكم إلى الكائن الحى ؛
والحيوانات نفسها غطّوا عليها بالتراب والحصباء ،
ولمّا حيث يمتد سلطانكم ،
غطّوا كل ما يبدو لكم نجساً .

احرثوا حقولكم حتى يكون نظيفاً مرتباً

وحتى تسطع الشمس على عملكم ؛

وإذا غرستم أشجاراً فاجعلوا صفوفها منتظمة

لأنه لا يبارك إلا ما هو فى نظام .

والماء أيضاً ، فى القنوات ،

لا تحرموه أبداً من الانحدار والطهارة ؛

ومثلاً السندروود ، من أعماق الجبل ،

يتدفق فى أمواج طاهرة ، طاهراً كذلك ينبغى أن يغوص فيه

وحتى لا يُبْطِئُ الانحدار الهادى للماء ،

احرصوا على تنظيف الحُفَر باهتمام ؛

فالبراع والغاب ، والسحالى والعظايا ،

كل هذه الوحوش اقضوا عليها معاً !

فإذا حافظتم على الأرض والماء هكذا طاهرين ،

لمعت الشمس عن طيب خاطرٍ خلال الهواء ،

وإذا تُلْمَعَت بالطريقة الجديرة بها ،

خلقت الحياة وأعطت للحياة الصّحة والعافية ،

أما أنتم ، أيها المدوّخون من عذاب إلى عذاب ،

فتسجعوا : فالكل قد تطهر من الآن فصاعداً ،

وفى وسع الإنسان الآن أن يسعى ، كالكاهن ،

كى يجعل رمز الله يذيق من الحجر .

وهناك حيث تحترق الشعلة ، أقرؤوا بابتهاج :
الليل صافٍ ، والأعضاء مستريحة .

وعلى اللهب الرشيق في الموقد
يتحلب من الحامة عصير الحيوان والنبات .

وإذا أحضرتهم خطباً ، فأحضروه بابتهاج ،
لأنكم تحملون غصن الشمس الأرضية ،
وإذا قطفتهم الياقوت ، تستطيعون أن تقولوا بثقة :
إنها ستكون الذبالة التي نحمل القديس .

وإذا نوسم بتقوى ، في شعلة كل صباح ،
انعكاس نور علوى
فلن يمتنعكم أى سوء حظ
من أن تعبدوا ، في الصباح ، عرش الله .

إنها الخاتم السلطاني لوجودنا ،
وبالنسبة إلينا وإلى الملائكة هي مرآة الله ،
وكل ما يزمزم بحمد الأعلى
احتشد هناك في دوائر حول دوائر .

أريد الانصراف عن شواطئ سندروود ،
وأن أنشر جناحي ناحية قبة درناوند ،
ومنى أشرق الشمس ، سأذهب فترحاً للقائها ،
ومن هناك في أعلى سأبارك عليكم إلى الأبد .

كتاب البارسى : أعلن عنه جيته في « مجلة الصباح » (سنة ١٨١٦)

برقم ٤٨ ، ص ١٩٠) هكذا : « هنا عرض لديانة عبدة النار ، وهو أمر لا غنى عنه ، إذ بغير فكرة واضحة عن هذه الديانة القديمة لظلت معرفتنا بأحوال الشرق وأطواره غامضة » .

وصية الديانة الفارسية القديمة : نظمت في ١٣ مارس سنة ١٨١٥ وفيها يشرح شيخ « پارسى » من المجوس ، أتباع زرادشت ، وعبدة النار في إيران القديمة ، مبادئ هذه الديانة لإخوانه في الدين وهو على فراش الموت . إن الله يتجلى في الشمس والنار وفي كل فعل أرضي يتوجه لخدمة النور بسعى طاهر منظم مفيد ينفع بني الإنسان ، وفي الكفاح ضد الليل والظلام ، وضد كثافة المادة ، وضد كل عمل خال من المعنى والغرض .

ولا يجد الشاعر الغربي (جيته) غضاضة في أن يؤمن بديانة النور « البارسية في صفاتها » يرى فيها مظهراً من ظواهر « الظاهرة الأولية » للدين . راجع ما قلناه في « التصدير » في الفصل الخاص بـ « جيته والدين » .

وقد صرح جيته في حديثه مع لاكمين بتاريخ ١١ مارس سنة ١٨٣٢ قائلا : « لو سألتني أحد هل في طبعي أن أقدم الشمس ، لقلت : نعم ! لأنها تجلى الأسمى ، وأعظم ما قدر لنا نحن أبناء الأرض أن ندركه . إنى أعبد فيها القور وقوة الله الخالقة ، التي بها وحدها نحيا وننسى ونكون ، نحن وكل النباتات والحيوانات أيضاً » .

درناونم : وصوابه : دماوند ، ودُبُناوند ، جبَلٌ في كرمان ، فيه كثير من المعادن : الحديد والنحاس والذهب والفضة والنوشادر والتوتيا ، وهو جبل شاهق ، ارتفاعه ثلاثة فراسخ ، والنوشادر بخار يرتفع مثل الدخان من كهف فيه ، ويلصق حوله ، فإذا كثف وكثر خرج إليه أهل المدينة وما قاربها فيقتطع في كل شهر أو شهرين (راجع « مراصد

الاطلاع » للمرزوقي ، ج ٢ في مادة دمندان ، ص ٥٣٥ ، ودماوند ص ٥٣٣ ودنباوند ص ٥٣٧ ؛ القاهرة سنة ١٩٥٤) .

وهذا الجبل مقدس عند المجوس ، ويعتقدون أن أرواح الموتى تهرع إليه قُبَيْلَ مطلع الشمس .

سنمرود : « هو نهر السند ، من الملتان على ثلاث مراحل : نهر كبير عذب . يفرع في مهران » (مراصد الاطلاع » ج ٢ ص ٧٤٦) .

ويقول شاردان (ج ٩ ص ١٥٠) أن البارسيين يضعون موتاهم على أبراج عالية لتأكل جثثهم الطيور البخارحة ، حتى يتجنبوا تنجس العناصر من جثث الموتى .

بامبه : أى التُّطْن .

وفى ملحق سانسون على « رحلات أوليارس (ص ٥٠) ورد عن البارسيين : « أنهم يهتمون فى وصاياهم ، حين يرقنون على فراش الموت ، أن يوصوا بمبلغ معين من المال ، على شرط أن ينظف المرء البرك من عند معين من الثعابين والبلاعيم وما شابهما من الزواحف » .

إذا كان الإنسان يوقر الأرض

لأن الشمس تضيئها ،

وإذا استمتع بالكرامة

التي تبكى تحت السكين الفاطنة

لأنها تشعر بأن عصيرها

إذا اختمر أغمش الناس

وأهاج عند الكثيرين طاقات

لكنه يحمّد طاقات أخرى عند ناس آخرين أكثر ، -
فهو يعلم أنه ينبغي أن يشكر للحرارة
التي جعلت كل هذا ينبع :
إن الإنسان السكران يتلثم وهو يترنح ،
والإنسان الصالح يتهج وهو يغنى .

نظمت في ٢٤ مايو سنة ١٨١٥ .

وفيها مدح للخمر ، وهو أمرٌ طبيعي بالنسبة إلى عبّدة الشمس ،
وهم البارسيون . وقد قال جيته في تعليقاته : « إن كل الأعمال التي تجري
بنشاط هائل ؛ لكن الكرم ، وهي أعزّ نبات الشمس ، كانت موضوع
عناية خاصة جداً » .

خُلد نامہ

کتاب الخلد

— ۱ —

سبع صدق

المسلم الحقّ يتحدث عن الفردوس
كما لو كان هو نفسه هناك ؛
ويؤمن بالقرآن وما يعد به :
وعلى هذا الأساس تقوم العقيدة الطاهرة .
والنبي ، الذي أنزل عليه هذا الكتاب ،
يعرف نقائصنا ويكشئنا في الأعلى ،
ويرى أنه على الرغم من رعود اللعنات
فكثيراً ما تأتي الشكوك لتسمم الإيمان .

ولهذا يرسل إلينا من عليين
أعجوبة شباب لتجديد شباب كل شيء ؛
تنزل برقة ، وفي الحال ،
تعانق رقبتى وتربطها بالطف الروابط .

وعلى حيجرى ، وعلى قلبي أضمر
هذه المخلوقة السماوية ، ولا أريد المزيد .

ومن هنا أو من بالفردوس إيماناً راسخاً ،
لأنى أريد أن أقبلها إلى الأبد بإخلاص .

نظمت في ٢٢ أبريل سنة ١٨٢٠ .

وفي المقطع الأخير يصور الحورية في الجنة على أنها بمثابة الصورة
الأفلاطونية للجمال التي يود الإنسان أن يتحد بها إلى الأبد . ففي الحب يحيا
الشعور بالخلود ، والعاشق يرى في المحبوبة واحدة من تلك الحوريات
اللواتي في الفردوس ، أو صورة الجمال بالمعنى الأفلاطوني . لكن في القصيدة
مزيجاً من الهزل والجد .

— ٢ —

ناس مجتازون

بعد معركة بدر تحت السماء المرصعة بالنجوم

محمد (يتكلم)

لِيَسْبِكَ الأعداء موتاهم :

فقد جُسِدَ لَوا إلى غير رجعة ؛

أما أنتم فلا تبكوا إخواننا :

لأنهم يطوفون وراء هذه الأفلاك .

والكواكب السبعة كلها ،

وأبوابها المعدنية مفتوحة على اتساعها ،

وأحبابنا الممجّدون ها هم يقرعون

أبواب الفردوس بجسارة .

ويجدون هناك ، دون توقع

ألوان البهاء التي لم يسمع بها والتي يمسها معراجي
حين يحملني الفرس العجيب في لحظة
خلال السموات .

وأشجار الحكمة منظومة صنفاً صنفاً وقائمة كالسرو
ترفع إلى السماء الزينة الذهبية لتفاحانها ،
وأشجار الحياة تنشر ظلاً وارفاً ،
وتعطي أرائك الأزهار وأبسطة الحضرة

ثم يهب نسيمٌ عليلٌ من المشرق
فيأتي إلى هنا بكوكبة بنات السماء ،
فتبدأ تستمع بناظريك ،
والروية وحدها تبعث فينا تمام الرضا .

وهن تفيض هناك سائلات : ماذا أنجزت ؟
مشروعات عظيمة ؟ معارك خطيرة دامية ؟
أما أنك بطلٌ ، فهذا أمرٌ يعرفه ، لأنك وصلت إلى هنا ،
لكنك بطل من أي نوع ؟ إنهن يردن أن يعرفن .

وسرعان ما يكتشفن ذلك في جرحيك
الذي يشهد لنفسه تمثالاً من المجد .
والسعادة والعظمة ، كل هذا زل ،
وبقي فقط الجرح الذي أصيبت به في سبيل الإيمان .

فيقتدنك إلى خمائل وجواسق
فيها آلاف من الأعمدة الحجرية الوضاعة المتعددة ،

وَيَسْدُ عَنْكَ إِلَى شَرْبِ الْعَصِيرِ النَّبِيلِ لِلْأَعْنَابِ الْمَاجِدَةِ
وَيَقْرَبُنِ الْكَوْثُوسَ مِنْ شَفْتَيْكَ بِرِشَاقَةٍ وَلِطَافَةٍ .

أَيُّهَا الشَّابُّ ، وَأَكْثَرُ مِنْ شَابِّ ، مَرْحَبًا بِكَ !
نَحْنُ جَمِيعًا وَضَاءَاتِ صَافِيَاتِ ،
وَلَوْ ضَمَمْتَ إِلَى قَلْبِكَ إِحْدَانَا
لصَارَتْ مَلَكَةً خَطَايَاكَ وَصَدِيقَتَهُنَّ .

لَكِنْ أَكْمَلْنَا لَا تَغْتَبِطُ
أَبَدًا فِي هَذِهِ الرِّوَاغِ ،
سَاجِيَةٍ ، بَغِيرِ حَدِّ ، بَرِيئَةٍ ، تَلَاظُفِكَ
بِكَمَالَاتِ سَائِرِ صَوَاحِبِهَا الْمُتَعَدِّدَةِ .

إِحْدَاهُنَّ تَقْتَادُكَ إِلَى احْتِفَالِ الْآخِرِيَّاتِ
الَّذِي تَنْظُمُهُ كُلُّ مَنَّهُنَّ بِحِمَاسَةٍ فَائِظَةٍ ؛
وَيَسِيكُونُ لَدَيْكَ حِينَئِذٍ نِسْوَةً كَثِيرَاتٍ وَيَسُودُ السَّلَامُ فِي الْبَيْتِ
وَهَذَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يَنَالَ الْمَرْءُ الْجَنَّةَ مِنْ أَجْلِهِ .

فَاهْنَأْ إِذْنًا بِهَذَا السَّلَامِ :
لَأَنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَسْتَبْدِلَ بِهِ شَيْئًا ؛
إِنْ أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ الْآنَسَاتِ لَنْ يُمَثِّلِينَكَ ،
وَأَمْثَالَ هَذِهِ الْخُمُورِ لَنْ تُسَكِّرَكَ .

هَذَا هُوَ الْقَلِيلُ الَّذِي يُمْكِنُ ذِكْرُهُ
عَنِ الْأُمُورِ الَّتِي يِبَاهِي بِهَا الْمُسْلِمُ السَّعِيدُ :

وفردوس الرجال أبطال الإيمان

قد جُهِزَتْ هكذا أتم تجهيز .

نظمت قبل ١٠ مارس سنة ١٨١٥ .

الاستشهاد في سبيل الله ذو دلالة خالدة .

وجيته يصور النبي (عليه السلام) بعد معركة بدر في يناير سنة ٦٢٤ م

وهو يرثي المسلمين الذين قتلوا في سبيل الله .

لم يمزج هذا الموقف بالإسراء ، حيث أسرى بالنبي صلى الله عليه وسلم على البراق إلى السماء بقيادة جبريل الذي طوّف بالنبي السموات السبع حتى أتى به أمام عرش الله أو كاد - قاب قوسين أو أدنى - حيث سدرة المنتهى ، التي عندها جنة المأوى ، وسدرة المنتهى هي شجرة الحكمة ، وشجرة الحياة ؛ ويصف الجنة والحدود العينية ، وكيف تخدم الحوريات الأبرار في الجنة . وقد استعان جيته في هذا بما ورد في القرآن الكريم عن الجنة والإسراء في سورتي « الواقعة » و « الرحمن » ثم سورة « النجم » ؛ كما استقى من ترجمة يوسف فون همر لديوان حافظ ، وكتابه « تاريخ فنون القول الجميلة عند الفرس » ، وكذلك كتاب أولزغر عن النبي محمد . لكن الذي ألهمه مجموع هذه القصيدة هو كتاب ي . ف . ريبندر I. V. Reh binder عن النبي بعنوان : « محمد » ص ٣٦ (كوبنهاجن ، سنة ١٧٩٩) ، إذ ورد فيه رثاء النبي لقتلى المسلمين في موقعة بدر .

لن يصنع النساء شيئاً

إذا رجّين في الأمانة الخالصة ؛

بيد أننا لا نعرف عنهن غير أربع ؛
هن اللواتى دخلن الجنة .

الأولى هى زليخا ، شمس الأرض ،
التي اشتعلت حباً ليوسف ،
وهى الآن نعمة الفردوس ،
تلمع بوصفها نموذج الزهد .

ثم المباركة بين الجميع ،
التي ولدت خلاص جميع الكافرين ،
ثم خُذِعَتْ ، فى ألمها المرّ ،
فشاهدت ابنها يُفْقَد على الصليب

وزوجة محمد ، التى هيأت له
النجاح والمجد ،
وأوصت ألا يكون إلاّ
رب واحد وزوجة واحدة .

ثم تأتى فاطمة المحبوبة ،
الابنة : والزوجة التى لا عيب فيها ،
ذات الروح الملائكية الطاهرة
فى جسمها الذهبى كالعسل .

هؤلاء هن اللواتى نجدهن هناك ؛
ومن رفع ذكر النساء

يستحق ، في المقام الدائم ،
أن يتنزه بصحبتهن .

نظمت هذه القصيدة في هذه الصورة في خريف سنة ١٨١٥ ؛ وفيها
تعديل لصورة أولى لها نظمها جيته في ١٠ مارس سنة ١٨١٥ ،
هذا نصها :

كذلك نحن هاهنا
أربعاً من أجل النساء
حتى إن الحوريات يخشين
إذا تطلعن فهن أن تذهب أبصارهن

إن الأبناء المقدر لهم السرور
يتجددون في ينبوع الشباب ،
ولهم نموذج خالد
في جامهم هم .

آسيا ، سيدة مصرام
كان جبريل نفسه يميل إليها ،
وراحيل لا تشبهها
الدودايم إلا من بعيد .

ويوسف لم يرتبط
بزيخا إلى الأبد ،
بل كان يملخا ساهراً
لما وجدت هذه الصورة .

ثم مريم . تاج العذارى ،
التي ولدت « الكلدنة » .
وجزاء إيمانها الطاهر
لم تفقد شيئاً من قيمتها .

ثم عائشة ،
أحب الزوجات إلى النبي ،
المخلصة الشجاعة في الضراء والبأساء ،
ولكنها لم تَخْلُ من المكر شأنها شأن الكثيرات .

ثم فاطمة ، المحبوبة
زوجة علي ، ولا عيب فيها ،
مثل جسم من عسل ذهبي ،
ولها روح أطهر الملائكة .

هؤلاء ماجدات
في أعلى دوائر الفردوس ؛
ولكن مئات مثلن
سيكنن لطيفات معك في الفردوس .

وآسيا هي زوجة فرعون ، وملكة مصر . وقد سميت هنا باسمها
كما ورد في الكتاب المقدس « آحيا » . - ودودايم : أى ثمار اليبروج
المستعملة في تحضير أكسير الحب . - ويمليخا : - أحد فتية أهل الكهف
السبعة . - « والكلمة » : أى عيسى عليه السلام ، بحسب ما ورد في
القرآن ، وفي إنجيل يوحنا (الفصل الأول) .

أما في الصورة الثانية للقصيد فوجد : (١) زليخا ، وقد عرفت
حبها العنيف ليوسف ، ثم زهدا وعزوفها ؛ (٢) مريم عليها السلام ؛
(٣) السيدة خديجة ، رضى الله عنها ، زوجة الرسول وأم المؤمنين التي
لم يتزوج غيرها طول حياتها ؛ (٤) وفاطمة الزهراء ، ابنة الرسول ،
وزوجة علي ، وأم الحسن والحسين ، رضى الله عنهم جميعاً .

وهناك ثلاث مقطوعات ترجع إلى مرحلة أسبق لهذه القصيدة ، ر
نظمت بين ٢٦ و ٢٩ يونيو سنة ١٨١٤ ، وهاك هي :

ولا بد أن المسيح يعلم هناك

في جماعات أهل الجنة ؛

من ذا يستطيع أن يضمن

أن ما قاله حواريوه هو ما قصده حقاً .

والطبائع النسوية في السماء

تتجول هناك في المرج الفسيح

وهن في المساء دائماً حوريات ،

وفي الصباح يصبحن عزراوات .

وكذلك أم الإله

التي ولدت ولداً

وعلى الرغم من عبث الشيطان

لم تفقد على س + ص شيئاً .

وهناك مسودة لتعديل في المقطوعة الثالثة هكذا :

ثم إن ملكة السماء

لأنها أنجبت ولداً

حُشدت بوصفها عزراء ،

السماع بالرفول

الخورية

أنا اليوم حارسه
أمام باب الفردوس .
ولست أدري جيداً ماذا أفعل ،
فأنت تبدولي مُريباً

هل أنت حقاً شبيه
بالمسلمين الصادقين ؟
هل جهادك وفضائلك
هى التى بعثت بك إلى الجنة ؟

إنى كنت واحداً من هؤلاء الأبطال ،
فأرني جراحك
التى تنبئني عن أفعال مجيدة ،
وحينئذ أسمح لك بالدخول .

الشاعر

دعيك من كل هذه المباحكات !
واسمحي لى بالدخول :
لأنى كنت رجلاً ،
ومعنى هذا أنى كنت محارباً ،

أحدثى بصرك القوى !
وانفذى هنا أعماق قلبي ،
انظري خسارة جراح الحياة ،
انظري شهوة جراح الحب !

ومع ذلك فقد غنيت غناء الزمن الصادق :
فقلتُ إن حبيبتي أخلصت لي ،
وإن العالم مهما تدر به الأحوال ،
كان مليئاً بالحب وعرفان الجميل .

وياتفق مع الأفاضل—
حملت حتى اليوم الذي حصلت فيه
على أن يلعب اسمي في أجمل القلوب
ويتقد في شعلات حب .

لا ، أنت لا تختارين غير جدير !
هات يدك حتى أستطيع كل يوم
على أناملك الرقيقة
أن أعد الأبديات .

نظمت في ٢٤ أبريل سنة ١٨٢٠ ، وطبعت لأول مرة سنة ١٨٢٦
في الإعلان عن طبعة سنة ١٨٢٧ لمؤلفات جيتة الكاملة .
وهذه القصيدة والقصائد الثلاث التالية ، ولكنها كتبت سنة ١٨٢٠ ،
تؤلف مجموعاً من أربع قصائد ذات حوار ، وترتبط على نحو ما بقصيدة
« الهجرة » في أول الديوان .

والشاعر هنا يطالب لنفسه في الحق في دخول الجنة مثل الأبطال الذين استشهدوا في القتال في سبيل الله ؛ فيجد لدى باب الجنة حورية ، يتعرف فيها زليخا التي أحبها على الأرض . وتردد الحورية أمام الشاعر ، وجواب الشاعر بفخر وتباه بأنه بطل في معركة الحياة ، هذا هو موضوع المقابلة الأولى .

ومن المشكوك فيه أن يكون جيته — كما زعم البعض — قد تأثر بقصة اللاأرواح لتوماس مور (سنة ١٨١٧) ، وما فيها من رومانسية عن « الجنة والبرى » .

ويرى ليمان Ggo (ج ٢٤ ص ٢٤١) أن البيتين ١٥ ، ١٦ تأثر فيهما جيته بسفر « أيوب » الفصل ٧ ، آية ١ ، ومواقع يونانية قديمة مثل ما ورد في هيكاتيا ليورينيديس (البيت رقم ٥٥٠) ؛ « ورسائل » سنكا (الرسالة رقم ٩٦) .

— ٥ —

رثين الذكرى

الحورية

هناك ، في المكان
الذي كلمتك فيه أول مرة ،
كثيراً ما كنت أحرس الباب
بسبب الأوامر
هنالك سمعت زمزمة غريبة
كانت مزيجاً غريباً من الأصوات والمقاطع
تطالب بالدخول :

لكن لم يكن يُشاهد أحد ،
واحتفى كل شيء شيئاً فشيئاً ؛
لكن هذا رنّ تقريباً كما ترن أغانيك
ولا أزال أذكر ذلك من جديد .

الشاعر

أى حبيبتي الخالدة ! بأى لطف
تذكرين محبوبك !
كل الأنغام التى تتردد
فى الهواء وعلى طريقة الأرض ،
كلها تريد الصعود :
والكثير منها يخفى جملة ، هناك فى أسفل ؛
وغيرها بطيران الروح وسموها
مثل فرس النهر المجتحم ،
تصاعد إلى السماء وتسمع منها صوت ناي :
هناك فى الخارج ، أمام الباب
فإن سمعت رفيفاتك شيئاً مثل هذا .
فإنصتن إليه بعطف ،
وليسندن الصدى بخنان ومحبة ،
حتى يتردد أيضاً إلى أسفل ،
وليحرصن على كل حال
إنه حين يصل الشاعر إلى السماء
تفيد مواهبه الجميع ؛
وسيكون هذا لصالح كلا العالمين .

وليهنه جزاء حلوا ،
وأن يكن معه لطيمات مطاوعات ،
ويَدَعْنَه يقيم معهن :
إن الأخير يسترضون بسهولة .

لكنك أنت من نصيبي ،
ولن أدعك تفارقين السلام الأبدى
ينبغي عليك ألا تتحرصى بعد اليوم ،
كلّني بهذا الأمر أختاً لم تتزوج بعد .

أنشئت قبل ٧ يونيو سنة ١٨٢٠ ، وطُبعت في طبعة سنة ١٨٢٧ وهي
استمرار مباشر للقصيد السابعة رقم ٤ .

إن الحورية - الواقعة تحرس باب الجنة ، وقد سمعت الشاعر ينشد
أشعاره - تذكر منها صدى الأناشيد التي سمعتها من قبل ، وهكذا تتعرف
في الشاعر حبيباً وأمين سرّاً دائماً ، وهذا الشاعر وقد أراد أن يضمن
هذا الحب إلى الأبد ، يحرم عليها أن تقوم بالحراسة بعد الآن !

- ٦ -

الشاعر

حُكُّك ، وقبلاتك تأسرني !
لا أريد أن أسألك عن أسرارك ؛
لكن قُلْ لي : هل لم تتذوق يوماً
من لذات الحياة الأرضية ؛
لقد تخيلت مراراً ،
وأود أن أقسم على ذلك ، وأن أبرهن :
أنك كان اسمك يوماً زليخا .

الخورية

نحن خلّقنا من العناصر :

من الماء والنار والتراب والهواء ،

مباشرةً ؛ وكل عطر أرضي

يتنافى تماماً مع ماهيتنا .

نحن لا نزل أبداً إليكم ؛

نهتمُّ بكم أيمّا اهتمام .

فكما ترى ، حين وصل المؤمنون ،

الذين أوصى بهم النبيُّ خير وصية

واستقروا في الجنة ،

كنا ، كما أراد ،

لطيفات ، فاتنات ؛

وبالجملة كنا كما لم يعرفنا الملائكة أنفسهم .

لكن الأول ، والثاني ، والثالث

كلهم كانت لهم من قبلُ خليفة ؛

وبالمقارنة بنا ، كن مخلوقات مسكينات ،

لكنهم مع ذلك نظروا إلينا على أننا أقلّ منهم ؛

وكنا لطيفات ، مرحّات ، مبهجات ،

لكن المسلمين أرادوا النزول .

لكن مثل هذا السلوك

كان منافياً تماماً لمكانتنا السماوية ،

فتأمرنا ، وفي تمرّدنا ،

دبرنا آلاف الخطط ؛
ولما مرّ النبي في السموات
اقتضينا أثره ؛
وعند عودته ، ولم يكن يتوقع أمراً ،
توقف فرسه المجنّح .

وهكذا كان في وسطنا ! -
ومجدّ عزب ، كما يليق بالأنبياء ،
أعطانا تعليماته ؛
لكننا كنّا ساخطات كل السخط .
إذ للوصول إلى أغراضه
كان ينبغي علينا أن نوجّه كل شيء ؛
ومثلما فكرتم كان علينا أن نفكر ،
لقد كان علينا أن نكون شبهات بحبيباتكم
لكن كرامتنا ضاعت ،
وحكّت الفتيات آذانهن ،
لكننا قلنا لأنفسنا ، في الحياة الآخرة
ينبغي التسليم بكل شيء
ومنهذد كل منكم يرى ما كان يراه ،
ويحدث له ما كان يحدث له ،
نحن الشقراوات ، نحن السمراوات ،
لنا أهواء ، ولنا تخيلات ،
وأحياناً نتناهب نوبات جنون ،

وكلّ يتخيّل أنه في بيته ؛
ونحن ، نحن فرحات راضيات
حتى إنكم لتحسبون أن الأمر هكذا .
أما أنت ، فحرّ المزاج
وأنا أبدو لك فيردّوسية ؛
وأنت تتغزل في نظراتي وقبلاتي ،
حتى لو لم أكن زليخا .
لكن لما كانت فاتنة كل الفتنة ،
فإنها لا شك كانت تشبهني شبه الشعرة بالشعرة

الشاعر

أنت تبهريني بنور سماوى ،
وسواء أكان إذن وهماً أو حقيقة ،
فهو يكفي ، وأنا أعجب بك قبلهن .
وحتى لا تقصّر في واجبها ،
وتترضى رجلاً ألمانياً ،
وتتكلم الحورية بكلام منظوم مُقَفَّى .

الحورية

نعم ، أنظم أنت أيضاً بغير كَلَل ،
حسبما تندفق الأشعار من قلبك !
إننا معشر سكان الفردوس
نحب الأقوال والأفعال الصادرة عن عقل طاهر .
وأنت تعرف أن الحيوانات نفسها غير مستبعدة .

إذا كشفت عن طاعة وإخلاص !
والكلمة الجافية لا تحزن الحورية ؛
إذ نحن نستشعر الكلمات الصادرة عن القلب ،
وما يتدفق من ينبوع حتى
له الحق في أن يجرى في الفردوس .

أنشئت في كارلذباد في ١٠ مايو سنة ١٨٢٠ ، ونشرت لأول مرة
في طبعة سنة ١٨٢٧ من آلديوان .

والحورية هنا قد تحولت إلى صورة زليخا ، تمجيداً لهذه الأنخيرة .
والشاعر هنا يتصور أنه يرى في الحورية صورة زليخا ؛ لكن الحورية
تجيبه قائلة إنها خلقت من العناصر الأربعة مباشرة ، وإذا كانت تشبه زليخا
فما ذلك إلا امتثالاً لإرادة النبي محمد الذي شاء لأبطال الإسلام أن لا يكونوا
في حاجة إلى الحنين إلى حبيباتهم على الأرض .

- ٧ -

الحورية

مرة أخرى ببنائك تلمسني !
أتعرف كم من الدهور
أمضينا في اتحاد وثيق ؟

الشاعر

كلا ! - ولا أريد أن أعرف . كلا !
أيها الشهوة المتعددة المتجددة أبداً ،
أيها القبلات الخالدة من عروس طاهرة ! -
إذا أشاعت في كل لحظة قشعريرة حب ،
فلماذا أتساءل كم استمرت !

الحرورية

أنت إذن غائب أحياناً ،
أنا أشاهد هذا جيداً ، غير قادر على القياس والعد .
إنك لم تفقد الشجاعة في حضن الكون ،
وخاطرت بالولوج في أعماق الألوهية ؛
والآن ابثق - حاضرأ إلى جوار حبيبتيك !
أليس غناؤك حاضرأ ؟
بماذا كنت تتغنى في الخارج ، أمام الباب ؟
وبماذا تتغنى اليوم ؟ - لا أريد الإلحاح عليك ،
غنّني قصائدك في زليخا :
لأنك لن تفعل خيراً من هذا في الفردوس .

الحيوانات المحفوظة

كذلك بُشّرت أربع حيوانات
بدخول الجنة ،
هناك يعيشون السنة الخالد
مع الأولياء والأتقياء .
هنا حمار هو الذي يتقدم ،
وقد جاء بخطي حثيثة :
لأن عيسى دخل مدينة الأنبياء
على ظهره .

وشبه هيتاب يأتي بعد ذلك ذئب
أمره النبي بهذا الأمر :
اترك هذه النعجة لهذا المسكين ،
وفي وسعك أن تأخذ نعجة من غنى .

ثم مع سيده الأمين
دائماً خفياً نشطاً أميناً ،
هاهو ذا الكلب ومعه بإخلاص
ينام نوم أهل الكهف .

وأخيراً هاهى ذى هيرة أبى هريرة
تموء بالقرب من صاحبها وتلاطفه
لأن الحيوان الذى لاطفه النبي
يظل دائماً حيواناً مقدساً .

نظمت هذه القصيدة فى ٢٢ فبراير سنة ١٨١٥ ، وتنسب زماناً
وموضوعاً إلى المجموعة الأولى فى «كتاب الخلد» هذا ، طبعة سنة ١٨١٩ ،
ولكنها فصلت عنها بوضع القصائد ٤ - ٧ .

والخيران الأول هو الحمار ، الذى دخل المسيح القدس راكباً عليه
يوم أحد الشعانين .

والثانى هو الذئب . وجيته هنا يشير إلى حكاية الذئب الذى كَلَّمَ أهبان
ابن أوس الأسلمى :

« قال ابن عبد البر وغيره : كلم الذئب من الصحابة ثلاثة : رافع
ابن عميرة ، وسلمة بن الأكوع ، وأهبان بن أوس الأسلمى - رضى الله

عنهم . قال : ولذلك تقول العرب : هو كذئب أهبان ، يتعجبون منه . وذلك أن أهبان بن أوس المذكور كان في غمٍّ له . فشدَّ الذئب على شاة منها فصاح به أهبان . فأقعى الذئب وقال : أتزع مني رزقاً رزقنيه الله تعالى . فقال أهبان : ما سمعت ولا رأيت أعجب من هذا ! ذئب يتكلم ؟ ! فقال الذئب : أتعجب من هذا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين هذه النخلات - وأوماً بيده إلى المدينة - يُحدِّث بما كان وبما يكون ، ويدعو الناس إلى الله وإلى عبادته ، وهم لا يجيبونه ؟ ! قال أهبان بن أوس : فجنث النبي - صلى الله عليه وسلم - وأخبرته بالقصة ، وأسلمتُ ؛ فقال لي : حدِّث به الناس واتفق مثل ذلك لرافع بن عميرة وسلمة بن الأكوع ، (عن «حياة الحيوان» للدميري ، طبع بولاق سنة ١٢٧٥ ، ج ١ ص ٤٢٥) .

وكان جيته قد قرأ هذا الخبر عند شاردان (ج ٧ ص ٤٤٥) لكن بصورة مقارنة لما ذكره جيته هنا .

والحيوان الثالث هو قطمير ، الكلب الباسط ذراعيه بوسيد الكهف وحارس السبعة النائمين ، بحسب قصة أهل الكهف .

والحيوان الرابع هو الهرة (القط) ، وقد أخذ هذه الفكرة عن «جلستان» سعلى ، إذ ورد فيه ذكر هرة أبي هريرة . وورد في تعليق أوليارس على هذا الموضع (ص ٥٢ تعليق ١) : «أبو هريرة رأى صاحب الهرة ... عاش في زمن النبي وبعد وفاته ، وكان من صحابته المقربين» .

وأبو هريرة ، واختلف في اسمه بين : عبد الرحمن بن صخر (النوى نشرة تستنفذ ص ٧٦٠) وعمر بن عامر (ابن دريد : «كتاب الاشتقاق» ص ٢٩٥) ؛ ولكنه عرف بلقب : أبي هريرة لأنه كان يحب القطط ويتلطف معها . وقد جاء المدينة سنة ٧ هجرية (٦٢٩ م) وأسلم وصحب النبي وكان من المقربين إليه . وكان فيه دعاية : «وكان يصلى خلف علي» ،

جواً كل على سماط معاوية ، ويعتزل القتال ويقول : الصلاة خلف على
أتم ، وسماط معاوية أدم ، وترك القتال أسلم ! استعمله عمر على البحرين ،
وروى عنه أكثر من ثمانمائة رجل . وولى إمرة المدينة وكان أكثر الصحابة
رواية إذ يقال إن المرويات عنه ٥٣٧٤ حديثاً نبوياً ، كما قال الحافظ الذهبي
(راجع «شذرات الذهب» لابن العماد الحنبلي ، ج ١ ص ٦٣ - ٦٤ ،
القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ) .

- ٩ -

أعلى والأعلى

إذا كنا نعلم هذه الأشياء
فلا يتضايق منا أحد :
وإذا أردت أن تعرف كيف يمكن تفسير هذا كله
فسألك أعظم عمائق ذاتك .

هنالك تعلم :
أن الإنسان الراضى عن حالته ،
سرى ذاته وقد نجت
هناك وهاتها .

وهذه الذات الغريزة ستحتاج
إلى كل أنواع الأطياب ،
فالمسرات التى استمتعت بها هنا ،
أريدها أيضاً فى أبد الآبدين .

وهكذا البساتين البانعة ،
والأزهار والثمار ، والفتيات الجميلات

التي تعجب الكل هاهنا ،
ستلذنا أيضاً وقد تجددت أرواحنا .

وهكذا ، كل أصدقائي
شباباً وشيوخاً ، أود أن أجمعهم جميعاً ،
لنرطن باللغة الألمانية في سرور
بكلمات فردوسية .

لكن الناس يرهفون السمع الآن للهجات
التي بها يتمم الإنسان والمَلَك ،
وللنحو الغريب
الذي يُغريب الخشخاش والورود .

ثم إنه في لغة النَّظَرَات
بلدٌ للناس أن يفيضوا بالبلاغة ،
ويحبون أن يرتفعوا إلى النشوة السماوية
بدون صوت ولا ضوضاء .

لكن الصوت والرنين يتحرران
من اللفظ الذي يُفهم بنفسه ،
وعلى نحو أشد حسماً
يشعر صاحب النعم أنه بغير نهاية .

فلذا كان مقدرًا للحواس الخمس
أن تستعمل في الجنة ،

فن المؤكد أننى سأكتسب
حسّاً واحداً بدلاً منها .

ومنذ الآن أنفذُ في كل مكان
على نحوٍ أسهل خلال الدوائر الأزلية
التي تشيع فيها كلمة الله
على نحوٍ صافٍ حتى .

وبغير عائق ، وفي سبحة مشبوبة
نصاعد دائماً دون أن نجد نهاية ،
حتى ينتهى بنا الأمر إلى أن نخفنى ونزول
في رؤية العشق الحالد .

أنشئت في ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٩٨ .

يقول جوندولف (ص ٦٦٢) : « إن القصائد الثلاث الأخيرة في هذا
الكتاب لا توجد بينها وحدة باطنة . وقصيدة « أعلى والأعلى » تأسيس
وتفسير للكتاب كله ، وتعبير عن حاجة النفس إلى تصوير الجنة والإشارة
إلى الأفكار العلمية التي تصورها الصورة الحسية » .

وفى إيضاح لهذه الفكرة التي عبر عنها جيته في « التعليقات » : إن
المبتذل اليوم إذا ما ضمنوا به أهائنا أجنحة ترتفع عليها درجة فدرجة ،
حتى أعلى الذرى ، والإنسان يود أن يجد في السماء إلى الأبد السعادات
التي استمتع بها على الأرض وأن يرطن بكلمات فردوسية باللغة الألمانية ،
لكن الشاعر ينهنا إلى أن الوجود السماوى سيكون أرفع من هذا وأسمى :
فإنه لن يرطن في الجنة بالألمانية ، بل سيتكلم لغة لا نحو فيها ولا إعراب
ولا صرف ، وسيجعل محل الحواس الخمس حس واحد أحد يغنيه عن

الخمس . وكلمة الله تنفذ خلال التعاريج وبها يرتفع المؤمن إلى أعلى
عليين ، حتى يعاين الله ويتأمل الحب الخالد .

أهل الكهف

سنة من المقربين في القصر
يهربون من غضب الإمبراطور
الذى يريد أن يعبد الناس كإله ،
لكنه لا يكشف عن نفسه إلهاً :
لأن بعوضة تمنعه
من الاستمتاع بأطياب المائدة .
وخدمه يطبِّرون البعوضة بتحريك المروحة
لكنهم لا يستطيعون طردها .
لأنها تطنّ حوالبه ، وتلسهه ، وتحوم
وتعكّر كل الأدبة ،
ثم تعود من جديد
كرسول بعثه إله الحشرات الشرير :

فقال الخدم : ماذا !
أستطيع ذبابة صغيرة أن تضايق إلهاً ؟
وهل يشرب الإله ويأكل
مثلنا نحن ؟ كلا ، إن الواحد
الذى خلق الشمس والقمر ،

ودَوَّرَ فوقنا قبة السماء ذات النجوم ،
هذا هو الله ، فلهرب ! - والفتية
اللطاف ، ذوو الخفاف الخفيفة والزينة الرقيقة ،

آواهم راعٍ خبأهم
هم وهو معهم في كهف صخرى .
ولم يشأ كلب الراعى أن يذهب ،
طردوه ، وانكسر حافره ؛
لكنه بقى ملتصقاً بسيده
وانضم إلى الهارب المختبئ
وإلى أصحاب النوم .

أما الأمير الذى فرُّوا من وجهه
فقد أنكر فى عقابهم غاضباً ،
فأبعد السيف والنار ،
وبحجارة وجبر
سدَّ عليهم باب الكهف .

لكنهم ينامون باستمرار ،
والمَلِك الذى يرعاهم ،
يقول فى تقريره أمام عرش الله .
« لقد قبَلْتهم ذات اليمين وذات الشمال
حتى لا تضار أعضاؤهم الرقيقة
بما ينبعث من هذه الحُمأة .
ووفتحت شقوقاً فى الصخور

حتى تجدد الشمس ؛ في طلوعها وغروبها ،
الألوان النضرة لخلودهم :
وهكذا يرقدون في نعيم .
والكلب الصغير ، مستنداً إلى قدميه الأماميتين وقد شُفِيت
ينام نوماً هادئاً .

وتمرّ الأعوام ، وتأتى السنون ،
وأخيراً يستيقظ الفتيّة ؛
والجدار ، وقد قرضه الزمان ،
تهدم من القدم .

وقال يا مبلّخوس الجميل
وهو خيرهم علماً وتربية ،
وقد شاهد الراعى خائفاً :
« سأعود ! وسأتىكم يطعام ،
وسأخاطر بحياتي وبقطعة الذهب ! »

وكانت مدينة أفسوس ، منذ سنوات عديدة ،
قد آمنت بمذهب النبي
عيسى ، عليه السلام .

وجرى مسرعاً ؛ لكن الباب ،
والأسوار والبرج وكل شيء كان قد تغيّر .
كانه أصرع إلى أقرب خبّاز
وطلب خبزاً وهو في لفقة .

فصاح الحجاز : « أيها الوغد !
هل وجدت ، أيها الفتى ، كنزاً ؟
إن هذه القطعة من الذهب تفضح أمرك ،
أعطني ، قاسمني إياه ونفاهم ! »

وتنازعا . - وأمام المليك
عُرضت القضية : والمليك هو الآخر
لا يريد إلا أن يقاسمه مثل الحجاز .

هنالك تكشفت المعجزة
شيئاً فشيئاً بآلاف العلامات .
والفتى يستطيع أن يقرر حقه
في القصر الذي بناه بنفسه .
لأن عموداً ، شقاً ،
أفضى إلى كنوز نقشت فيها أسماء محدّدة .
وفي الحال تجمعت أسر
لتقدم دليلاً على قرابتها .
ولم يامبليخوس كأول جدّه
في زهرة شبابه
وراح يسمعهم يتحدثون
عن ابنه وأحفاده كما يتحدثون عن أجدادهم ،
وأحاطت به جماعة ذريته ،
وهم صفوة من كرام القوم ،
ليكرّموه ، وهو أكثرهم شباباً ،

وجاءت علامة بعد أخرى

تتدافع لتتم البرهان ؛

بالنسبة إليه وإلى أصحابه

قد استعاد شخصيته .

ثم عاد إلى الكهف

يصحبه الشعب والمَلِك .

ومصطفى أسماء هذا

لا يلتفت إلى المَلِك ولا إلى الشعب :

لأن السبعة (وكانوا ثمانية إذا حسبنا الكلب)

قد انسحبوا من العالم منذ زمان طويل .

وقوة جبريل السرية

حملتهم إلى الجنة

حسب مشيئة الله ،

وبدا الكهف مسدوداً .

بدأ جيته هذه القصيدة قبل ٢١ ديسمبر سنة ١٨١٤ في يينا ، ثم استمر

في نظمها في فيمار في ٢٩ ديسمبر ، ثم أتمها في فيزبادن قبل ٣٠ مايو

سنة ١٨١٥ .

وقد استمد جيته مادتها من ج . ج . رتش : « قصة النائم السبعة » كما

نقلها يوسف فون همر في « كنوز الشرق » (ج ٣ ص ٣٤٧ وما يتلوها) .

وقد اجتمع فيها روايتان : نمرود الذي عذبه البعوض (البيت رقم ٥) ،

وأهل الكهف الذين اضلهم القيصر دقيوس ستة ٢٥٠ بعد الميلاد (البيت

رقم ٢٢ ثم الأبيات ٢٩ وما يتلوه) . وقد أوجز جيته القصة وتقع في ٣٥

صفحة من القطع الكبير (الفوليو) في هذه القصيدة المولفة من ٩٨ بيتاً .
وقد قام نقولا تومباروف Nic. Tumparoff بمقارنة بين الأسطورة وقصيدة
جيتة في بحث أودعه بكتابه : « جيتة والأسطورة » ص ١٥٣ وما يتلوها
(برلين سنة ١٩١٠) .

ومن الواضح أيضاً أن جيتة رجع في قصة أهل الكهف إلى سورة
الكهف في القرآن الكريم : « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا
من آياتنا عَجَبًا * إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا : رَبَّنَا آتِنَا مِنْ
لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ
سِنِينَ عَدَدًا * ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًا إِذْ يَخِصُّوْنَ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا *
نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ : إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى *
وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا : رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ، لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا * هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ
آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّهِمْ لَيُبَيِّنَنَّ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَظْلَمُوا فَمَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَاوْثِقُوا أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْأَكْحَامِ بِغُلُوبِكُمْ
وَصَصِّرُوا كَنُفُوسَكُمْ وَذَرُوا آلِهَتَكُمْ وَاسْتَعِينُوا بِرَبِّكُمْ وَأَقْرَبُوا إِلَهُكُمْ فَلَا يَكُنْ لَكُمْ مَلَكُوتٌ * وَتَرَى السَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ
تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ إِلَهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ، وَهُمْ
فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ : مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ
يَضَلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا * وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ، وَنُقَلِّبُهُمْ
ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ، وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ، لَوِ اطَّلَعْتَ
عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا ، وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعبًا * وَكَذَلِكَ بَعَثْنَا لِيَتَسَاءَلُوا
بَيْنَهُمْ : قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : كَمْ لَبِثْتُمْ ؟ قَالُوا : لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .
قَالُوا : رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ، فَاغْتَاوْا أَحَدَكُم بِوَرْقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ
أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْكُمْ بِرِزْقِ مِنْهُ ، وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا *
لَهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ بِهِمْ بِرِجَالِهِمْ أَوْ يُعْبدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا *

وكذلك أخبرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ،
إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا : ابنوا عليهم بُنياناً - ربهم أعلمُ بهم .
قال الذين غلبوا على أمرهم لتتخذنَّ عليهم مسجداً * فيقولون : ثلاثة
رابعهم كلهم ، ويقولون : خمسة سادسهم كلهم ، رجماً بالغيب ، ويقولون :
سبعة وثامنهم كلهم . قل : ربي أعلمُ بعدَهم ، ما يعلمهم إلا قليل ،
فلا تمارِ فيهم إلا مراءَ ظاهراً ، ولا تستفتِ فيهم منهم أحداً . . . ولبثوا
في كهفهم ثلاثاً مائة سنين وازدادوا تسعاً » .

أما قصة الخروء وتعذيب الله له بالبعوض وكيف دخلت بعوضة في
منخره حتى وصلت إلى دماغه ، فتجدها في « عرائس المجالس » للثعلبي
ص ٨٥ (طبعة الحلبي بالقاهرة) .

- ١١ -

طاب مساؤكم !

والآن ، يا أغاريدى العزيزة ، استرخي

في قلب شعبي !

وليكلأ جبريل بعنايته

أعضاء الشاعر المجهد

وينشر عليه غيمة يفوح منها المسك .

حتى يستطيع ، نشيطاً معافى ،

مسروراً كالعادة ومعاوناً عن طيب خاطر

- أن يشق جذران الصخور

ليتجول في سرور

مع أبطال كل العصور
خلال باسطات الفردوس ،
حيث الجمال المتجدد باستمرار
ينمو في كل ناحية
لتستمع به الجموع :
نعم ، والكَلْبِيب الصغير الأمين
سيحق له أن يرافق سيده .

نظمت في آخر ديسمبر سنة ١٨١٤ كخاتمة « للديوان الألماني » .
وهي ارتباط وثيق بالقصيدة السابقة وقد مثل نفسه بالمصطفى بين أهل
« الكهف يؤذ أن يعود فيما بعد ، وأن يعالج سائر أبطال الإنسانية لتتعم هذه
بأفعال أبطالها .

أشعار نشرت بعد وفاة جيته

وتنسب إلى « الديوان الشرقى »

خَلَّفَ جَيْتِه قَصَائِدَ وَمَقْطَعَاتٍ تَدْخُلُ فِي « الدِّيَوَانِ الشَّرْقِيِّ » ، وَقَدْ اسْتَخْرَجَهَا أَكْرَمُنَ وَرِيمَرُ وَنَشَرَاهَا سَنَةَ ١٨٣٦ فِي مُخْتَلَفِ كُتُبِ « الدِّيَوَانِ الشَّرْقِيِّ » فِي الطَّبْعَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِطَبْعَةِ حَجْمِ الرَّيْعِ Juartausgable . ثُمَّ نَشَرَتْ بَعْدَ ذَلِكَ سَنَةَ ١٨٤٢ فِي الْمَجْلَدِ السَّادِسِ عَشَرَ مِمَّا خَلَّفَهُ جَيْتُهُ وَلَمْ يَنْشُرْهُ إِلَّا بِإِذْنِ حَيَاتِهِ . وَقَدْ رَتَّبَهَا بوردَاخ فِي نَشْرَتِهِ لِلدِّيَوَانِ فِي الْمَجْلَدَيْنِ السَّادِسِ وَالسَّابِعِ مِنْ مَجْمُوعِ مَوْثِقَاتِ جَيْتِهِ الَّتِي نَشَرَ بِتَكْلِيفِ مِنَ الدُّوقَةِ الْكَبِيرَةِ صُوفِي فُونِ سَاكْسِنِ فِي فِيمَارِ سَنَةَ ١٨٨٨ . وَهَذَا التَّرْتِيبُ هُوَ الَّذِي رَاعَيْنَاهُ هُنَا كَمَا فَعَلَ كَثِيرًا مِنْ نَاشِرِي « الدِّيَوَانِ الشَّرْقِيِّ » وَعَلَى رَأْسِهِمْ رُودَلْفُ رَشْتِرُ .

وَوَفَّقًا لِبَحْثِ بوردَاخ فِي كَيْفِيَةِ تَرْتِيبِهِ لَلْقَصَائِدِ ، تَنْتَسِبُ الْقَصَائِدُ ١ - ٥ إِلَى كِتَابِ « الْمَغْنَى » وَكِتَابِ « حَافِظُ » ؛ وَالْقَصَائِدُ ٦ - ٧ تَنْتَسِبُ إِلَى « كِتَابِ التَّفْكِيرِ » ؛ وَالْقَصَائِدُ ٨ - ١١ إِلَى كِتَابِ « الْحَزَنُ » ؛ وَالْقَصَائِدُ ١٢ - ٢٦ إِلَى كِتَابِ « الْعَشَقُ » وَكِتَابِ « زَلِيخَانُ » ؛ وَالْقَصَائِدُ ٢٧ - ٣٠ إِلَى كِتَابِ « السَّاقِي » ؛ وَالْقَصِيدَةُ ٣١ إِلَى كِتَابِ « الْأَمْثَالُ » .

- ١ -

الغرب والشرق على السواء
يقدمان إليك أشياء طاهرة للتذوق .
فدع الأهواء ، ودع القشرة :

واجلس في المأدبة الحافلة :
وما ينبغي لك ، ولا عابراً ،
أن تتأى بجانبك عن هذا الطعام .

نظمت في مارس سنة ١٨٢٦ ، وفكر فيها في البداية أن تكون مدخلاً ؛
وطبعت لأول مرة في طبعة قمار (١٨٨٧ - ١٩١٨ في ٥٥ مجلداً) ج ١
ص ٢٧٥ .

- ٢ -

من يعرف نفسه والآخرين
يعترف هنا أيضاً أن :
الشرق والغرب
لا يمكن بعد أن يفترقا .
وبودي أن أهدهد نفسي
سعيداً بين هذين العالمين ؛
وإذن فالتحرك بين الشرق والغرب
هو الملك الأفضل .

أنشئت في مارس ١٨٢٦ ، وطبعت لأول مرة سنة ١٨٣٣ في المجلد
السابع مما نشر بعد وفاة جيته .

- ٣ -

لني أسمعك في أغانيك
أي حافظ ، تمتدح الشعراء ؛

انظر ، ها هو جوابي لك :

ماجد من رفعه الشكران !

نظمت في سنة ١٨١٤ ، ولكنها طبعت لأول مرة في طبعة الربيع
ضمن كتاب « الحكمة » .

- ٤ -

كان عليّ أن أمر ذات يوم بإرفورت

ولقد طالما جست خلالها منذ زمان ،

وبدا لي أنه بعد كل هذه السنين

استقبلت بالترحاب والتقدير .

وحين كانت النسوة العجائز تحييني

أنا العجوز ، من داخل حوانيتهن ،

كان يخيل إليّ أنني أشاهد من جديد زمن الشباب

الذي كنا جميعاً نشيع فيه نفحات الجمال .

لحداهن كانت بنت خباز

وإلى جوارها إسكافية ،

لحداهما لم تكن أبداً كالبومة ،

والأخرى كانت تعرف الحياة جيداً .

وهكذا نريد في كل وقت ،

أن ننافس حافظاً ،

فنجد لذة في الحاضر ،

ونستمتع في الوقت نفسه بالماضي .

نظمها في ٢٥ يوليو سنة ١٨١٤ ، بمناسبة مروره بارفورت إبان رحلة
جيته في وادي الرين .

وهو هنا يذكر الساعات الجميلة التي قضاها في هذه المدينة في قصر
معادن والبرج .

وفي البيت التاسع وما بعده يحيي زوجة اسكافي كانت مشهورة
بجمالها في ذلك الزمان ، وهي السيدة فوجل ، ويحيي بنت خباز ، لا بد أنه
كان ينطبق عليها هذا البيت الوارد في مسرحية « هاملت » : « يقال إن
البومة كانت بنت خباز » .

— ٥ —

أى حافظ ! مساواتك
أى جنون !
على أمواج البحر المائج
تتابع السفينة المسير .
وتشعر بأن شراعها ينتفخ .
فتمخر فخوراً جسوراً ؛
فإن حطمها البحر المحيط
سبحت ، خشبة متعفنة ،
في أغانيك الرشيقة السريعة
يتماوج سيلك الرطيب .
والبحر يغلي بأمواج من نار ؛
والحريق يتلعنى ،

لكنى أحسن بشاعة كبرياء
تشيع في نفسى الجراءة .
وأنا أيضاً ، فى بلاد يغمرها النور
عشت وأحببت ،

نظمت فى ٢٢ ديسمبر ١٨١٥ على نظام الغزليات .

يتردد حافظ فى أن يساوى نفسه بحافظ : ذلك أن حافظ يشبه السفينة
الفخمة ، بينما جيته مثل لوح تتقاذفه الأمواج ؛ وأغانى حافظ تنتشر برقة .
وتتوالب كأمواج من نار ، أما جيته فقد ابتلعه الحريق .

ومع ذلك فى وسعه أن ينافس الشاعر الشرقى ، حافظاً الشيرازى ،
لأنه أى جيته عاش فى بلاد يضيؤها نور الشمس (والإشارة هنا إما إلى
رحلة جيته إلى إيطاليا ، حيث الشمس والليمون ، أو إلى زيارته لوادى
الرين الضحيان) .

قارن ديوان حافظ ترجمة يوسف فون همر ج ١ ص ٨٧ ، ج ٢
ص ٢٣١ ، ٢٩٥ .

- ٦ -

سافرت فى عديد البلاد
وشاهدت جموع الناس فى كل مكان
وتأملت ملياً فى مختلف الأركان
وكل سنبلة أعطنتى حباً .
ولم أشهد مدينة مباركة ،
حورية بعد حورية ، وعروساً بعد عروس

ربما تكون قد نظمت بعد سنة ١٨١٦ هـ .

وقد نظم فيها ما كتبه مرزا أبي الحسن خان ، سفير إيران في بطرسبرج ،
وقد أورده جيبته في « التعليقات » ، فراجعه هناك .

— ٧ —

لِتَزِدْ الدَّارُ رَوْعَةً
كأَمْتَلَاكَ أَبَدِي ،
وليحرص الابن على الشرف
كما حرص الأب على المجد

نظمت في الفترة ١٨١٥ - ١٨٢١ ، وطُبعت لأول مرة في الطبعة التي
يجزم الربع في باب « كتاب الحكمة » .

— ٨ —

إلى صداقة الألمان
لستُ في حاجة ،
إن أبشع العداوات
في خدمتها الأدب والتهذيب ؛
وكلما أظهروا التلطف
ازداد تهديدي ،
وما اعتراني الضيق
إذا كان الفجر والأصيل عسكرين ؛
بل تركت المياه تجري
إلى السرور أو العذاب .

لكننى على كل حال
بقيت مالكا زمام نفسى :
الكل أرادوا أن ينعموا
بما أتتهم به الساعة ؛
ولم ألتهم على ذلك ،
فلكل متاعبه .
لأنهم يبعثون إلى جميعاً بتحياتهم
ويكرهوننى كراهية الموت .

نظمت فى ١٥ مارس سنة ١٨١٨ فى كامسدراف قرب بينا ، وطبعت
لأول مرة فى طبعة الربع .
وفى هجوم عنيف على نفاق الألمان ، إذ يتظاهرون بالمودعة ويخفون
كراهية زرقاء .

- ٩ -

لقد حاولوا منذ خمسين سنة كاملة
أن يزيّفوننى ، ويبدلونى ، ويحقروننى ؛
ومع ذلك بيدولى أنك تستطيع أن تعرف
ماذا تساوى فى ميدان وطنك .
لقد تحامقت فى زمانك مع المتوحشين
عصابات الشباب العباقرة العفارىت
وسنة بعد سنة انضمت برفق
إلى العقلاء والرقاق رقة إلهية .

لا يعرف تاريخ نظمها بالدقة ، وطبعت لأول مرة في طبعة الربع ٥
حاول الناس في حياة جيته أن يشوهوا صورته ويزيفوها ويحقدوها ،
طوال خمسين سنة . لكن هذا لم يقل من عزمه ، ولم يقلل من تقديره
لنفسه ، ولم يشع اليأس في نشاطه ، بل ظل واثقاً بقيمته ، يتابع طريقه
غير حافل بما تلوكة ألسنة الحاسدين والحاقدين .

ولقد تطور من جنون الشباب العبقري إلى حكمة الكهولة والشيخوخة
المهذبة الوديدة التي ترفرف عليها ظلال الألوهية .

— ١٠ —

الاستمتاع في التسول الكريه
هذا شأن ذرية ابراهيم المقدسة ؛
حين أشهدهم يتاجرون في السوق
أجدهم يشترون برخص ، ويشترون الجيد .
لا يعرف تاريخ نظمها بالدقة ، وطبعت لأول مرة في طبعة الربع ٥.

— ١١ —

من المحزن في أيام الحروب
أن يقتل الناس بعضهم بعضاً ،
وفي وقت السلام نفس البلاء !
النساء يَغْتَلْنَك بالسنتن .

نظمت قبل ٢٦ يناير سنة ١٨١٥ ، وطبعت لأول مرة في قمار ج ٦

- ١٢ -

ظِلُّ أسود يصحب غبار الحبيبة ؛
 جعلتُ من نفسى غباراً ، لكن الظل مر على دون أن يتوقف ؛
 لا يعرف تاريخ نظمها ، وطبعت لأول مرة في الربع
 مصدر هذه القطعة مثنوى بالفارسية للسلطان سليم الأول (١٥١٢ -
 ١٥٢٠) . ويلوح أن العاشق تحول إلى غبار حتى يقع عليه ظل المحبوبة التي
 يصحبها الغبار ؛ لكن الظل مر من فوقه دون أن يتحقق الوصال المنشود ؛

- ١٣ -

ألا أستطيع أن أستعمل رمزاً
 على هواى ،
 ما دام الله ضرب مشكل البعوضة
 للرمز على الحياة ؟

ألا أستطيع أن أستعمل رمزاً
 على هواى ،
 لأن الله ، في عيون محبوبتى ،
 يتجلى هو نفسه رمزاً ؟

لا يعرف تاريخ نظمها بالدقة ، وطبعت لأول مرة في طبعة الربع .
 يطالب جيته بأن يكون له الحق في ضرب الأمثال واستعمال الرموز ،
 فالله نفسه ضرب مثلاً بعوضة فما فوقها ؛ كما ورد في القرآن : والله أيضاً
 يتجلى في عين الحبيبة . وقد تأثر فيها جيته بالقرآن أولاً في الآية الكريمة :
 « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما ، بعوضة فما فوقها (البقرة : ٢٦) » .

ثم يقول سعدى فى مقدمة « جلستان » : أيتها البلبى تعلم حب الله من الفراشة
التي تحوم حول النور ، ثم تسكت وفيه تحترق ؛ وكذلك حافظ .

— ١٤ —

أنت رائعة كالمسك :

فأينما تكونى ، يلحظك الناس .

طبعت لأول مرة فى طبعة الربع ضمن كتاب زليخا . وقد تأثر فيها
صورة شائعة فى الشعر الشرقى ، أورد لها مثلاً يوسف فدون همر « فى كنوز
الشرق » (ج ٣ ص ٣٠٢) : « الحب كالمسك لا يُكْتَم أبداً ؛ وحتى
لو غطى بألف غطاء ، فإن رائحة المسك تفضحه » .

— ١٥ —

قل لى ! فى أى قران للكواكب

يقع اليوم

الذى لا يطير فيه قلبى من جديد

مع أن قلبى لى ؟

وإذا طار أمكن اللحاق به

فيكون قريباً منى كل القرب ؟

على الوسادة ، الرقيقة الوثيرة

التي عليها قلبى يرقد فوق قلبها .

نظمت فى ٨ يناير سنة ١٨١٥ .

ومعناها أنه فى الوصال والاتحاد الغرامى فقط يجد الروح رضاها

الكامل .

أيها الطفل الرقيق ، هذه الأسماط من الآلى
يقدر ما أستطيع ،
أود أن أعطيها لك عن طيب نفس
كذبالة لمصباح الحب .

تعال ، ولك علامة
معلقة في عقدك ، هي من بين كل الأبركساس
قريناتها ،
أقبحها في نظرى .

وهذا الجنون الحديث كل الحداثة
ينبغى عليك أن تأتيني به إلى شيراز !
هل يجب علىّ إذن أن أتغنى
بهذه الخشبة الخامسة المتقاطعة على الخشبة ؟

لقد اختارت لها جدّاً
أبراهام سيد النجوم :
وموسى ، فى تيه الصحراء
صار عظيماً بفضل الواحد الأحد .

كذلك داود ، بعد أن ارتكب العديد من المعاصى
بل والعديد من الجرائم ،
استطاع أن ينجى نفسه بأن يقول :
لقد عبثت الواحد الأحد :

ويسوع كان ظاهر الشعور ، وفي الهلوع
لم يفكر إلا في الله الواحد الأحد ؛
فمن جعل منه إلهًا
فقد أساء إليه وخالف إرادته المقدسة .

ولهذا ظهر الحق لمحمد
وبه نال الفلاح والنجاح ؛
فبفكرة الله الواحد الأحد
ساد الدنيا بأسرها .

لكلك إذا اقتضيت مني ، رغم هذا ،
أن أجد هذا الشيء الفظيع
فسأزعم ، اعتذارا عن ذلك ،
أنك لست وحدك التي تنتصرين

ومع ذلك وحدك ! — كما أن كثيرا من نساء
سليمان سقته

إلى عبادة الآلهة بالتطلع إليها ،
الآلهة التي كانت تعبدها هذه المجنونات —

قرن إيزيس ، وشِدق أنوبيس
قدّمن كليهما إلى كبرياء هذا اليهودي ،
وأنت تريدن أن تقدمي إلىَّ على أنها إله
هذه الصورة البائسة للمصلوب على الخشب !

ولا أريد أن أبدو

خيراً مما جرى لي فعلاً :

لقد كفر سليمان بربه

وأنا أيضاً كفرت بربي .

واسمحي لي أن أنسى

في هذه القبلة تائب المرتد :

لأنّ أي شيء كان

سيصير طيّساً على قلبك .

أنشئت هذه القصيدة في الفترة من ١ إلى ١٥ مارس ١٨١٥ ، وختمت في ٢١ يونيو سنة ١٨١٥ في فيزبادن . وقرأها جيته لبواسريه في ٨ أغسطس سنة ١٨١٥ الذي وجدها مرة قاسية جداً . وطبعت لأول مرة في طبعة الرُّبُع .

لقد تضايق الشاعر لأن محبوبته ، وقد أهدى إليها عقداً من اللؤلؤ ، قد علقت فيه صايبا لتبين عبادتها للمسيح كإله . وجيته يقول لها إن أسلاف المسيحية كلهم إنما آمنوا بإله واحد أحد : إبراهيم الذي نجت له عظمة الله وهو يتأمل السماء بما فيها من نجوم لانهاية لها (راجع سفر التكوين ، فصل ١٥ ، آية ٥ - ٦) ؛ ثم موسى التيه على جبل الطور ؛ ثم المسيح نفسه ؛ ثم محمد (صلعم) . وقد تأثر جيته هنا بما ورد في القرآن الكريم من آيات تؤكد أن « الله أحد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد » ، وتلك التي تؤكد أن المسيح رسول الله ليس إلّا : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » (المائدة : ٧١ ، ٧٢) ؛ « ما المسيح ابن مريم إلّا رسول قد خلت من قبله الرسل » (المائدة : ٧٥) .

« لن يستنكف أن يكون عبداً لله » (النساء : ١٧٢) ، « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم : تخلقه من تراب » (آل عمران : ٥٩) ؛ « وإذا قال الله : يا عيسى ابن مريم : أأنت قُلتَ للناس اتخذوني وأُمى المؤمنين من دون الله » (المائدة : ١١٦) . وجيته إذن كان يتصور المسيح كما تُصورة الإسلام .

لكنه في سبيل الحب لا يجد حرجاً وقد رأى الصليب معلقاً في جيد الحبيبة أن يبدى أنه على استعداد للإقرار بالوهية المسيح ، وإن كان في ذلك كفران بالإله الحق الواحد الأحد ، وأن ينظر إلى الصليب الذي رأى فيه ابركساس ، على أنه طلسم . ويفرى الشاعرُ نفسه عن هذا الموقف الغريب بما وقع لسليمان الذي اضطر إلى الإيمان بالمؤمنين مصريين : ايزيس وأتوبيس ، لإرضاء لزوجاته المصريات ، ولإيزيس تصوّر برأس بقرة ، وأنوبيس برأس ابن آوى .

وربما كان الباعث على هذه القصيدة تجربة وقعت لجيته مع مريانة فون فليمير ، وكانت كاثوليكية تحمل صليبا على صدرها .

ومن الممكن أيضاً أن يكون جيته قد استلهم في هذه القصيدة قصة « خسرو وشيرين » ، وتُصوّر الحب بين كسرى الثانى ملك الفرس وشيرين الفتاة النصرانية الجميلة .

وبناء على نصيحة بواسريه استبعد جيته هذه القصيدة من طبعات « الديوان الشرقى » أثناء حياته ، نظراً لما فيها من فكرة عن المسيح لا يلد متوًذى شعور المسيحيين .

ذرنى أذرف العبرات ، محاطاً بالليل
فى القلوات غير ذات الحدود .
الإبل تستريح ، وكذلك أصحابها ،
والأرينى يسهر ويحسب فى صمت ،
وأنا ، بجواره ، أحسب الأميال
التي تفصلنى . عن زليخا ؛ وأكرّر
المنعرجات الثقيلة التي تطيل فى الطريق .
ذرنى أذرف العبرات ! فليس فى هذا عار .
فالرجال البكاؤون أخیار .
ألم يَبْكْ أَخيل على حبيبته بريسيس !
واكسر كسوس بكى على الناجين من جيشه ؛
وعلى خليله الذى قتله بيده
بكى الاسكندر .
ذرنى أذرف العبرات ! فلن الدموع تنجى التراب .
وهاهو ذا يخضوضر .

طبعـت لأول مرة فى طبعة الرُّبع ضمن « كتاب زليخا » .

وَأَخِيل (اخيلوس) بكى على بريسيس التي اختطفها منه أجاممنون
(الإلياذة) ، والكتاب الأول ، البيت ٣٤٨ وما يتلوه) . واكسر كسوس
Xerxes الأول (خامس ملوك الفرس ، من سنة ٤٨٥ إلى ٤٧٢ قبل الميلاد ،
وهو ابن دارا وقد خلفه فى الملك ، وحارب اليونان ، وشرع فى الحرب

المليدية الثانية ، فعباً جيشاً هائلاً بلغت عدته ثلاثة ملايين رجل فيما يقال ،
ودوخ آسيا الصغرى ، وأحرق آثينا ، ثم ثيبا ، لكنه رأى أسطوله يباد
في معركة سلامين سنة ٤٨٠ ق . م) نقول إن اكسركيس بكى في
أبيدوس حينما استعرض جيشه الهائل في زحفه على بلاد اليونان وتأمل وأنكر
أنه لن يبقى منهم أحد بعد مائة عام (تاريخ هيرودوت ، المقابلة السابعة ،
٤٥ وما يتلوها) . والإسكندر الأكبر بكى ، لأنه في سورة غضبه وسكّره
قتل صفيّه وحبيبه كليتوس .

- ١٨ -

ولماذا لا يرسل

قائد الفرسان

رُسُلَهُ

من يوم إلى يوم ؟

إن لديه خيلاء

ويعرف الكتابة .

إنه يكتب بخط تعليق

ويكتب أيضاً بخط نسخي

أنيق جميل

على أوراق من حرير .

وخطه يقوم عندي

مقام شخصه .

لريضة لا تريد

لا تريد الشفاء

من آلامها العذبة ،
وهى التى أنباء
حببها
تشفيها يجعلها مريضة .

ربما كان نظمها فى سنة ١٨١٦ ؛ وطبعت لأول مرة فى طبعة
الرابع .

وربما كان الباعث على نظمها رسالة رمزية لمريانة فون فليمير شكت فيها
من كونها بقيت مدة طويلة لا تتلقى أنباء من حببها . وزوجها فليمير ، وقد
أقلقته مخاوف زوجته التى انزعجت من طول صمت الشاعر ، التمس من جيته
أن يكتب إلى مريانة . كما أن مريانة أشارت إلى نفسها فى الرسالة بهذه
الآبيات من حافظ الشيرازى (ج ١ ص ٤٠٤ س ١٩ - ٢٠ ، وص ٢٨١
س ٢٣ - ٢٤) : « منذ زمان طويل وحببى لم يبعث إلى برسالة ؛ ومنذ
زمان طويل لم يرسل إلى برسالة ولا كلمة ولا تحية . ما أسعد المريض الذى
يتلقى دائماً أنباء عن حببه » .

كذلك استلهم جيته هذه الآبيات لحافظ الشيرازى والتى وردت بعد
المواضع التى أشارت إليها مريانة فى رسالتها مباشرة ؛ « كتبتُ مائة مرة ،
لكن قائد الفرسان لم يبعث إلى برسول ولا بتحية » .

والخط النسخى معروف ؛ أما الخط التعليق فهو الذى يستعمله الفُرس
عادة . وكان جيته يقرأ بمساعدة القاموس النصوص العربية ويفهمها ؛ لكنه
لم يكن يعرف قراءة النصوص الفارسية . راجع : كروجر فلستند : « جيته
وفارس » ، فى « حوليات جيته OGB ج ٢٦ ص ٢٧٠ ؛ وكذلك راجع
فرنكه : « بيته والمخطوطات الشرقية فى مكتبة فيمار » ، بحث فى « نحو مكتبة
دوقية فيمار ١٩٠٨ - ١٩١٠ » ص ١٦ وما يتلواها (فيمار سنة ١٩١١) .

الحبيبة العاشقة

لو كتب بخط نسخي

لعبّر عن إخلاصه ؛

ولو كتب بخط تعليق

فهذا جبل جدأ ؛

- بهذه الطريقة أو تلك -

بكفى ! إنه يحب .

يحتمل أن تكون كتبت في السنوات ١٨١٦ - ١٨١٩ ، وقد نشرت في
طبعة الربع ؛ وترتبط بالقصيدة السابقة كل الارتباط ؛

لم أعدُ أكتب على أوراق الحرير

قوافي منتظمة ؛

ولم أعد أحيطها

بإطارات مذهبة ؛

لأنها ترسم في التراب الموار ،

وتمحوها الرياح ، ولكن قوتها تبقى

حتى مركز الأرض

راسخة في الأرض بالسحر .

ويمرّ الرحالة ،

العاشق . ولو داس

هذا المكان ، لارتعدت

كل فرائضه .

« هنا ، قبلى ، أحبّ عاشق .

هل كان هو « المجنون » الرقيق ؟

أو فرهاد القوى ؟ أو جميل الخالد ؟

أو واحداً من أولئك الآلاف

من البائسين السعدا ؟

لقد أحبّ ! وأنا مثله أحب ،

وأستشعر هذا ! »

لكنك أنت ، أى زليخا ، تستريحين

على الوسادة الناعمة الوثيرة

التي أعدتها وزيتها من أجلك ،

وأنت أيضاً تشعرين بفرائضك ترتعد .

« إنه هو الذى يدعونى ، حاتم .

وأنا أيضاً أناديك يا حاتم ، يا حاتم ! »

ربما يكون تاريخ نظمها فى أغسطس سنة ١٨٢٨ ، وطبعت لأول مرة

فى « كتاب زليخا » .

وعلى الرغم من أن زمان الرسائل الغرامية الرمزية قد ولى بالنسبة إلى حاتم

وزليخا ، فإن قوة الحب لا تزال عرمة عنيفة يستشفها الشاعر بعد طول

الزمان ، وزليخا أيضاً لا تزال تستشعرها .

المهدد مع سعف النخيل الصغير ،
هنا في هذا الركن ،
رابض ، يرقب ، ما أجمله !
هو دائماً في سَهَر .

هذه القصائد الست في المهدد ، من ٢١ إلى ٢٦ ، كانت في الأصل
ملحقة برسائل جيته إلى مريانة ، فيما عدا رقم ٢٢ .
والأولى منها ، رقم ٢٢١ قصيدة شكر أنشأها جيته في ديسمبر سنة ١٨١٩
يشكر بها مريانة على الهدية التي بعثت بها إليه في عيد ميلاده ، والهدية كانت
عصا للزينة مصنوعة من خشب النخيل ، ولها مقبض مزين بهدهد ، ولا تزال
العصا موجودة إلى جانب منضدة كتابة جيته .

قال المهدد : بنظرة واحدة
أفضت إلى بكل شيء ،
وقد أفدت من سعادتك
كما كنت أفيد دائماً .
لأنك تحب ! - في ليالي الفراق
انظر ، ماذا كُتِب في النجوم :
حبك ، وقد انضم إلى القوى الخالدة
يبقى حافلاً بالمجد :

طبعت لأول مرة في طبعة الربع ضمن « كتاب العشق » .

ويرى هك Heck أن الإشارة إلى « بنظرة واحدة » إنما هي إلى الرسالة المرافقة لهدية ماريانه إلى جيته في عيد ميلاده .

- ٣٣ -

الهدهد رسول بحمل دعوة

قديمًا بلانتمك أغنيتي ،
والآن تود أن تذهب إليك بعيداً .
إني أغنى طوال اليوم من الفجر حتى المساء ،
وهم يقولون : غنّ غناءً أجمل ! وأنا أسمع هذا راضياً ؛
وإذا جاءت ورقة بين الحين والحين ،
تحمل تحية ، فلا تنزعج .
لكن هل بغداد بعيدة كل هذا البعد ؟
ألا تريد إذن أن تستمع إنيّ بعدُ ،

أنشئت في سبتمبر - ديسمبر سنة ١٨١٩ ، وطبعت لأول مرة في نشرة
كريز ناخ للرسائل بين جيته وماريانه فون فليمير (الطبعة الثالثة ، اشتوتجرب
سنة ١٨٧٨) ، ص ١٣٤ .

والقصيدة نظمها جيته على لسان ماريانه كدعوة منها لجيته لزيارة
فرنكفورت .

- ٣٤ -

الهدهد يفسر موضعاً مُلفزاً

تجاسر المصور على رسم صُورٍ إلهية ،
وعَرَض راعته

لكن ما يراه مستحيلاً هو :
أن يصف للعاشق معشوقته .
فليجروا أيضاً ويحاول ! إن حُلماً يتولى الأمر
وخيال الظل سيكون موافقاً .
أُتشتت في ديسمبر سنة ١٨١٩ .

الهرهد بلتمس همة لرأس السنة
على شكل لغز

أداة ، ضرورة كل يوم ،
يحتاج الرجال إليها نادراً ، والنساء غالباً ،
أداة مستعدة باستمرار للخدمة بإخلاص ،
متعددة في الوحدة ، حادة مسنونة .
يكبر فعلها مراراً بسرور ،
ملساء من الخارج ، بينما نحن نتألم باطناً ،
لكن الاستعمال والزينة يجددان فينا المتعة ،
لو أن الحب بارك عليه بركة حقة .

في ديسمبر سنة ١٨١٩ التمس جيته من مريانة بواسطة رسول الغرام
بينهما أن نعطيه مشطاً ، تباركه هي بخصلة من شعرها .

وطبعت لأول مرة في نشرة كريزنآخ لمراسلات جيته ومريانة
ص ١٣٥ . لكن سبق مع ذلك نشرها في ١٨٢٧ مع خلاف بسيط في رواية
البيت الأخير في طبعة سنة ١٨٢٧ لمجموع مؤلفات جيته ، ج ٣ ص ١٥٩ :

الهدية جميلة ثمينة ،

لقد "حلّ" لغز الطلب ؛

هل حلّلت فيها البركة ،

هذا غير مؤكد .

ألا يمكن تلافى السهْو ،

مالم يسلبه هو ، في احترامه للأدب ،

ألا تستطيع هى أن تسمح لنفسها به ؟

أيها الهدهد ، إذهب وأنبئها بهذا .

جيتّه يجدد طلبه في ٥ مارس سنة ١٨٢٠ كما ترسل إليه مريانة خصلة
من شعرها ؛ راجع جوابها في «رسائل جيتّه ومريانة» نشرة كريزنآخ
ص ١٣٩ .

طبعت لأول مرة في المجلد السادس عشر من المؤلفات التى
خلفها جيتّه .

وا أسفاه ! لا أملك أن أبادلك الهدية بمثلها

ويا لها من لذة أحدثتها لى ؛

تفضلى واقننى بأغانى ،

بقلبي ، وبإخلاصى .

ربما كانت هذه المقطوعة جواب شكر عن خصلة الشعر التى أرسلتها

إليه مريانة في نهاية أغسطس سنة ١٨٢٠ أو بعد ذلك بقليل . وقد طبعت لأول مرة في طبعة الربع ،

— ٢٨ —

الخمر لا يمكن أن تناسبك ،
ولم يسمح بها أى طيب ؛
والقليل منها لن يزيد معدتك إلا فساداً
والكثير منها سيشعل رأسك .
طبعت لأول مرة في طبعة الربع ضمن « كتاب الساقى » .

— ٢٩ —

أو تعرف معنى الجبيلة ؟
أو تعرف أى خمر أجّد ؟
طبعت لأول مرة في طبعة الربع ضمن « كتاب الساقى » .

— ٣٠ —

بأية خمر
انتشى الإسكندر ،
أراهن بآخر نفّس في حبانى
أن خمره لم تكن من الجودة كخمرى .
طبعت لأول مرة في طبعة الربع ضمن « كتاب الساقى » .

أينما أظهروا لى الخير
فذلك زجاجة خمر من السنة الحادية عشرة
بالقرب من الرين والمين ، فى وادى النكر
يحضرون لى فى ابتهاجٍ خمرأ من السنة الحادية عشرة
ويمتدحون من كرام الرجال
أقل مما يمتدحون خمر السنة الحادية عشرة
وإذا كان قد خدّم الإنسانية خدماتٌ جُلتى
فإنه مع ذلك ليس من خمر السنة الحادية عشرة ؛
والسادة الأفاضل يذكرون
تقريباً مثل خمر السنة الحادية عشرة ؛
وإذا أدوا أعمالهم بسرور ،
شرب على ذكرهم خمر السنة الحادية عشرة ؛
وكثير من الأسماء أنا أذكرها همساً
وأنا أحسنى فى صمت من خمر السنة الحادية عشرة ؛
وهى تعرف ذلك ، دون سائر الناس ،
وهناك أستمتع حقاً بخمرى من السنة الحادية عشرة ؛
وهم يتحدثون عن أغاريدى
ويمتدحونها كما يمتدحون تقريباً خمر السنة الحادية عشرة ؛
ويقطعون أزهاراً وأغصاناً
لتويجى مثل خمر السنة الحادية- عشرة ؛
لكن هذه ستكون بركة أجمل -

وعن رضا أشرك معى فى خمر السنة الحادية عشرة ،

آه لو أخذ حافظ نصيبه منها

واجتسبى معى خمر السنة الحادية عشرة !

ولهذا أهرع إلى الجنة

حيث ، وأسفاه ، خمر السنة الحادية عشرة

لم يحظ بنشوتها المؤمنون . ومهما يكن خمر السماء

فاخراً ؛ فإنه ليس من خمر السنة الحادية عشرة ،

هيا ، يا حافظ ، أسرع !

هنا ينتظر كخابية (ريمر) مليئة نجمة السنة الحادية عشرة !

هذا التمجيد لخمير محصول سنة ١٨١١ رواية معدلة ، نظمت فى صيف

سنة ١٨١٦ ، لتصيد أقدم بقيت فى ما خلفه لإكرمن ، ونشرها لأول

مرة . بورداخ فى « حوليات جيته » سنة ١٨٩٠ ، وكان جيته قد نظم

هذه الرواية الأولى فى ١٠ أكتوبر سنة ١٨١٥ ، وهاك نص هذه

الرواية الأولى .

أينما أراى الناس شيناً طيباً

فهو زجاجة خمر من السنة الحادية عشرة ،

فى الرين والميين والنكر

يأتى الناس مبتهجين بخمر السنة الحادية عشرة ،

وتذكر أسماء كريمة

يتردد ذكرها مثل خمر السنة الحادية عشرة :

فريد رش الثانى ، مثلاً

كحاكم مثل خمر السنة الحادية عشرة .

وكننت يذكر دائماً
على أنه مثير مثل خمر السنة الحادية عشرة .
وكثير من الأسماء في صمت
أذكرها وأنا أحتسى خمر السنة الحادية عشرة :
وعن أغاريدى يتحدثون أيضاً
بتمجيد وسرور مثلما يتحدثون عن خمر السنة الحادية عشرة .
ويشربون على صحتى منادين معي
وكل هذا بنحمر صافية من خمر السنة الحادية عشرة .
وهذا يزيد في سروري ،
أكثر من خمر السنة الحادية عشرة .
آه لو شرب حافظ المجلل !
اشرب من خمر السنة الحادية عشرة .
نزلت إلى العالم السفلي مسرعاً —
حيث لا من خمر السنة الحادية عشرة
تشرب النفوس الصاحية
اذكر خمر السنة الحادية عشرة .
« أسرع يا حافظ ! اذهب ! هناك في أعلى
توجد كأس فاخرة من خمر السنة الحادية عشرة ،
أهداها الحبيب إليّ » ،
لأنه كريم ، بنحمر السنة الحادية عشرة
احتفظ لي ، حتى أستمتع كل الاستمتاع
بفاخرة خمر السنة الحادية عشرة .

أى حافظ ، أسرع ! وكرهينة
سأبقى أنا ، حتى تلتهم خمر السنة الحادية عشرة ،
فى الجانب المشرق من إقليم الرين
حيث يزكو خمر السنة الحادية عشرة .
وهنا فى الجانب المظلم : هنا يقشعر
من تعود خمر السنة الحادية عشرة . -
تعال راجعاً أبها العاقل
وأذهب عقلك بخمر السنة الحادية عشرة ،
حتى أحييك
وأنا أقول : مرة أخرى من خمر السنة الحادية عشرة ؟
فإذا رجعت ، قالت الحبيبة بحماسة :
« هل خمر السنة الحادية عشرة
قد جندلتك تماماً !
منتشياً بخمر السنة الحادية عشرة
كنت راقداً لا تشعر بملاطفتى ،
وكان خمر السنة الحادية عشرة
يمكن أن تقارن بقيلاقي :
تجنب خمر السنة الحادية عشرة ،
وهل لا تعلم أنك ، يا حافظ ،
بدلاً منى ، من خمر السنة الحادية عشرة
قد شربت ، وأنا حباً فيك
لارتميت هناك بغير روح ! ولا بد أنها خمر السنة الحادية عشرة

هى التى فعلت كل هذا وحطمتنى ،
نعم البريئة ، نمر السنة الحادية عشرة !
لكن حبيبتى قالت : « هذا المنافس ،
الساقى الذى يصب لك نمر السنة الحادية عشر -
أنا أحسده ، هذا الساقى الأسود العينين
الذى يصب الحاضر دائماً من نمر السنة الحادية عشرة
حاتم ! تطلع فى عيني !
ودع الساقى ، ونمر السنة الحادية عشرة ،
دعتهما يذهبا ! إن هذه القبلات من هذا اليوم
فماذا تريد نمر السنة الحادية عشرة ! »

ذلك أنى أريد بكل سرور
أن أشرب نمر السنة الحادية عشرة
حين تكون عتيته ، لأنها إذا كانت حالية
كانت عذبة طائشة فتية هذه الخمر ، نمر السنة الحادية عشرة .
ولا أريد أبداً الإمتغناء
طول حياتى من نمر السنة الحادية عشرة .
لقد أينعت كثيراً وطابت
سنة إحدى عشرة ، ولهذا سميت نمر السنة الحادية عشرة .

فَلْيُغْنِنَهَا مِنْ بَعْدَى شَاعِرٍ آخِرٍ
هذه الأنشودة فى نمر السنة الحادية عشرة !
لأنى أنشدتها فى نشوة الحب
ومنتشياً بنمر السنة الحادية عشرة .

وهذه الرواية الأولى يفترض بورداخ أنها نظمت في ١٠ أكتوبر سنة ١٨١٥ في مدينة ميونجن ؛ ونشرها لأول مرة بورداخ في « حوليات جيته » ج ١١ ص ٣ وما يتلوها ، بينما الصورة الثانية طبعها لير فون V. Loeper في أغسطس ١٨٦٨ في طبعة خاصة .

وجيته قد استخدم نظام الغزليات ، لتوكيد المعنى الأساسى ، وهو تمجيد خمر السنة الحادية عشرة .

وفي هذه القصيدة يقول جيته إنه من أجل أن يستطيع حافظ الشيرازى أن يستمتع بخمر السنة الحادية عشرة الفاخرة ، سيذهب إلى العالم السفلى ، ويبقى هناك رهينة ، بينما يصعد حافظ إلى العالم الأرضى ليشرّب خمر السنة الحادية عشرة بصحبة الساقى والحبيبة (الأبيات ٢١ - ٣٦) : وبينما حكيم الشرق (حافظ) نشوان في العالم الأرضى (البيت رقم ٣٨) ، يقلق الشاعر (جيته) في العالم السفلى (بيت ٣٧) ، ويعود إلى العالم الأرضى ، يعود من جديد إلى خمر السنة الحادية عشرة وإلى الحبيبة (البيت ٤١ وما يتلوه) .

هاك حيث يجتمع العقلاء

يمكن سماع الحكمة .

وهكذا ملكة سبأ في قديم الزمان

هيات الفرصة لأعلى التأملات .

أمام سليمان ، من بين مائر الكنوز ،

وصفت إناء من الذهب ،

كبيراً ؛ غنياً بالزينة لم يشاهد مثله ،
مع أسماك وطيور وحيوانات تسكن الغابات
حولها تكدست زينات معقدة
مثل عمودى ياكين وبوعز ذوى العقود .

ثم جاء خادم أخرق
فأحدث فيه انتفاخة قبيحة وهو يصدده ؛
وأصلح بسرعة من غير شك ،
لكن العين المدربة تدرك بسهولة ما أصابه من ضرر ،
وهكذا أفسد السرور والاستمتاع ؛
فقال الملك : كنت أعتقد هذا !
إن أسمى ما نُعْظَاه
سرعان ما يفسده سوء تصرف ،
إن الأبالسة الذين يكرهوننا
لا يمكن أن يتركوا الكامل كاملاً .

لا يعرف تاريخ نظمها ؛ طبعت لأول مرة فى مجلة تصدر فى روما
اسمها Fanfulla فى فبراير سنة ١٨٧٨ ، ثم فى « المجلة الألمانية » فى أبريل
من نفس السنة .

وعمودا ياكين وبوعز عمودان فى معبد سليمان كما ورد فى سفر « الملوك ٣ »
(الفصل ٧ ، آية ٢١) من « الكتاب المقدس » : « ونصب العمودين فى
رواق الهيكل : نصّب العمود الأيمن ووسمه باسم : ياكين ، ونصّب العمود
الأيسر ووسمه باسم : بُوعز . »

تعليقات وأبحاث

تعين على فهم « الديوان الشرقي »

مقدمة

من يرد فهم الشعر
فليذهب إلى وطن الشعر ؛
ومن يرد فهم الشاعر
فعلية أن يذهب إلى وطن الشاعر .

لكل شيء أوانه ! - هذا قول تزداد لصدقه إدراكاً كلما امتد بك العمر ؛ فثم أوان للصمت ، وآخر للكلام ، والشاعر يأخذ بهذا الموقف الثانى فى هذه المرة ، لأن إذا كان يناسب الشباب الفعل والاشتغال ، فإن الشيوخة يلائمها التأمل والاعترافات .

لقد ألقيت فى العالم بمؤلفاتى فى الشباب دون مقدمة ، ودون أن أهتم أدنى اهتمام ببيان مقاصدى ، وتصرفت على هذا النحو لأنى كنت مقتنعاً أن الأمة ستستطيع ، عاجلاً أو آجلاً ، الاستفادة مما يُقدّم إليها . وهكذا فإن كثيراً من مؤلفاتى أحدث أثراً مباشراً ؛ بينما البعض الآخر ، وكان أقل حظاً من الفهم والثبوت ، احتاج إلى سنوات عديدة كما ينال التقدير . ومضت هذه السنوات أيضاً ، وعوضنى جيل ثان وثالث تعويضاً مزدوجاً ومثلثاً عن المظالم التى عانتها من معاصرى الأسبقين .

لكنى أود الآن ألا يقع شيء يحول دون أن تحظى هذه المجموعة الصغيرة بتقدير حسن فى الحال . لهذا عقدت العزم على تقديم شروح وإيضاحات وإشارات ، وكل هذا بقصد توفير الفهم المباشر لقصاصدى عند القراء الذين لا يعرفون عن الشرق شيئاً أو إلا قليلاً . وفى مقابل ذلك ، سيكون هذا الملحق غير ذى فائدة لمن عنى عناية خاصة بتاريخ وأدب هذه الناحية الرائعة من العالم . وسيسهل عليه أن يعرف المصادر واجداول التى استقيمت منها المياه العذبة لدى بستان أزهارى .

والذُّ ما يلدّ مؤلف القصائد السابقة الذكر ، هو أن يُعَدَّ كرحالة يشرِّفه أن يتكيف بلدّة مع عوائد البلاد الأجنبية ، ويسعى لتمثيل لغاتها ، والمشاركة في مشاعرها ، واتخاذ أخلاقها وآيينها . وليُعَدَّر إن لم ينجح في هذا إلا بعض النجاح ، وإن كشفت لهجته الخاصة واستمرار خصائص قوم عما فيه من كل ما هو شأن الأجنبي : وبهذا المعنى أطلب الصفح لكتابي الصغير هذا . فأصحاب العلم يصفحون عن فهم ؛ والهواة ، وهم أقل إدراكاً لما فيه من نقائص ، يتلقون ما يقدم إليهم بدون تحيُّز ضده .

وحتى يرضى أهله بما يقدمه إليهم على نحو أسرع ، فإن الرحالة يتخذ دور تاجر يعرض بابتهاج سلعته ، ويسعى بكل الطرق لجعلها مقبولة مرضية ؛ ولا يسخطن أحد من الأقوال التي بها يعرضها ويعلن عليها أو يمتلحها .

وأولا يستطيع شاعرنا أن يصرِّح بأنه ، فيما يتعلق بالأخلاق والجمال ، حرص كل الحرص على أن يكون واضحاً ؛ ولهذا اهتم باستعمال أبسط لغة ، وأسهل وزن يمكن أن يستعمل في لغته ، ولا يبين — إلا عن مبعدة — عن التناقضات والصنعة التي بها يسعى الشرق إلى الإرضاء :

غير أنه يحول دون الفهم التام بعض الألفاظ الأجنبية التي لم يكن مفر منها ، وتظل غامضة لأنها تتصل بأمور معينة ، من اعتقادات وآراء وتقاليد وأساطير وعادات . لهذا صار من الواجب تفسير هذه التعبيرات ، وحرصنا لهذا على الاستجابة للمقتضيات التي تجلت في الأسئلة أو الاعتراضات التي وجهها السامعون والقارئون الألمان . وثمّ ثبت في آخر الكتاب تبين فيه الصفحات التي توجد فيها المواضع الغامضة ، والأماكن التي شرحت فيها . بيد أن هذه التفسيرات قدمت على نحو متفاوت في التنظيم المنهجي ، حتى تقدم ، بدلا من تعليقات غير متأسكة ، نصّاً متوالياً ، وإن يكن عرضاً

موجزاً من غير شك قليل الترابط ، فإنه مع ذلك يعطى القارئ نظرة شاملة وإيضاحات .

عسى أن يلتقي سعيها النجاح في الدور الجديد الذي اتخذناه ! وإنا لنجروء على الرجاء في هذا النجاح . : إذ في الوقت الذي فيه تثرى لغتنا بالكثير مما استعرناه من الشرق ، فإنه من المناسب ، من ناحيتنا ، أن نسعى لتوجيه الانتباه إلى عالم وصلتنا منه منذ آلاف السنين أشياء كثيرة عظيمة وجميلة وخيرة ، ونأمل كل يوم أن نظفر منه بالمزيد .

العبرانيون

أول ما يزدهر في الأمة هو الشعر الساذج ، وهو الأساس في كل شعر قال ؛ وكلما تجلى نضراً وطبيعياً ، أبلغ نمو العصور التالية .

ولما كنا نتحدث عن الشعر الشرقى ، فن الضرورى أن نذكر « الكتاب المقدس » بوصفه أقدم مجموعة . وإن شطراً كبيراً من « العهد القديم » قد كتب بحماسة وينتسب إلى ميدان الشعر .

والذكرى الحية للزمان الذى فيه هررد وآبشهورن كشفنا لنا شخصياً عن هذه الموضوعات ، لتثير في نفسنا صدى متعة عظيمة يمكن أن تقارن بالشروق الصافى للشمس في المشرق . ولكن ما نقله إلينا أمثال هذين الرجاين وخطافه لا نملك هاهنا إلا أن نشير إليه مجرد إشارة ، وليُغْفَرَ لنا إسراعنا في المرور بهذه الكنوز عابرين غير متلبثين :

لكننا نذكر كمثال سفر « راعوث » ، الذى يمكن أن يعدّ كلاً لطيفاً نُقِيلُ إلينا على شكل ملحى ومثالى idyllisch ، إلى جانب هدفه السامى وهو توفير أجداد كرام مهمين للملك من ملوك إسرائيل .

ونتوقف لحظة عند « نشيد الأناشيد » بوصفه أرق ما وصل إلينا وأبعده

عن المحاكاة في التعبير عن الحب العنيف اللطيف . وإنا للأسف ، من غير شك ، على أن هذه القصائد المبتورة ، المرتبة بحسب الصدفة والمكدسة حسبها اتفق ، لا توفر لنا متعة مليئة صافية ، ومع ذلك فنحن مغتبطون كل الاغتراب لأننا نستطيع أن نقدر الظروف التي فيها أزهرت نفوس هؤلاء الشعراء . إذ نستروح النفحة الرقيقة لأجل بلاد كنعان في كل هذه الأشعار : الحياة الريفية الهادئة ، وفلاحة الكروم ، والبساتين ، والطور والأفاويه ، وشيئاً من ضيق الحياة في المدينة ، وكأرضية للوحة نشهد قصرأ ملكياً بكل روائع بذخه وأهته . ومع ذلك فإن الموضوع الرئيسي يظل ذلك الميل المشوب المتبادل بين قلبين فتيين يسعى كل منهما للآخر ، ويلقى ويصد كل منهما الآخر ، ويتجاذبان في سلسلة من المواقف البالغة البساطة .

وكثيراً ما خطر ببالنا أن نستخلص من هذا الخليط اللطيف بعض الأجزاء وأن ننسق بينها ؛ لكن طابعها المُلغز غير اللقائل لسر أغواره ، هو الذي يضفي على هذه الأوراق رشاقتها وتفردها . وكأين من عقول طيبة ، مولعة بالنظام ؛ استسلمت لإغراء البحث فيها عن تسلسل منطقي أو لإدخال ذلك فيها ، وكل يدع نفس المهمة لمن يخلفه .

كذلك كان لسفر « راعوث » سحرلا يُقهر في نفوس كثير من الناس الذين أسلموا قيادهم لوهم أن هذه الرواية المنقطعة النظير في الجمال وفي إيجاز العرض ، يمكن أن تفيد شيئاً من عرضها بتوسع وتفصيل .

وهكذا فإن كتاب الكتب يكشف لنا كل سفر من أسفاره أنه أعطي لنا كيما نستطيع أن نمتحن فيه قوانا بوصفه عالماً ثانياً ، وأن نضل فيه ، ونتعلم منه ، ونثقف

العرب

وعند العرب ، ويسكنون في بقعة أقرب إلى الشرق ، نجد كنوزاً رائعة في الملاحظات ، وهي قصائد مديح نالت الجوائز في المباريات الشعرية ؛ وقد نظمت في العصر السابق على محيى محمد ، وكتبت بحروف من ذهب ، وعلقت على أبواب بيت الله [الحرام] في مكة . وتعطى فكرة عن شعب بلوى ، راع ، محارب ، يمزقه من الدخائل المنازعات بين القبائل التي يصرع بعضها بعضاً . وتعبّر عن التعلق الراسخ بالرجال الذين من نفس العنصر ، وعن الشعور بالشرف ، والشجاعة ، والرغبة العرمة في الثأر التي يوحى بها الحزن في العشق ، والكرم ، والإخلاص ، وكل هذا بغير حدود . وهذه القصائد تزودنا بفكرة وافية عن علو الثقافة التي تميزت بها قبيلة قريش ، التي منها محمد ، ولكنه أضفى عليها غلالة جادة من الدين ، وعرف كيف ينتزع منها كل مطمع في تقدم (مادي) خالص .

وقيمة هذه القصائد الممتازة ، وعيدتها سبع ، تزداد بما فيها من تنوع رفيع سام . ولانستطيع أن نبعثها على نحو أوجز وأقوم مما قاله جونزالصائب الحكم حين قال في وصفها : « معلقة امرئ القيس رقيقة ، بتهجة ، لماعة ، أنيقة ، متنوعة ، سارة . وأما معلقة طرفة فجريئة ، حية ، وثابة ، ومع ذلك يشيع فيها نوع من البهجة . وقصيدة زهير قاسية ، جادة ، عفيفة ، حافلة بالحريكم والآداب والجمل الجليلة . وقصيدة لبيد خفيفة ، غرامية ، أنيقة ، رقيقة ؛ وتذكرنا بالرعوية الثانية لفرجيل : لأنه يشكو من كبرياء الحبيبة ، ويتخذ من ذلك فرصة لتعداد مناقبه والتفاخر بقبيلته .. وقصيدة عنزة تبدو متكبرة ، مهددة ، حافلة بالتعبير ، رائعة ، لكنها لا تخلو من جمال في أوصافها وصورها . وعمرو (بن كلثوم) عنيف ، رام ، ماجد ؛ والحارث ابن حنظلة ، بالعكس ، مليء بالحكمة ، والفطنة والكرامة .

وهاتان القصيدتان الأخيرتان تبدوان بمثابة خطب في المنازعات الشعرية — السياسية ، أمام جمهور من العرب ، لتسكين الأحقاد المدمرة بين قبيلتين .

ولما كنا بهذه العبارات قد أثرنا لدى القراء الرغبة في قراءة أو إعادة قراءة هذه القصائد ، فإننا نورد قصيدة أخرى ، معاصرة لمحمد ، وتعكس روح هذا العصر^(١) . ويمكن وصفها بأنها كابية رهيبة ، وشبوبة ، نعمة إلى الانتقام ، ومنتشية بنشوة الأخذ بالثأر . وهذه هي القصيدة :

- ١ — إن بالشعب الذى دون سأنع . لفتيلاً دمه ما يطل
- ٢ — خلف العباء على وولتى . أنا بالعباء له مستقل
- ٣ — ووراء الثأر منى ابن أخت . مصيع عقده ما تحل
- ٤ — مطرق يرشح موتاً كما أط . رق أفعى ينفث السم صل
- ٥ — خبر ما نابنا مصمحل . جل حتى دق فيه الأجل
- ٦ — بزنى الدهر وكان غشوما . بأى جاره ما يذل
- ٧ — شامس فى القر حتى إذا ما . ذكت الشعرى فرد وظل
- ٨ — يابس الجنين من غير بوس . وندي الكفين شهم مدل
- ٩ — ظاعن بالخزم حتى إذا ما . حل حل الخزم حيث يحل
- ١٠ — غيث مزن غامر حين يجدى . وإذا يسطو فليث أبل
- ١١ — مسبل فى الحى أحورى زمل . وإذا يغزو فسمع أزل

(١) هذه القصيدة قرأها جيته فى ترجمة لاتينية وردت فى رسالة دكتوراه قدمها سنة ١٨١٤ إلى جامعة جيتنجن المستشرق الرائد الكبير س . ف . فرايتاج بعنوان *Carmen Arabicum perpetuo Commentario et versione Jambica Germanica* . *Illustravit S. W. Freytag* . فترجمها جيته عن هذه الترجمة اللاتينية التى قام بها فرايتاج . لكنه تصرف فى الترجمة .

- ١٢- وله طعمان : أرزى وشرى
يركب الهول وحيداً ولا يصـ
وفئتو هجرؤا ثم أسروا
- ١٥- كل ماضٍ قد تردى بماضٍ
فاحتسوا أنفاس نوم فلما
فلن فلت هذيل شباه
- ١٨- وبما أبركهم فى مناخ
صلبت منى هذيل بخرق
ينهل الصعدة حتى إذا ما
- ٢١- تضحك الضبع لقتلى هذيل
وعتاق الطير تهفو بطاناً
حلت الخمر وكانت حراما
- ٢٤- فاسقنيها ياسواد بن عمرو
وكلا الطعين قد ذاق كل
حبه إلا اليماني الأفل
ليلهم حتى إذا انجاب حلؤا
كسنا البرق إذا ما يسئل
ثملاوا رعثهم فاشمعلوا
لما كان هذيلاً يقول
جعجع ينقب فيه الأظـ
لا يمل الشر حتى يملؤا
نهلت كان لها منه كمل
وترى الذئب لها يستهل
تخطاهم فاستقل
وبلاى ما ألمت تحيل
إن جسمى بعد خالى لخل

تنسب هذه القصيدة لتأبط شراً ، كما فى « حماسة » أبى تمام وقال المرزوق
فى شرح « الحماسة » : وذكر أنه لخلف الأحمر ، وهو الصحيح ج ٢
ص ٨٢٧ ؛ وقال بمثل هذا التبريزى فى شرح الحماسة وزاد : وقيل : « قال
ابن أخت تأبط شرا . قال النمرى : وما يدل على أنها لخلف الأحمر قوله
فيها : « جل حتى دق فيه الأجل » - فإن الأعرابي لا يكاد يتغلغل إلى
مثل هذا . قال أبو محمد الأعرابي : هذا موضع المثل : ليس بعشاك فادرجى !
ليس هذا كما ذكره ، بل الأعرابي قد يتغلغل إلى أدق من هذا لفظاً ومعنى .
وليس من هذه الجهة عُرِف أن الشعر مصنوع ، لكن من الوجه الذى
ذكره لنا أبو الندى ، قال : مما يدل على أن هذا الشعر . ولقد أنه ذكر

فيه «سُلعاً» وهو بالمدينة ، وأين تأبط شراً من سُلْع ! وإنما قُتِلَ في بلاد هذيل ، ورُمِيَ به في غار يقال له رخمان .

وقد وردت هذه القصيدة أيضاً في «العقد الفريد» (ج ٣ ص ٢٩٨ — ٣٠٠) مع اختلاف في الرواية وزيادة بعض أبيات .

الشرح

١ — الشعب : ما انفرج بين جبلين . السَّلْع (بفتح السين وكسرهما) : شقٌّ في الجبل . الكل : مَطْلُ الدم والدية وإبطاهما .

٢ — العباء : طلب دم القتل . مستقل : ناهض .

٣ — المَصِيع : الشديد المقاتلة ، الثابت في القتال .

٤ — الرشع : العرق والنفث . الصَّل : من صفة الأفعى ، ويوصف به الداهية . شبه نفسه في إطراره وسكونه ، فتتنظر القرصة لإدراك الثأر ، بالحية إذا أطرقت نفثت بالسم .

٥ — مصمئل : شديد . والخبر هو نعي المتوفى هنا .

٦ — بزنى الدهر : غلبنى واستلبنى . الغشوم : الظالم القاهر .

٧ — شامس في القمر : وصفه بأنه كان ينتفع به في كل حال وزمان ، وأنه كان غيائاً للناس في السراء والضراء ، فكان الشمس عند البرد ، والظل عند الحر . ذكا : اتقد . ونوء الشعري يحىء بشدة الحر . فقوله : ذكت الشعري : أى إذا اشتد الحر .

٨ — يابس ... : أى يوتر بأنداد غيره على نفسه . ندى الكفين : سخی . المدل : واثق بنفسه . الشهم : الذكى الحديد .

٩ — وصفه بأنه يستعمل الحزم ظاعناً كان أو مقيماً .

١٠ - يريد أن يبلغ في الإحسان أقصى الغايات ، وعند السطوة على الأعداء يصير كالليث الكثير الإفساد ، الشديد النكاية . والسطو : البسط على الإنسان تفهروهم من فوق . الأبل : الفاجر المصمم الماضي على وجهه ، لا يبالي ما لى .

١١ - يقول في إنه الحى - إيان السلام - يسبل لزاره خيلاء وكبراً ، ويتبختر - ذاهباً في الترفه إلى أرفع الدرجات ، وإذا غزا كان كالسميع - وهو الولد بن الذئب والضبع - وهو أخبث السباع وأعداها . والأزل : الخفيف العجز .

١٢ - الأرى : العسل . الشرى : الحنظل . يقول : إنه للموالين كالأرى ، وللمعادين كالشرى ، وكلا الطعمين قد ذاق كل ، أى أن كل واحد من الطعمين قد ذاقه كل واحد من فريقى الأعداء والأولياء . ومفعول « ذاق » : محلوف ، كأنه قال : قد ذاقه كل .

١٣ - أى لا يتكرر بالأصحاب إذ هم باقتحام أمر عظيم ، بل يتفرد فيه مستصحباً سيفه الأفل ، وهو الذى قد كثر قلوله من كثرة الاستعمال .

١٤ - فُتتو : جمع فتى . هجروا : ساروا في الهاجرة . أسرى : سار في الليل . انجاب : انكشف . يقول : وصلوا السير بالسرى ، فلما انكشف الظلام نزلوا .

١٥ - ماض : أى سائر في الغزو . بماض : أى بسيف حاد . يريد : كل واحد من هؤلاء الفتيان نافذ في الأعمال والغزوات ، وقد تقلد سيفاً نافذاً في الضربات ، وإذا انتزع من عمره بلغ التمتع برق .

١٦ - اشعلتوا : جدثوا في المضى . والمعنى أنهم ساروا يومهم وليلتهم ، وكل يرجع من نفسه وسلاحه إلى ما يرتضى ويعتد به ، ثم نزلوا وهوتموا وناموا نومة خفيفة مثل حسو الطير للماء القليل ، وتمشت في

يقظتهم بقدر ديبها في عروقهم ، ومزاوتها لسكونهم ، فلما صاروا منها كالسكارى نهتهم إلى الارتحال ، فخفضوا وأطاعوا :

١٧ — الشبابة : حدث الشيء . يقول : إن كانت هذيل قد تمكنت منه فكسرت حدثه ، فهو بما كان يؤثر من قبل في هذيل فيطأ حريمها ، ويكثر قتلها . أى هذا الذى فعلته به هو عيوض عما فعله بها : فهذا بذلك .

١٨ — الجمع : منأخ سوء ، وهو الأرض الغليظة . الأظْلُ : باطن خُفِّ البعير . ينقب : يتحنى . يقصد : وبما كان ينال منهم ويحملهم فيه على المراكب الصعبة ، وينزلهم له بالمنازل الحزنة ، التى تؤثر في أنفسهم وأموالهم .

١٩ — الخِرْق والخِرْيَق : السخى ، وقيل : الفقى الحسن الكريم الخليفة ، والجمع أخراق وخِرَاق وخُرُوق . يقْدِل : ابتليت هذيل من جهتي بكريم واسع الكرم مع الأولياء ، شديد النكر مع الأعداء ، لا يفتُر عن النكايه فيهم وعن الإغارة عليهم . حتى يملوا : أى حتى يملوه .

٢٠ — الصَّعْدَة : القناة تنبت مستوية . يُنْهَل : يسقى مرة بعد مرة . يقول : إنه يروى الروح من دماهم بالسقية الأولى ، ثم يعقبها بالثانية . والمقصود اتصال الوقعات والغارات .

٢١ — استعار الضحك للضيع ، والاستهلال للذئب . والاستهلال : الصباح . والمراد أنه لكثرة قتله في هذيل ترى الضيع فرحاً والذئب متهللاً صائحاً نظراً لما سيصيبانه من طعام من هؤلاء القتلى .

٢٢ — العتاق هنا : آكلة اللحوم التى تعاف الجيف . وقوله : «تهفوطانا» أى أنها انتفخت حواصلها فثقلت ؛ فإذا طارت تخطتهم في الطيران فلا ترتفع في الجو ، يل تسِفُ لثقلها . بَطَان : جمع بطين . تهفو : تطير .

٢٣ — كانت من عادتهم أن يحرّموا الخمر على أنفسهم إذا قتل لهم

تقتل حتى يدركوا ثأره . يقول : أدركتُ الثأر ، فحلت الخمر بعد أن كانت مُجَرَّمةً بالندُر على . بلائى : بعد جهد . يريد : وبعد جهد صارت حلالاً .

٢٤ - خبل : مهزول . أظهر النشئ بما ناله من الأعداء حتى دعا من خاطبه إلى ما كان يتشوقه من سقيه له ، وأظهر التوجع لفقده خاله .

راجع « شرح ديوان الحماسة للمرزوقى » ج ٢ ص ٨٢٧ - ٨٣٩ . القاهرة سنة ١٩٥٢ .

ويكنى القليل من الملاحظات لإيضاح هذه القصيدة . فعظمة الخُلُق ، والصرامة ، والقسوة المشروعة للفعل هى عصب هذا الشعر . والمقطوعتان (١) الأوليان تقدم عَرَضاً واضحاً ، وفى الثالثة والرابعة يتكلم الموت ويفرض على قريبه (ابن أخته) واجب الثأر له . والخامسة والسادسة ترتبطان من حيث المعنى بالأولى ، وتعطى تصويراً غنائياً ؛ ومن السابعة حتى الثالثة عشرة نجد تمجيداً للميت لإبراز عظمة الخسارة وفداحتها ؛ ومن الرابعة عشرة حتى السابعة عشرة وصف الغارة على الأعداء ؛ والثامنة عشرة ترجع بنا القهقرى ؛ والتاسعة عشرة والعشرون يمكن أن توضع مباشرة بعد الأولى . والحادية والعشرون والثانية والعشرون يمكن أن توضع بعد السابعة عشرة ؛ ثم تأتى النشوة والمتعة فى مآدبة النصر ؛ وكخاتمة نجد الالفة المروعة لرؤية الأعداء قتلى فرائس للضباع والذئاب .

وأروع ما فى هذه القصيدة فى نظرنا هو أن الثر الخالص للفعل يصير شعرياً بواسطة نقل مختلف الحوادث . ولهذا السبب أيضاً لأنها تكاد تخلو خلواً تاماً من كل تزويق خارجي ، فإن جلال القصيدة يزداد ، ومن يقرأها وهو يضع نفسه فى الموقف ، لابد أنه سيرى الحادث نفسه ، من البداية حتى النهاية ، ينمو شيئاً فشيئاً أمام خياله .

(١) قم جيته ترجمته إلى مقطوعات كل منها من أربع أسطر أو أبيات ، وجلتها ٢٨ مقطوعة رباعية .

انتقال

ولو وجهنا أنظارنا الآن إلى شعب هادئ متمدين ، هو شعب الفُرس ، فيبغى علينا ، ما دام شعرهم كان في الحق فرصة لهذا العمل ، أن نصّاعده إلى أقدم العصور ، حتى نستطيع أن نفهم العصور الحديثة . وسيكون دائماً موضوع دهشة للمؤرخ أنه ، حتى لو أن بلداً غزاه أعداؤه عدة مرات ، وأخضعوه بل وأبادوه ، فإنه مع ذلك تبقى نواة الأمة لها خصائصها ، حتى إن خصائص قومية كانت معروفة منذ زمان طويل تظهر من جديد بشكل فجائي .

وبهذا المعنى ، سيلد للقارئ أن يسمع أنباء الفرس الأقدمين حتى نستطيع الانتقال بقدوم ثابتة حرة حتى يوم الناس هذا .

قدماء الفرس

إن العبادة الإلهية عند قدماء الفرس كانت تقوم على تأمل الطبيعة ؛ لقد كانوا يتوجهون ، حين يعبدون الخالق ، إلى الشمس المشرقة ، بوصفها أكثر التجليات روعة وإدهاشاً . لقد رأوا فيها عرش الله محاطاً بملائكة لمائة . وكان كل واحد منهم ؛ حتى أبسطهم منزلة ، يستطيع أن يشارك يومياً في الهاء الماجد لهذه العبادة السامية . فالفقير كان يخرج من كوخه ، والمحارب من خيمته ، وبهذا كان يتم أكثر الأعمال الدينية تُقى وورعاً . وكان يبارك على الطقل المولود ببركة النار في هذه الأشعة اللامعة . وطوال اليوم كله ، وطوال العمر ، كان الفارسي يشعر بأنه مصحوب في كل أفعاله بالكوكب العظيم الأصيل . والقمر والنجوم كانت تضيء الليل ، وهي كانت بعيدة المدى تنسب إلى الالمحدود . والنار ، مع ذلك ، موجودة إلى جوارهم ، تضيء وتدفئ ، وفقاً لقوتها . وأداء الصلاة في حضرة هذا الممثل للألوهية ،

والركوع أمام من تُشعرُ بلانهايته بصير واجباً دينياً ممتعا . ولا شيء أظهر من شروق الشمس في يوم صاف ، وينبغي إشعال ومعالجة النيران بنفس الطهارة إذا كان يراد أن تكون وأن تظل مقدسة وشبيهة بالشمس .

ويظهر أن زرادشت كان أول من حول هذا الدين النبيل الطاهر الطبيعي إلى عبادة ذات طقوس . والصلاة بالذكر الذي يشمل ويستعبد كل الأديان ولا ينفذ في الوجود كله إلا لدى عدد قليل من الناس الذين خصهم الله بعنائه ، لا تنمو عند الغالبية إلا كشعور مؤقت بالحمية والهناء ، وبعد زواله ، يعود الإنسان إلى نفسه غير راض وخالياً من العمل ، ويرجع في الحال إلى الملل الذي لا نهاية له .

وملء هذا الفراغ بالمراسم والطقوس والابتهالات ، والذهاب والمجيء ، والركعات والسجادات - هذا هو واجب وامتيان طائفة الكهنوت التي تمارس مهنتها منذئذ ، طوال العصور ، موسعة في التفاصيل والجزئيات إلى غير حد . والذي يستطيع أن يشمل بنظرة سريعة التطور الممتد من العبادة الساذجة الأولى للشمس المشرقة حتى مغاليات الجبره كما لا تزال تمارس حتى اليوم في الهند ، سيرى من ناحية أمة فتية تهزّ النوم كي تذهب للقاء اليوم الجديد ، ومن ناحية أخرى شعباً متبلداً يسعى لقتل الملل المعتاد بالملل التي .

ومن المهم مع ذلك أن نلاحظ أن قدماء الفرس لم يقتصروا على عبادة النار ، فإن ديانتهم تقوم حتماً على مكانة كل العناصر ، من حيث تعلن عن وجود الله وقابريته . ومن هنا تورعهم المقدس من تدنيس الماء والهواء والتراب . وهذا التوقير لكل الأشياء الطبيعية التي تحيط بالإنسان يتوود إلى كل الفضائل المدنية : فالانتباه ، والطهارة ، والاجتهاد تشجع وتنمى . وعلى أساسه أيضاً تقوم فلاحه الأرض ؛ فكما أنهم لا يبدنسون أبداً نهراً ، كذلك كانت القنوات التي يجرهاها توفّر الرخاء للبلاد ، يُعنى بها ويحافظ

على نقائها ويدّخر ماؤها باهتمام ؛ حتى إن فلاحة المملكة كانت آنذاك أوسع مساحة بمرتين مما هي اليوم . وكل الأعمال التي تبسم لها الشمس كانت تمارس بكل اجتهاد ؛ وعلى وجه التخصيص الكروم ، وهي أعز نبات الشمس ، كانت تزرع بعناية فائقة .

والطريقة الغربية التي بها كانوا يدفنون موتاهم ناشئة عن هذا الاهتمام المغالى بعدم تدنيس العناصر الطاهرة . وتنظيم المدينة كان يستمد أيضاً من هذه القواعد ، فنظافة الشارع كانت من أمور الدين ؛ وحتى اليوم ، حيث الجبره منفيون ، مطرودون ، محتقرون ، ولا يمكن أن يجدوا مأوى إلاّ في الضواحي والأحياء البائسة ، فإن الميت الذي يتبع هذا الدين يترك مبلغاً من المال من أجل أن ينظف أحد الشوارع فوراً تنظيفاً تاماً . وبفضل هذا التدبير العملي الحىّ أمكن قيام هذا الإسكان الذي شهد عليه التاريخ أنه لا نظير له .

وهذا الدين الدقيق ، القائم على حضور الله في كل أعماله في العالم المحسوس ، لا بد أن يكون له تأثير خاص في الأخلاق والعادات .

ويكفى المرء أن يتأمل في الأوامر والنواهي الرئيسية : لا تكذب ، لا تستدن ، لا تكن جاحداً للجميل ! والأخلاق والزاهد يفسّران بسهولة هذه الخصوبة في هذه المذاهب ، لأن النهى الأول يتضمن النهين الثانى والثالث ، وكذلك سائرهما ، مما لا ينطبق ، حقاً ، إلاّ على الكذب وعدم الأمانة ؛ ولهذا فإن في الشرق لا يشار إلى الشيطان إلا بوصفه الكذاب الأبدي .

ولما كان هذا الدين يقود ، مع ذلك ، إلى التأمل ، فإنه من الممكن أن يودى بسهولة إلى الرخاوة ، ولهذا فإن لبس الملابس الطويلة الفضفاضة يبدو أنه يؤذن بشيء من الرخاوة . لكن لوحظ في عاداتهم ونظمهم رد

جعل قوى . وكانوا يحملون السلاح في السلام وفي حياة الجماعة ، ويتقدمون بآلاف الطرق على استعماله . وكان من التقاليد عندهم الفروسية البارعة الشديدة العنيفة ؛ وألعابهم هي الأخرى ، مثل تلك التي تمارس بالصوالج والمضارب في ساحات واسعة ، حافظت على قوتهم وصلابتهم وخفتهم ؛ وكانوا يجتهدون تجنيداً لا رحمة فيه ولا هوادة ، مما كان يجعلهم أبطالاً لدى أول إشارة من ملكهم .

ولنلق مرة أخرى نظرة على فكرتهم عن الله : في البداية كانت العبادة العامة تقتصر على عدد قليل من النيران ، فكانت بذلك أكثر مهابة واحتراما ؛ وبعد ذلك تكاثرت كهنوت ضخمة تزايد شيئاً فشيئاً ، وفي نفس الوقت تكاثرت النيران . أما أن هذه القوة الكهنوتية الوثيقة الاتحاد قد ثارت في بعض الظروف على السلطة المدنية ؛ فهذا أمر طبيعي في هذه العلاقات غير المتوافقة فيما بينها . ففضلاً عن أن سمرديس^(١) الكاذب ، الذي استولى ذات يوم على الملك ، كان من رجال الكهنوت الجوس ، وقد نصبه على العرش وأيده مدة من الزمان زملاؤه من الكهنة ، فإننا نشاهد أن الجوس يصبحون في مرات عديدة بمصدر خطر يخيف على الملوك .

ثم شتتهم الإسكندر الأكبر ، ونحاهم خلفاؤه والملوك^(٢) البارتيون ، ورفع شأنهم ولم شملهم الساسانيون ، لكنهم كانوا دائماً صلاباً في مبادئهم

(١) سمرديس : مجوسى ، ادعى زوراً أنه أخو قمبيز (٥٢٤ - ٥٢٢ ق . م) ملك الفرس ، وادعى العرش بعد موته مدة طويلة ، إلى أن أسقطه عن العرش دارا هو سطاسب ، الوريث الحقيقي للعرش .

(٢) وهم المعروفون في الكتب العربية بـ « الأشكانية » (والأصح الأرشكانته نسبة إلى أرشك Arsak) وقولوا بعد الساقين ، وأنشأ دولتهم أولئك سنة ٢٥٥ ق . م وقد شملت إمبراطوريتهم : ما بين النهرين ، وبابل ، وميديا ، وأرتوباتين ، والسوس ، وفارس ، وهورقانيا واستمرت حتى سنة ٢٢٦ بعد الميلاد ، حين حل محلها الساسانيون الذين استمرت دولتهم ٤٢٦ سنة حتى سنة ٦٥٢ حين قضى عليها الإسلام نهائياً .

يقاومون الحاكم الذى يعاكرهم . فهم مثلاً عملوا على إفساد الزواج بين
خسرو وشيرين الجميلة التى كانت مسيحية .

وأخيراً نفاهم العرب إلى غير رجعة ، فطردوهم إلى بلاد الهند ومن
بقى منهم فى فارس أهينوا وأسبغت معاملتهم حتى اليوم ، مرة "يتسامح معهم"،
ومرة أخرى يضطهدون وفقاً لهوى الحكام ، فإلهم حافظوا على ديانتهم
هنا وهناك فى صفاتها الأولى ، حتى فى الزوايا البائسة ، كما حاول الشاعر
أن يعبر عن ذلك فى « وصية الهارسي العجوز » .

أما أن هذه الديانة قد أدت خدمات كبيرة إطول زمان طويل ، وأنه
كان فيها إمكان حضارة عالية انتشرت فى القسم الغربى من العالم الشرقى ،
فهذا أمر لا سبيل إلى الشك فيه . ومن الحق أنه من الصعب جداً أن نفسّر
كيف انتشرت هذه الحضارة ومن أين . وكثير من المدن انتشرت فى
مناطق عديدة كمراكز حيوية ، وما هو أعجب فى نظرى ، هو أن الجوار
المدمر للوثنية الهندوكية لم يؤثر فيها . ومن المدهش أنه لما كانت مدينة
بلخ قريبة جداً من مدينة بميان ، فقد شوهت هنا صنع وعبادة أبشع
أوثان العظمة الهائلة ، بينما هناك حفوظ على معابد النار الطاهرة ، ونشأ
الجمهور الكبير من الموبدان فى معابد هذه الديانة . ويشهد الناس
العجبيون الذين نشأوا هناك على امتياز هذه المنشآت . ومن الشواهد
على ذلك أسرة البرامكة التى لمعت وقتاً طويلاً كمخادمين أقوياء فى
دولة الخلافة إلى أن أبيدوا أو نفوا ، كما وقع أيضاً فى هذه الأيام لأسرة
تكاد تشبهها^(١) .

(١) لا يدري على وجه التحديد إلى أية أسرة يشير جيت هنا . ودوتسر يظن أن المقصود
هو أسرة دوجوروسكى .

الحكومة

بينما الفيلسوف يشيّد بفضل المبادئ قانوناً طبيعياً ، وقانوناً دولياً ، وقانوناً عاماً ، فإن صاحب التاريخ يدرس كيف كانت في كل الأزمان هذه العلاقات وهذه التجمعات الإنسانية . ونحن نجد في أقدم عصور الشرق أن كل سيادة مستمد من حق إعلان الحرب . وهذا الحق ، شأنه شأن الباقى ، يقوم أولاً على الإرادة وعلى الوجدانات التى لهذا الشعب . فإذا أصيب عضو فى القبيلة ، هب فى الحال المجموع للانتقام من المعتدى . لكن لما كانت الكثرة يمكن أن تفعل جيداً لكنها لا يمكن أن تنقاد إقراً حسناً ، فإنها تنقل بالانتخاب ، أو العرف أو التقليد ، إلى حاكم واحد حتى الاقتياد إلى المعركة ، إما بالنسبة إلى حملة حرية واحدة ، أو بالنسبة إلى عدة حملات ؛ وهى تكل هذه المهمة الخطيرة إلى هذا الرجل الباسل طوال حياته وفى النهاية تنقلها من غير شك إلى نريته . وهكذا فإن الزعيم يزود نفسه ، بفضل استعدادة لقيادة الحرب ، بحق إعلان الحرب .

ومن هنا السلطة فى دعوة كل مواطن قادر على حمل السلاح وانتقال - إلى حمل السلاح وإرغامه على ذلك . وهذا التجنيد حتى يمكن أن يكون عادلاً وفعّالاً ، كان عليه فى كل وقت أن يبدو صارماً لا رحمة فيه . وداراً الأول حمل السلاح ضد جيرانه المشكوك فيهم ، وإذا بشعب لا حصر له يلبى نداءه . رجل عجوز يسلم ثلاثة من أولاده ، ويلتمس إغفاء الأصغر من الحملة ، وإذا بالملك يعيد إليه ابنه مقطوعاً إرباً إرباً . وهكذا تكون حق الحياة والموت . وفى المعركة لا يسأل ، أولاً يحدث أن فرقة بأكلها يَضْحَتِ بها فى غير فائدة ، لجرد الهوى أو سوء التقدير ، دون أن يحاسب أحدُ الفائتة على ذلك ؟

وفى الدول الحربية ، تستمر هذه الحالة خلال فترات السلام القصيرة .

فحول الملك تقوم الحرب دائماً وفي البلاط لا أحد يشعر بالأمان على حياته ؛ كذلك يستمرون في جباية الضرائب التي جعلتها الحرب ضرورية . ولهذا فإن داراً قدُئِمان فرض ، من باب الاحتياط ، ضرائب منتظمة هداً من الهبات الاختيارية . وبحسب هذه المبادئ وهذا النظام ارتفعت الملكية الفارسية إلى أعلى درجات القوة والرخاء ، لكنها مع ذلك تحطمت ضد بطولة أمة مجاورة ، صغيرة ، منقسمة على نفسها .

تاريخ

إن الفرس ، حين قام أمراء ممتازون فركزوا وحشدوا القوة المسلحة للبلاد وجعلوا مرونة الجماهير كبيرة إلى أعلى درجة ، فإنهم بدوا مخيفين حتى للشعوب البعيدين ، وبالأحرى للشعوب المجاورة .

وكلها انتصروا عليها ، اللهم إلا اليونان . إذ اتخذوا بعد فرقة ضد عدو كبير العدد ظل يعاود الغارة عليهم ، وأبدوا ، أعنى اليونانيين ، إخلاصاً منقطع النظير ، وهو فضيلة تضم في داخلها سائر الفضائل . وتحقق بهذا نوع من المهادنة ؛ حتى إنه اضمحلت قوة الفرس في الداخل بينما قام فيليب المقدوني واستطاع أن يؤسس دولة موحدة ، وأن يجمع كل اليونانيين من حوله ، وفي مقابل الحرية الداخلية التي فقدوها ، أعد انتصارهم على المعتدى الأجنبي . وابنه (الاسكندر) أخضع الفرس واستولى على الإمبراطورية :

لقد كان الفرس ليس فقط مصدر خوف شديد للأمة اليونانية ؛ بل وأيضاً مكروهين جداً لأنهم حاربوا ليس فقط الدولة ، بل وأيضاً ديانتها . لقد تعود الفرس على دين فيه تعبد نجوم السماء ، والنار ، والعناصر في الهواء الطلق بوصفها كائنات شبيهة بالآلهة ، فوجدوا أن من العيب جداً أن يحبس الآلهة في مساكن وأن يُعبدوا تحت سقف . ولهذا أحرقوا وهدموا المعابد ،

وهذا أثاروا كراهية شديدة في نفوس اليونانيين ، لأن اليونانيين ، بحكمهم .
قرروا ألا يرموا هذه الأطلال ، بل يدعونها كما هي كي تكون بواعث
تحريض على الانتقام في المستقبل : وهذه الذحول التي عاناها اليونانيون
حملوها معهم إلى بلاد الفرس كي ينتقموا بعبادتهم التي أهينت ؛ وهذا يفسر
الكثير من ألوان القسوة ؛ بل يبرّر بهذا أحيانا إحراق پرسپولیس .

وطقوس المجوس ، وكانت في الحق قد ابتعدت تماما عن بساطتها
الأولى وصارت في حاجة إلى معابد وخانقاهات ، قد ألغيت هي الأخرى ،
وطرد المجوس وشئتوا ؛ بيد أن الكثيرين منهم كانوا مع ذلك يتجمعون سرا
ليحافظوا على بقاء مشاعرهم وعاداتهم ، انتظارا لظروف أفضل . ولقد
طالما امتحن صبرهم : ذلك أنه عند موت الإسكندر تبدد سلاطانه الشخصي
القصير العمر ، وتناثرت إمبراطوريته ، واستولى البارتيون على المنطقة التي
تهمنا بوجه خاص هنا . وصارت اللغة ، والأين والدين مألوفاً لديهم .
وهكذا انقضت خمسمية سنة على رماد المعابد القديمة والمذابح ، لكن
النار المقدسة ظلت حبيسة تحت هذا الرماد ؛ حتى إن الساسانيين ، في بداية
القرن الثالث الميلادي ، لما أعادوا الدين القديم من جديد وأعادوا العبادة
القديمة ، فإنهم سرعان ما وجدوا جمهرة من المجوس والموبدان ، كانوا قد
حافظوا على أنفسهم على طول ووراء حدود الهند ، وتجملوا سرا ،
وحافظوا على عباداتهم . وعادت اللغة الفارسية القديمة ، ونبتت اللغة
اليونانية ، ومن جديد وضعت أسس قومية حقيقية . ومنذئذ ونحن نجد هاهنا ،
في مدى أربعمئة سنة ، ما قبل التاريخ الأسطوري لفارس قد حوفظ عليه إلى
حد ما خلال ذكريات بالنثر الشعري . وهذا الأصل اللامع لا يزال
يسحرنا ، وتنوع الأشخاص والحوادث يثير اهتماما حيا .

لكن كل ما نعرفه عن تماثيل وعمار هذا العصر يدلنا على أنه لم يكن

ينشد غير الآلهة والعظمة ، والفخامة والضمخامة ، والهائل الخالي من الشكل ، وكيف يكون الحال غير هذا ، وقد كان عليه أن يستمد منه من الغرب ، وقد كان الغرب قد انحط فعلا ؟ والشاعر (جيتيه) يملك حاقة ختم^(١) لسابور الأول من حجر الاونكس الذى نحتته من غير شك فنان غربي من ذلك العصر ، وربما كان أسير حرب . وأنى لناحت خواتم الساسانيين الظافرين أن يكون أبرع ممن حفر قالريان المهزوم ؟ أما عن شكل النقود فى ذلك العصر ، فإنه معروف لنا كل المعرفة مع الأسف . وكذلك العصر الشعرى والخيالى فى المشيدات فى ذلك العصر قد انحط شيئا فشيئا ، بفضل مجهودات اللدواقة ، حتى بلغ مرتبة النثر التاريخى . وهكذا نرى بوضوح ، فى هذا المثال ، كيف أن شعبا يمكن أن يصل إلى مستوى أخلاقى ودينى مرتفع ، ومحيط نفسه بالآلهة والترف ، لكنه ينبغي أن يعد ، فيما يتعلق بالفنون ، فى عداد الشعوب المتبربرة .

كذلك ينبغي علينا أيضا ، إذا شئنا أن نقدر الشعر الشرقى والفارسى بخاصة ، حق قدره فى العصر التالى ، وألا نبالغ فى تقديره من أجل أشخاصنا وأمهاتنا ؛ أن نفحص بعناية شديدة أين يمكن أن نجد فى هذه الأيام الشعر الجميل الصادق .

ويبدو أنه لم يأت من الغرب شيء كثير فقيده ، حتى ولا فى الشرق الأدنى ؛ لقد كانت العيون مركزة خصوصا على الهند ، ولما كان عباد النار والعناصر لا يمكنهم أن يقبلوا ذيباً عجيبا بدرجة جنوبية ، ولا أن يقصر الناس فى الحياة العملية على فلسفة مجردة ، فإنهم لم يستعبروا من هذه الآلات (الهند) إلا ما هو مقبول عن كل الناس ، أعنى الكتابات التى تتعلق بالملكة العملية ؛ ولهذا اهتم اهتماماً بالغاً بحكايات بيدبا ، وكان هذا كافياً ، للقضاء التام على كل شعر مستقبل . كذلك استعاروا من نفس المصدر (الهند) لعبة الشطرنج ، وتأثيرها من شأنه أن يقضى على كل عاطفة شعرية ،

(١) لا يزال هذا الخاتم موجودا فى جموعة جيتيه

يلضافتها إلى تلك الحكمة العملية : فإذا بدأنا من هذه الاعتبارات ، فإنه ينبغي علينا أن نظرى كثيراً ونمجد قريحة الشعراء الفرس المتأخرين ، متى ما ألهمتهم ظروف سعيدة موأنية ، وأن نعجب كيف قاوموا ظروفًا غير موأنية ، أو تجنبوها أو حتى تغلبوا عليها .

والقرب من بزنطة ، والحروب مع أباطرة الغرب ، والعلاقات المتبادلة التى نشأت عن ذلك ، أدت فى النهاية إلى مزيج بفضلله أمكن للديانة المسيحية أن تتسلل فى داخل ديانة الفرس القديمة ، رغم مقاومة الموبدان وسائر الساهرين على الإيمان المجوس . وهكذا فإن المتاعب العديدة ، بل الشقاء الأكبر الذى أصاب الأمير الجليل خسرو أبرويز إنما مرده وسببه الوحيد هو أن الأميرة اللطيفة الفاتنة شيرين بقيت مخلصه للديانة المسيحية .

وكل هذا ، حتى لو نظر إليه نظرة سطحية ، يحملنا على الإقرار بأن المبادئ ومناهج العمل عند الساسانيين تستحق كل مديح ؛ لكنها لم تكن من القوة بحيث تحافظ على نفسها ضد الأعداء الذين أحذقوا بها وفى عصر بلغ هذا المبلغ من الاضطراب . وبعد مقاومة شديدة أخضعهم العرب الذين وحدهم محمد [صلعم] وبهذا رفعهم إلى أعلى درجات القوة .

محمد

لما كنّا فى تأملاتنا هذه نبدأ من وجهة النظر الشعرية أو على الأقل نعود إليها ، فإن مما يتفق مع غرضنا أن نبدأ بأن نذكر عن هذا الرجل العظيم الخارق للعادة أنه — كما قال هو عن نفسه وأكّد بكل قوة — نبىّ وليس شاعراً ، وتبعاً لذلك أن القرآن يجب أن يعدّ قانوناً إلهياً ، لا كتاباً إنسانياً كتّيب من أجل التعليم أو الإمتاع . فلذا سعينا الآن فى تحديد الفارق بين الشاعر والنبى ، قلنا إن كليهما يلهمه الله ويرعاه ، لكن الشاعر يتبدد الهبة التى وهبها له فى متّع ، لإحداث إمتاع ، ولكى يحصل بإنتاجه على المجد أو فى

القليل على حياة ميسرة . وبهمل سائر الأغراض ، ويحاول أن يكون متنوعاً ، وأن يظهر أنه معين لا ينضب في أوصاف النفوس والطبيعة . وعلى العكس النبي لا يستهدف غير غرض محدد ؛ وللوصول إليه يستخدم أبسط الطرق . إنه يريد أن يعلن مذهباً ، وأن يجمع حوله وله الشعوب كأنها تجتمع تحت لواء واحد . ومن أجل هذا يكفي أن يؤمن العالم ؛ ومن هنا إذن يجب أن يكون وأن يظل على نبرة واحدة ، لأن المرء لا يؤمن بالتنوع ، بل يدركه إدراكاً .

وكل مضمون القرآن ، ابتغاء التعبير عن الكثير بكلمات قليلة ، موجود في بداية السورة الثانية ، وهالك نصها : « ذاك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، وبالأخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون * إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة » ، ولهم عذاب عظيم .

وهكذا يكرر القرآن هذا المعنى ، سورة بعد سورة . والإيمان والكفر يتوزعان العالم الأعلى والعالم الأدنى . والجنة والنار : إما للمؤمنين أو للكافرين . وفي القرآن تحديد للأوامر والنواهي ، عن الديانة اليهودية والمسيحية ، وفصول مختلفة ، وآيات متكررة تؤدي نفس المعاني ، وتؤلف هذا كله مضمون هذا الكتاب المقدس ، الذي نشعر في كل مرة نتناوله فيها بشعور من النفور في أول الأمر ، ما يلبث أن يتلوه لإقبال وانجذاب وإعجاب ، وفي النهاية يفرض علينا توقيره واحترامه .

لكن السبب الذي يجعل القرآن على أكبر درجة من الأهمية في نظر المؤرخ نستطيع أن نعتبر عنه بهذه العبارات التي قالها علم ممتاز : « يلوح أن

الهدف الاساسى للقرآن هو ضم أتباع الأديان الثلاثة السائدة آنذاك فى بلاد العرب الآلهة بالسكان ، وكانوا مختلطين بعضهم ببعض فى الغالب ، ويعيشون يوماً بيوم ، ويتجولون حسبما اتفق بغير راع ولا دليل : لأن الغالبية كانوا من الوثنيين ، والآخرين - من يهود أو نصارى - كانت معتقداتهم خاطئة ومبتدعة . وكان على القرآن أن يوحدهم جميعاً فى معرفة وعبادة الله الواحد الأحد الصمد الذى لا تراه الأبصار ، والذى خلق كل شىء بقدرته البالغة ويمكن أن يخلق ما لم يوجد بعد ، الله سبحانه وتعالى ، الحاكم الأعلى ، الذى يفصل بين الناس ، ربّ الأرباب ، وهذه العقيدة ، بتوكيدها لبعض الشراح وبالعلاقات الخارجية لبعض الشعائر : التى وضع بعضها من قديم ، والبعض الآخر أحدث ، وتجاوزى بتمثيل العقاب والثواب الوقتيين أو الأبديين ، نقول إنها بهذا قد دعتهم جميعاً إلى اتباع محمد النبي المرسل من الله ، الذى نشر ونصر على الأرض دين الله الحق ، بعد النذر المتوالية والوعد والوعيد فى العصور السابقة ، ونصر هذا الدين بقوة السلاح ، حتى يكون الإمام الأكبر والمرجع فى الأمور الروحية والزعيم الأعلى أيضاً فى الأمور الدنيوية» (١) .

فإن وضعنا هذه الأمور نُصّب أعيننا ، لانبجذ غضاضة فى أن يسمى المسلم العصر السابق على محمد بعصر الجاهلية ، وأن يؤمن إيماناً جازماً أن النور والحكمة لم يبدأ إلاّ بالإسلام . وأسلوب القرآن يتفق مع مضمونه وغرضه : محكم ، سام ، يثير الدهشة ، وفى مواضع عديدة يبلغ قمة السمو حقاً . ولهذا ينبغى ألاّ يدهش أحدٌ من التأثير الهائل الذى لهذا الكتاب :

(١) هذا الكلام اقتبسه جيته من يعقوب جولويس (١٥٩٦ - ١٦٦٧) من الملحق الذى الذى ألحقه بنشرته لكتاب « النحو العربى » (باللاتينية) اتوماس ارپنس (١٥٨٤ - ١٦٢٤) . وقد وجد جيته فى الترجمة الألمانية للقرآن التى قام بها أرنوله ص ، ٧٩ وما يتلوها (طبعة سنة ١٧٤٦) ونقله حرفياً :

ولهذا فإن المؤمنين الصادقين يرون أنه قديم غير مخلوق سرمدى كالله ذاته :
ورغم ذلك فقد وجد بعض العقول الحسنة الذين أقرّوا بتفوق العصور القديمة
من ناحية الأسلوب والتأليف وزعموا أنه لو لم يشأ الله أن يوحى لمحمد بما
يشاؤه وبحضارة مثالية صارت شريعة ، فإن العرب كانوا سيرتفعون شيئاً
فشيئاً بأنفسهم إلى هذا المستوى وربما إلى مستوى أعلى ، وكانوا سينمّون
معانى أصنى بلغة أصنى .

وكان ثمّ آخرون ، أشدّ تهوراً وطيشاً ، زعموا أن محمداً أفسد لغتهم
وأدهم ، وأن هذا الأدب لن ينهض من هذه الكبوة أبداً . لكن أمعنهم في
الطيش والتهور كان شاعراً رفيع العبقرية بلغت به القحّة أنه زعم أنه يمكن أن
يقول خيراً مما قاله محمد ؛ بل انضم إليه بعض المبتدعة : ولهذا السبب
لمزوه بلقب « المتنبي » ، وبه عُرف ، ومعناه : من يدعى النبوة .

ولإذا صحّ أن النقد الإسلامى يجد في القرآن بعض الصعوبات — إذ
كانت تذكر آيات لا توجد في المصحف الآن ، كما أن بعض الآيات
تناقض وتنسخ البعض الآخر ، ولا يزال يلاحظ بعض الأمور الموجودة في
النقول المكتوبة — فإن هذا الكتاب سيظل مع ذلك ذا تأثير بالغ فعال جداً
إلى الأبد ، لأنه عمليٌّ في جوهره ويتلاءم تلاوئماً تاماً مع شعب يؤسس مجده
على تقاليده العريقة ويظل متمسكاً بعاداته الموروثة .

ومحمد في كراهيته للشعر ، يبدو لنا منطقياً تماماً ، لأنه يحرم كل نوع
من الخرافة . فالأعيب الخيال الخفيف الذى يتذبذب بين الواقع والمستحيل ،
ويصور غير المحتمل على أنه حقيقى لاشك فيه — كانت تتلاءم تماماً مع
الشهوية الشرقية ، وهدوئها الرخو وبطالتها الرخية . وهذه المبتدعات
الهوائية التى كانت تسبح على أساس من العجائب قد تكاثرت إلى غير حد ،
في زمان السامانيين ، كما يشهد على ذلك مثلاً « ألف ليلة وليلة » التى

يربطها خيط رفيع . وليلاحظ المرء كيف أن نقول « العهد القديم » وأعمال الأسر الآبائية ، التي تقوم في الحق هي الأخرى على أساس الإيمان الكامل بالله ، والطاعة المطلقة وبالتالي على الإسلام ، علي نحو ما ، — قد تحولت بواسطته إلى أساطير ، وكيف أنه يعمل على التعبير القوي دائماً عن الإيمان بالله والدعوة إليه بعبارات بارعة ، والثقة به ، والطاعة له ، مستبجاً لنفسه ، في تلك الأثناء ، بعض القسمات الخرافية التي يستخدمها دائماً مع ذلك لخدمة غاياته . ومن الأمور الجميلة حقاً أن نقرأ بهذه الروح ونقدر قصص نوح وإبراهيم ويوسف .

الخلفاء

ونعود إلى موضوعنا فنقول إن الساسانيين قد حكموا حوالى أربعائة عام ، وربما كانت آخره حكمهم ضعيفة السلطان قليلة الفخامة ؛ وكانوا سيستمرون مع ذلك بعض الزمن لو لم يتقدم سلطان العرب إلى حد جعل كل دولة قديمة عاجزة عن مقاومتهم . ففي عهد عمر ، بعد وفاة محمد بقليل ، انهارت تلك الدولة التي اتخذت الديانة الفارسية القديمة ونشرت مدنية ذات مستوى خليق بالإعجاب .

وحمل العرب على كل الكتب التي بدت في سيوهم مجرد كلام فارغ أو ضار ؛ ودمروا كل الأعمال الأدبية بحيث لم يبق لدينا غير شذرات قليلة . ومنع إدخال اللغة العربية مباشرة من إعادة كل ما يمكن أن يسمى بالعنصر للقوى . لكن من هذه الناحية أيضاً تغلبت مدنية المهزوم شيئاً فشيئاً على بداءة الظافر ، وأخذ الظافرون المسلمون يستمتعون بالترف ، والعادات الأنيقة والبقايا الشعرية التي لدى المقهورين . ولهذا لا يزال يعد من أزهى العصور ذلك العصر الذي كان للزمامكة فيه نفوذ في بغداد . والبرامكة أصلهم من بلخ ، ولم يكونوا من أهل العلم بقدر ما كانوا حماة يراعون الخانقاهات .

الكبيرة ومعاهد التعليم ، فحافظوا على النار المقدسة للشعر والفصاحة ، وبواسطة كلمتهم العملية وسمو مناقبهم تمكنوا من الظفر بمكانة رفيعة أيضاً في المجال السياسي . فعصر البرامكة يعني إذن مثال عصر الثقافة والنشاط المحلي الحى الذى إذا مضى رجى المرء في بعثه بعد سنوات عديدة في ظروف مشابهة .

لكن الخلافة أيضاً كانت قصيرة المدة : فإن هذه الإمبراطورية الشاسعة لم تستمر أكثر من أربعمئة سنة ؛ وقام الولاة في المواطن البعيدة فاستقلوا بولاياتهم شيئاً فشيئاً ، مع اعترافهم عند الحاجة بالخليفة بوضعه السلطة الروحية التى تمنح الألقاب والمنافع .

ملاحظة على هيئة انتقال

لا أحد ينكر التأثير الفزيائى الجوى (المناخى) على تطور الأجناس البشرية وصفاتها الجسمانية ، لكن لا يتصور المرء دائماً أن شكل الحكومة يحدث أيضاً جواً معنوياً تنمو فيه الأخلاق والطباع وتتطور بأشكال مختلفة . إننا لا نتكلم عن الجمهورية ، بل عن الشخصيات الممتازة ذات الأهمية .

في النظام الجمهورى تتكون أخلاق عظيمة ، سعيدة ، ذات نشاط هادئ وطاهر ، وإذا نمت الجمهورية فصارت أرستقراطية ، نشاهد ظهور أناس جديرين ، قادرين ، منطقيين مع أنفسهم ، راسخين راعين في القيادة وفي الطاعة معاً . وإذا وقعت الدولة في القوضى يظهر في الحال أناس جسورون مهورون ، يهزأون بالعادات ، ويعملون بعنف مفاجئ ، وينفون كل اعتدال على نحو مروّع . والطغيان ، في مقابل ذلك ، يخلق أخلاقاً كبيرة ، ونظرات شاملة عاقلة ومتزنة ، ونشاطاً محكماً ، وثباتاً ومثابرة ، وبالحملة كل الفضائل الضرورية لخدمة الطاغية تنمو بين النفوس تقادرة وتزودها بالمناصب الأولى في الدولة حيث يتعلمون فن القيادة .

وهذا ما حدث فى حكم الإسكندر الأكبر ، حتى إنه بعد موته السابق للأوان تبدى قواده كملوك . والخلفاء ، كونوا إمبراطورية شاسعة كان عليهم أن يكلوا إدارتها إلى ولاة زادت قوتهم واستقلالهم فى نفس الوقت الذى فيه تقلصت قوة الخلفاء . وسنتحدث الآن عن واحد من هؤلاء الرجال الممتازين ، استطاع أن يؤسس مملكة لنفسه استحقها بمجداة ، وبهذا نعرف كيف قام الأساس فى الشعر الفارسى الجديد ونعرف أوليات وجوده البارزة .

محمود الغزنوى

محمود الغزنوى كان أباه قد أسس فى الجبال القريبة من الهند دولة قوية بينما كان الخلفاء يضعفون حتى العجز فى سهل الفرات ، واستمر فى نشاط سلفه ، واشتهر شهرة الإسكندر أو فردريك . ولم يقر للخليفة إلا كنوع من السلطة الروحية ، يمكن إلى حد ما الإقرار بها من أجل مصلحته ؛ وقد بدأ بأن زاد فى دولته ، ثم غزا الهند بجيش عرمرم وأصاب النجاح تماما . كان مسلماً غيوراً على دينه ، لا يعرف الكلل ، صلباً فى نشر الدين وتحطيم الوثنية . والإيمان بالله الواحد يؤثر دائماً كمنبه للروح ، لأنه يرد الإنسان دائماً إلى وحدة ذاته . والأقرب إلينا هو النبى الوطنى الذى لا يقتضى غير الخضوع واحترام الشكليات ويأمر بنشر دين يدع المجال حراً لروح الفرقة بالنسبة إلى كل التفسيرات وسوء الفهم ، ويظل مع ذلك هو نفسه فى جوهره .

ومثل هذه الديانة الإلهية البسيطة لا بد أن تجمد نفسها فى تناقض عنيف مع الوثنية الهندية ، وأن تثير ضدها رد فعل وكفاحاً ، بل وحروباً دامية للإبادة ، خلالها كانت لذة التدمير وتحويل الدين تستشعر أشد وأقوى بفضل اقتناء كنوز هائلة . لقد حطمت أوثان هائلة غريبة وجد فى جوفها

ذهب كثير وجواهر وحلى ، وقطعت إلى قطع وأرسلت إلى أماكن عديدة لرصف عتبات الأماكن المقدسة الإسلامية . ولا تزال هذه الأوثان الهائلة الهندوكية كرهة المنتظر في نظر كل مشاهد مهذب الذوق ؛ فأى فزع تكون قد أحدثته في نفس كل مسلم يحرم كل صورة !

ولن يكون من غير المناسب أبداً أن نلاحظ أن القيمة الأصلية لكل دين لا يمكن أن تقدر إلا بعد قرون ، وذلك بحسب النتائج التي قد يؤدي إليها . فالديانة اليهودية ستنتشر دائماً نوعاً من العناد المتصلب ، لكنها في نفس الوقت تنشر روحاً حرة واعية ونشاطاً حياً ؛ والديانة الإسلامية لا تطلق أتباعها من عقلية محدودة مختلطة ، لأنها وهي لا تفرض عليهم فروضاً أليمة تسمح لهم ، داخل هذه الحدود ، بكل ما يمكنهم أن يتمنوه وفي نفس الوقت تغذى وتحافظ بما تقدمه من رجاء في المستقبل ، على الشجاعة والوطنية الدينية .

وديانة الهند لم تكن تساوى شيئاً منذ البداية ، وكذلك لا تساوى شيئاً اليوم ، بسبب آلاف وآلاف آلهتها غير الخاضعين بعضهم لبعض بل كلهم قادرون كل القدرة بالتساوى ؛ إنها لا تفعل إلا أن تزيد من اختلاط الصدف في الوجود ، وأن تنمى عدم معقولية الوجدانات وتشجع جنونات الرذيلة بتقدمها على أنها قمة القداسة والسعادة .

وحق الشُّرك الأصنى مثل شرك اليونان والرومان قد كان عليه أن ينتهى بالضللال في طريق سيئ هو وأتباعه . وبالعكس تستحق الديانة المسيحية أعلى مدح ، لأن أصلها الطاهر النبيل لا يكف عن أن يتأيد من حيث أنه ، بعد للضلالات الفظيعة التي يقودها إليها عى الناس ، فإنها لا تتوقف عن الظهور من جديد فجأة لجمل جمال طابعها الأوّلى ، على شكل بعثات تبشيرية ، وجماعات أنقياء ، وطرق دينية ، ابتغاء لإرضاء المطالب المعنوية للإنسانية .

فإن كنا نمدح غيرة محطّم الأصنام محمود الغزنوى ، فإننا نُسلّم له أيضاً عن طيب خاطر بالكنوز الهائلة التى ظفربها فى نفس الوقت ونعجد فيه خصوصاً تأسيس الشعر الفارسى ، وتأسيس ثقافة رفيعة ؛ لقد انحدر من أصل فارسى ، ولم يحصر نفسه فى نطاق أفكار العرب الضيقة ، لأنه أحسن أن خير أساس للدين يقوم فى القومية ؛ وهذه تقوم على الشعر الذى يستردّ أقدم التاريخ على شكل صور خرافية ، ثم ينبثق شيئاً فشيئاً للنور والوضوح ويربط هكذا الماضى بالحاضر بواسطة انتقالات غير محسوسة .

وهذه الاعتبارات تفضى بنا إذن إلى القرن العاشر الميلادى ؛ وليُلقِ المرءُ نظرة على الثقافة الرفيعة ، التى رغم التشرّد الدينى ، فرضت نفسها دائماً على الشرق . هنا احتشدت ضد إرادة الحكام البرابرة الضعاف ، بقايا العظمة اليونانية والرومانية وتراث كثير من النصارى البارعين الذين نبذت الكنيسة آراءهم الخاصة ، لأن الكنيسة ، شأنها شأن الإسلام ، كانت تعمل على توحيد الإيمان .

ومع ذلك فإن فرعين للمعرفة والعمل الإنسانين قد سَمَّوا إلى نشاط أكثر حرية !

لقد كان على الطب أن يشق آفات الكون الأصغر ، وعلى الفلك أن يفسّر الوعود أو التهديدات التى ستأتى بها السماء ، أحدهما كان عليه أن يكرّس نفسه للطبيعة ، والآخر للرياضيات ؛ وبهذا زُوِّد كلٌّ منهما وشجّع على نحو سخى .

بيد أن تسيير الأمور بقى مع ذلك دائماً فى أيدي أمراء 'طغاة' ، على الرغم من كل اهتمام ودقة الموظفين ، وهذا أمر خطير ، وكان على موظفى الديوان أن يتحلّى بقدر من الشجاعة وهو يذهب إلى الديوان مكافئ لما يحتاجه البطل من شجاعة ليذهب إلى ساعة المعركة ؛ ولم يكن أحدهما أشدّ يقيناً من الآخر فإنه سيعود إلى بيته .

والتجار الرحالة أتوا بالمزيد من الثروات والمعارف باستمرار ؛ وكان داخل البلاد ، من الفرات حتى السند ، يترأى للناظر عالما خاصا من الملاحظات ؛ كتلة من الشعوب في نزاع بعضها مع بعض ، ورؤساء مقهورون أو ظافرون ترى فيهم العين انتقالا مفاجئاً من النصر إلى العبودية ، من القوة الكاملة إلى الرق ، مما أوحى إلى أناس أذكىاء تأملات حزينة في الشؤون الإنسانية وكونها هشة كالأحلام .

ولا بد من نظرة تشمل هذا كله وأكثر منه ، ولا بد من السيطرة على الميدان الهائل من التشتت اللانهائي والاستردادات المفاجئة حتى يكون المرء عادلا في حكمه على شعراء العصر التالي ، وخصوصا الشعراء الفرس ؛ إذ من المتفق عليه أن الاضطرابات التي أتينا على ذكرها لا يمكن أن تكون عنصراً عليه يمكن الشاعر أن يتغذى وينمو ويزدهر . ولهذا نرجو أن يسمح لنا بأن ننتع بصفة الاحتمال الفضل العالي للشعراء الفرس في العصر الأول ، ولا يمكن أن نضيف إليهم أعلى مقياس ، وينبغي أن نضيف إليهم الكثير من الأشياء حين نفروهم وأن نغتفر لهم الكثير حين نكون قد قرأناهم .

ملك الشعراء

تجمع كثير من الشعراء في بلاد السلطان محمود ، ويقال إن عددهم بلغ الأربعمئة ، وتنافسوا في فهم هناك . ولما كان كل شيء في الشرق يجب أن يخضع ويتمثل لأوامر عليا ، فإن السلطان عُيِّن أميراً للشعراء يقوم بامتحانهم ، والحكم على إنتاجهم ، وتشجيعهم على النظم ، وفقا لقريحة كل منهم . وينبغي أن ننظر إلى هذه الوظيفة على أنها من أكبر الوظائف في البلاط ؛ لقد كان أمير الشعراء بمثابة وزير كل الشؤون العلمية والتاريخية للشعرية ؛ وكانت المنح والنعم توزع بواسطة علي من يدخلون تحت

سلطانه ، وحين كان يخرج في صحبة السلطان كانت تصحبه حاشية كبيرة ذات أمة بحيث كان يظن أنه بمثابة وزير .

نقول :

إذا كان على الإنسان أن يفكر في أن ينقل إلى الأجيال التالية معرفة الأحداث التي تمسّه عن قرب ، فلا بد له أن يشعر بنوع من الرضا بالحاضر ، وأن يستشعر قيمته الكبيرة . هنالك يبدأ بأن يحدّد في ذاكرته ما تعلمه من آبائه وينقله مغلفاً بالخرافات ؛ لأن النقل الشفوي يزداد جمالاً باستمرار ، وذلك بالخرافات والحكايات . لكن حين اخترعت الكتابة واستولت لذة الكتابة على شعب قبل غيره ، تولدت أخبار حافظت على الإيقاع الشعري ، حتى بعد أن اختفى شعر الخيال والعاطفة منذ زمان بعيد . والعصر الأحدث يقدم إلينا رسائل ومذكرات أكثر تفصيلاً ، وسير حياة ذاتية على أشكال متنوعة .

وفي الشرق أيضاً نجد وثائق قديمة جداً عن حضارة شاملة رائعة . وحتى لو كانت كتبنا المقدسة لم تسجّل كتابةً إلا عصر متأخر ، فإن أساسها يقوم مع ذلك على نقول قديمة جداً تستحق أن تُفحص بمزيد من الاحترام . وفي الشرق الأوسط - ونستطيع أن نطلق هذا الاسم على فارس والبلاد المحيطة بها - كم من ملامح تولدت في كل لحظة وحفوظ عليها على الرغم من كل ألوان التخريب والتشذّب ! لأنه لو كان من المفيد ، من أجل تقديم حضارة بلاد شاسعة ، لا تكون قد خضعت لسيّد واحد ، بل أن تكون قد وزعت بين كثيرين ؛ فهذه الحال نفسها يمكن أيضاً أن تفيد في المحافظة ، لأن ما يفنى في مكان يمكن أن يبقى في آخر ، وما يُطرّد من زاوية يمكن أن يجد ملجأ له في أخرى .

وعلى هذا النحو ، وعلى الرغم من كل ألوان الهمار ، فإن عدداً

من النسخ المنقولة عن الأصول القديمة قد بقيت محفوظة ، وأعيد نسخها أو تجديدها من عصر إلى عصر . فنجد مثلاً أنه في عهد يزدجرد ، آخر الساسانيين ، ألّف تاريخ للإمبراطورية ، من المحتمل أن يكون قد تم تحريره بمساعدة أخبار قديمة مشابهة لتلك التي قرئت على أحشوردش ، بسبب ما ورد في سفر « أستير » (من الكتاب المقدس) في ليالى أرقه .

وقد بقيت نسخ من هذا الكتاب ، وعنوانه : « باستان^(١) نامه » : ذلك أنه بعد ذلك بأربعمائة سنة ، في أيام حكم منصور الأول ، من السامانيين ، بُدِئ في إعادة كتابته ، لكن لم يتم ذلك ، وجاء الغزنويون فقبضوا على السامانيين . لكن محموداً ، ثانياً أمراء هذه الدولة الغزنوية ، كانت لديه نفس الحماسة ، فوزع سبعة أجزاء من « باستان نامه » على سبعة شعراء من شعراء بلاطه . وقد تفوق الشاعر « عنصرى » فقال الرضا من سيده (محمود) ؛ فعينه أميراً للشعراء وكلّفه بإعادة كتابة الكل . لكن عنصرى ، « وكان كسولاً وواعياً ، فاستطاع تأجيل العمل وودّ ، بلون ضوضاء ، أن يجد أحداً يستطيع القيام بهذا العمل .

فردوسى

(توفى سنة ١٠٣٠ م)*

والعصر المهم للشعر الفارسى الذى ننظر فيه الآن يهبط لنا الفرصة لملاحظة أن الأحداث الكبرى العالمية تتطور فقط حين تتحرك وتنمو في صمت بعض الميول والأفكار والمشروعات ، المبدورة هنا وهناك ، حتى يتجلى ، عاجلاً أو آجلاً ، فعلٌ جمالى عام في النهاية . وبهذه المعنى فإنه من الرائع جداً أنه في نفس الوقت الذى فكر فيه أمير قوى أن يبعث الأدب

(١) أى : « كتاب التاريخ القديم » .

(*) توفى الفردوسى سنة ١٠٢٠ أو ١٠٢٥ = ٤١١ أو ٤١٦ هـ على وجه التقريب ..

القوى ، قام ابن بستاني ، من طوس ، وحصل على نسخة من « باستان نامه » وكرّس قريحته الجديلة التي وهبتها لإياد الطبيعة لهذه الدراسات .

وبقصد رفع شكوى ضد والى المقاطعة بشأن أمر ، ذهب إلى البلاط وحاول عبثاً ، ولوقت طويل ، الوصول إلى عُنْصَرِي لينتقم له في مسألته . وأخيراً كان لبعض الأبيات الحماية الحافلة بالمعاني التي نظمها ارتجالاً ، الفضل في التعرف إلى أمير الشعراء ، الذي أدرك قريحته ، فساعده وكلفه بذلك التأليف الكبير . وشرع فردوسي في نظم « الشاهنامه » في ظروف مواتية ، وفي البداية حصل على أجر جزئي كاف ؛ لكن بعد عمل دام ثلاثين سنة ، لم ينل من السلطان المكافأة التي كان يتوقعها . فامتلاً غمّاً لضالة هذه المكافأة ، وترك البلاط ، ومات في نفس اللحظة التي تذكره السلطان فيها من جديد ليجزل له العطايا . وعاش السلطان محمود بعد وفاة الفردوسي بسنة واحدة تقريباً ، في أثناءها أتم أسدي ، الشيخ العجوز وأستاذ الفردوسي نظم « الشاهنامه »^(١) .

وهذا الكتاب (« الشاهنامه ») تمثل قومي تاريخي أسطوري مهم جداً ، جمعت فيه أخبار أصل ووجود وأفعال الأبطال القدماء . ويتعلق بالماضي القريب أو البعيد ؛ ولهذا يسود العنصر التاريخي ، بينما أساطير الماضى تنقل إلينا ، من وراء حجاب ، بعض الحقائق التقليدية القديمة .

ويلوح أن الفردوسي كان كفى تماماً للقيام بهذا العمل لأنه كان مولعاً

(١) أسدي هو أبو نصر أحمد بن منصور الطوسي . وقد ذكر دوانمشاه في « التذكرة » أنه عرض على الأسدي نظم الشاهنامه ، فاعتذر بكبر سنه ، و« وكل إلى تلميذه الفردوسي أن يقوم بنظمها . فلما رقد الفردوسي على فراش الموت في هؤس وأخذ يجود بأنفسه الأخيرة كانت أربعة آلاف بيت من ماحته ما زالت باقية لم يكملها ، فتولى الأسدي إكمالها في يوم وليلة ، ثم قرأها عليه في صبيحة اليوم التالي ، وبذلك استطاع أن يتابع صدر الفردوسي وهو في النزح الأخير . » (تاريخ الأدب في إيران » لادوارد براون ، ترجمة الدكتور إبراهيم الشواربي سنة ١٩٥٤ ص ١٣٩) .

جداً بما هو قديم وقويّ حقاً ، وأنه فيما يتعلق باللغة أيضاً سعى منذ وقت مبكر إلى بلوغ الصفاء والقوة القديمتين ، مع السعي في نفس الوقت لاستبعاد الكلمات العربية واحترام الفهلوية القديمة .

أنورى

(المتوفى سنة ١١٥٢)^(١)

درس في طوس ، وهى مدينة شهيرة بمعاهد العلم المهمة ، بل تهتم بالإفراط في الثقافة . وكان ذات يوم على باب المدرسة فشاهد سيداً يركب فرساً ووراءه حاشية فخمة ، وعلم بدهشة أنه شاعر في البلاط ؛ فقرر أن يصل إلى هذا المركز الرفيع . وارتجل قصيدة في ليلة واحدة صار بها ملحوظ المكانة عند الأمير ، وقد بقيت لنا .

وهذه القصيدة وأخرى غيرها وصلتنا تكشف لنا عن روح صافية ، ذات فطنة لا حد لها ؛ ونفوذ حاد سعيد . إنه يسيطر على مادة هائلة . ويعيش في الحاضر ؛ وكما انتقل مباشرة من حالة التلميذ إلى حالة رجل البلاط ، فكذلك صار مدحاً حراً ، ووجد أنه لا مهنة أجمل من اختلاب معاصريه بمدحهم . فأغدق المدح على الأمراء والوزراء ، والنساء الجميلات والنبيلات ، والشعراء والمغنين ، وعرف كيف يستعمل كل منهم الزينة التي انتزعها من كنز العالم الكبير .

ولهذا لا نستطيع أن نعدّ من العدالة أن يلام بعد كل هذه القرون على الأحوال التي عاش فيها واستغل قريحته وفقها . وإلا فإذا كان سيصير له أمر

(١) يرى زوكوفسكى واتييه أن وفاته في سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) أو بين سنتي ٥٨٥ و ٥٨٧ هـ (١١٨٩ - ١١٩١ م) . . راجع عن أنورى في تاريخ الأدب في إيران لادوارد براون ص ١ - ٤٦٢ - ٤٩٤ من الترجمة العربية .

الشاعر إن لم يوجد أناس كبار ، أقوياء ، عقلاء ، نشطاء ، جيلون ماهرون فضائلهم تلهمه . إنه يتعلق بهم تغلق الكرم بالعريشة أو العليق بالجدار كي يرتفع إلى الأعلى ، ويسر من نظريه وقابه . أو نلوم الصانع الذى يقضى عمره فى صوغ حلل رائعة لأشخاص كبار ، من الأحجار الكريمة فى الهند والسند ؟ أمن العدل أن نطلب منه أن يحذف مهنة البلاط ، وإن كانت مهنة مفيدة ؟

لكن بقدر ما كان شاعرنا موفقاً على الأرض ، كان غير موفق مع السماء فقد تنبأ بذبذبة فلكية حائلة أثارت الناس ، مفادها أنه فى يوم معلوم ستثور ريح هائلة عاصفة تخرب البلاد ؛ وجاء اليوم الذى حدده فلم يقع شيء [ولا طوال العام] ولم يستطع الشاه نفسه حماية شاعره الذى يحميه ، أن يحميه من الغضبة العامة فى القصر والمدينة عليه . فهرب . وحتى فى المكان البعيد الذى هرب إليه ، لم يحفظه إلا حزم الحاكم الذى كان يحبه .

ومع ذلك يمكن بصون شرف هذا المنجم إذا أقررنا بأن قران كل هذه الكواكب فى برج واحد كان إيذاناً بقلوب جفگيز خان الذى أحدث فى فارس من الخراب أكثر مما يمكن أن تحدثه أية عاصفة .

نظامى

(المتوفى سنة ١١٨٠ م)^(١)

روح لطيفة رقيقة الموهبة اختارت مادة لنشيدها وصف أرق حب فى

(١) ولد فى مدينة گنجه (وتعرف الآن باسم اليزاتبوج) فى سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ - ١١٤١ م) ، ومات فى ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ - ١٢٠٣) ، على حسب قلمه باخر . ونحن نجد دوانشاه يحمل وفاته فى سنة ٥٧٦ هـ (١١٨٠ - ١١٨١ م) - وعليه جرى جيته هنا ؛ بينما حاجى خليفه يضعه بين سنة ٥٩٦ (١١٩٩) و ٥٩٩ هـ (١٢٠٣) وهذا الأخير هو الذى برهن على صحته بأخر فى رسالته المشازة عن « حياة ومؤلفات نظامى » (ليتسلة سنة ١٨٨١) .

الأثر المتبادل الذى يحدثه ، بعد أن استنفد فردوسى كل القول البطولية ،
إنه يقدم إلينا المجنون وليلى ، خسرو وشيرين ، زوجين من المحبين ، خلق كل
منهما للآخر كما دلت المشاعر ، والمصير ، والطبيعة ، والعادة ، والميل ،
والوجدان ، وأخلص كل منهما للآخر ؛ ثم فرق بينهما الهوى ، والعناء ،
والصدفة ، والقوة القاهرة والقسر ؛ ثم جعلا بعد ذلك على نحو عجيب
وانزع كل منهما من الآخر بأحداث مختلفة ، وافترقا إلى الأبد .

هذه الموضوعات والطريقة التى بها عولجت تثير فينا حنيناً مثالياً . إننا
لا نعثر أبداً على الرضا الحق . والسحر كبير ، والتنوع لا حد له .

وقصائده الأخرى ، ولها غايات أخلاقية مباشرة ، يفوح منها نفس الصفاء
الحبيب . وكل ما يحدث للإنسان من أمور غامضة ، يرده هو إلى العمل ،
ويجد فى العقل الأخلاقى خير حل لكل الألغاز .

وقضى حياته هادئة ، وفقاً لنشاطه الهادئ ، فى أيام السلاجقة ؛ ثم
دفن فى المدينة التى ولد فيها ، وهى كنج .

جلال الدين الرومى

(المتوفى ١٢٦٢)

صحب أباه فى رحلة طويلة قام بها بسبب نزاع على السلطان اضطرب معه
إلى مغادرة بلخ ، وفى الطريق إلى مكة لقيا العطار ، الذى أعطى الفتى كتاب
الأسرار الإلهية ، وأشاع فى نفسه حب الدراسات الصوفية .

وبهذه المناسبة نلاحظ أن للشاعر الحق رسالة هى أن يعكس روعة المعالم
وأن يصير بهذا مستعداً للمدح أكثر منه للذم . وتبعاً لهذا فإنه يبحث دائماً عن
أسمى الأمور ، وبعد أن يستعرض كل شئ ، يكرس عبقريته لتمجيد الله
وحمده . والشرقى ، على وجه التخصيص ، يستشعر هذه الحاجة ، لأنه يطمح

دائماً إلى البلاغة وفخامة العبارة ويعتقد أنه يجد ذلك في تمامه في تأمل الألوهية ؛ وهنا ، على الأقل ، مهما يكن الأسلوب الذي يعالج به موضوعه ، فلا يستطيع أحد أن يهتمه بالمبالغة .

وما يسمى السُّبْحَة الإسلامية ، التي يُسَبِّحُ عليها بأسماء الله الحسنى التسعة والتسعين ، هي نوع من التحميدات والمدائح . فنطلق على الله أسماء تدل على صفات إيجابية وصفات سلوب ، والله لا يحيط به عقل ، والعابد يُدْهَش ، ويُسَلِّم أمره ، وتطمئن نفسه . وبينما الشاعر الديوي يخلع على أشخاصه الصفوة كمالات حلمها ، فإن مَنْ كرّس نفسه لمدح الذات الإلهية يلجأ إلى الموجود غير المشخص ، الذي ينفذ منذ الأزل ، في كل شيء .

وعلى هذا النحو نجد العطار يهرب من البلاط ليتفرغ لحياة التأمل ؛ وجلال الدين ، وهو شاب ، وقد ابتعد هو الآخر عن الأمد والعاصفة ، كان مستعداً للاشتغال بالدراسات العميقة .

ولما أتم الحج ، اجتاز آسيا الصغرى مع أبيه ؛ واستقرا في قونية . وهناك قاما بالتدريب ، ولقيا الاضطهاد ، ونفيا ، ثم ردت إليهما وظائفهما ، وأخيراً دفنا مع واحد من أخلص تلاميذهما . وفي هذه الأثناء كان جيكيز خان قد استولى على فارس دون أن يمسه الركن الهادي الذي أقاما به . وبعد هذا العرض ، ينبغي ألا يأخذ أحدٌ على هذه الروح العظيمة (جلال الدين) أنها اتجهت إلى التجريد . ومؤلفاته فيها تنوع غريب . حكايات ، خرافات ، أمثال ، أساطير ، نوادر ، أمثلة ، مشاكل ، كل هذا يستغله جلال الدين ابتغاء لإيضاح مذهب مستسر لا يستطيع أن يوضحه بنفسه مباشرة . وغرضه التعاليم والإفادة ، لكنه على وجه العموم يسعى بواسطة مذهب الوحدة إن لم يكن إلى إرضاء كل طموح حنيني ، فعلى الأقل لتهدئة هذا الشوق وإلى أن يفهمنا أن كل شيء سينحل في النهاية ويتجلى ويعظم في الموجود الإلهي .

سعدى

(توفى سنة ١٢٩١ م ، وهو فى سن المائة واثنين سنة) (١)

ولد فى شيراز، ودرّس فى بغداد ، وفى شبابه اتجه إلى تكريس نفسه لحياة السياحة كمتصوف درويش ، نتيجة حبّ بائس . وبعد أن حج إلى مكة خمس عشرة مرة ، وصل فى تجواله إلى الهند وآسيا الصغرى بل وإلى الغرب أسيراً أسره الصليبيون . ومرّ بمغامرات عجيبة ، لكنه ظفر بمعرفة دقيقة بالبلاد والناس . وبعد ثلاثين عاماً انسحب من الدنيا ، وكتب مؤلفاته واشتهر اسمه . لقد أثرى من تجربته الواسعة ، فصار لديه كنز من الحكايات استطاع أن يزينها بالحكم والأشعار . وكان هدفه الأساسى هو تعليم قرائه وسامعيه . وعاش فى شيراز حياة العزلة ، وعُصّر حتى بلغ من العمر مائة واثنين سنة ، ودُفِن . وكان خلفاء جنكيز خان قد جعلوا من إيران مملكة خاصة يمكن المرء أن يعيش فيها بسلام .

حافظ

(توفى سنة ١٣٨٩ م)

من يذكر أنه فى منتصف القرن الماضى وجدت بين البروتستنت فى ألمانيا طائفة من رجال الدين بل وبعض أهل الدنيا كانوا يعرفون الكتاب المقدس

(١) مشرف الدين بن مصباح الدين بن عبد الله ؛ ولد فى مدينة شيراز حوالى سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) ، وتوفى فى سنة ٦٩١ هـ (١٢٩١ م) . وتقدم حياة إلى ثلاث فترات : فترة التحصيل وقد استمرت حتى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٦ م) وقد أفضى أكثرها فى بغداد ، حيث تعلّم على شهاب الدين المهروردى المتوفى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) ، كما لقى أبا الفرج بن الجوزى . والفترة الثانية هى فترة الترحال ، فقد بدأ سنة ٦٢٤ هـ فى التجوال والأسفار طوال ثلاثين عاماً ما بين الهند شرقاً إلى الشام والحجاز غرباً . والفترة الثالثة هى فترة الاستقرار والتأليف . فقد عاد إلى شيراز فى سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) . وفى السنة التالية نشر كتابه « بوستان » ثم « گلستان »

حتى كانت بمثابة كشافات حيّة ، يتمرنون على بيان أين توجد كل آية ، ويعرفون عن ظهر قلب النصوص الرئيسية ، ويحسنون الاستشهاد بها في كل التطبيقات الممكنة — نقول إن من يذكر هذا يوافق بسهولة على أن هؤلاء الناس لا بد أنهم وجدوا في ذلك عنصراً رائعاً من عناصر الثقيف ، لأنّ الذاكرة ، وهي مشغولة دائماً بأمور رفيعة سامية ، كانت تحتفظ للشعور والحكم بمواد صافية للاستمتاع والتطبيق . وكانوا يلقبون بلقب « الأقوياء » في الكتاب المقدس « bibel fast » ، وكان هذا اللقب عنوان شرف ، ومبرّساً ثميناً .

وما كان عندنا معشر المسيحيين ، يستعمل أصله من استعداد طبيعي وإرادة خيرة ، كان عند المسلمين فرضاً واجباً : فكما كان يعدّ من الأمور الفاضلة أن يكثرُوا أو يعملوا على تكثير نسخ القرآن ، كان من الأمور التي لا تقلّ فضلاً أن يستظهروا القرآن ليكون في استطاعتهم الاستشهاد بالآيات المناسبة عند الحاجة ، وليردادوا تقي ، ويسكتوا النزاعات . وكان يطلق على هؤلاء الأشخاص لقب « حافظ » وهو لقب تشريف ، وهو لقب بقي لشاعرنا بمثابة اسم له .

ولم يكتفِ القرآن بقراءة حتى صار موضوع تفسيرات عديدة ، يزود بأدق الحجج ؛ ولما كان يوقظ عقل كل إنسان ، فقد نشأت آراء مختلفة كل الاختلاف ، وتأويلات موهلة في التفسير ؛ وحاول البعض أن يظهروا علائق بعيدة كل البعد عن العقل ، حتى إن الرجل الذكي المستقيم التفسير كان عليه أن يبذل مجهوداً متواصلاً للعود البسيط إلى نص خالص سليم كأساس لتأملاته . ولهذا أيضاً نجد في الإسلام براعة ، كثيراً ما تثير الإعجاب ، في التفسير ، والشرح ، والتطبيق والاستعمال .

وأجمل مواهب شاعرنا قد كرست لهذا اللون وأعدت ، كان حافظ

يحفظ القرآن كله ، ولم يكن يجهد أى أفكار تقوم على أساسه وهو نفسه يقول :

إن بالقرآن حَقَّقَ كلُّ ما أفلحت فيه

وقام بالتدريس درویشاً وصوفياً وشيخاً في مسقط رأسه : شیراز ،
التي بقي فيها دائماً ، محاطاً بالتهللة من جانب أسرة مظفر وأهله . وعُنى
بالدراسات الدينية والنحوية وجمع حوله عدداً كبيراً من التلاميذ .

ولكن أشعاره تناقض تماماً هذه الدراسات الجادة وممارسة مهنة
التدريس ، لكن يمكن حل هذا التناقض بأن نقول إن الشاعر ليس مُلتزماً
بأن يفكر ويعيش تماماً بحسب ما يقوله ، خصوصاً من وجد نفسه ، في
سن متقدمة ، وسط ظروف معقدة ، يقترب فيها دائماً من تموجات
البلاغة ويقول ما يلذ لمعاصريه سماعه . وتلك هي تماماً حالة حافظ . لأنه
كما أن حاكى الحكايات لا يعتقد في كل ألوان الانسجار التي يدهشنا بها ،
لكنه يسعى لتقديمها على شكل حتى معبرٍ قدر المستطاع حتى يجد فيها
السامعون متعتهم ، فإن الشاعر الغنائى هو الآخر لا يحتاج أن يضع موضع
التنفيذ كل الأشياء التي يسرُّها القراء ويتملقهم ، أو المغنين من الطبقة العالية
أو الواطئة . ويلوح أن شاعرنا لم يعزُ قيمة كبيرة لأغانيه ، وكانت تتدفق
من ينبوع ثرٍ بسهولة ؛ لأن تلاميذه لم يجمعوها إلا بعد وفاته .

ونقول القليل عن هذه القصائد ، لأنه لا بد أن يتذوقها المرء ، وأن
يتناغم وإياها . إنه يتدفق منها سيل من الحياة لا ينقطع ، حافل بالا تزان .
كان راضياً ببساطة حاله ، فرحاً ، حكماً ، يشارك في خيرات هذا العالم ،
ويبقى بنظرة بعيدة على أسرار الألوهية ، منصرفاً عن أداء الفروض الدينية
وعن لذات الحواس في وقت واحد ، حتى إن نوع شعره ، وإن كان يبدو
أنه يعظ ويُعلم ، يحتفظ بحركة شكّية دائماً .

جامى

(توفى سنة ١٤٩٤ ، وهو فى سن الثانية والثمانين)

تلقى جامى حصاد الإنتاج السابق واطلع على خلاصة الثقافة الدينية والفلسفية والعلمية نثراً وشعراً . وكان من حظّه العظم أنه ولد بعد وفاة حافظ بثلاث وعشرين سنة ، وأنه وجد ، فى شبابه ، ميداناً فسيحاً مفتوحاً أمامه . والكمال فى الوضوح والحكمة كان نصيبه . حاول أن يحقق كل شىء ، وبدأ فى نفس الوقت حسياً وفوق كل حسى ؛ وفخامة العالم الواقعى وعالم الشعراء ينبسط أمامه ، وهو يتحرك بين كاهما . ولم يكن التصوف مزاجه ؛ لكن لما كان لا يستطيع بدون التصوف أن يتم دائرة الاهتمام القومى ، فقد عرف تاريخياً كل ألوان الجنون التى اعتقد الإنسان ، وهو سجين طبيعته الأرضية ، أنه يقترب بواسطتها شيئاً فشيئاً من الرؤية المباشرة لما هو إلهى وأن يتحد به فى النهاية ؛ بينما ، فى النهاية ، لا يرى غير أشكال مروعة منافية للطبيعة والعقل تنكشف له . وماذا يعمل الصوفى غير أن ينسلل إلى جوار المشاكل أو يستبعدّها إذا استطاع !

أفق

شاء بعض الناس أن يستنتجوا من حسن ترتيب ملوك روما السبعة الأوائل أن تاريخهم خرافة حسنة التأليف قصد إلى ترتيبها قصداً . لكننا نحن لا نريد أن نقطع برأى فى هذه المسألة ، بل نلاحظ ، على العكس ، أن الشعراء السبعة الذين ينظر إليهم الفُرس على أنهم الأوائل ، وقد ظهوروا متتابعين فى فترة خمسمائة سنة ، أنهم فى مواجهة بعضهم بعضاً فى ارتباط معنوى وشعرى يمكن أن يبدو لنا مخترعاً إذا كانت الأعمال التى تركوها لا تدلّ على وجودهم معاً .

ومع ذلك فإننا إذا تأملنا في هذه الثريّا (النجوم السبعة) ، كما نستطيع ذلك على مبعده ، فإننا نجد أن كل واحد منهم كانت له عبقرية أحسّوا عن طريقها بتفوقهم على معظم الناس الممتازين جداً ، وعلى جمهور القرائح المتوسطة والمعتادة ، وأنهم إلى جانب ذلك ظهرُوا في زمن خاص في موقف فيه استطاعوا أن يحددوا حصداً غنياً ، بل وأن يسيّدوا ، لزمن ما ، إلى تأثير أخلاقهم ذوى القرائح أيضاً ، حتى مضى عصر جديد استطاعت فيه الطبيعة أن تفتح أمام الشاعر المدخل إلى كنوز جديدة .

وبناء على هذه الفكرة نستعرض مرة أخرى شعراءنا ، وندلى بالملاحظات التالية :

فردوسى وضع يده على كل تواريخ الدولة والإمبراطورية كما كونها الأسطورة أو التاريخ ، حتى لم يبق خلفه إلا أن يحيل إليها أو يشرحها ، لا أن يعالجها أو ينمّيها من جديد .

وأنورى تشبث بالحاضر . كان لامعاً ، رائعا كالطبيعة ، فرحاً غنياً بالمواهب يتطلّع إلى بلاط شاهه ؛ والجمع بين العالمين ومزايابها في أفن لغة - كان بالنسبة إليه واجباً وممتعة معا . ولم يكن له في هذا كفاء .

ونظامى استولى بطاقة محبوبة على كل ما وجد ، في ميدانه ، من أساطير الحب أو الحكايات نصف العجيبة . والقرآن لمّح إلى إمكان استغلال النقول القديمة المختصرة في تحقيق هدف محدد ، وعرضها بشكل ممتع بمساعدة شئ من الإسهاب .

وجلال الدين الرومى لا يشعر بالرضا في ميدان الحقيقة المشكّلة ويسعى إلى أن يحل - على نحو روحى بارع - ألغاز الظواهر الباطنة والخارجية ؛ ولهذا فإن مؤلفاته تضع مشاكل جديدة تولّد حلولاً جديدة وشروحاً جديدة .

وفى النهاية يشعر بأنه مدفوع إلى الالتجاء إلى مذهب وحدة الوجود ، الذى به يكسب المرء بقدر ما يخسر ، وفى نهايته لا يبقى غير صفر بواسى بقدر ما يُوحش . كيف يمكن اتصالاً ما فى الشعر أو النثر أن ينبجج من جديد ؟ بالحظ .

وسعدى المحتاز يدخل العالم الفسيح فيصل محملاً بتفاصيل لا حصر لها من تجاربه التى يجد فى كل منها ما يمكنه أن يستعيره . ويشعر بضرورة التركيز ، ويقتنع أن واجبه هو أن يُعلّم ، ولهذا صار ، بالنسبة إلينا نحن الغربيين ، خصباً مفيداً أكثر من غيره .

وحافظ ، القرينة العظيمة الصافية ، الذى يَقْنَع بأن يُبعد عن نفسه كل ما يظلمه الناس ، وأن ينحسّ جانباً كل ما لا يستغنون عنه ، وفى نفس الوقت يبدو دائماً رجلاً يستمتع بالحياة مثلهم . ولا يمكن تقديره حق قدره إلا فى دائرة أمتة وزمانه . فإذا فهم بقى رفيقاً فى الحياة لطيفاً . وحتى اليوم ، المحمّلون واليغالبون يواصلون إنشاد أغانيه ، على نحو أقرب إلى اللاشعور منه إلى الشعور ، وهذا ليس بسبب المعنى الذى يلذ له أن يضعه فى الشعر ، بل بسبب مزاج نفسه الصافية اللطيفة التى يفيض بها من حوله . فمن ذا الذى يستطيع أن يخلفه ، وقد استولى أسلافه على كل الباقي ، اللهم إلا

جمامى ، الذى كان كفاء لكل ما تم قبله وفى حياته . ولما كان قد جمع كل هذا فى باقات ، وحاكاه ، وجدّده ، وتوسع فيه ، ولما كان قد وحد فى نفسه بوضوح تام فضائل ونقائص أسلافه ، فإنه لم يبق لخلفائه إلا أن يصنعوا صنيعة ، بالقدر الذى به لم يسقطوا ، وهذا ما حدث طوال ثلاثة قرون . وهذه المناسبة نلاحظ أنه ، عاجلاً أو آجلاً ، إذا كانت الدراما قد تحولت ، وأن شاعراً من هذا الطراز قد وُجد ، لكان كل التطور الأدبى قد اتخذ مجرى آخر .

وإذا كنا قد تجاسرنا على أن نرسم بخطوط قليلة خمسمائة سنة من الشعر والبلاغة الفارسيين ، فإننا نرجو من أصدقائنا ، على حد تعبير كونتليان شيخنا القديم ، أن يتقبلوا هذا الموجز تقبل الناس للأعداد المستديرة ، لا من أجل الحصول على تحديد دقيق ، بل من أجل التعبير عن حقيقة عامة على نحو مبسّط تقريبي .

ملاحظات عامة

إن خصب وتنوع الشعراء الفُرس يرجعان إلى اتساع العالم الخارجى الشاسع و ثروته التى لا حد لها . إن حياة عامة مضطربة دائماً فيها كل الأشياء لها نفس القيمة تسبح أمام خيالنا ، ولهذا فإن مقارناتها تبدو لنا فى الغالب غريبة مؤذية . إنهم يرتبطون دون حرج بين أشرف الصور وأخسها ، وهذا مسلك لا نألفه نحن بسهولة .

لكن لنقل بصراحة : إن الذى يحيا حقاً ويتنفس بحرية وعملياً ليس لديه إحساس جمالى ولا ذوق ؛ والواقع يكفه فى الفعل ، والمتعة والتأمل كما فى الشعر ؛ وإذا كان الشرقى ، ليحدث تأثيراً غريباً ، يزواج بين أشد الأشياء اختلافاً ، فالألماني ، الذى يقع له هذا أحياناً ، ينبغي ألا ينظر إلى الشرق عن عرض لهذا السبب .

والاضطراب الذى تحدّثه أمثال هذه النتائج فى الخيال يمكن أن يقارن بالاضطراب الذى تحدّثه فينا نزعة "خلال سوق شرقية ، أو سوق أوروبية . فأمن السلع وأخسها ليست مفصولة فى المكان بعضها عن بعض ، بل تختلط فى نظراتنا ، وكثيراً ما نشاهد البراميل أو الصناديق أو الزكائب التى حمت فيها . فمثلاً فى سوق فاكهة وخضار لا تشاهد فقط النباتات ، والجذور والثمار ، بل وأيضاً هنا وهناك كل أنواع الفضلات والقشور الفارغة والبقايا .

أضف إلى هذا أنه لا يكلّف الشاعرَ الشرقَ شيئاً أن يرفف من الأرض
إلى السماء كي يلقى بنا من جديد على الأرض ، أو بالعكس . فالشاعر
نظامى استطاع من رؤية جيفة كلب تتعفن وتحلل أن يستخلص عبرة
تدهشنا وتعلمنا .

كان السيد المسيح محبوب العالم
فرّ ذات يوم بالقرب من سوق ؛
وكان كلب ميت مطروحا على قارعة الطريق
أمام باب بيت من البيوت ؛
وتجمع حشد حول الجيفة
كما تتجمع الرنم حول الجيف ؛
قال أحدهم : إن غي
اخترق من النتن .

وقال الآخر : لماذا كل هذا الكلام ؟
إن جوف القبور لا يأنى إلا بالبلاء .
وهكذا أنشد كل واحد أنشودته ،
في ذمّ جسم الكلب الميت ؛
وجاء دور المسيح

فقال بغير ذم ، قال بإحسان
وبما طبع عليه من حب الخير :
أسنانه بيضاء كاللآلئ .

فاحمرت وجوه الحاضرين خجلا
كأنها محار وضع في النار .

لقد شعر كل واحد بالحجل حينما سأل النبي المحسن البارع ، بالطريقة الخاصة ، الرحمة والمغفرة . وبألها من قوة تلك التي بها أعاد الحشد إلى رشده ، وجعله ينجل من لعناته وسبابه ، ويتأمل ، ربما بحسد ، ميزة ربما لم ينته إليها ! هنالك أفكر كل واحد من الحاضرين في أسنانه هو . والأسنان الجميلة تقدر جداً على أنها هبة من الله ، خصوصاً في الشرق . وهذا المخلوق الذي يتعفن ويتحلل بصبر ، بكمال يبقى فيه ، موضوع إعجاب وتأملات ورعة .

لكن التشبيه الذي يحتم الحكاية أشتى في الفهم وأقل إدهاشاً ؛ فلنأخذ في إيضاحه .

في المناطق التي لا توجد فيها طبقات جيوية تستخدم المهارات في تحضير مادة لا غنى عنها في البناء : تجمع بين أغصان جافة ، ونحترق بالنار المشتعلة . والشاهد لا يملك نفسه من أن يشعر بأن هذه الكائنات ، التي وهي حية كانت تتغذى وتنمو في البحر ، ولا تزال تستمع على طريقها بلذة الحياة الكلية ، والآن وهي تحترق ولكنها لم تستهلك بعد ، تحفظ بشكلها كاملاً ، وإن كانت كل حياة فيها قد تحطمت . فلنفترض الآن أن هذه البقايا العضوية تظهر حتماً مشتعلة في نظر المشاهدين ، فلا يستطيع المرء أن يتخيل رمزاً أحفل بالتعبير عن شقاء النفس الخفي العميق . فإذا شاء أحد أن يظفر بروؤية كاملة عنه ، فليطلب من كيميائي أن يضع أمامه محارات من أم الخلول في حالة فصفرة : هنالك يوافقنا على أن الشعور للمادة الذي ينفذ في الإنسان حين يصبه الدم يستحق فجأة في وسط وهم الرضا الساذج بالذات ، لا يمكن أن يوصف على نحوٍ أشد ترويعاً .

ويجد المرء مئات من هذه الرموز التي تفترض رؤية مباشرة في الواقع الطبيعي ، وتوقظ في نفس الوقت فكرة أخلاقية عالية تتيح من حساسية صافية نامية .

ومن الأمور الجديرة بكل إطراد عند هؤلاء الشعراء ، إلى جانب اتساع أفقهم إلى غير حد ، اهتمامهم المركز على التفاصيل ، ونظرتهم الحادة المليئة بالحب ، والتي تسعى إلى أن تستخلص من الموضوع ذى المعنى ما فيه من مميزات خاصة . ولديهم أشكال شعرية يمكن أن تقارن بما فعله الرسامون الهولنديين من رسوم للطبيعة الميتة ، بل يتفوقون عليهم من حيث السمو الأخلاقى . وبسبب هذا الميل وهذه الموهبة ، فإنهم لا يملكون الانصراف عن بعض الموضوعات التي يؤثرونها ؛ فلا يمل الشاعر الفارسى من تصوير المصباح باهراً والشعلة مضيئة . ومن هنا جاء الدثوب الذى يؤخذ على شعرهم ؛ لكن إذا أمعنا النظر ، تصير الأشياء الطبيعية عندهم بدائل عن الأساطير ، والورد والبلى يجلان محل أبولون ودافنيد . فإذا تذكرنا أنه لم يكن لديهم مسرح ولا فن تجسيمى ، ومع ذلك فإن قريحتهم الشعرية لم تكن أقل من قرائح الماضى ، فإن المرء ينبغى عليه حالماً بألف عالمهم الخاص ، أن يزداد بهم إعجاباً .

تعميم أعلى

والطابع الأعلى للشعر الشرقى هو ما نسميه بالألمانية Geist (الروح) ، أعنى العنصر السائد للمبدأ الأعلى للتوجيه ؛ هنالك تجتمع سائر الصفات دون أن تستطيع واحدة منها أن تؤكد تفوقها ولا حقوقها الخاصة . إن « الروح » هى خصوصاً ميزة الشيخوخة أو الفترة المتشايخة . نظرة حرة فى العالم ، تهكم ، استعمال حر للتورية : كل هذا نجده لدى كل شعراء الشرق . والنتيجة والمقدمات تقدم إلينا فى نفس الوقت ، ولهذا نشاهد أيضاً كل الأهمية التى تعزى إلى الكلمة المرتجلة . إن هؤلاء الشعراء يحضرون فى ذهن كل الأشياء ويتررون بسهولة علاقات بين أشد الأشياء بُعداً وتبايناً ، ولهذا يفتربون مما نسب به روح الكلمة ؛ ومع ذلك فإن روح الكلمة ليست لها نفس القيمة ، لأنها أنانية عابثة ، وهذا عيب تبرا منه

دائماً كل روح صادقة ، ولهذا يمكن ويجب أيضاً أن نصفها بأنها عامة .
 بيد أن هذه المزايا ليست خاصة بالشعراء وحدهم ؛ فالأمة كلها
 لودعية ، كما يستنتج من كثير من الحكايات والنوادر . والكلمة اللطيفة
 تثير غضب الأمير ، وكلمة أخرى لطيفة تهدئ ثأثرته . والمبل والوجدان
 يعيشان في نفس العنصر ، وهكذا يخترع بهرام جور ودل آرام الشعر^(١) ،
 وجميل وبثينة يظلان عاشقين حتى أقصى الشيخوخة . وكل تاريخ الشعر
 الفارسي حافل بملامح من هذا القبيل .

ولذا تذكرنا أن أنوشروان ، وهو من أواخر الملوك الساسانيين ،
 قد أمر بأن يُحضر من الهند ، في عهد محمد ، لقاء نفقات باهظة ،
 حكايات بيدبا ولعبة الشطرنج ، فإن هذه الواتعة تعبر تماماً عن خصائص
 العصر . فهذه الحكايات ، إذا حكمنا بحسب ما نقل إلينا منها ، تتنافس في
 زيادة التجربة بالحياة وحرية الحكم على الأمور الدنيوية . ولهذا فإنه بعد
 أربعة قرون ، حتى في العصر الأول والأفضل للشعر الفارسي ، لا يشاهد
 ازدهار السذاجة الطاهرة تماماً . والمدى الواسع للحكمة الذي طوّل به
 الشاعر ، وسعة المعرفة ، وشئون البلاط والحرب — كل هذا تطأب أعلى
 فطنة .

شعراء حديثون ومعاصرون

وعلى غرار جامي وعصره ، مزج شعراء العصر التالي دائماً بين النثر
 والشعر ، حتى لم يعد يُستخدم غير أساليب واحد لكل من الكتابة .
 فالتاريخ ، والشعر ، والفلسفة ، وأساليب الدواوين ، وأساليب الرسائل ،

(١) يقول بعض مؤرخي الشعر الفارسي ، ومنهم دولتشاه في « تذكرة الشعراء » إن أول شعر فارسي قاله بهرام جور الساساني (٤٢٠ - ٤٣٨ م) وحبيته دل آرام (راجع « تذكرة الشعراء » ، ص ٢٨ - ٢٩ ، نشرة ادريزد . ج . براون) .

كل هذا كان ينشأ بنفس الطريقة ، واستمر هذا منذ ثلاثة قرون . وفي وسعنا ، لحسن الحظ ، أن نقدّم نموذجاً من أحدث الأنواع .

حين كان السفير الفارسي مرزا أبو الحسن خان في مدينة بطرسبورج ، طلب منه بعض سطور بخطه . ففضل بكتابة صفحة كاملة ، نورد هاهنا ترجمتها :

« لقد سافرت في العالم كله ، وكنت على علاقات وقتاً طويلاً مع كثير من الناس ، وكل زاوية في الأرض جلبت لي فائدة ، وكل عود قح أعطاني سنبلة ، ومع ذلك فإنني لم أشاهد مكاناً يمكن أن يقارن بهذه المدينة وحورياتها الجميلة . بارك الله فيها إلى أبد الآبدين . »

* * *

« كم أحسن القول ذلك التاجر الذي وقع بين أيدي اللصوص الذين صوبوا سهامهم نحوه ! إن الملك الذي يضطهد التجارة يُغلق باب النجاة في وجه جيشه . أي عاقل يود أن يزور وطنه ، بعد هذه السمعة السيئة بالظلم ؟ إذا شئت أن تنال حسن الصيت ، فعامل التجار والسفراء باهتمام واحترام . إن الكبار يحسنون معاملة المسافرين حتى يظفروا بحسن الصيت . الأمة التي لاتحصى الغرباء سرعان ما تنهار . كن صديقاً للغرباء والمسافرين ، لأنهم يجلبون حميد السمعة : كن سخياً مضيافاً ، واحترم المارين ، واحذر أن تظلمهم . من يتبع نصيحة السفير هذه يجد فيها نفعاً من غير شك . »

* * *

« يزون أن عمر بن عبد العزيز كان خليفة قوياً ، وكان في الدبل ، في بيته ، يصلّي في خشوع وإخبات ، ووجهه إلى عرش الخالق ويقول : ربّي ، لقد وكلت إلى عبدك الضعيف أموراً عظيمة ، فلمجد الأصفياء والأولياء في ملكوتك ، أوزعني العدالة والإنصاف ، وقيني من سوء الناس ؛ أخشى

أن أكون قد عكرت صفو قلب يرى ، وأن تلاحتنى لعنة المظلوم . ينبغي على السلطان أن يتذكر دائماً حضور الله وسلطانه ، وزوال الحياة الدنيا ، وأن يتذكر أن التاج ينتقل من رأس يستحقه إلى آخر لا يستحقه ، وعليه ألا يستسلم للكبرياء . لأن السلطان الذى يتكبر ، ويزدرى الصديق والجار لا يمكن أن يهنأ بعرشه طويلاً ؛ وينبغي ألا ينتفخ كبراً لمجد بضعة أيام . الدنيا تشبه ناراً أوقدت بالقرب من طريق فمن اقتبس منها ما يلزمه للإضاءة فى الطريق لا يلحقه أى أذى ، لكن من يأخذ منها فوق كفايته يحترق بها .

« سُئِلَ أفلاطون : كيف عاش فى هذه الدنيا ، فأجاب : وخلقها فى عذاب ، وحياتى كانت دهشة مستمرة ، وأنا أخرج منها أسفاً لم أنعم شيئاً غير أنى لست بشيء . تجنب من يحاول أمراً وهو جاهل ، أو التقي غير المتعلم ، كلاهما يشبه حماراً يدير حجر الطاحونة وهو لا يدرك لماذا . السيف جميل للنظر ، ولكن آثاره مؤلمة . الرجل الطيب يصادق الغرباء والشرير يعادى الأقرباء . قال السلطان يوماً لهلول : عظمى ! فقال لهلول : لا تحسد البخيل ، ولا القاضى الظالم ، ولا الغنى الذى لا يضبط بيته ، ولا المسرف الذى يبذل ماله سدىً ، ولا العالم الذى ينقصه حسن التمييز . يظفر المرء فى الدنيا بحسن الصيت أو قبحه ، ويمكن المرء أن يختار بين كليهما ، ولما كان كل إنسان سيموت ، حسناً أو شراً ، فما أسعد من اختار سمعة الرجل الفاضل وآثرها .

« كتبت هذه الأسطر بناء على طلب صديق فى سنة ٢١٣١ هجرية ، شهر جمادى الثانى ، الموافق لشهر مايو سنة ١٨١٦ ميلادية ، كتبها مرزا أبو الحسن خان ، الشيرازى ، أثناء مقامه فى العاصمة بطرسبورج ، سفيراً فوق العادة لصاحب الجلالة النمரசى فتح على ، شاه كنش . ويرجو أن يُغفر لجاهل أن يكون قد كتب هذه الكلمات » .

وكما هو واضح مما سبق بقی منذ ثلاثة قرون نوع من النثر الشعري وبقى أسلوب الأعمال والرسائل هو هو نفسه في الشئون العامة والخاصة ، كما نعلم أيضاً أنه لا يزال في الآونة الأخيرة يوجد في بلاط فارس شعراء يقدمون إلى كاتب مخصص لهذه المهمة تاريخ البلاط وتبعاً لذلك كل ما يقوم به الإمبراطور وكل حوادث اليوم ، منظومة ومكتوبة بخط جميل . ومن هذا يظهر بوضوح أنه في الشرق ، الباقي على حاله أبداً ، منذ عهد أحشورس الذي أمر بأن تقرأ عليه أخبار من هذا النوع في ليالي أرقه ، نقول إنه في الشرق لم يطرأ أى تغيير .

ونلاحظ بهذه المناسبة أن هذه القراءات كانت تقتضى نوعاً من الإلقاء الفخم ، مع توالى النبرات القوية والنبرات الخفيفة ، مما يشبه كثيراً الطريقة التي بها تلقى التراجيديات الفرنسية . وهذا أمر يقبل بسهولة خصوصاً وأن المثنويات الفارسية تبدى عن تقابل مشابه للتقابل الموجود بين نصفي البيت في الوزن الاسكندري .

ويبدو هكذا أن هذا الاستمرار كانت نتيجته أنه منذ ثمانمائة سنة ، ظل الفرس يحبون أشعارهم ، ويقدرونها ويوقرونها ، ونحن شاهدنا بأنفسنا كيف أن شرقاً وقروعا مل مخطوطا قديما من « المثنوى »^(١) [لجلال الدين الرومى] بنفس الاحترام كما لو كان القرآن .

شكوك

لكن الشعر الفارسي وما يشابهه لن يتقبله الغرب بنفس الارتياح التام الصافي ؛ ولا بد أن يتضح لنا الأمر في هذه المسألة إذا كان لابد للذة التي نجدها فيه ألا يُعكّر صفوها فجأة .

(١) كانت مكتبة جامعة بينا قد اقتنت حينذاك نسخة خطية من « المثنوى » لجلال الدين

ليس الدين هو الذى يباعد بيننا وبين هذا الشعر . فتوحيد الله ،
والخضوع لمشيئته ، وتوسط نبيّ ، كل هذا يتفق - على نحو متفاوت - مع
إيماننا وعقليتنا . وكتبنا المقدسة ، وإن كانت فى حالة أساطير ، هى الأخرى
أساس هذا الدين .

وحكايات هذه المنظمة ، وخرافاتنا ، وأمثالها ، ونوادرها ، ونكاتها
مألوفة لنا منذ زمان طويل . وتصرفها يثير مشاعرنا قطعاً ، ويستحق ، على
كل حال ، بسبب عمقه وشدته ، أن يقارن بتصوفنا ، الذى فى أيامنا لا يعبر
- والحق يقال - إلاّ عن حنين لا شخصية له ، ولا قريحة فيه ، كيف
وصل إلى السخرية بنفسه ، هذا ما يستخلص من هذا الشعر :

« لا أرض بغير العطش الدائم
للعطش » (١) ..

استبداد

لكن الأمر الذى لا يدخل أبداً فى عقل الغربيين هو العبودية الروحية
والجسمية لسيّد ، وقد انحدرت من أقدم الأزمان ، حين كان الملوك
يتخذون مقام الله . وفى « العهد القديم » نقرأ دون أن نزعج كثيراً أن
الرجل والمرأة سجدا على الأرض أمام الكاهن والبطل وعبيدهما ، لأنهما
اعتادا القيام بنفس هذه الحركة أمام الألوهيم . وما تم فى البدء عن شعور
طبيعى بالتقوى فيما بعد إلى مراسم فخمة فى القصر . وال « كوتو » ،
أى السجود ثلاث مرات ، ناشئ عن ذلك . وكم تضايقت السفارات
الغربية لدى بلاطات الشرق من هذا المرسوم ، والشعر الفارسمى لا يمكنه ،
بوجه عام أن يستقبل عندنا إذا لم تتضح لنا هذه المسألة تمام الوضوح .

(١) هذا الشعر لايشندورف فى كتابه « الخاطرة والخاص » ، الكتاب الثانى ،
الفصل ١٢ .

وأى غربيّ يمكن أن يحتمل أن يضرب الشرق جبهة الأرض تسع
سمرات ، وأن يسلم رأسه لهوى الملك بفعل به ما يخلو له ! .

والبرجاس ؛ وفيه تقوم الكرات والمطارق بالدور الرئيسي ، يتجدد
كثيراً أمام أعين السلطان والشعب ، مع إسهام كل منهما في ذلك بشخصه ،
لكن حين يضع الشاعر رأسه على ممر مطرقة الشاه حتى يلاحظه الأمير ويبحث
به إلى السعادة مع مطرقة رضاه ، فإننا لا نستطيع ولا نريد أن نسايره
لا بالخيال ولا بالعاطفة حين يقول :

كم من الزمان ستكون ، بغير يد ولا قدم ،

دائماً كره القدر ؟

ولإذا قطعت مائة طريق ،

فلن تنجو من المطرقة .

ضع رأسك على طريق الشاه ،

فلربما لمتحك .

وكذلك :

ذلك الوجه وحده

مرآة السعادة

الوجه الذي داسته

سنايك هذا القرس .

وليس فقط أمام السلطان ، بل وأيضاً أمام المرأة المحبوبة ينحن المرء

انحناء أعمق ومداراً أكثر :

كان وجهي يتمرغ على طريقها

لكنها لم تنحرف عن الطريق خطوة

بالقرب من غبار طريقك
نتصبت خيمة أملى !
- بالقرب من غبار قدميك ،
الأفضل من الماء . . .
من داس على جبينى
بقدمه مثل التراب ،
أريد أن أجعل منه سلطانى ،
لو عاد إلى .

من هذه الأمثلة يُشاهد بوضوح أن الأمر لا يدل على معنى فى كلت
الحالتين ؛ إن هذا التعبير يستخدم أولاً فى مناسبة مهمة ، ثم يستخدم ويساء
استخدامه مراراً عدة . فثلاً حافظ يقول على نحوٍ عجيب حقاً :
سيكون رأسى فى تراب طريق .

ضيفى

ولعل دراسة متعمقة أن تؤيد الفرض القائل بأن الشعراء القدماء كانوا
يحتاطون فى استعمال مثل هذه التعبيرات ، وأن الحديثين وحدهم وقد استخدموا
نفس اللغة فى نفس المناسبة ، قد أوغلوا فى هذه الاستعمالات السيئة للغة ،
لكن دون أن تؤخذ مأخذ الجد ، بل على شكل تهكم ، إلى أن انحرفت
المجازات بحيث لم يعد المرء يشاهد أى ارتباط بين اللفظ والمجاز ، سواء من
حيث الفكر أو الشعور .

ونختم بهذه الأبيات اللطيفة التى قالها أنورى وهو يمدح شاعر محمد من
شعراء عصره :

قصائد شجاعى طعم يغرى الحكيم

والها يطير مائة طائر مثلى بنهم .

إذهبي ، يا قصيدتي ، وقبلى الأرض أمام شيعى وقولى له :

أنت ، يا فضيلة زمانك ، أنت زمان الفضيلة !

اعتراض

لنتبين العلاقات بين الطغاة والرعية ، ونقدر إلى أى حد لا تزال إنسانية ، وربما لنطمئن أنفسنا قليلا فيما يتعلق بعبودية الشعراء ، نورد هاهنا قطعتين تشهدان على الحكم الذى أصدره فى هذه المسألة العارفون . بالتاريخ وبالعالم ، قال أحد الإنجليز المفكرين (١) :

« الساطة المطلقة التى خففت منها العادات والتبصر فى عصر المدينة ، تتلطف على شكل نظم معتدلة ، وتحافظ دائما عند الأمم الآسيوية على طابعها وتسير على نفس النمط تقريبا . لأن الفوارق الضئيلة التى تعبر عن المنزلة الاجتماعية وكرامة الإنسان تتوقف فقط على المزاج الشخصى للحاكم المطلق وسلطانه ، وعلى هذا الأخير أكثر مما على الأول . إن أمته تتعرض دائما للحروب لا يمكن أبدا أن تزدهر ، كما كانت الحال ، منذ أقدم العصور ، بالنسبة إلى كل الممالك الضعيفة فى الشرق . وينتج عن هذا أن أعلى سعادة يمكن للجمهور أن يستمتع بها تحت الحكم المطلق تتوقف على قوة الحاكم وسمعته ، كما أن الرغد الذى يمكن أن تنعم به رعيته إلى حد ما ، يقوم أساسا على الكبرياء الذى يرتفع إليه مثل هذا الأمير . »

« فليس من حقنا إذن ألا نفكر إلا فى استعدادات وضيعة مأجورة حين ندهش من ألوان الملق التى يكيلونها لأميرهم . لأنهم لا يشعرون ببيعة الحرية . »

(١) لاندري من هو المقصود بهذا « الإنجليزي المفكر » ، ولا « بالتقيد الإثنى » .

ويجهلون كل أشكال الحكومة ، ويمجدون أحوالهم ، ويتقبلون عن طيب خاطر ، بل عن افتخار ، أن يذلوا أمام رجل عال حقاً ، إذا وجدوا في عظمة قوته ملاذاً وحماية ضد شرور أفظع تهددهم .

كذلك قال ناقد ألماني لودفيغ واسع الاطلاع :

« إن المؤلف الذى يعجب حقاً بالوثبة الجميلة للمديح في ذلك العصر لينحى باللائمة في نفس الوقت على تبديد القوة لدى نفر من ذوى العتول للنبيلة الذين يستهلكون أنفسهم في مدائح تنسم بالمبالغة ، وما ينتج عن ذلك عادة من انحطاط في الأخلاق . لكن يخلق بنا مع ذلك أن نلاحظ أنه العمل الفنى الرفيع الذى قام به شعب شاعري بطبعه ، مع كمال الزينة الفنية المتعددة ، يكون شعر المديح جوهرياً مثل شعر الهجاء الذى يناقضه مناقضة تجمد حلها ، إما في الشعر الأخلاقي ، الذى يفصل بهدوء في أمر الفضائل والردائل الإنسانية ، ويرشد إلى غاية هي طمأنينة أعلى ، وإما في الملحمة التى توازن ، بجرأة نزيهة ، بين النبالة العالية للسمو الإنساني وبين ابتذال الحياة اليومية المعتادة التى لا تدمغ ، بل تُعَرِّض جزءاً متمماً للكل ، وهذين الحدين المتقابلين اللذين توفى بينهما ، تكون صورة خالصة للحياة . وإذا كان مما يتفق مع الطبيعة الإنسانية ويكشف عن علو أصلها أن تدرك بحماسة نبالة الأعمال الإنسانية ، وكل ما يحمل خاتم الكمال العالى ، وإذا كانت الحياة الباطنة بتأملها في هذا كله تتجدد على نحو ما ، فذلك لأن مدح القوة والسلطة كما تتجليان في الأمراء ، تجل رائع في ميدان الشعر ؛ وإذا كان المديح قد عُدَّ عندنا وبحق أمراً يستحق الازدراء والانتقاص ، فذلك فقط لأن أولئك الذين توفروا عليه لم يكونوا بوجه عام شعراء بل متملقين حقددين مأجورين . لكن من ذا الذى يسمع كالدرون بمدح مليكه ، وقد انساق وراء خياله الجريء المخلق ، ويفكر في أن هذا المدح مأجور ؟ ومن ذا الذى يود أن يغلق قلبه دون أناشيد النصر التى نظمها بندار ؟ إن استبداد الملكية

الفارسية ، وإن وجدت متقابلها في عبادة القوة عبارة منحطة لدى معظم أولئك الذين دمجوا المذاهب للأمير ، فإنه مع ذلك ، بسبب الفكرة السامية عن القوة التي نمتها في قلوب نبيلة ، قد ولد كثيراً من القصائد الخليقة بإعجاب الأجيال التالية . وكما أن الشعراء اليوم جديرين بهذا الإعجاب ، فإن الأمراء يستحقون هذا الإعجاب أيضاً ، الأمراء الذين نجد لديهم اعترافاً صادقاً بالكرامة الإنسانية والحماسة للنفس الذي يمجده ذاكرتهم . وأنورى ، وخواقاني ، وظهر الدين الفاريابي ، و [أمير الدين] الأنصاري هم شعراء ذلك العصر الذين أفاضوا في المديح ، ولا تزال قصائدهم تقرأ اليوم في الشرق بلذة ومتعة ، وأسمائهم المأجدة لا تزال حتى اليوم بآمن من كل طعن . أما إلى أي حد إلهام الشاعر المذاهب قريب من أعلى مهمة يمكن أن يتولاها الإنسان ، فهذا ما يشهد عليه الانتقال المفاجئ عند سنائي من شعر المديح إلى الشعر الديني : فبعد أن كان مداحاً لأميرة صار منشداً يلهمه الله والكمال السرمدي ، بعد أن تعلم كيف يمجّد ، وراء حدود الوجود ، فكرة السموات التي اقتصر قبل ذلك على نشدائها في الحياة الدنيوية .

ملحق

هذه الملاحظات متي أبداها رجلان جادان مفكران تدعو إلى أن نحكم برفق وتسامح على الشعراء والمداحين الفرس ، كما أنها تزيد توكيدتنا السابقة ، ومفادها أنه في العصور الخطرة المهم بالنسبة إلى كل حكومة هو أن يكون الأمير قادراً على حماية رعيته ، وأن يتولى قيادتهم بشخصه ضد العدو . ويمكن أن نورد شواهد قديمة قدم العالم على هذه الحقيقة التي تتأيد حتى أيامنا هذه ، ونذكر الشريعة التي بها أعطى الله بني إسرائيل ، بالاتفاق العام ، في اللحظة التي فيها هذا الشعب يتبنى ملكاً مرة واحدة وإلى الأبد . ونورد هنا النص :

« فذكر صمويل^(١) جميع كلمات الرب للشعب الذين طلبوا منه ماكاً وقال : هذه سُنَّة الملك الذى يملك عليكم : يأخذ بنيكم ويجعلهم لنفسه لعَجَلته وفرسانه فيركضون أمام عجلته . ويتخذ لنفسه رؤساء ألف ورؤساء خمسين وأكْدَّةً لحرثه وحصاده وصنّاعاً لآلات حربيه وأدوات عجلاته . ويتخذ بناتكم عطارات وطباخات ونجّازات . وحقولكم وكرومكم وأفضل زيتونكم يأخذها ويعطيها لعبيده . ويأخذ عُشُوراً من زرعكم وكرومكم ويعطيها لخصيانه وعبيده . ويأخذ عبيدكم وإماءكم وشبانكم الحسان وحمركم ، ويستعملهم فى شغله . ويُعَشِّر ماشيتكم وأنتم تكونون له عبيداً » .

ولما أراد صمويل أن يمثل للشعب مساوياً مثل هذا النظام ويصرفه عنه ، صاح الشعب بصوت واحد : « وقالوا كلّا » ، بل يَمْلِك علينا ملك ؛ ونكون نحن أيضاً كسائر الشعوب فيمضى بيننا ملكنا ويخرج أماننا ويحارب حروبنا .

كذلك يقول الشاعر الفارسي^(٢) :

وبالنصيحة والسيف يحكم البلاد ويحميها
إن الحكم والحماة بين يدي الله .

وعلى وجه العموم ، اعتاد الناس ، حين الحكم على مختلف أشكال الحكم ، ألا يأسهوا لكون الحرية والعبودية توجد فيها جميعها ، أيا كان اسم شكل الحكم ، فى تعارض قطبي . فإذا كانت الساطات فى يد شخص واحد ، كان المجموع مستعبداً ؛ وإذا كانت السلطة للمجموع ، كان الفرد مضطهداً ؛ وهذا يتم فى كل الدرجات حتى يتم التوازن فى مكان ما ، لكن لمدة قليلة .

(١) سفر صمويل الأول (= الملوك الأول) ١٠ - ١٧ ثم ١٩ - ٢٠ . (مطبعة اليسوعيين ، بيروت سنة ١٩٣٢ ، ج ١ ص ٤٥٦) .

(٢) عن كتاب همر : « تاريخ فنون الجحيل عند الفرس » ص ٢٤٥ .

وليس هذا سرّاً بالنسبة إلى المؤرخ ؛ لكن في العصور المضطربة لا يمكن الوصول إلى وضوح في هذه النقطة . ولهذا لا يسمع المرء مزيداً من الحديث عن الحرية إلاّ حين يريد فريق أن يُخضع فريقاً آخر ، ولا يكون ثمّ غرض غير جعل السلطة والنفوذ والثروة تنتقل من يد إلى يد . إن الحرية هي الشعار الذي يتهامس به المتآمرين في الظلام ، وصيحة الحرب المنطلقة من الثوار الصّرخاء ، بل وشعار الاستبداد نفسه حين يقود ضد العدو الجمهور المستعبّد ، واعداء إياه بالتخلص إلى الأبد من النير الأجنبي .

رد فعل

لكن لا نتوهن في هذه العموميات الخدّاعة ، ولنعد إلى الشرق ، ولننظر كيف أن الطبيعة الإنسانية ، التي تظل دائماً غير قابلة أن تكبح ، تعارض الاصطهاد الشديد ؛ وسنجد في كل مكان أن روح الحرية وفردية الأفراد توازن السلطان المطاق للسيد الأوحّد ؛ إنهم عبيد ولكن ليسوا تحت النير ، ويسمحون لأنفسهم بألوان من الجرأة منقطعة النظر . ولنورد مشاهداً من التاريخ القديم ، فلنذهب إلى عشاء في خيمة الإسكندر ، وسنجدّه هناك هو وأصحابه ، يتبادلون الرأى الحاد ، والأقوال العنيفة ، بل الغاضبة .

وكليتوس ، أخو الإسكندر في الرضاعة ، ورفيقه في اللعب والحرب ، يفقد أخوّه في ساحة القتال ، وينتقد حياة الملك ، ويتجلى قائداً ممتازاً ، ووالياً أميناً مخلصاً على ولايات كبيرة . لكنه لا يستطيع قبول دعوى الألوهية التي ادّعاها الملك (الإسكندر) ؛ فقد رآه وهو يكبر ، وعرفه شراً إلى الخدمات والمعونات ؛ ومن الجائز أنه يغذى في نفسه سخط سوداوى وربما يبالغ في تقدير نفسه .

ولا بد أن أحاديث المائدة أثناء تناول الإسكندر وجبات طعامه كانت ذات أهمية بالغة ؛ فقد كان كل الضيوف ناساً ممتازين مثقفين ، وكلهم ولدوا في بلاد اليونان في أزهى عصور البلاغة . وفي العادة كانوا يطرقون ، مهذوء ، موضوعات هامة ، مختارة أو حيث تتوارد ، ويدلى كل منهم برأيه ببلاغة سفسطائية تقصد قصداً . لكن لما كان كل منهم يدافع عن الرأي الذي يراه ، وكان الشراب والانفعال يشعلان النفوس ، فقد كان الأمر ينتهى بمنظر عنيفة . وهذه الاعتبارات تدعونا إلى افتراض أن حريق پرسپولیس^(٣) لم يكن فقط نتيجة سكر فاحش غير معقول ، بل انطلق من نيران أحد هذه الأحاديث التي فيها ادعى أحد الفريقين أنه لما كان الفرس قد هُزموا ، فوجب التخلية عنهم بينما فريق آخر وقد بسَّط أمام خيال الجالسين سلوك الآسيويين الفاحش في تحطيم المعابد اليونانية ، نجح في تدمير المُشَيِّدات الملكية القديمة ، مشراً الجنون إلى درجة هيجان الخمار . أما أن نساء ، وهن دائماً أعنف أعداء الأعداء وأبعدهم عن التسامح ، قد اشتركن في هذه المسألة ، فإن هذا يقوى من احتمال الفرض الذي افترضناه .

فإن بقي شيء من الشك في هذه النقطة ، فإننا نعرف في مقابل ذلك يقين تام ما آثار النزاع القاتل في هذا العشاء الذي أشرنا إليه من القبل ؛ ذلك أن التاريخ أبقى لنا على ذكره . كانت المناقشة أولاً تدور حول الشيخوخة والشباب . والشيخوخة ، الذين كان يناقشهم كليتوس ، كانوا

(١) Persepolis وتسمى اليوم جهل منار (= الأربعون منارة) : كانت عاصمة إقاييم فارس وعاصمة الملكية الميديّة - الفارسية ، على نهر أركي Arake وبين مرتفعات ؛ استولى عليها الإسكندر الأكبر سنة ٣٣٠ ق م و يروى كذباً أن الإسكندر ، في لحظة سكر ، أمر بإحراق پرسپولیس ، إرضاء لنزوة خليله ثايبس ، وإنما الذي حدث هو أن حريقاً وقع بالصدفة قد أحرق بعض المباني في القصر . وقد ضُفَّ شأن پرسپولیس بعد نقل مركز الإمبراطورية إلى بابل ، وتأيسر سلوقية وطيففون (= الهاتن) . ولم يبق من هذه المدينة غير آثار جميلة ونقوش ونحوت بارزة وواظنة .

يستطيعون أن يستشهدوا بسلسلة من الأعمال المترابطة المحكّمة التي أنجزوها مخلصين للملك والوطن والغاية المنشودة ، في ثبات وقوة وحكمة . والشباب ، على العكس ، سلّموا بأن هذا كله قد تمّ ، وأنه أنجز الكثير ، وأنهم كانوا حقاً على حدود الهند ؛ لكنهم التمسوا النظر فيما بقي عماله ، وطرعوا لعمل مثله ، واعددين بمستقبل مشرق ، ورتبوا الأمر بحيث يقللون من شأن الأعمال الجليلة التي تمت . أما أن الملك (الإسكندر) قد انحاز إلى فريق الشباب ، فهذا طبيعي ؛ إذ معه ينبغي ألا يتحدث المرء عن الماضي . لكن كليتوس كشف عن سخطه المستور ، وكرر ، في حضرة الملك ، أقوالاً سيئة نقلت أمثالها من قبل إلى الإسكندر على أن كليتوس قالها في غيابه . فضبط الملك نفسه على نحر يدعو إلى الإعجاب ، لكن ذلك كان لمدة أطول مما ينبغي ، مع الأليف . فاندفع كايّتوس بغير اعتدال يطلق عبارات مهينة ، حتى اللحظة التي فيها وثب الملك من فوق كرسيه ؛ فنفعه أصحابه أولاً واقتادوا كليتوس إلى خارج القاعة . لكن هذا عاد هائجاً ، وهو يلفظ شتائم جديدة ، فأنفذ فيه الإسكندر رمحا أمسك به من حارس .

وما جرى بعد هذا لا يدخل في موضوعنا ؛ لكننا نلاحظ فقط أن أشدّ شكايات الملك مرارة تنضوى على هذه اللمحة وهي أن الملك سيعيش منذئذ وحيداً ، كوحش في الغابة ، لأنه لن يجروا أحداً بعد على أن يخاطر بالتفوه بكلمة حرّة في حضرته . وهذا القول ، سواء عُزّي إلى الملك أو إلى المؤرخ ، يؤيد ما سبق أن افترضناه .

وحتى القرن الماضي كان للإنسان أن يعارض شاه فارس أثناء المأدبة ، بدون حرج ولا حياء . لكن من الحق أنه في نهاية المأدبة كان الضيف المتهور يُجبرّ بأقدامه إلى خارج القاعة ، ماراً بالقرب من الشاه إن عفا هذا عنه . وفي حالة رفضه العفو عنه ، كان يُجبرّ ويمزق إرباً إرباً .

ويروى مؤرخون ثقة سلسلة من الحكايات التي تُبيّن كيف كان بعض

المقرّبين يسلكون مع الملك بعناد وإصرار لا حده لهما . إن الحاكم لا يرحم مثل المصير ، لكن المرء يحداه . وبعض ذوى الطباع العنيفة يقعون فيما يشبه الجنون ، وقد رويت عنهم أخبار في غاية العجب .

وللتوة الكاملة التى عنها يصدر كل شىء : من أفضال وعقوبات ، تخضع مع ذلك الطبائع المعتدلة ، الراسخة ، ذوات السلوك المنطقى ، من أجل أن تعيش وتعمل على شاكلتها . والشاعر ، على وجه التخصيص ، لديه ، أكثر من غيره ، بواعث لتكريس نفسه للحاكم الذى يقدر مكانته . وفى البلاط ، وفى التعامل مع الكبار ، تنتج أمامه نظرة إلى العالم هو فى حاجة إليها للوصول إلى ثروة كل الرعية . وفى هذا نجد ما يبرر وما يعتذر به عن ألوان الماقي التى يستباحها المداح لنفسه ، المداح الذى يتقن مهنته ، حين يثرى من كل كنوز المادة فزين بها الأمراء والوزراء ، النيات والأولاد ، الأنبياء والأولياء ، بل والألوهية نفسها ، بكل مغائن الشعر الإنسانى .

ونحن نمدح أيضاً شاعرنا الغربى لأنه حشد عالماً من الزينات والأبّهات لتمجيد صورة محبوبته .

ملاحظات مدرّجة

إن التأمل الواعى للشاعر ينطبق خصوصاً على الشكل ، أما المادة فغزوده بها العالم عن سمة هائلة ، والمضمون ينبثق تلقائياً من فيض قلبه ؛ لأن عنصرين يلتقيان بغير شعور ، وفى نهاية الحساب ، لا ندرى على وجه الصواب إلى من ينتسب الثراء حقاً .

لكن الشكل ، وإن كان يقوم جوهرياً فى العبقريّة ، يريد أن يُعرف ويُتأمل ، ومن أجل هذا لا بد من التأمل ، حتى ينسجم الشكل والمضمون والأساس ، ويتكيف بعضه مع بعض ، وينفذ فيه .

الشاعر أسمى من أن يكون حزبا . إن السجوّ والشعور هبتان رائعتان
يشكر للخالق عليهما : الشعور بالذات حتى لا يرتاع أمام ما هو خفيف ؛
والسجوّ حتى يستطيع التعبير عن كل شيء من أجل فرحة الكل .

العناصر الأولية في الشعر الشرقي

في اللغة العربية لا نجد غير قليل من الكلمات — الجذور انى لا تتصل ،
إن لم يكن مباشرة ، فعلى الأقل بعد تعديل خفيف ، بالجمل والفرس
أو الضأن . وهذا التعبير الأوّل عن الطبيعة والحياة لا يمكننا أن ندعوه
مجازاً . إن كل ما يفصح عنه الإنسان بحرية طبيعته علاقات حيوية ؛
والعربي على صلة وثيقة جداً بالجمل والفرس مثل اتصال الجسم بالنفس ؛
ولا يمكن أن يقع له شيء لا يهمّ أيضاً هذه المخلوقات ولا يربط حياتهم
ونشاطهم بحياته ونشاطه . فإذا أضفنا إلى الحيوانات التي ذكرناها تلك
— الأليفة والبرية — التي تظهر مراراً لعبون البدوى الرحّال ، فإننا نجدها
أيضاً في كل ظروف الحياة . فإذا واصلنا هذا الاستعراض وتأملنا في باقي
العالم المرئي : من جبال وصحراء ، وصخور وسهول ، وأشجار ونبات ،
وأزهار وأثمار وبحار ، وقبة السماء المرصعة بالنجوم ، نجد أن كل شيء
عند الشرقي مترابط بحيث لا يجد حرجاً — وقد تعود على الربط المرتجل بين
أبعد الأشياء عن بعض ، — في أن يشتق الواحد من الآخر ، بتعديلات
خفيفة في الحروف أو المقاطع ، من الأمور المتناقضة . ومن هنا نرى كيف
أن لغته منتجة بنفسها ، وهذا على نحو خطائي لأنها تسبق الفكر ، وعلى نحو
شعري لأنها تتحدث إلى الخيال .

ومن يبدأ من مجازات أساسية وضرورية يلاحظ بعد ذلك تلك الأكثر
حرية وجراً ، كى يصل في النهاية إلى أشدها جساراً واعتباطية ، ثم في
الختام ، يصل إلى أكثرها عيوباً وتنقصاً ، وإلى الاصطلاحية منها والباردة
تقاسدة ، فإنه يتعود على النظرة الحرة إلى القسمات الجوهرية في الشعر

الشرق . ويقتنع بسهولة أنه في هذا الأدب لا يمكن أن يتعلق الأمر بما نسميه الذوق ، أعنى التمييز بين المناسب والكريه . وميزاته لا يمكن أن يفصل بينها وبين عيوبه ، فكلتاها تنتسب إلى الأخرى ، وتنبثق عنها ، ولا بد من قبولها كما هي دون قشرها ولا المساومة فيها . ولا شيء أثقل من أن نجد ريسكه Reiske ومكائيلي يرفعان من شأن هؤلاء الشعراء إلى عنان السماء مرة ، ومرة أخرى يعاملانهم كأنهم تلاميذ بايدون .

وهذه المناسبة يلاحظ أن أقدم الشعراء ، أولئك الذين عاشوا عند ينبوع الأصيل للانطباعات وصاغوا لغتهم وهم يقرضون الشعر ، كانت لهم مزايا كبيرة جداً ؛ بينما أولئك الذين يظهرون في عصر مركب ، فيه تسود العلاقات المعقدة ، يبدون من غير شك عن نفس الميل ، لكنهم يتعدون شيئاً فشيئاً عن أثر الحق وما هو خليق بالثناء ، لأنهم حين يلهثون وراء مجازات مغرقة في البعد ، فإنهم يصلون إلى هراء خالص ؛ فلا يبقى في النهاية أكثر من الفكرة العامة جداً التي تحتها يمكن أن تُدرج الأشياء ، وهي فكرة تقضى على كل عيان وبالتالي على الشعر نفسه .

الانتقال من المجازات إلى الاستعارات

وكما أن كل ما قلناه ينطبق أيضاً على الاستعارات ، وهي قريبة من المجازات ، فينبغي أن نويد رأينا ببعض الأمثلة .

نحن نرى الصياد الذي يستيقظ في الهواء الطلق يشبه الشمس وهي تشرق بالبار :

العمل والحياة ينقدان في قاي ،

وهكذا من جديد منتصب على قدمي !

لأن باز الذهب ، مفتوح الجناحين ،

يخلق على وكره الأزرق .

أو بالأسد ، وعلى نحو أروع :

تحول مطلع النهار إلى ضياء ،

والقلب والروح يبتهجان فجأة ،

بينما الليل ، هذا الغزال الحيّ ،

يهرب أمام تهديد أسد الصباح .

ولا بد أن ماركو بولو ، الذى شاهد هذا كله وأموراً أخرى كثيرة ،

قد استمتع كثيراً بهذه الاستعارات .

وفى كل لحظة نجد الشاعر يعبث بغدائر الحبيبة :

فى كل غديرة من غدائر شعرك

أكثر من خمسين شيئاً -

هذه تحية لطيفة وجهت إلى رأس جميل التصفيف ، والخيال لا يند

عنه أن يتصور أطراف الشعر مثل الصنارة . لكن حين يضيف الشاعر قائلاً

إنه معلق بالشعر ، فإن الصورة لا تسر . وأخيراً إذا قيل عن الساطان :

فى قيود ضفائرك

قيدت رقبة العدو -

فإن هذا يثير فى الخيال منظرأ كريهاً - أو لا شيء أبداً .

أما أن تقتلنا أهداب الجفون ، فهذا قد يجوز ، أما أن نعلق فى الأهداب

فهذا لا يسرنا ؛ وإذا قورنت الأهداب بالمكانس التى تكنس نجوم السماء ،

فهذا يتجاوز المعقول . وإذا قيل لنا إن جبين الحبيبة ملمع القلوب ، وأن

قلب العاشق كعكة عجنها ودورها سيول من الدموع ، فإن هذه الصور

المفرطة فى الجرأة ، وفيها من التصنع أكثر مما فيها من الشعور ، تثير فينا

ابتسامة ساخرة .

وفي مقابل ذلك ننتع باللودعية الشاعر الذى يريد أن يُعامل أعداء
الشاه كأدوات الخيام :

فليشقوا مثل ... وليمزقوا مثل الخِرَقِ !

وليُطرقوا مثل المسامير ، وليدقوا كالأوتاد .

هنا نجد الشاعر فى المعسكر ، حيث يتعاقب باستمرار نصب ورفع
الخيام ، ويشاهد ذلك بنفسه .

وهذه الأمثلة ، ويمكن الإكثار منها إلى غير نهاية ، تبين بوضوح
أنه لا يوجد فاصل واضح بين ما سيكون وفقاً لعاداتنا العقلية ،
وخليقاً بالثناء أو الذم ، وذلك لأن مزايا هؤلاء الشعراء هى فى الواقع
أزهار عيوبهم :

وإذا شئنا أن نأخذ بحظنا من إنتاج هؤلاء العباقرة الممتازين ، فينبغى
علينا نحن أن نستشرق ، وليس على الشرق أن يأتي هو إلينا وعلى الرغم
من أن الترجمات عمل خليق جداً بكل توصية من أجل جذبنا وتعليمنا ، فإننا
نشاهد من كل ما سبق أنه ، فى هذا الأدب ، اللغة بما هى لغة هى التى تلعب
الدور الأول . ومن ذا الذى لا يود أن يطلع على هذه الكنوز فى
مصدرها الأصلى !

فإذا فكّرنا الآن فى أن الصناعة الشعرية تحدث بالضرورة أكبر الأثر فى
أى نوع ، فإننا نجد أنه هنا أيضاً المثوى عند الشرقيين يقتضى توازياً ، لكنه
بدلاً من أن يركز العقل ببده ، لأن القافية تدل على أشياء مشققة جداً .
وبهذا تتخذ أشعارهم مظهر المنظومات المقفاة ، وهو نوع يحتاج إلى عبقریات
من الطراز الأول من أجل إنتاج شيء ممتاز فيه . إن أى حد بدت الأمة فى
هذه المسألة حاكماً قاسياً ، هذا أمر يستنتج من كونها طوال خمسة قرون لم
تعرف إلا بسبعة شعراء على أنهم شعراء كبار .

تفسيه

ونستطيع أن نذكر كل ما قلناه حتى الآن شاهداً على حسن نيتنا في تقدير الشعر الشرقى . ولهذا نستطيع أن نسمح لأنفسنا بتنبيه نوجهه إلى من قد لم أن تكون لديهم من هذه المناطق معلومات مباشرة ، وكل هذا بقصد أن نجنب مثل هذه القضية الجيدة من كل ما يمكن أن يسىء إليها .

إن كل إنسان يسهل على نفسه مهمة الحكم بواسطة المقارنات ، لكنه بهذا أيضاً يجعلها أشق : إنه كما أن الاستعارة التي يُبالغ فيها جداً تصير عرجاء ، فكذلك الحكم بالمقارنة يصير دائماً أكثر عيوباً بالدراسة الدقيقة . ودون أن نضلّ بعيداً ، سنقتصر في الحالة الحاضرة ، على أن نقول : حين يقارن العالم الممتاز جونز Jones الشعراء الغربيين بالشعراء اللاتينيين واليونانيين ، فله الحق في ذلك ، وهو مضطر إلى ذلك بسبب صلاته بإنجلترا وبالفيلولوجيا الكلاسيكية في هذه البلاد . وهو نفسه قد تكون في المدرسة الكلاسيكية الدقيقة كل الدقة ، ولهذا يفهم جيداً الموقف المُستبَقّ الاستبعادي الذي لا يريد أن يقرّ إلا بما ورثناه عن روما وأثينا . وكان يعرف ، ويقدر ، ويجب الشرق وتمنى أن ينقل إلى إنجلترا العريقة نتاج الشرق وأن يدخله فيها بالتهريب ، وهو ما لا يمكن أن يتم إلا إذا ختم بخاتم العصر الكلاسيكي (اليوناني الروماني) . واليوم قد صار كل هذا لا فائدة فيه ، بل ومضراً . فنحن نعرف كيف نقدر الشعر الشرقى ، ونقرّ بأن له أكبر المزايا ، لكننا نريد أن نقارنه بنفسه ، وأن يقدر في داخل نطاقه ، وأن يُنسبى أنه وجد يونانيون ورومانيون .

ولن نسخط على أحد لأنه بمناسبة حافظ الشيرازي يفكر في هوراس وأحد (١) العالمين قد فسّر هذه النقطة على نحو يثير الإعجاب ، حتى إن هذا التشابه قد تقرر الآن نهائياً . قال :

(١) م يعرف بعد مَنْ يقصده جيته .

« إن الشبه بين حافظ وهوراس في نظراتهما في الحياة شبه واضح مدهش ، ولا يمكن أن يفتر إلا بتشابه الأزمنة التي عاش فيها كلا الشعارين ، وفيها تحطم كل أمان في الحياة المدنية فرأى أن الإنسان نفسه مُلجأ إلى ألا يطلب من الوجود غير مُتّع هاربة وكأنها تختلس اختلاصاً » .

لكننا في مقابل ذلك نطالب بإلحاح ألا يُتقارَن بين الفردوسي وهوميروس لأن الأول سيفقد من كل ناحية ، سواء من حيث المادة والشكل والأسلوب . ولكي يقتنع المرء بصحة هذا الرأي ويكفيه أن يقارن الرتب الخفيف لمغامرات اسفنديار السبع بالنشيد الثالث والعشرين من « الإلياذة » حيث يفوز مختلف الأبطال بمختلف الجوائز على أشدّ نحوٍ من التنوع ، ابتغاء الاحتفال بجنازة بـتروكل . ونحن الألمان ألم نرتكب إساءة بالغة إلى ملحمة « النيبيلنجن » الرائعة بمقارنات من هذا النوع ؟ فهي بمقدار ما تأسّرنا إذا ألفنا جوّها وقبلنا كل شيء بثقة وعرفان بالجميل ، فإنها تبدو غريبة إذا قدرناها وفقاً لمقياس ينبغي ألا نطبقه عليها .

وهذه الملاحظات تنطبق أيضاً على إنتاج مؤلف أوحد كتب كثيراً ، وطرق أجناساً مختلفة وقتاً طويلاً . فلندع للجمهور العاِمّ الأخرق أن يمدح ، ويختار ويرفض بواسطة المقارنة . بيد أن من يقومون بتربية الشعب ينبغي عليهم أن يسموا إلى وجهة نظر فيها نظرة عامة وواضحة تأني لتساعد حكماً خالصاً ليس بمسبّتي .

مقارنة

وفي نفس اللحظة التي فيها ، ونحن نحكم على الكتاب ، نحرم كل مقارنة قد يندهش المرء إذا تحدثنا بعد هذا مباشرة عن حالة نجد فيها هذه الطريقة الرائعة . بيد أننا نرجو أن يسمح لنا بهذا الاستثناء ، لأن الفكرة الأولى فيها لا ترجع إلينا ، بل إلى شخص آخر ،

لاحظ شخص عرف الشرق في كل اتساعه وسموه وعمقه أنه لا يوجد كاتب ألماني اقرب من الشعراء والكتاب الشرقيين مثل جان پول رشتير . وهذا التقدير بدا لنا حافلا بالمعنى حتى لم نملك إلا أن نمنحه من الاهتمام بقدر ما يستحق ، ولهذا نستطيع بسهولة أن ندلي بملاحظاتنا في هذه المسئلة ، خصوصاً بعد كل ما قلناه من قبل .

ولنبداً بالصفات الشخصية ، ولننقل* إن أعمال الصديق المذكور تشهد على عقل حكيم ، واسع ، نافذ ، مثقف ، متعلم ، وفوق ذلك مُحسن ورع . وعقل وُهِب على هذا النحو يلتقى ، على نحو شرقي مميز ، نظرة فرحة بجسوراً على العالم المحيط ، ويخلق أغرب العلاقات ، ويربط غير المتفق ، لكن بحيث أن خيطاً أخلاقياً سرّياً يشبك به حتى يتقدم الكل إلى نوع من الوحدة .

ولما كنا قد بينّا وحدتنا العناصر التي بفضلها أبدع شعراء للشرق القدماء الممتازون أعمالهم ، فسيكون من السهل أن نبيّن أنه بينما هم عملوا في منطقة جديدة وبسيطة ، فإن صاحبنا (جان پول رشتير) على العكس يعيش ويعمل في عالم مثقف ، بل مفرط في الثقافة ، زائف الثقافة ، مقلوب ، وعليه تبعاً لذلك أن يكون كثفاً للسيطرة على أغرب العناصر . ولإبراز التباين بين الوسط الذي يعيش فيه البدوي والوسط الذي يعيش فيه صاحبنا سنقتصر على أن نستخلص من بضع صفحات^(١) التعبيرات الأبرز :

« معاهدات حدود ، أوراق إضافية ، كاردينالات ، ملحق رواية ، بلياردو ، أباريق بيرة ، مقاعد إمبراطورية ، كراسي امتياز ، المندوب الرئيسي ، حماسة ، ذيل شبح ، تماثيل نصفية ، أقفاص سنجاب ، مرجف^(٢) ، وغد ، مجهول ، ندوات ، صديقية بلياردو قانوني ، نسخة

(١) من قصة جان پول : « هسروس ، يوم بريد الكتب ٦٠ » .

(٢) هو الذي يعتقد صفقات صورية في البورصة لتلاعب في الأسهم .

من الحبس ، ترقى ، صبي حدّاد ، شهادة جنسية ، برنامج العنصرة ، ماسونى ، محاكاة باليد ، أبتر ، مستخدم بدون أجر ، محل مجوهرات ، طريق السبت ، الخ .

فإذا كانت كل هذه التعبيرات معروفة للقارئ الألماني المثقف أو يمكن أن تعرف بمساعدة « موسوعة المحادثات » ، كما يمكن معرفة العالم الخارجى بواسطة التجار أو الحجاج ، فإننا نستطيع بحساسة الشرق أن نوافق على أن عقلا مركباً هكذا له الحق فى أن يسلك هذا المسلك على أساس مختلف تماماً .

فإذا كنا نسلّم لصاحبنا المحترم الخصب وهو يعيش فى عصر متأخر تماماً ، أنه ينبغى عليه ، حتى يكون ظريفاً فى عصرنا ، أن يشير بمختلف الإشارات إلى ظروف حياة معقدة ومفتنة . إلى غير نهاية بواسطة الفن ، والعلم ، والصناعة ، والسياسة ، والحرب والسلام ، والفساد — فإننا نعتقد أننا بهذا قد أيّدنا تأييداً قوياً ما ينسب إليه من عقلية شرقية .

لكننا مع ذلك نشير إلى فارق ، هو ذلك التناقض بين طريقة سلوك الشاعر وطريقة سلوك الناثر . فبالنسبة إلى الشاعر — والوزن والتوازى والنبرة على المقطع ، والقافية تحشد فى طريقه أسوأ العقبات — كل هذا يأتى لصالحه ، إذا حلّ عقْد الألغاز بمهارة ، الألغاز التى تلقى عليه أو يصفها هو بنفسه ؛ ونحن نرخص له فى أشدّ المحازات جسارة بفضل قافية غير متوقعة ، ونغتنب من حضور بديهية الشاعر وسط ما يعانیه من التزامات .

أما الناثر ، فعلى العكس ، حرّ الذراعين تماماً ، ومستول عن كل ما يبدو منه من تهورات ؛ فكل ما يصدم الذوق يجب أن يحسب عليه بوصفه مستولاً عنه . لكن لما كان من المستحيل ، كما بيّنا طويلاً ، أن نفصل فى مثل هذا الشكل من الأسلوب بين الحسن والردىء ، فإن كل شىء يتوقف فى هذه المسئلة على الشخص الذى يأتى بنفسه فى هذه المغامرة الشائكة . فإن

كان شخصية مثل جان بول ، يجمع قيمة القريضة إلى الكرامة الإنسانية ، فإن القارئ ، المنجذب إليه ، يتألف بسهولة ، فكل شيء معقول ومُرحَّب به . ويشعر المرء بالراحة في حضرة شخص يجيد التفكير على هذا النحو ، وشعوره ينتقل إلينا . إنه يهيج خيالنا ، ويتملق ضعفنا ، ويقوى قوانا ويشد أزرننا .

ويمرّن المرء عقله وهو يبحث عن حل للألغاز الغريبة التي يقترحها علينا ، ويسعد حين يجد في وخلف اختلاط عالم متنوع مثلما خلف أى لغز ، يجد شيئاً مفيداً ، مثيراً ، يبعث الانفعال ، بل ويهذب النفس . وهذا هو تقريباً ما يمكننا ذكره ابتغاء تبرير المقارنة التي عقدناها ، لقد حاولنا أن نعبر على أوجز نحو ممكن عن النقط التي فيها نتفق أو نختاف ، وأن نصاً من هذا النوع يمكن أن يؤدي إلى شروح لانهاية لها .

تحفظ

إذا عدّ إنسان الكلمات والتعبيرات شواهد مقدسة ورفض أن يستعملها كالتقود الصغيرة (الفكة) أو أوراق النقد في التعامل السريع المباشر ، لكنه أراد أن يتبادل ، في التعامل الروحي ، كبدائل مساوية حقيقية ، فلا غضاضة إذا لاحظ كيف أن التعبيرات التقليدية التي لا تثير بعد رية في نفس أحد تحدث رغم ذلك تأثيراً مؤذياً ، من شأنه أن يغشى على الأبصار ، ويشوه الأفكار ، ويوجه مجموعة من المعاني توجيهاً فاسداً .

ومن هذا النوع يمكن أن يعدّ الاستعمال الذي أُدْخِل وخلاصته أن نعدّ عنوان « فنون القول » باباً عاماً ، يندرج تحته الشعر والنثر ، ويعالج كلاهما الواحد بعد الآخر وفي مختلف أجزائهما .

والشعر ، منظوراً إليه في ماهيته الخالصة ، ليس قولاً ولا فناً : إنه ليس « قولاً » لأنه يحتاج في كماله إلى الإيقاع والنشيد وحركات الجسم

والمحاكاة ؛ وليس « فنا » لأن كل شيء فيه يقوم على ما هو طبيعي ، وينبغي أن يخضع لتواعد ، لكنه ينبغي ألا يخضع لفن مغلق من جانب الترويض الفني ، بل يظل دائماً التعبير الأمين عن روح ملهمة ، متحمسة ، لا تستهدف غرضاً ولا قصداً .

أما فن القول فعلى العكس من ذلك هو قول وفنٌ معا ، ويتألف من قول واضح متحمس وجداني مع وزن ، وهو « فن » بكل معنى الكلمة . وهذا الباب الذي نلوم على استخدامه ، ينحط الشعر ، لأنه يُنسَق — بل يُخضع — لفن القول ، ويستمد منه اسمه ومكانته .

وهذه التسمية وهذا التقسيم تقررا واستقرا لأن كتما عالية القيمة تحملها على صنفاتها الأولى ، ومن الشاق أن نصرف العادة عن ذلك . وهذا الاستعمال ناشئ عن كون الفنان لا يُستشار في تصنيف الفنون . والأعمال الشعرية تصل إلى الأديب أولاً على هيئة حروف مطبوعة ، وهي أمامه على شكل كُتُب عليه أن يفهرسها ويصنفها .

الأجناس الشعرية

الدفر ، الحكاية الشعرية (البلادَة) ، الأنشودة Cantate ، المراثية (الاليجيا) ، الأهجية Epigramm ، الرسالة Epistel ، الملحمة ، الأقصوصة ، الحذافة ، البطولية Heroidedl ، الرعوية Idylle ، المنظومة التعليمية Lehrgadicht ، الأود Ode ، المتكمة Parodie القصة Romano ، الرومانسه Romanze ، اللاذعة satire .

لو شئنا أن نصنف بطريقة منهجية كل هذه الأجناس الشعرية التي أتينا على سردها وغيرها ، اصطدمنا بصعوبات شديدة لايسهل تذليلها . وإذا نظرنا في هذه الأبواب عن قرب وجدنا أن أسماءها مأخوذة إما عن صفات خارجية ، أو عن المضمون ، والقليل منها عن شكل جوهري . ويلاحظ على

الأمور أن بعضها تنسَق ، والبعض الآخر يمكن أن يُتَّبَعَ لبعضه . وللمجرد متعتنا ، كل منها يمكن بسهولة أن يبقى وينمو على حدة ؛ لكن إذا أردنا : بفرض تعليمي أو تاريخي ، أن نفهم ترتيباً أكثر معقولة ، فن الخبر أن نتحدث كيف يمكن الوصول إلى ذلك . ولهذا نعرض على النقد الملاحظات التالية :

الأشكال الطبيعية للشعر

لا يوجد غير ثلاثة أشكال حقيقية للشعر : أحدها يروى بوضوح ، والثاني يتحمس وينفعل ، والثالث يؤثر شخصياً : الملحمة ، الغناء : والمسرحية . وهذه الأجناس الثلاثة يمكن أن تعمل معاً أو على أفراد . وفي أدنى الشعر نجدتها معاً ، وهذا الاجتماع في أضحى مكان ، تولد مؤلفات رائعة كما نلاحظ ذلك بتحديد في خير الحكايات الشعرية (البلاده) عند كل الشعوب . وفي المأساة اليونانية القديمة نجد أيضاً الأجناس الثلاثة مجتمعة ، ولا تنفصل إلا بعد مرور فترة من الزمن . وطالما كانت الجوقة هي الشخصية الرئيسية ، فالسيادة للغناء ، وكلما صار مجرد مشاهد فإن النوعين الآخرين (الملحمة والمسرحية) يكتسبان مزيداً من النفوذ ، وأخيراً حين يتركز المفعول ويزداد تحدُّداً ، نجد الجوقة مصدر ضيق وناقلة . وفي المأساة الفرنسية ، يكون العرضُ ملحماً ، والقسم الأوسط مسرحياً ، والفصل الخامس ، وهو الذي ينتهي بالوجدان والحماة ، يمكن أن يسمى غنائياً .

والملاحمة الهوميرية ملحمة خالصة والربسود هو دائماً الشخص الرئيسي ، ويروى ما يحدث ؛ ولا يستطيع أحد أن يفتح فيه إلا إذا أذن له الربسود بالكلام وأعلن عن خطبته وجوابه . والحوار المقطوع ، وهو أبجل زينة في المسرحية ، غير مقبول .

استمع الآن إلى المرتجل المحدث الذي يعالج ، في السوق أو الموران

العام موضوعاً تاريخياً ؛ كى يكون واضحاً فإنه يبدأ بأن يقتصر ، ثم ليشر الانتباه بتكلم كالمثل ، وأخيراً انفجار الحماسة ذو الذى يهز القلوب . وهكذا يتبين على أى نحو غريب يمزج بين هذه العناصر الثلاثة وتنوع الأجناس الشعرية إلى غير نهاية ، ولهذا أيضاً يصعب أن نجد ترتيباً وفقاً له يمكن تصنيفها جنباً إلى جنب أو الواحد تلو الآخر . ويمكن حل المشكلة بأن نرتب على هيئة دائرة العناصر الثلاثة فى مقابل بعضها البعض وبأن نبحث عن مؤلفات نموذجية كل عنصر فيها يسود بمفرده . ثم تجمع الأمثلة التى تنحوى فى اتجاه أو آخر ، حتى يتجلى اجتماع الثلاثة وتكتمل الدائرة تماماً .

وهذه الطريقة نصل إلى ملاحظات جميلة ، تتعلق إما بالأجناس الشعرية ، أو بأنماط وأذواق الأمم فى توالى الأزمنة . وعلى الرغم من أن هذه الطريقة تصلح أكثر للدراسة والتسليية الشخصية منها لتعليم الآخرين ، فربما سيكون من الممكن أن نقرر صورة إجمالية تصور فى ترتيب واضح الأشكال الخارجية العرضية والأصول الأولية الباطنة الضرورية . ومع ذلك فإن هذه المحاولة ستكون دائماً شاقة خصوصاً لأن المجهودات التى بذلت فى التاريخ الطبيعى من أجل أن يعرض على العقل فى ترتيب طبيعى العلاقات بين الصفات الخارجية للمعادن أو للنباتات وبين خصائصها الباطنة هى أيضاً شاقة .

ملحق

من الوقائع الجديدة بكل انتباه أن الشعر الفارسى يخلو من المسرحية . ولولدت شاعر مسرحى واحد ، لكان الأدب القومى الفارسى قد اتخذ وجهة مختلفة تماماً . إن الشعب الفارسى يحب الراحة ، ويلذ له أن يستمتع للنقص ، ومن هنا هذا العدد الذى لا نهاية له من الحكايات والقصائد التى لا تنتهى . على أن الحياة الشرقية بوجه عام لا تميل بطبعها إلى الإيضاح : فلاستبداد لا يشجع على الحوار ، ونلاحظ أن كل معارضة لإرادة وأوامر السلطان

الحاكم لا يمكن أن تقدم إلا على شكل اقتباس من القرآن ومن الشعراء ذوى الأبيات المشهورة ، وهذا يفترض في نفس الوقت عقلية روحية ، وثقافة واسعة ، عميقة ، منطقية مع نفسها . أما أن الشرقيين ، مع ذلك ، قليلو الميل قبل أى شعب آخر إلى الاستغناء عن شكل الحوار ، فهذا ناشئ عن تقديرهم الزائد لحكايات بيدبا ، التى استأنفوها وواصلوها وحاكوها . « ومنطق الطير » لفريد الدين العطار يقدم لنا على هذا مثلاً جميلاً .

كتب النبوءات

من يعيش كل يوم في ظلام دامس ويحاول بعينه أن يستشف ضوءاً في المستقبل ، يتشبث ويتعلق بهم بكل مصادفة ابتغاء أن يكتشف فيها إشارة تدل على المستقبل . والمتردد لا يجد النجاة إلا في التصميم على الخضوع لقرار النبوءة أو الوحي . ومن هنا جاءت العادة المنتشرة في كل مكان عادة أن نطلب التنبؤ من كتاب مهم بين أوراقه نغرز دبوساً ، ونراى باحترام ورع الموضع الذى يتجلى حين نفتح الكتاب . ولقد كانت لنا صلوات وثيقة فيما مضى مع ناس كانوا يلتمسون بكل ثقة نصيحة في « الكتاب المقدس » ، و « كنز كيستلين » وكتب التقوى التى من نفس النوع ، وكانوا كثيراً ما يجدون فيها في أسوأ المحن والكوارث عزاء وأحياناً قوى جديدة يستعينون بها على الحياة طوال عمرهم .

وفي الشرق نجد هذه العادة أيضاً ؛ ويسمونها « الفأل (١) » وكان لحافظ هذا الشرف بعد مماته بقليل ، لأنه لما كان المؤمنون المتشددون رفضوا أن يدفن دفناً رسمياً ، سألوا قصائده ، ولما كان الموضع الذى وقع عليه البخت يذكر قبره وأن الحجاج سيأتون لزيارته ذات يوم والتبرك به ، فقد استنتجوا من هذا أنه ينبغي دفنه رسمياً . والشاعر الغربى (جيته) هو الآخر يشير إلى هذه العادة ويرجو أن ينال كتابه الصغير هذا نفس الشرف .

(١) بالمرية في الأصل .

تبادل الأزهار والعلامات

حتى لا نحسن الظن كثيراً بما يسمى باسم لغة الأزهار وحتى لا نتوقع منها نقل عاطفة رقيقة ، فينبغي أن نسأل أهل الذكر . ولم يُعطَ مدلول لكل نوع من الأزهار خاصة لتقدمها طاقة ككتابة سرية ، وليست الأزهار وحدها هي التي تكون الكلمات والحروف في هذه الأحاديث : فكل ما هو مرئي . قابل للنقل يستخدم بنفس الحق .

لكن كيف يتم هذا من أجل الحصول على اتصال ، وتبادل عواطف وأفكار ، هذا أمرٌ لا نستطيع أن نتصوره إلا إذا استحضرنَا في الذهن الخصائص الجوهرية للشعر الشرقي : النظرة الواسعة إلى عالم الأشياء ، وسهولة النظم ، ثم نوع من اللذة وميل فطري في الشعب إلى اقتراح الألغاز ، ومن هذا تنشأ أيضاً البراعة في حل الألغاز ، وكل هذه صفات يئس لشخص تميل به قريحته إلى الاهتمام بالمعميات والأحاجي وما شابهها .

ولنلاحظ هذه المناسبة أنه إذا بعث عاشق إلى المحبوبة بشيء ما ، فينبغي على المرسل إليها أن تنطق باسمه ، وأن تبحث عن التوافي المدونة لهذا الاسم ، ثم تحزرها هي أفضل قافية تناسب المقام . ومن الواضح أن مثل هذه العملية تفرض حزراً حماسياً . ولايضاح ذلك نقدم مثلاً ؛ وهذه قصة صغيرة توضح هذا النوع من المراسلات :

تم ترويض الحُرَّاس

بألعاب حب رقيقة ؛

لكن كيف تفاهمنا ،

هذا ما سنكشف عنه ،

لأن مصدر سعادتنا ، يا عزيزتي ،

ينبغي أن يفيد الآخرين أيضاً ،

نريد أن نقرّط مصابيح الحب

ذات الدخان في ليل الغرام

ومن يقدر ، بعدنا ،

أن يرهف أذنه جيداً ،

سيصل بغير عناء ، إذا كان عاشقا مثلنا ،

إلى معرفة المعنى الحقيقي بواسطة القافية .

لقد أرسلت إليك علامة ، وأنت أرسلت إلى أخرى ،

وفي الحال تم التفاهم

رأيت اللطيفة

قطيفة

من بعين أصاب ؟

سذاب

محارب خطير

وبر النمر

بأى حال ؟

وبر الغزال

عليك بالخبر

عقصة الشعير

نجب

محبب

الحب فن

تبين

اعرف السبب

عنب

ما أطف المكان !

مرجان

نعيم الفوز !

نواة اللوز

منك خفت

لفت

هل حنّز ؟

جزر

ما العمل ؟

بصل

عنب أبيض	مَنْ ذَا يرفض
عنب أزرق	شيء مؤرق
بنجيل	مثل البخيل
قرنفل	هل أتحول ؟
نرجس	وجهك أنحس
بنفسج	في العوسج
كرز	غاص وانغرز
ريش غراب	حبك عذاب
ريش بيغاء	طاب الغذاء
كستنا	يوم الحنا
رصاص	يوم التصاص
لون الورد	مات البرد
حرير	حلو العبير
فول	كلام معقول
صعتر	لم تبختر ؟
أزرق	حبك أخرج
كترم	سد الشرم
برقوق	عبد مرقوق
تين	يا للهور العين !
ذهب	غاب واحتجب
جلد	في جنات الخلد
ورق	شرب المرق
أفحوان	قمح وزوان

كمان الليل	يا للويل !
خيـط	ملفوف فى الرـيـط
غصن	سيدة الحـسن
بـاقـة	مثل الناقـة
لبـلاب	أغلق الباب
آس	آه من الناس !
ياسمين	الناس مجانين
دبـس	أنت نمس
صفـصاف	فوقه ناف
زهرة فول	عرض وطول
جـير	لا فى العير ولا فى النفير !
لهـيب	فليذهب به العفريت العجيب

وإذا كان « جميل »

لم يفـتـاهـم هـكـذا مع « بشينة » ،

فكيف ظل اسمها حتى الآن

حيّاً نصرًا سعيداً ؟

هذه الطريقة الغريبة فى التراسل يمكن أن تستخدم بين شخصين لودعيين يعشق كل منهما الآخر . فإذا اتخذ العقل هذا الاتجاه ، أتى بالعجب العجـاب . وهذه حكاية من بين آلاف الحكايات ، تؤيد هذا القول .

عاشقان يقومان بنزهة ويقضيان معا يوما هائلا ، وفى العودة يلهوان باقتراح الأحاجى . وسرعان ما تحزر كل أحجية على شفة الآخر ، بل أكثر من هذا : كل كلمة يفكر فيها الآخر ويريد ترتيبها على هيئة لغز يحزرها الآخر فى الحال ويفصح عنها .

وإذا رويت مثل هذه الأمور وأكدت في عصرنا ، فينبغي ألا نخاف أن تظهر بمظهر مضحك ، لأن مثل هذه الظواهر النفسية لا تساوى من بعيد تلك التى كشفت عنها المغناطيسية الحيوانية .

ومن

وتم وسيلة أخرى للتفاهم ، تتسم باللطف والملاحظة ! فبينما منذ قليل كان الأمر يتعلق بالعقل والأذن ، يتعلق الأمر هنا بعاطفة جمالية تتألف من الرقة للعاشقة ، وتكافئ أسمى الشعر .

في الشرق تعلم الناس أن يحفظوا القرآن عن ظهر قلب ، وبأقل إشارة كانت السور والآيات تمكن الناس من التفاهم بسهولة . وقد عرفنا نفس الشيء في ألمانيا ، فنذ خمسين سنة كانت التربية تهدف إلى « تقوية » الشباب في الكتاب المقدس ؛ فلم يقتصر الأمر على استظهار الآيات المهمة ، بل كان المرء يحصل معرفة وافية بسائر الآيات . ووجد أيضاً كثير من الناس الذين برعوا في فن الاستشهاد بآيات الكتاب المقدس في كل المناسبات والحوادث واستخدامها في الأحاديث الجارية . ولا يمكن إنكار أن هذا قد أدى إلى أجوبة بارعة ملائمة ، ولا يزال بعض الآيات حتى اليوم تتردد باستمرار في الأحاديث .

ويستخدم أيضاً لنفس الغرض اقتباسات من الكتاب الكلاسيك ، مما يدل على العود الأبدى لبعض العواطف والأحداث .

ونحن أيضاً منذ خمسين عاماً حين كنا شباباً نمجّد شعراءنا الوطنيين ، كان يلذ لنا أن نحكي ذاكرتنا بمؤلفاتهم ، ونعدّ لهم عن إخالص إعجابنا بأن نعبّر عن أفكارنا بالاستعانة بكلماتهم الفصيحة المختارة مصرّحين هكذا بأنهم كانوا يعرفون خيراً منا كيف يعبرون عن عواطفنا الباطنة .

وللوصول إلى الهدف الحقيقي الذى نستهدفه ، نذكر طريقة معروفة

لكنها غريبة ، فى التفاهم معاً بواسطة الرمز : وتلك حال شخصين يتفقان على كتاب معين ، وينشئان الرسالة بمعونة أرقام تدل على الصفحات ، الأسطر ، وهما واثقان أن المرسل إليه سيفهم المعنى بسهولة .

والشعر الذى نسميه « الرمز » يشير إلى اصطلاح من هذا النوع . يتفق العاشقان على اتخاذ قصائد حافظ الشيرازى أداة للتراسل الغرامى بينهما ؛ فيشير كل منهما إلى الصفحة والسطر الذى يعبر عن شعوره الحالى ، وهكذا تتولد أناشيد مركبة ذات تأثير بديع جداً ؛ والمواضع المتناثرة فى الشاعر الذى لا نظير له يضم بعضها إلى بعض بالوجدان والشعور ، والميل والاختيار الحر فتعطى الكل حياة باطنة ، والعاشقان اللذان فى حال فراق يجدان سلوكى كظيمة فى أن يزينا حدادهما بلآلى من كلامه (١) :

إني أريد أن أفتح لك قلبي ؛

وأريد أن أسمع الحديث عنك ،

أية نظرة حزينة يلقها العالم على !

فى قلبي يسكن حبيبي وحده .

ولا أحد غيره ولا أثر لعدو فيه .

جالت بخاطري فكرة كأنها مشرق الشمس .

حياتي ، أريد أن أكرسها كلها

للاهتمام بحبه ، ابتداء من اليوم .

إني أفكر فيه ، وقلبي يدمى .

لا قوة عندي غير أن أحبه ،

(١) القصيدة التالية مؤلفة من مواضع مأخوذة من شعر حافظ أشارت إليها رسالة رمزية كتبها مريانة فون فليبير إلى جيته .

بكل كياني ، في صمت :

ماذا سينجم عن هذا !

أريد أن أقبله

ولكني لا أستطيع .

الديوان المستقبل

في عصر من العصور كان يوزع في ألمانيا مطبوعات بصورة « مخطوطات للأصدقاء » . ومن يستغرب هذا عليه أن يتذكر أن الكتاب لا يكتب إلا لمن يتعاطفون معك : الأصدقاء والأنصار . وأود خصوصاً أن أنعت « ديواني » هذا بهذا العنت ، وطبعته الحالية ينبغي أن تعد ناقصة لم تتم : ولو كنت أصغر سناً ، لاحتفظت به معي وقتاً أطول ، والآن أجد من الأفضل أن أجمعه بنفسى ، بدلاً من أنصنع صنعة حافظ فأدع هذه المهمة للأجيال التالية . وكون هذا الكتاب الصغير مائل الآن على النحو الذى سأقدمه هو الذى يثير فى نفسى الرغبة فى أن أعطيه الصورة الكاملة تقريباً التى تليق به . لكن ما عسى أن يرجّيه منه الإنسان ، يمكن أن أشير إليه باختصارٍ كتاباً كتاباً .

كتاب المغنى

الكتاب بوصفه الحالى يعبر بحماسة عن الانطباعات الحارة التى تركتها فى حواسى ونفسى كثير من الأشياء والظواهر ، وفيه بيان للعلاقات الخاصة التى عقدها الشاعر مع الشرق . فإذا استمر على هذا النحو فإن هذا البستان الجميل يمكن أن يزين على نحو بديع ، وسيوسع البرنامج على نحو شائق إذا لم يقتصر الشاعر على الكلام باسمه وعن انطباعاته الخاصة : بل عبر أيضاً عن امتنازه

وتحياته لسادته وأصدقائه ابتغاء اجتذاب الأحياء بكلمات العطف واستعادة ذكرى الموت بشرف .

ومع ذلك فإن تخليق الشرق ، ذلك الشعر الفنى الذى يفيض بالمديح فيضاً ، يمكن ألا يتلاءم مع ذوق القارئ الغربى . ونحن قد انطلقنا بملاء حريقنا ، ودون التجاء إلى المبالغات ، لأن الشعر المحض المشعور به صدقاً يمكنه أن يصف المناقب الخاصة بالناس الممتازين الذين لا يُشعر حقاً بكالاتهم إلا حين يغادرون هذه الدنيا ، فلا تضايقنا غرائبهم بعدد ، والآثار العميقة لتأثيرهم تتجلى لنا كل يوم وكل ساعة . وكان من حسن حظ الشاعر (جيته) أن يدفع قسطاً من هذا الدين على طريقته ، بطريقة أسرية ، فى احتفال رائع ، وبحضور شخصيات رفيعة (١) .

كتاب حافظ

إذا كان كل من يتكلمون بالعربية وباللغات التى من نفس الأسرة يولدون شعراء ويُنشئون كذلك ، فمن السهل أن يتصور المرء أن مثل هذه الأمة قد ولدت نفوساً ممتازة لا حصر لها . لكن إذا كان هذا الشعب ، طوال خمسة قرون ، قد أعطى الصدارة لسبعة شعراء فقط ، فعلينا أن نتقبل هذا الحكم باحترام من غير شك ، لكن سيكون فى وسعنا مع ذلك أن نبحث على أى أساس قام هذا التفضيل .

هذه المشكلة ، بالقدر الذى به يمكن أن تُحَلَّ ، ينبغى أن تخصص للديوان المقبل . إذ حتى لو اقتصرنا على حافظ وحده ، فإن الإعجاب به والحب له ينموان كلما أزددنا به علماً : طبع هائى جداً ، ثقافة واسعة ، سهولة حرة وإقناع خالص بأنه لا يمكن لإرضاء الناس إلا إذا تغنينا لهم

(١) إشارة إلى « موكب الأتقنة فى ١٨ ديسمبر سنة ١٨١٨ » الذى احتوى على أشعار لغيلاند وهردر وشر .

بما يلزمهم سماعه ، بغير عناء وبسهولة ، ثم يمكن أن ينضاف إلى ذلك حسب المناسبة شيء ثقيل ، مؤلم ، مضايق . فإذا شاء العارفون ، أن يتعرفوا في الفقرات الواردة صورة قريبة من حافظ ، فإن هذا سيسر خصوصاً الشاعر الغربي (راجع القصيدة : ما يريده الكل ، أنت تعلم من قبل ، البخ) .

كتاب العشق

سيكبر هذا الكتاب كثيراً لو أن الأزواج الستة من العشاق تبدوا على نحو صريح بملذاتهم وآلامهم وإذا انبثق غيرهم إلى جدارهم من ظل الماضي على أنحاء متفاوتة . فثلاً وامق^(١) وعزرا — اللذان لم يصل إلينا عنهما غير اسميهما — يمكن أن يقدمًا هكذا :

نعم ! الحب فضل عظيم !

وهذا الكتاب يقبل أيضاً الاستطرادات الرمزية التي لا غنى عنها في سهول الشرق . إن الرجل الروحي لا يقنع . يقدم إليه ، بل ينظر إلى كل ما يقنع تحت حراسة على أنه مسخرة خلفها تختبئ ، بهوى حاكر ، حياة روحية رفيعة من أجل اجتذابنا ورفعنا إلى مناطق أعلى . وإذا سلك الشاعر في هذه النقطة بفن واع متزن ، فإننا ندعه وشأنه ، ونجد في ذلك متعة لنا ، ونجرب أجنحتنا من أجل طيران أشد حزمًا .

كتاب التفكير

هذا الكتاب يزدد كل يوم بالنسبة إلى من يسكن الشرق ، لأن التفكير يترجح بين الحسنى وما هو فوق الحسنى ، دون أن ينحاز للواحد

(١) أول من نظم قصة « وامق وعزرا » بالفارسية دو « العنصرى » ، ثم نظمها فصيحي الجرجاني في تاريخ متأخر عن سنة ٤٤١ هـ (١٠٤٩ م) ، ويقال إنه استقاهما من أصل بهلوى . وذكر ايتيه أنها فظمت ست مرات بالفارسية ، ولكنها ضاعت جميعاً ؛ ولم يبق ما يكشف عن موضوعها غير ما ذكره الشاعر التركي « لمى » في ترجمته التركية لمنظومة العنصرى .

أو للآخر نهائياً . وهذا التأمل الذى ندعوك إليه من نوع خاص جداً ، فهو لا يتعلق فقط بالحكمة العملية ، وإن كانت هذه تتجلى كثيرة المطالب ، بل يتوجه أيضاً صوب تلك النقاط القصوى حيث أغرب المشاكل فى الحياة تقوم أمامنا على نحو مباشر لا يرحم وتحملنا على ثنى ركبنا أمام الصدفة ، وأمام العناية وقراراتها لا تُدرك ، مع إعلان أن الاستسلام المطلق هو القانون الأعلى للعالم السياسى والأخلاق والدينى .

كتاب سوء المزاج

إذا كانت الكتب الأخرى من هذا الديوان تنمو وتزداد ، فلنمنح هذه الحق لهذا الكتاب . وينبغى حشد الإضافات للديانة ، المحبوبة ، المعقولة قبل أن تصبح انفجارات سوء المزاج محتملة . والإحسان الكلى ، والمشاعر المتسامحة المعاونة توحد بين السماء والأرض وتبهي للناس الجنة التى وعدوها ؛ ولكن سوء المزاج دائماً أناى ، ولا يكف عن المطالبة بحقوقه حتى يحصل عليها ، إنه متعجرف ، يضايق ولا يسر أحداً ، حتى ولا أولئك الذين يستولى عليهم نفس الشعور . ولكن الإنسان لا يستطيع كبت هذه الانفجارات باستمرار ؛ بل هو يحسن صنْعاً حين يسعى للتخفيف عن سخطه على هذا النحو ، خصوصاً حين يتعكر نشاطه أو يُعَوَّق . ومنذ الآن وهذا الكتاب ينبغى أن يكون أكبر أهمية وأكثر غنى ؛ لكن منعا لكل ضيق فقد نحينا جانباً كثيراً من الأشياء . ولنلاحظ فقط أن مظاهر من هذا النوع ، يمكن أن تبدو مضايقة فى لحظة ما ، قد يُقرَّر بأنها بريئة وتُستقبل بهدوء وإحسان قد احتفظ بها تنتشر فيما بعد كملحقات .

وفى مقابل ذلك نهتبل هذه الفرصة لتتكلم عن المزاعم ، ونبدأ بالطريقة التى تتجلى عليها فى الشرق . والحاكم نفسه هو أول أصحاب المزاعم ويبدو أنه يستبعد سائر المزاعم : الناس كلهم فى خدمته ، وهو سيد نفسه ، ولا يلقي

أحدٌ عليه أمراً ، وإرادته تخلق العالم المحيط بها ، حتى إنه يمكن أن يشبه بالشمس ، بل بالكون . ومن العجيب أنه من أجل هذا السبب هو مضطر إلى أن يختار لنفسه من يساعده في الحكم في هذا الميدان غير المحدود ويسنده في الواقع على عرشه الذي يحكم منه الدنيا . والشاعر يعمل معه وبالقرب منه ويمجده فوق كل بنى الإنسان . وإذا تجمع كثير من هذه القرائح في القصر ، فإنه يُعين أميراً للشعراء وهذا يقرّ بأنه يرى القرينة العليا مكافئة له . لكن الشاعر بهذا يجرّ ، بل يُدفع دفعا إلى أن يحسن الظن بحاكمه ويشعر أنه يشاركه في كل امتيازاته ومُتّعه . ويتأيد عنده هذا الظن بما يناله من منّ وجوائز لا حصر لها ، والثروات التي يجمعها ، والنفوذ الذي يمارسه . ويستوثق من هذا الاعتقاد إلى حد أن أقل إخفاق في آماله يدفعه إلى الجنون . لقد توقع الفردوسي أن ينال عن « الشاهنانه » ، بناءً على وعد سابق من السلطان ، مكافأة قدرها ستون ألف قطعة من الذهب ، لكن لما لم ينل إلاّ ستين ألف قطعة من الفضة ، وقد تلقى هذا النبأ وهو في الحمام ، فإنه قسّم هذا المبلغ إلى ثلاثة أقسام : وأعطى قسماً منها للرسول الذي أتى بالمبلغ ، والقسم الثاني لصاحب الحمام ، والقسم الثالث للحلواني ، وفي الحال سحب ، في أشعار هجائية ، كل المدائح التي كالمها من قبل للسلطان طوال سنوات عديدة . وهرب ، واختبأ ، ولم يتراجع ويطلب المغفرة ، بل ورث كراهيته لأهله ، حتى إن أخته بدورها احتقرت ورفضت مكافأة كبيرة أرسلها السلطان بعد أن هدأت غضبته ، لكنها لم تصل مع الأسف إلاّ بعد وفاة أخيها (الفردوسي) .

وإذا كنا نود متابعة هذه التأمّلات فلننّا نقول إنه من العرش ، نازلين كل الدرجات ، حتى الدرويش في زاوية الشارع ، الكل ملئٌ بالمزاعم ، ملئٌ بالكبرياء الدنيوية أو الدينية ، التي تنفجر فجأة لدى أول مناسبة .

وهذا العيب الخلقى ، إن كان هذا عيباً ، يتخذ في الغرب مظهراً

غريباً جداً . إن التواضع في جوهره فضيلة اجتماعية ؛ ويفترض ثقافة واسعة ، إنه إنكار للذات بإزاء الغير ، يفترض قيمة باطنة عالية وينظر إليه على أنه صفة عالية في الإنسان . وهكذا يقال لنا إن الجمهور يمدح دائماً ، في الناس الممتازين ، تواضعهم ، دون أن يهتم بسائر مزاياهم وصفاتهم . لكن التواضع ، وهو مرتبط دائماً بالنفاق والمراعاة ، هو نوع من التملق يحدث أثراً كبيراً بقدر ما يلدّ دون أن يضايق ، لأنه يتجنب مضايقة الغير في تقديره الراضى بنفسه . لكن كل ما يسمى حُسن المعشر يتألف من إنكار متزايد للذات ، حتى إن المجتمع ينتهى بأن يرتد إلى صفر ، اللهم إلاّ إذا نمت ملكة إرضاء غرورنا مع القدرة على تملق غرور الآخرين .

ومع ذلك فنحن نودّ أن نوفّق بين مواطني شاعرنا الغربي وبين مزاعمه . ذلك أن « الديوان » لا يخاف من بعض المزاعم ، بقدر ما يراد محاكاة الطابع الشرقى .

وشاعرنا لا يمكنه أن يستسلم للميل الكريه إلى الكبرياء بإزاء الطبقات العليا . وموقفه السعيد أعفاه من كل صراع مع الاستبداد . والناس شاركوا في المدائح التي وجهها إلى سادته الأمراء . والشخصيات الكبيرة التي وجد نفسه على علاقات بها كان الناس ولا يزالون يحترمونها . بل يمكن أن يُؤخذ على الشاعر أن الجانب الممدح في كلامه ليس غنياً بدرجة كافية .

أما عن كتاب « سوء المزاج » . فيمكن بسهولة أن نوجه إليه لوماً ؛ ذلك أن كل ساخط يعبر بوضوح جداً عن كونه خلدع في آماله الشخصية وأنه لم يُقدّر حق قدره . والأمر كذلك بالنسبة إليه ! إنه لم يُعاكس من أعلى ، بل جُرّح من أسفل ومن الجانب . وحشد ثقيل ، تافه نخالياً ، خبيث مراراً ، مع خواشيهم ، يشلون عمله ؛ إنه يتسلح أولاً بالكبرياء

والمرارة ، لكنه بعد ذلك وقد حوَّص واحتوَّش ، يشعر بأنه قوى قوة كافية على أن يشق لنفسه طريقاً خلال الجدهور .

ونستطيع أيضاً أن نسلم له بأنه يستطيع أن يخفف مراراً كثيرة مزاعمه من حيث أنه يردّها في نهاية المطاف إلى محبوبته وأنه بذل بل يُفنى نفسه أمامها وسيشكر له قلب القراء وعقلهم هذا الصنيع .

كتاب الحكمة

هذا الكتاب أجدر من غيره بأن يزداد ، وهو أقرب نسباً إلى كتاب التفكير وكتاب سوء المناج . لكن الأقوال الشرقية تحافظ على السمة الخاصة بكل الشعر في الشرق ، وهى أنها ترجع غالباً إلى موضوعات حسية ومرئية ، ومن بينها كثير مما يمكن أن يسمى حقاً بأمثال موجزة . وهذا النوع هو الأصلب عند شاعرنا الغربى ، لأن محيطنا يبدو جافاً ، كثير التنظيم ، كثير الرتوب . وبعض الأمثال القديمة الألمانية التى فيها يتحول الشعر إلى صورة يمكن هنا أيضاً أن تفيد كمنادج .

كتاب تيمور

وكتاب تيمور يجب ، فى الواقع ، أن يتلقى أسسه الأولى ، وربما يجب أن ندع سنتين تمران حتى يأتى وقت فيه التفسير القريب جداً منا لا يسمى إلى الرواية المفخّمة لأحداث عالمية هائلة . وهذه المأساة يمكن أن تخفف إذا قررنا أن نظهر بين الحين والحين نصير الدين خراجة رفيق الحرب والحكمة المازح لهذا المدمر الرهيب . ومواتاة الوقت ، والروح الحرة يساعداً على النجاح ، ونورد هنا مثلاً نموذجياً للنوادر التى وصلت (١) إلينا :

(١) كان فون ديتس قد ترجم بحيته خمس نوادر من نوادر قصير الدين خواجه .
وجيته، يورد هنا الرابعة .

كان تيمور قبيح الخلقة ، وكان أعور ، أعرج . وذات يوم كان الخواجه بالقرب منه ، فحك تيمور رأسه ، إذ جاء وقت الخلافة ، فأمر بإحضار الخلاق : وبعد قص شعر رأسه ، وضع الخلاق ، كالعادة ، المرأة في يد تيمور . فتأمل تيمور في المرأة ، ووجد وجهه قبيحاً جداً . هنا لك أنشأ في البكاء وبكى الخواجه معه ، وظلا يبكيان هكذا طوال ساعتين . وهناك قام بعض الأصدقاء يواسون تيمور ، ويقصّون عليه حكايات عجيبة حتى ينسى كل شيء . فتوقف تيمور عن البكاء ، لكن الخواجه لم يتوقف بل ازداد في البكاء . وأخيراً قال تيمور للخواجه : اسمع ، لقد تطلعت في المرأة ورأيت نفسى قبيحاً جداً ، وجزنت لأنى وأنا الإمبراطور ولى ثروة هائلة وعبيد ، ومع ذلك فأنا قبيح هكذا ، ولهذا بكيت . وأنت ، لماذا تبكى بدون انقطاع ؟ — فقال الخواجه : إذا كنت رأيت نفسك مرة واحدة في المرأة فلم تحتمل منظر وجهك وأخذت في البكاء ، فماذا نستطيع نحن أن نفعل ، نحن الذين نتطلع إلى وجهك ليل نهار ؟ إذ لم نَبْكْ نحن ، فمن ذا الذى سيبكى ؟ لهذا بكيت . — وعند هذه الكلمات كاد تيمور أن يحنق من شدة الضحك :

كتاب زليخا

هذا الكتاب ، وهو أقوى سائر المجموعة ، يمكن أن يُعدّ منتهياً . إن النفس والحرارة في الوجدان الذى يشيع الحياة في الكتاب كله (الديوان) ليس شيئاً يمكن استعادته بسهولة غالباً ، وعلى كل حال فإن عودته ، مثل عودة سنة الخمر الطيبة ، يجب انتظارها بأمل وتواضع .

وتدلى ببعض الملاحظات عن مسلك الشاعر الغربى في هذا الكتاب ، كتاب زليخا . على مثال أكثر من واحد من أسلافه الشرقيين ، يعتمد الشاعر عن السلطان . وكدر ويش قنوع ، يجروء على أن يقارن نفسه بالأمير ؛ لأن للشحاذ الحقيقي ينبغي أن يكون نوعاً من الملك . إن الفقر يثر الحرارة . فعدم

الإقرار بالخيرات الدنيوية ولا بقيمها ، وقلة الاحتياج إليها أو الاستثناء عنها تماماً ، ذلك هو القرار الذى يؤدى إلى أسعد عدم اهتمام . وبدلاً من أن يبحث عن امتلاك فلق ، يوزع بفكره الولايات والكنوز ويسخر ممن يملكها ويفقدها . لكن شاعرنا فى الحقيقة يعلن عن فقر مقصود إرادى حتى يبدو أكثر كبرياء لأن ثمت فتاة تمنحه لهذا السبب عطفها وإخلاصها .

وفضلاً عن ذلك ، فهو يفخر بنقيصة أخرى : لقد هرب منه الشباب ، ويزين ضيخوخته وشعره الأشيب بحب زليخا ، وهذا لا يتم بثقل الثقيل الملاحح ، بل لأنه يعرف أنه يقابل حباً بحب . إنها زليخا ، الزكية ، يعرف كيف تقدر العقل الذى يُسْخِج الشباب مبكراً ويجدد شباب الشيخ .

كتاب الساقى

لا يمكن أن يُغْفَلَ فى الديوان الميل المفرط إلى الرذيلة التى يمكن أن يدافع عنها بعض الدفاع ، ولا الشعور الرقيق نحو جمال غلام ؛ لكن هذا الموضوع الأخير ينبغي ، وفقاً لأخلاقنا ، أن يعالج بطهاوة تامة .

إن الميل المتبادل بين الشباب والشيخوخة هو فى الواقع علامة على علاقة نربوية فى جوهرها . والتعلق الشديد من الولد للعجوز ليس أبداً حادثاً نادراً . بل واقعة قليلة الاستعمال . وليتأمل المرء فى العلاقات بين الحفيد والجد ، والعلاقات بين الوارث الذى جاء متأخراً وأبيه الذى فوجئ ورق قلبه . وفى العلاقات التى من هذا النوع تنمو الحكمة العملية للأطفال ، إنهم متنبهون للكرامة ، وللتجربة ، وللوقوة التى عند الشيخ ، وثم نفوس طاهرة تستشعر الحاجة إلى عطف ملىء بالاحترام ، والشيخوخة ينجمها ذلك وتفرح له . وإذا استشعر الشباب واستغل لنفسه مزايه للوصول إلى أغراض صديانية وإرضاء حاجات طفولية ، فإن الرضا يجعلنا نتسامح مع المكر المبكر . لكن الطموح العالى للطفل يظل لطيفاً جذاباً ، الطفل الذى وقد أثرت فيه روح

الشيخ النبيلة ، يستشعر في نفسه دهشة تدع تستشعر أن شيئاً شبيهاً يمكن أن ينمو فيه . وقد حاولنا أن نبين هذه العلاقات الجميلة في كتاب الساقى وأن نحددها هنا على نحو أكثر تفصيلاً . وقد خلّف لنا سعدى الشيرازى بعض الأمثلة اللطيفة التى تفتح لنا الفهم الكامل لهذه الواقعة . ولطفها بين لكل الناس .

فهذا ما يقوله في « الجلسان » : (حكاية) إنه في العام الذى اختار فيه السلطان محمود خوارزم شاه ، عقد الصلح مع ملك الخطا لإصلاح رآه ، دخلت جامع كاشغر ، فنظرت فيه صبيا من أحسن البشر ، ملاحظته في غاية الاعتدال ، ونهاية الجمال كما لو قالوا في أمثاله ممن انتفع ، بما تطيع .

يعلمك المعلم عتب يطف وظلم العاشقين مع الدلال
ولم أر شكل طبعك في ثنى فهل طالعت حاشية الخيال

وكان بيده مقدمة النحو للزحشرى وهو يعيد ويبدى ، ضرب زيد عمرأ وهو المتعدى ، فقلت : يا غلام ، إن خوارزم والخطا استصوبا الإصلاح ، وزيد وعمر لم يزالا في خصام وكفاح ! فتبسم ضاحكاً من قولى ، وسألنى عن محطة رحلى ، فقلت : يا أخا الإعزاز ، من أرض شيراز ، فقال : إن كنت تحفظ من رقائق السعدى ، فتكرّم بما تهدي ، فقلت :

(نظم عربى الأصل)

بليت بنحوى يصول مغاضبا على كزید فی التقابل مع عمرو
على جرّ ذيل ليس يرفع رأسه وهل يستقم الرفع من عامل الجرّ !
فغرق في الفكر قليلا وقال : إن غالب شعره في هذه الأرض بفارسمى
المقال ، فإن تفضلت بما يشتد قربه للفهم من مقبولهم ، فاجر على سنة
القتال : أميرت أن أكلم الناس على قدر عقولهم .

من وقت ما شغلت بالنحو الفكر محوت رسم العقل من قلب البشر
 صاد القلوب منك أشراك الجمال وأنت من زيد وعمرو في اشتغال
 فلما حان صُبْحُ الرحيل عندى ، أخبره بعضُ أهل القافلة أن صاحبك
 هو السعدى . وإذا به جاء راكضا يتلطف ؛ وعلى الوداع يتأسف ، قائلا
 قد مضت هذه الأيام ، ولم تغدنى بأنك ذلك الإمام ، كى أفى بحق الخدمة
 كما يشترط ، وأشدّ في شكر قدوم الأعيان الوسط ، فقلت (مصراع) :
 « بقربك منى لا أشير إلى لسمى » . فقال : ما المنعة ، إذا ارتمت أياماً بهذه
 البقعة ، حتى نستفيد بالخدمة ، ونؤدى شكر النعمة ؟ فقلت لا أستطيع ،
 لما تضمنه هذا النظم البديع :

نظرتُ شيخاً في كهوف الجبل أرضاه في الدنيا وميضُ الوشل
 فقلت : قُمْ بنا إلى المدينة كما تفكّك نفسك الخزينه
 فقال : كم فيها من الحور الحسن ما يهتك الحلم عند الافتتان !
 ثم تعانقنا يقبّل الوداع ، وتفارقنا والكُلُّ مُشْتَنٍ وداعٍ .

بعيشك ما يغنى الوداع بقبلة لوجنة من تهوى وأنت مواع
 كأنك يا تفاح قبلت راحلاً فنصفك محمرٌ ونصفك فاقع

(عربى الأصل)

إن لم أمت يوم الوداع تأسفا لا تحسبوني في المودة منصفاً (١) .

ويذكر الشاعر نفسه (السعدى) الحكاية التالية أيضاً :

« امتزجت في عهد الصبا بشاب ، حتى كان صدق مودتي له بهذا المثاب ،
 وهو لى جعلت قبلة عيني جماله ، ورأس مالى عمرى وربحه وصاله .

(١) « ترجمة الجلستان الفارسي العبارة ، المشير إلى محاسن الآداب باللفظ إشارة ، تعريب
 الأريب الأملى ، والأديب اللوذعى ، الخواجه جبرائيل بن يوسف الشهير بالخلع » ، ص ١١١ -
 ١١٢ ، طبعة بولاق بالقاهرة ، سنة ١٢٦٣ هـ (= ١٨٤٧ م) .

فرد المحاسن لا جنّ ولا ملك يحكى شمائله في أحسن الصور .
 ليس الحبيب الذى من بعده حرمت مطارحات الهوى من نطفة البشر .
 فما فجأنى إلاّ قدّم وجوده وقد غطس في وحل الأجل ، وارتفع
 دخان فرقته في القبيلة بأنفاس الوجل . فجاورت على رأس قبره جملة من
 الأيتام ، ومما قلته في فراقه هذه المقاطع الأيتام :

ألا إن يوماً شاك عمرك جوره دهانى من الدنيا به صارمُ البتر .
 وحجبت عيني عن سواك فدائماً أهمل على رأسى التراب من القبر

غيره

هذا الذى كان لا يأوى لمضجعه حتى يرش بنسرين وأزهار
 أراق دور الليالى ماء وجنته والشوك فرع فوق القبر يادارى
 وعزمت بعد فراقه أن أطوى في دار حياى بساط الهوى ، وجزمت
 أن لا أطوف حول المجالس لعشق بعض من جلس .

فلو هان موج البحر عمّ بنفقه ولولان شوك الورد ضمّ مع الحب
 أبالأمس كالطاووس فى الوصل أنثنى فأصبح أفعى تلتوى إذ نعى صهي^(٣)

كتاب الأمثال

على الرغم من أن الأمم الغربية هضمت شطراً كبيراً من ثروات الشرق .
 (الروحية) ، فلا يزال ثمّ الكثير مما يمكن التقاطه ، ولتحديد ذلك نقام .
 بعض التفسيرات :

يمكن توزيع الأمثال ، وكذلك سائر الأنواع الشعرية في الشرق ذات .

الصلة بالأخلاق ، بين ثلاثة أبواب : أخلاقية ، عرفية ، زهدية . والباب الأول يشمل وقائع أو إشارات تنسب إلى الإنسان بوجه عام وأحوال وجوده ، دون أن يحاول المرء أن يعبر عما هو خير أو شر . وهذا الأخير هو ما يبرزه الباب الثانى ، مهيناً للسامع بهذا اختياراً معقولاً . والباب الثالث يضيف إلزاماً حاسماً : فالوعظ الأخلاقى يصير قاعدة وقانوناً . ويمكن أن نضيف إلى هذه الأبواب الثلاثة طائفة رابعة من الأمثال : تعرض التوجيهات الرائعة الناتجة عن أوامر الله غير الميسورة وغير الممكنة التفسير : وهى تلقن وتؤكد ما هو الإسلام الصحيح ، أعنى التسليم المطلق لمشئته الله ، والإيقان بأنه لا يمكن أحداً أن يفلت من المصير المقدر عليه قدراً سابقاً . وربما يضاف إليها طائفة خامسة ، يمكن أن تسمى صوفية : تدفع الإنسان خارج الموقف الذى حدّده ، والذى يظل دائماً مثيراً للقلق والعناء ، نحو الاتحاد بالله فى هذه الحياة ونحو الزهد الموقت فى كل الخيرات التى يمكن أن يودى فقدانها إلى الألم والضيق . فإذا عرفنا كيف نتميز بين الأغراض المنشودة فى مختلف التصورات الرمزية فى الشرق ، فسيكون فى هذا كسب كبير ، لأنه إذا مزج المرء بين هذه الأغراض أحس دائماً بالتعويق : مرة يبحث الإنسان عن تطبيق عملى هناك حيث لا يوجد ، ومرة أخرى لا يدرك المعنى العميق المستور ، وإعطاء أمثلة بارزة لكل هذه الأبواب يجعل كتاب الأمثال شائقاً مفيداً . فى أى باب ندخل ما تقدمه هذه المرة ، هذا ما نوع الحكم فيه للقارئ الذكى .

كتاب البارسى

المشاغل العديدة هى وحدها التى منعت الشاعر (جيتيه) من أن يعرض شعرياً عبادة الشمس والنار بكل سعتها ، وإن كانت مجردة فى الظاهر وخصبة فى نتائجها العملية ، وإنها لمادة رائعة يمكن أن يستخلص منها الشعر ونرجو أن يقيض لنا أن نسبّه هذا النقص الذى تركناه شاغراً هنا .

كتاب الخلد

وهذه الناحية من نواحي العقيدة الإسلامية فيها مواضع رائعة ، وجنات
في جنات ، بحيث يسر المرء أن يتلبث فيها طويلا ، وأن يقيم : والمزاج
والجلد يمزجان هنا على ألطف نحو ، واليومى المتسامى يعبرنا أجنحة للتخليق
والصعود درجة فدرجة حتى أعلى الذرى . ومن ذا الذى يمكنه أن يمنع
الشاعر من أن يركب فرس محمد الرائع (البراق) وأن يتجول خلال
السموات الفسيحة ؟ ولماذا لا يحتفل بتلك الليلة المقدسة التي فيها أنزل القرآن
كله على النبي من أعلى ؟ إن هاهنا كنوزاً عديدة يمكن استغلالها .

مباحث « في العهد القديم »

بعد أن هدهدت نفسى بأمل أن أستطيع فيما بعد أن أعمل الكثير سواء
بالنسبة إلى « البهلوان » وبالنسبة إلى الشروح التي أضفتها إليه ، أجلت البصر
في الدراسات الأولية ، التي لم تستخدم ولم تم ، والتي تبث أمامى في أوراق
عديدة ؛ فوجدت من بينها بحثاً كتبته منذ خمسة وعشرين عاماً ، ويقوم على
أساس أوراق وتخطيطات أقدم .

ومن القراء الذين قرأوا دراساتي في التراجم من سيدكر أنى كرست
وقتها طويلا وانتباهاً كبيراً للسفر الأول من أسفار موسى الخمسة ، وتلبثت
طويلا إبان شباني في جنات الشرق ؛ لكنى درست أيضاً بحماسة واهتمام
الكتابات التاريخية اللاحقة . والأسفار الأربعة الأخيرة من أسفار موسى قد
تطلبت أبحاثاً دقيقة ، وفي البحث التالى تعرض بعض النتائج الغربية . فليسمح
لنا بأن نفسح لهذا بعض المجال . لأنه كما أن كل تجوالنا في الشرق قد تمت
بمناسبة الكتب المقدسة ، فإننا نعود دائماً إليها كما نعود إلى ماء الينبوع العذب
كل العذوبة وأن تعكر بعض الشيء هنا وهناك ، أو ضل أحياناً في باطن
الأرض ، لكنه ينبثق من جديده صافياً فراناً .

إسرائيل في الصحراء

« هنالك احتلى عرش مصر ملك جديد لم يكن يعلم شيئاً عن يوسف ، والشعب ، شأنه شأن الملك ، كان هو الآخر قد نسي ذكرى مَنْ أَحْسَنَ إليه ، وبنو إسرائيل أنفسهم لم يعودوا يدركون من أسماء أسلافهم الأول غير صدى بعيد للأزمان السحيقة . وبعد أربعائة سنة كانت الأسرة الصغيرة قد تكاثرت جداً . والموعدة التي وعد الله بها جدهم الكبير قد تحققت خلال كثير من الأمور غير المحتملة ؛ لكن فيم أفادهم هذا ؟! إن عددهم الكبير قد جعلهم موضع ارتياب من جانب الشعب الأصلي ، وحاول مضايقتهم ، وإخافتهم ، ومعاكستهم ، وإفناءهم ، ومهما تكن شدة مقاومتهم لهذه الاضطهادات بما طبعوا عليه من عناد ، فإنهم صاروا يدركون مقدماً هلاكهم التام حين يلزمون ، بعد أن كانوا شعباً حراً من الرعاة ، بأن يبنوا على حدودهم وبأيديهم مدناً محصنة من الواضح أن المقصود منها هو السيطرة عليهم وسجنهم .

وقبل أن نوغل في البحث ونشق لأنفسنا بعناء طريقاً خلال أسفار حررت بطريقة غريبة ، بل لنقل باثثة ، فلنساءل ماذا سيقى كأساس راسخ ومادة أولية لأسفار موسى الأربعة الأخيرة بعد الملاحظات وألوان الحذف التي نعتقد أن من الضروري إجراؤها ؟

إن الموضوع الخاص ، والأوحد ، والجوهري لتاريخ العالم والناس ، وعليه يتوقف الباقي ، هو النزاع بين الإيمان والكفران . وكل العصور التي يسود فيها الإيمان ، على أى شكل كان ، عصور لامعة عظيمة خصبة للمعاصرين والأجيال التالية . وبالعكس ، العصور التي يحظى فيها الكفران ، على أى شكل كان ، بانتصار بائس ، حتى لو تأق فيها لحظة بريق خداع ، تخفى في نظر الأجيال التالية ، إذ لا يود المرء أن يعتنى نفسه بمعرفة ما هو عقيم .

فإن كان السُّفر الأول من أسفار موسى يمثل لنا انتصار الإيمان فإن الأربعة الأخيرة موضوعها الكفران الذى لا يصل ، بأدنى الطرق ، إلى التغلب على الإيمان وصرعه ، — ولكن الإيمان هو الآخر لا يظهر فى تمامه ، — بل يندس فى كل لحظة على طريد ، وكثيراً ما يستعين بالمنح وأكثر من ذلك بالعقوبات الشديدة ، لكنه لا يُشقى ولا يَحْتث ، بل يلزم الصمت ، ويستمر فى طريقه الخبيث حتى إن عملاً عظيماً ليلاً ، تسوقه أروع وعود إله قوى أمين ، يصير على وشك الإخفاق منذ البداية ولا يمكن أن يتم بكماله .

وإذا كان طابع الأساس بضايقتنا ، وكان الحيط الملتوى على الأقل لدى النظرة الأولى ، والذى يجرى خلال الكل يغشى على أبصارنا ويُسْخِطُنَا ، فإن هذه الأسفار تصبح غير محتملة أبداً نديجة تحرير سبى جداً غير مفهوم ، فى كل موضع نرى خيط الرواية ينقطع بإدخال قوانين عديدة ، لا نفهم فى الغالب سبب وجودها ولا المقصود الحقيقى منها ، ولا على أى حال لماذا أعطيت فى هذه اللحظة بالذات ، وإن كانت من عصر متأخر ، فلماذا أولجت ها هنا . ولا نفهم لماذا يُحَاوَل عن قصد وعلى نحو بائس ، خلال حملة هائلة تلقى الكثير من العقبات فى طريقها ، تكثير المراسم والطقوس على نحو من شأنه أن يعرقل التقدم فى السير . ولا نفهم لماذا ينبغى تقرير قوانين مستقبل غير معروفة ، وإعلانها فى وقت لا يعرف فى أى يوم وفى أية ساعة ماذا ينبغى أن يُعْمَلَ ، وحيث يسجد الزعيم فى كل لحظة ، وكان الواجب عليه أن يتنبه قائماً على قدميه ، ابتغاء استئصال المنح أو العقوبات من أعلى ، وتمنح هذه وتلك أيتها اتفق ، حتى أن الغرض الرئيسى من الرحلة مع الشعب الضال يختفى عن النظر .

وللاهتمام فى هذا التيه اهتمت بأن أفصل بعناية ما هو رواية حقا ، سواء كان فيه تاريخ أو أسطورة أو كلاهما معاً ، أى شعر — فصلت هذا عما يمكن أن يسمى بالتعاليم والأوامر . وأقصد بالتعاليم ما يمكن أن يناسب ، فى كل البلاد ، كل المخلوقات المعنوية ؛ وأقصد بالأوامر ما يعنى خصوصاً

بنى إسرائيل ويوحنا بينهم ، إلى أى حد نجحت في هذه المحاولة ، لا أملك الحكم على ذلك ، لأنى لست في موقف يسمح لى باستثناف هذه الدراسات ، لكن أستعير من أوراقه قديمة أو حديثة ، حسبما تسمح الظروف ، ما أريد تقديمه ، فثم إذن نقطتان أريد أن ألفت انتباه قرأى إليهما : أولاً كيف أن هذه الحملة الغربية مأخوذة في مجموعها يمكن أن تُفسّر بشخصية زعيمها ، الذى لا يبدو في البداية على حال مناسبة : وثانياً افتراض أن الحملة لم تستمر أربعين سنة ، بل سنتين فقط ، ومن هذا يستنتج أن هذا الزعيم نفسه ، الذى كان علينا في البداية أن نلومه على مسلكه ، يسترد شرفه ويجد ما يبرره ، في نفس الوقت يظهر شرف الإله القومى من تهمة القسوة التى تكاد تكون أعنف من عناد شعبه وأسوأ ، ويكاد أن يسترد صفاءه الأول .

ونتذكر أولاً بنى إسرائيل في مصر وعبوديتهم التى دعيت الأجيال التالية للاهتمام بها . من هذا الشعب ، ومن سبط لاوى العنيف ، قام رجل عنيف ، يميزه شعور قوى بالعدل والظلم . ويلوح أنه جدير بأجداده الرهيبيين الذين صاح أقدمهم^(١) قائلاً : « شمعون ولاوى ! أخوان سيوفهما آلات جور . مجلسهما لا تدخله نفسى ، وفي مجمعهما لا تتحد ذاتى لأنهما في سخطهما قتلا إنساناً ، وفي رضاهما عرقبا ثوراً . ملعون سخطهما فإنه شديد ، وغضبهما فإنه قاس . أقسمتهما في يعقوب ، وأبددتهما في إسرائيل . »

هذا الروح يتجلى موسى . إنه يقتل مصرياً أساء معاملته إسرائيل ، وتكتشف جريمة القتل هذه الناشئة بدافع العصبية القومية ، لوصار عليه أن يهرب . وهذا الذى يقبى ، من كونه ارتكب هذا الفعل ، أنه رجل بسيط على الفطرة ، لاجابة إلى البحث عما ذا كانت تربيته . أما أنه وهو طفل قد

(١) سفر التكوين ، فصل ٤٩ ، آية ٥ وما بعدها .

كفلته أميرة ، وأنه نُشئ في القصر ، لاشيء من هذا أثر فيه ، لقد صار رجلاً شجاعاً قوياً ، لكنه على كل حال بقى قاسياً جلفاً غير مهذب . وفي المنى أيضاً نجده بهذا الوصف : قوى ، سريع البادرة ، منطوي على نفسه ، عاجز عن التعبير . وبقوة ساعده يكتسب صداقة كاهن — ملك من مدين يضمه إلى أسرته . هنالك يتعلم كيف الصحراء وسرى فيما بعد في الصحراء في وظيفة شاقة هي رئيس جيش .

فلنلتق أولاً نظرة على أهل مدين الذين صار موسى يقيم بينهم . وينبغي علينا أن نعرف فيهم شعباً عظيماً ، يبدو ، شأنه شأن كل الشعوب الرحل النشيطة ، أكبر مما هو نتيجة الأعمال المختلفة التي يتولاها قبائله ، وامتداد حركتهم . إننا نلتقى بأهل مدين عند سفح جبل حوريب ، وعلى الشاطئ الغربي من الخليج الصغير ، وبعد ذلك حتى مواب وأرنون . ويبدون منذ عهد مبكر تجاراً يذهبون ، خلال أرض كنعان ، بالقوافل إلى مصر .

عند هذا الشعب عاش موسى ، لكنه عاش هنا راعياً منعزلاً منطوياً على نفسه ونحن نجده وحيداً في الصحراء ، على أسوأ حال يمكن أن يجد فيها نفسه شخص ممتاز غير بارع في الفكر والتأمل ، ولا ينشد إلا الفعل والعمل ، نحوه مشغولاً بمصير شعبه ، يتوجه دائماً إلى الله ، إله أجداده ، ويشعر بالقلق وقد نفي من بلاد ، ليست بلاد أجداده ، ولكنها في ذلك الوقت كان يقطن فيها شعبه ، عاجزاً كل العجز عن العمل بقوة ساعده في أمر مهم خطر كهذا ، عاجزاً عن تكوين خطة ، وحتى لو كوّنّها ، لكان عاجزاً عن كل مفاوضة ، وكل عرض شفوي متناسق يجذب الناس إلى شخصه . فلا عجب بعد هذا في أن طبيعة قوية كهذه قد استهلكت نفسها في مثل هذا الموقف .

وعلى الأقل يجد بعض العزاء في الصلات التي يعقدها مع أهله بفضلها مرور القوافل . وبعد كثير من الشكوك وأوان التردد ، قرر أن يعود ويصير منقذاً لشعبه . ويلقاه أخوه هارون ، فيعلم حينئذ أن الغليان في أوجه بين الجمهور . لذا يستطيع الأخوان أن يخاطرا بالمثول في حضرة الملك كممثلين

لبنى إسرائيل . لكن الملك لا يوافق أبداً على أن يتركه بالحسنى يرحل ويستعيد استقلاله القديم كتلة كبيرة من الناس كانوا في الأصل رعاة ولكنهم منذ قرون تعلموا في مملكته الزراعة والفنون والصناعات ، واختلطوا برعيته ، ويمكن على كل حال استغلال جمهرته الجلفة ، بواسطة السخرة ، في تشييد الأبنية الهائلة أو إقامة مدن جديدة وحصون .

وهكذا رُفِضَ طلب بنى إسرائيل ، ولكنه جُدد بإلحاح أشدّ كلما تجلّت جوائح مصر ، وفي كل مرة يُرْفَضُ بعناد متزايد . لكن الشعب العبرى ، وقد دفعه الأمل في وطن وراثي وعُد به نقل عتيق ، وراجياً الاستقلال ، لم يعد يقرّ بأى واجب . وبحجة عيد عام يسرقون من جيرانهم أوانيهم الذهبية والفضية ، وفي اللحظة التى يظن فيها المصرى أن الإسرائيليين مستغرقين في احتفالات عديدة ، قامت أصائل (١) صقلية في اتجاه مضاد : فالأجنبي ذبح ابن الوطن ، والضيف ذبح صاحب الدعوة ، وبتأثير سياسة قاسية لم يُدْخِلْ إلاّ الابن الأكبر لتغذية أنانية الأبناء التاليين في بلد الذرية فيه تمنح المرء كثيراً من الحقوق ، ومن أجل الهرب بسرعة من انتقام داهم مباشر . وأفلحت هذه الخطة ، وطُرد القتلة بدلا من أن ينالوا العقاب ، ولم يحشد الملك جيشه . إلا متأخراً ، والفرسان وراكبو العربات المسلحون بالمناجل وهم في العادة وبال على المشاة ، خاضوا ، على أرض مستنقعات ، معركة غير متكافئة مع مؤنخة خفيفة وقليلة السلاح — في أغلب الظن — ولكنها كانت جريئة ومصممة وخاضت أول معركة في المذبحة العامة ، وسنشهد قساوتها في أعمالها القاسية الغاشمة ونشير إليها .

(١) صورة مجازية للأصائل الصقلية وهى المذبحة العامة للفرنسيين في صقلية سنة ١٢٨٢ ، تحت حكم شارل دانجو . أخى لويس التاسع . وقد تمت المذبحة بمؤامرة دبرها جان دى بروسيدا ، أحد أنصار بيت شتابن . ففي اثنين الفصح ، في الوقت الذى ذهب فيه المصلون إلى صلوات الأصيل (العصر) ثار أهل صقلية وقاموا يذبحون الفرنسيين الذين كانوا في جزيرة صقلية . ومن هنا جاء التعبير بمعنى : مذبحة عامة .

وكان في وسع هذا الحشد المسلح ، الجيد الاستعداد للهجوم والدفاع ، أن يختار بين عدة طرق من أجل الوصول إلى الأرض الموعودة ، وأول هذه الطرق بساحل البحر ويمر بغزة ، لكنه لم يكن طريق قوافل ويمكن أن يصير خطراً بسبب السكان المحاربين الجيدين التسليح على طوله ، والثاني ، وإن كان أطول ، بدا أكثر أمناً وأحفل بالمزايا . وكان يسير على طول البحر الأحمر حتى سيناء ؛ وابتداءً من هناك كان من الممكن اتخاذ طريقين : الأول يوصل إلى الغرض بأقرب طريق ، وكان بساحل الخليج الصغير ، خلال أرض مدين ومواب ، حتى الأردن . والثاني : مباشرةً خلال الصحراء ، ويتجه إلى قادمس ، وفي الحالة الأولى تكون بلاد ايدوم على اليمن ، وفي الحالة الثانية تكون على اليسار . ولا شك في أن موسى فكّر في الطريق الأول من هذين الأخيرين ، ولكن يبدو أنه قرر أن يتخذ الطريق الثاني بسبب أهل مدين الماكزين كما سنبين أن ذلك محتمل بعد أن نكون قد وضعنا حالة اكتئاب النفس التي يُلقى بنا فيها عرض الظروف الخارجية التي اقترنت بهذه الحملة .

إن سماء الليل الصافية ، المرصعة بما لا نهاية له من النجوم والتي أراها الله لإبراهيم ، لم تعد تنشر فوقنا خيمتها الذهبية ، وبدلاً من أن يكونوا أندادا لهذه الأنوار السماوية ، كان الشعب العديد يسير ، ساخطاً ، في صحراء حزينة . وكل ظواهر السرور اختفت ، ولم يبق غير ألسنة النيران تنبثق من كل مكان . والرب الذي نادى موسى في العليقة المشتعلة ، يسير الآن أمام الحشد المغمور بدخان حار متعكر ، يُظن في النهار عموداً من غيوم ، وفي الليل شهاباً مشتعلًا . ومن قمة جبل سيناء الملقعة بالغيوم ينبثق البرق والرعد رهيبين ، ولأخطاء تبدو ضئيلة تنبثق من الأرض نيران تسهم أطراف المعسكر . ويعوز الغذاء والشراب في كل لحظة ، وتزداد الرغبة اليائسة في العود للفهقري ، كلما أعجزت الحيلة الزعيم .

وفي وقت مبكر ، قبل أن تصل الحملة إلى سيناء ، أقبل يترو على حميد (موسى) ، واقتاد إليه بنته وأحفاده ، وقد جمعوا في وقت المحنة هذا في خيمة أبيهم ، وكشف عن رجل عاقل . وشعب مثل أهل مدين ، يسلك طريقه بحرية ويجد الفرصة لممارسة قواه لا بد أنه أكثر ثقافة من حشد يعيش تحت نير أجنبي ، وفي نزاع مستمر مع نفسه ومع الظروف ، ولا بد أن زعيم هذا الشعب الأولي أقدر على النظرات الأوسع من رجل أمين ولكنه حزين منطو على نفسه يشعر أنه ولد للعمل والقيادة ، لكن الطبيعة حرمته من الوسائل الضرورية للقيام بهذه المهنة الحافلة بالأخطار .

ولم يستطع موسى أن يرتفع إلى الفكرة القائلة بأن الزعيم ينبغي ألا يكون حاضرا في كل موضع ولا أن يعمل كل شيء بنفسه ، بل بالعكس ، بعمله الشخصي جعل مهمته شاقة جدا . فأنار يترو له السبيل في هذه المسألة ، وعاوناه على تنظيم الشعب وإنشاء ترتيبات أدنى ، وهو أمر كان على موسى أن يفتن له بنفسه .

لكن يترو لم ينظر فقط إلى مصلحة حميد (موسى) وبنى إسرائيل ، بل نظر أيضا إلى مصلحة نفسه ومصلحة أهل مدين . وموسى هذا الذي تلقاه من قبل هاربا وكان في عداد خدمه ، قد أتى إليه اليوم على رأس جمهور كبير من الشعب ، ترك مكان إقامته القديم ، وجاء يبحث عن أرض جديدة وهو ينشر أينما توجه الفزع والإرهاب .

لكن هذا الرجل الحصيف (يترو) ما كان يمكن أن يجهل أن أقصر الطرق لبني إسرائيل يمر بممتلكات أهل مدين ، وأن موكبهم سيأتي باستمرار قطعان شعبه ، ويمس منشآتهم ، ويجد في طريقه مدنهم الحسنة التنظيم ، ومبادئ شعب مهاجر ليست سراً ، لأنها تقوم على حق الفتح والغزو ، وهو لا يمر دون أن يلقى مقاومة ، وكل مقاومة تبدو في نظره ظلماً . ومن يدافع عما يملك عدو يمكن استئصاله بغير رحمة .

ولم يكن ثم حاجة إلى بعد نظر غير عادى لإدراك المصير الذى ينتظر شعباً ينقض عليه مثل هذه السحابة من الجراد . ومن هنا يمكن أن نفترض أولاً أن يتروى يعمل على صرف حيه عن طريق الأحسن والأقصر ويقنعه باتخاذ الطريق الذى يمتاز الصحراء ؛ وهذه النظرة يؤيدها أن حو باب لا يترك حماه حتى يراه يتخذ الطريق الذى نصحه به ، بل ويصعبه بعيداً ليصرف موكب بنى إسرائيل تماماً عن مواطن أهل مدين .

وبعد أربعة عشر شهراً فقط منذ الخروج من مصر تم الرحيل الذى نتحدث عنه . والشعب فى طريقه ، سعى المكان الذى أصابته فيه الجوائح الرهيبة بسبب شهوته وطمعه ، باسم « قبور الشهوة » ، ثم ذهبوا إلى حصيروت ، وعسكروا بعد ذلك فى بَرية فاران . وليس من شك فى أنهم تابَعوا السير حتى هناك . واقتربوا من غرض رحلتهم ، وكانت العقبة الوحيدة أمامهم هى سلسلة الجبال التى تفصل الصحراء عن بلاد كنعان . فتقرر إرسال جواسيس ، واستمر السير فى تلك الأثناء حتى قادش . وهنا عاد الجواسيس ، وأخبروا أن البلاد ممتازة ، ولكنها مأهولة بالسكان الخيفين مع الأسف . وهنا انفجر النزاع الأليم مرة أخرى ، واشتعل الخلاف بين الإيمان والكفران .

ولسوء الحظ كان لدى موسى مواهب أمير أكثر من أن يكون لديه مواهب قائد . ومن قبل ، حين وقع القتال ضد العمالقة ، صعد على الجبل للدعاء والصلاة ، بينما كان يوشع على رأس الجيش ينتزع من العدو النصر المتردد طويلاً . وفى قادش كان القوم مرة أخرى فى موقف شائك . فبوشع وكالب ، أشجع الذين أرسلوهم ، نصحوا بالهجوم ، وحثوا الناس بكل قوتهم على غزو بلاد كنعان . غير أن الوصف المبالغ فيه لجنس الجبابرة المسلحين أشاع فى الجميع الذعر والهلح ، ورفض الجيش الخائف أن يصعد الجبل . وحرار موسى من جديد ماذا يفعل ، فبدأ بأن حث الجنود ، ثم بدأ

له أن الهجوم في هذا الاتجاه خطير : فاقترح أن يتوجهوا ناحية الشرق ، وفي هذه اللحظة ظهر أن الشطر الأيسل من الجيش وجد من العار أن يتخلى في اللحظة الحاسمة عن الخطة التي دُبِّرَت ونفذت بمجهودات كبيرة . وتجمع المتمردون وتسلقوا الجبل . لكن موسى بقي في المؤخرة ، ولم يتحرك خباء الرب ، ومن هنا لم يلاثم يوشع ولا كالب أن يكونا على رأس هذه الحفنة من الشجعان . وبالحملة فإنه لما كانت الطليعة مسنودة في هذا الزحف الارتجالي فإنها هُزِمت ، وازداد القلق . فانفجر سخط الشعب كما انفجر مرارا من قبل ، وألوان العصيان العديدة التي اشترك فيها من قبل هارون ومريم قد انفجرت من جديد شاهدة على قصور موسى عن مستوى مهمته الكبيرة . ومن البين ، ويؤكد ذلك شهادة كالب ، أنه كان من الممكن في تلك اللحظة ، بل كان من الواجب المحتوم ، أن ينفذوا في بلاد كنعان ، وأن يستولوا على حبرون وغابات عمراً (التي بحبرون) وقبر إبراهيم وأن يؤمنوا للحملة هدفاً ونقطة ارتكاز . وأى إخفاق بالنسبة إلى هذا الشعب البائس إذا تقرر التخلي عن الخطة التي اتبعت حتى الآن والتي اقترحها يترو لا بنزاهة تامة لكن دون أن يكون فيها خيانة من جانبه !

ولم تكن السنة الثانية من رحيلهم عن مصر قد انقضت . وكانوا يودون أن يروا أنفسهم ، قبل هذا الموعد وإن كان متأخرا ، حائزين على الشطر الأجل من البلاد التي يطمعون فيها ، لكن السكان ، وقد تنهوا لهذه الأطماع ، شدوا الدفاع : أين إذن يمكنهم التوجه ؟ لقد كان بنو إسرائيل قد تقدموا بعيدا إلى الشمال ، والآن صار من الواجب الاتجاه من جديد نحو المشرق لاتخاذ الطريق الذي كان من الواجب سلوكه منذ البداية . لكن في الشرق امتدت بلاد أدوم بنطاقها من الجبال ، فحاولوا طلب السماح بالمرور ، ولكن الأدوميين كانوا متيقظين فرفضوا . وشق طريق بالتوة لم يكن من الحكمة ، فكان لا بد من الاقتصار على اتخاذ طريق ملتو يدع جبال أدوم

عن يساره ، وهكذا تم السير بغير عناء ، وكان يكفي عدد قليل من المنازل التي يقفون فيها : في أوبوت والعباريم ، ليصلوا إلى نهر زارد أول نهر يصب مياهه في البحر الميت ويبلغوا بعد ذلك أرنون . وفي هذه الأثناء كان مريم قد مات وتوفي هارون ، بعد عصيانهما لموسى بقليل .

وابتداءً من نهر أرنون سار كل شيء على وجه أحسن . فللمرة الثانية رأى الشعب نفسه قريباً جداً من غاية أمانيه ، في منطقة قليلة الصعاب ، وصار من الممكن أن يزحفوا بجمعهم ، وأن ينتصروا ، ويدمروا أو يطردوا السكان الذين يعترضون طريقهم . واستمر الزحف ، وهكذا رأى المدينيون والموابيون والأموريون أنفسهم مهاجمين في أعزّ ممتلكاتهم ، بل دُمّر الأولون ، وهو ما سعى يثرو بقطنته إلى منعه ، واحتلّ الشاطئ الأيسر من الأردن ومنحت بعض القبائل المتلهفة امتيازات تستقر فيه . وأثناء هذه المفاوضات كان موسى قد توفي كما توفي قبله هارون ، وسنخطئ خطأ عظيماً لو أن يوشع وطالب لم يريا أن من الأحسن وضع حد للسيطرة المتحمّلة منذ بضع سنوات لرجل محدود وتركه يلحق بكثير من البائسين الذين سبقوه ، وذلك من أجل قيادة الحملة إلى نهاية حسنة والاستيلاء على كل الشاطئ الأيمن من الأردن والأرض التي يشملها .

ويقرّ المرء عن طيب خاطر بأن العرض الذي قُنا به يربنا عقلياً ، والتقدمات السريعة المتلاحقة لمغامرة خطيرة ؛ لكن لا يمنح المرء هذا العرض ثقته في الحال لأنه يركز في وقت قصير حملة تجعلها الكتب المقدسة تستمر عدداً كبيراً جداً من السنين . ولهذا ينبغي علينا أن نبين البواعث التي يبدو لنا أنها تبرر مثل هذا الانحراف والابتعاد ، ومن أجل هذا لا نملك خيراً من أن ننظر في مجموع البلاد التي كان على هذا الحشد أن يحتازها والزمان الذي تحتاجه أية قافلة للقيام بهذه الرحلة ، ونضع في مواجهة ذلك ما تنقله إلينا النقول الواردة في الكتاب المقدس عن كل حالة حالة .

ونمر عابرين بالسير من البحر الأحمر إلى سيناء ونقر بدون نقد بما جرى في منطقة هذا الجبل ؛ لكننا نلاحظ فقط أن الحشد الهائل ارتحل من سفح سيناء في العشرين من الشهر الثاني ، في السنة الثانية من الخروج من مصر . ومن هنا حتى برية فاران لا تزيد المسافة عن أربعين ميلاً يسهل على القافلة الحملة أن تقطعها في خمسة أيام . وأعطى كل الطابور الزمنى الضروري للحاق ، وامنحه أيام الراحة المطلوبة ، وافترض توقفات أخرى : فهما يكن الأمر فلا بد أن يصلوا إلى الغرض في اثني عشر يوماً ، وهذا يتفق مع ما ورد في الكتاب المقدس ومع رأى الشائع . وهناك يرسل الرسل بينما جمهور الشعب يتقدم ببطء حتى قادش حيث يأتي الرسل بعد أربعين يوماً ، وبعد محاولة حربية بائسة يتم التفاوض مع الأدوميين . ودع هذا التفاوض يطول كما شئت ، فإنك لن تستطيع أبداً أن تزيده على ثلاثين يوماً . الأدوميون يرفضون رفضاً باتاً السماح لبني إسرائيل بالمرور ، ولم يكن من الحكمة بالنسبة إلى بني إسرائيل أن يتخلفوا طويلاً في هذا الموقع الخطير : إذ لو تفاهم الكنعانيون والأدوميون للخروج من جبالهم : بعضهم من ناحية الشمال ، والبعض الآخر من ناحية الشرق ، لكان بنو إسرائيل في مركز سيئ للغاية .

وهنا أيضاً لا تقول الرواية التاريخية بأى توقف ، لكن القرار اتخذ فوراً بالاستدارة حول جبل أدوم . والسير حول جبال أدوم ، في اتجاه الجنوب أولاً ثم في اتجاه الشمال بعد ذلك صوب نهر أرنون يتضمن أقل من أربعين ميلاً يمكن أن تجتاز في خمسة أيام . فإن أضفنا أيضاً الأربعين يوماً التي بكوا فيها على موت هارون ، بقي لدينا دائماً ستة أشهر من السنة الثانية لكل أنواع التأخر والتردد وللحملات التي تصل بني إسرائيل حتى الأردن . لكن الثماني وثلاثين سنة الباقية ما هو مصيرها ؟

لإنها أتعبت المفسرين ، وكذلك المراحل الواحدة والأربعون التي يوجد من بينها خمسة عشر منزلاً لا تورد الرواية التاريخية نبأ عنها ، لكنها وقد أولجت .

في الثَّبتِ سببت الكثير من المتاعب للجغرافيين. وهذه المنازل المفخمة تقوم بينها وبين السنوات المضافة علاقة خيالية ؛ لأن ستة عشر مكاناً لا يعلم عنها شيء وثمان وثلاثون سنة يُجْهَل عنها كل شيء — تهيءُ خير فرصة للضلّال في الصحراء مع بني إسرائيل .

وها نحن أولاء نضع مراحل الرواية التاريخية التي جرت فيها وقائع بارزة في مواجهة منازل السَّرْد ، وبعد هذا يستطيع المرء أن يميّز جيداً بين مجرد أسماء الأماكن الخيالية وبين تلك التي لها مضمون تاريخي .

مراحل بني إسرائيل في الصحراء

الرواية التاريخية سرد المراحل تبعاً لما ورد
بحسب الأسفار ٢، ٣، ٤، ٥ لموسى في السفر الرابع لموسى في فصل ٣٣

رعسيس

سكوت

ايتام

(حيروت

(مجدول

حيروت

في وسط البحر

مارة ، بركة ايتام

ايليم ، اثنتا عشرة عين ماء

على البحر

برية سين

دُفْنَة

ألوش

رفيديم

مارة ، بركة سور

ايليم

برية سين

رفيديم

برية سيناء

قبور الشهوة

حصيروت

قادش في فاران

برية سيناء

قبور الشهوة

حصيروت

رتنه

رمثون فارصر

ليسنه

رسته

قهيلاتا

جبل شافر

حرادة

مقهيلوت

تاحت

تارج

ميتفه

حشمونة

موسيروت

بني يعمقان

كهف الجددجار

قطنبات

عبروتة

عصنيون جابر

قادش ، برية صين

جبل هور ، في طرف أرض أردم

صلشمونه

قادش ، برية صين

جبل هور ، في طرف أرض أردم

فُونُون
أوبُوت
تلال العباريم
ديون جاد
علمون دبلا تائم
جبال العباريم ، تُجاه بَنُون

أوبوت

جبال العباريم
نهر زارد
جانب أرنون
المثانة
نَحْلَيْثِيل
باموت
جبل فِجْه
ياهمص
حشَبُون
سِيحُون
باشان

صحراء مواب على أردن أريحا صحراء مواب على أردن أريحا

ونلاحظ على هذا الجدول أن التاريخ ينقلنا مباشرة من حصبروت إلى قادش ، بينما السرد يضع قادش بعد حصبروت ولا يذكرها إلا بعد سلسلة الأسماء المقحمة ، بعد عَصْبُون جابر واصلا هكذا بين بركة صين والذراع الصغيرة للخليج العربي (خليج العقبة) . وهذه الواقعة سببت الكثير من الحيرة للمفسرين : فبعضهم أقرب وجود قادشين ، بينما البعض الآخر وهم أكثر عدداً ، ولا يقرون إلا بقادش واحدة ، وهذا الرأي يبدو أنه بمأمن من كل شك .

والرواية التاريخية ، كما عرضناها مع استبعاد كل الإضافات بعناية ، تتحدث عن قادش في برية فاران ، وبعد ذلك تتحدث عن قادش في برية صين ؛ ومن الأولى أرسل بالحواسيس ، ومن الثانية بدأت جماهير الشعب بعد أن رفض الأدوميون السماح لهم بالمرور من بلادهم . وينتج عن هذا بوضوح أن الأمر يتعلق بنفس البلدة ، لأن السير المقترح خلال بلاد أدوم كان نتيجة المحاولة المخففة لغزو بلاد كنعان من هذا الجانب ؛ وينتج أيضاً بوضوح عن مواضع أخرى أن البريتين المذكورتين كثيراً متلاصقتان : صين ناحية الشمال ، وفاران ناحية الجنوب ، وقادش كانت مرحلة وسطى ، في واحة ، بين البريتين .

وما كان يخطر بالبال تصور قادشين لو لم يكن المرء حائراً في جعل بنى إسرائيل يتجولون خلال البرية في مدة كافية . لكن الذين لا يقرؤون إلا بقادش واحدة ، ومع ذلك يريدون تفسير مدة الأربعين سنة والمراحل المتحممة هم أشد حيرة وارتباكاً ، فهم مضطرون إلى حلول غريبة جداً حين يريدون أن يصوروا الرحلة على الخريطة ويبينوا المستحيل ، لأن العين أصدق حكماً على المستحيل من الحس الباطن . وسنسون Sanson يضع المراحل الأربعة المنحولة بين سينا وقادش ، ولا يستطيع أن يرسم خطوطاً ملتحمة كافية على خريطته ، لكن كل مرحلة لا تتحمل غير ميلين ، أعنى طولاً لا يكفي من أجل أن تتحرك هذه الحية الهائلة لهذه القافلة .

لكن كان لابد أن تكون هذه البرية مأهولة بالسكان ومزروعة ما دام في كل ميلين يوجد إن لم يكن مدن أو قرى فعلى الأقل مراحل ذوات أسماء ! وبإلها من ميزة في صالح قائد الجيش وشعبه ! لكن ثراء هذه البرية الداخلية يصبح بعد قليل مدسراً بالنسبة إلى الجغرافى . إنه لا يجد غير خمس مراحل من قادش حتى عصيون جابر ، وعلى طريق العودة إلى قادش لابد له أن يرجع بالجيش ، لا يجد لسوء الحظ شيئاً من المراحل ، حيث هنالك

يولج على طريق الرحالة بعض أسماء مدن غريبة ومجهولة في هذا الثبت كما كانت الفراغات الجغرافية تملأ بمساعدة الفيصلة . وكالمت Kaimet يتخلص من المشكلة بمنعرجات غريبة ، فيجعل جزءاً كبيراً من الأماكن بالقرب من البحر المتوسط ، ويجعل من حصيروت وموسيروت بلداً واحداً ويجعل أصحابه يصلون إلى أرنون عن أغرب الطرق المتعرجة د وقل Well ، الذى يقول بقادشين ، يشوه شكل البلاد بصورة تجاوزت كل حد . وعند نولين Nolin ترقص القافلة الرقصة البولندية (البولونيز) التى بها تعود إلى البحر الأحمر وإلى جبل سيناء من ظهره صوب الشمال . ومن المستحيل أن تعثر على قلر أقل من الخيال ، والنظر ، والدقة ، والحكم مما هو عند هؤلاء الناس الأتقياء ذوى النوايا الطيبة .

فإن راعينا كل الاعتبارات ، ظهر من المحتمل جداً أن ثبت المراحل الزائدة قد أقحم إقحاماً لا لشيء إلا لإمكان إنقاذ الأربعين سنة المشكوك فيها ، إذ في النص الذى تتبعه كلمة كلمة في روايتنا نقرأ فقط : أن الشعب ، بعد أن هزمه الكنعانيون ، ومنع من المرور في بلاد أدوم ، دار حول بلاد الأدوميين ، أثناء رحلة في اتجاه بحر الغاب ، صوب عَصَبِيون جابَر . ومن هنا نشأ الخطأ القاتل إنهم وصلوا فعلاً إلى بحر الغاب ، صوب عَصَبِيون جابَر التى ربما لم تكن قد وجدت بعد في هذا التاريخ ، وإن كان النص يتحدث فقط عن السير حول جبال سعيير في الخريطة المذكورة ، كما يقال إن حوزياً يسلك طريق لبيتسك دون أن يصل بالضرورة إلى لبيتسك نفسها . فإذا كنا قد استبعدنا المراحل الزائدة ، فإننا كنا سنصل من غير شك إلى أن نستبعد بالمثل السنوات الزائدة . ونحن نعلم أن تواريخ العهد القديم مصطنعة ، وأن قياس الزمان يمكن أن يقسم إلى دورات محددة مقدار كل منها تسع وأربعون سنة ، ومن أجل تحقيق هذه العصور السرية الصوفية ، لابد قد عدلت كثير من التواريخ الحقيقية . والحق أن الست وثلاثين أو الثمانى وثلاثين

سنة التي تنقص في دورة ، في أى مكان يمكن أن تولج إن لم يكن في ذلك العصر الغامض الذي جرت أحداثه في مكان مجهول غير مأهول ؟

ودون أن نغس التواريخ ، هذا العلم الشاق بين العلوم ، لنلق نظرة سريعة على الجانب الشعري ، تأييداً لفرضنا الذي افترضناه .

كثير من الأرقام المستديرة ، المقدسة ، والرمزية ، والتي ينبغي أن ننتهز بأنها شذرية تظهر في الكتاب المقدس كما في كتابات أخرى قديمة . والعدد سبعة (٧) يبدو أنه مكرس للخلق والفعل ، والعدد أربعون (٤٠) مكرس للتأمل ، والانتظار وخصوصاً للخلوة . والطوفان الذي فصل نوحاً وأهله عن باقي العالم ، يزيد طوال أربعين يوماً ؛ وبعد أن انتشرت المياه مدة كافية ، جرت طوال أربعين يوماً ، وأثناء هذه المدة كان نوح يغاق مخرج السفينة . وأثناء نفس المدة يقيم موسى على جبل سيناء مرتين ، مفصولاً عن شعبه ، والجواسيس يقضون نفس المدة في كهان ، والشعب كاه هو الآخر كان عليه أن يؤيد ويكرس هذا العدد المقدس ، بأن يظل طوال أربعين سنة مفصولاً عن سائر الشعوب . وأهمية هذا العدد تنقل ، مع تمام قبحته ، إلى العهد الجديد : فالمسيح يبقى أربعين يوماً في الصحراء انظاراً للدغوى (الشيطان) .

فلماذا كنا قد أفلحنا في أن نجعل رحلة بني إسرائيل في زمان أنصر ، منذ سيناء حتى الأردن ، مع قبولنا لفترة مفترطة تبدأ للترددات والتأخيرات غير المحتملة ، وإذا كنا قد أفلحنا في حذف كثير من السنين التي لا حاجة إليها وكثير من المراحل الناقلة ، فإننا نكون بهذا قد رفعنا عن قائد الجيش اللوم الذي يمكن أن يوجه إليه ، وأن نعبد إليه قبحته الحلقة المملية . والطريقة التي عليها يظهر الله في هذه الكتب تظهر لنا أيضاً أنل شكاً مما كانت في اليوم ، حيث يظهر مخيفاً مروعاً ، بينما في سفر يوشع وسفر القضاة وبعد ذلك نراه يتجلى بلامح أصفى وأكثر أبوة ، وأن إله إبراهيم يظهر في كل

وقت لاتباعه على أنه رحيم بينما إله موسى ملأنا وقتاً طويلاً بالفرع والرعب ،
ولتوضيح هذا الأمر ، نقول : كما يكون الإنسان يكون إلهه . وهذا يقودنا
إلى أن نقول بضع كلمات عن أخلاق موسى .

قد يُعْتَرَض علينا فيقال : إنك فيما تقدم أنكرت بكل جرأة على رجل
خارق المناقب التي أعجب بها الناس فيه حتى اليوم مناقب الزعيم وقائد
الجيش . لكن ماذا يميزه في الحق ؟ وكيف أثبت أنه كفء لهذه المهمة
السامية ؟ وماذا أعطاه رغم الخلو من كل موهبة باطنة وخارجية — المرأة
على التدخل في مثل هذه المسألة ، إن لم تكن لديه الصفات الأساسية والقريحة
اللازمة التي أنكرتها عليه بوقاحة لم يسمع بمثلها ؟ اسمح لنا أن نرد هكذا :
ليست القريحة ولا البراعة لعمل هذا أو ذاك هي التي تجعل من الإنسان رجلاً
أفعال ، بل يتوقف الأمر كله على الشخصية . والخُلُق يقوم على الشخصية ،
لا على القريحة . أجل قد تقترن القريحة بالخلق ، لكن الخلق لا يقترن بالقريحة ،
لأنه يمكن أن يستغنى عن كل شيء ، إلا نفسه . وهكذا نوافق عن طيب
خاطر على أن شخصية موسى ، منذ جريمة القتل الأولى التي ارتكبها ، خلال
كل قساوته وفظائعه ، حتى وفاته ، تبدى لنا عن صورة خطيرة تفرض
نفسها لرجل تحمله طبيعته على القيام بأعمال عظيمة . لكن مثل هذه الصورة
ستشوه تماماً إذا شاهدنا رجلاً أفعال قوياً نشيطاً سريعاً ، يفضل طوال أربعين
سنة ، دون سبب ولا ضرورة مع حشد هائل من الناس ، في منطقة صغيرة ،
من أجل الغرض العظيم الذي ينشده ويسعى إلى تحقيقه . وكفانا أن نختصر
رحلته والزمن الذي أمضاه فيها من أجل إزالة كل السوء الذي تجاسرنا
على قوله ، ورفعنا إلى المكانة الجدير بها

ولم يبق إذن إلا أن نكرر ما سبق أن قلناه في مستهل تأملاتنا . إن المرء
لا يسعى أدنى إساءة إلى الكتاب المقدس ولا إلى أي نقل آخر ، إذا ما درسه
بروح نقدية ، وأبرز ما فيه من تناقض ، وكيف أنه في أحيان كثيرة ما فيه

من أصالة وحمو يغطيه أو يشوّهه إضافات لاحقة ، وأنواع من الحشو والتعديلات ، وقيمته الباطنة الحقّة تزداد صفاء ووضوحاً ، وهي التي نحوها ، في النهاية ، يتطلع كل إنسان ، عن وعي أو عن غير وعي ، أو سعى إلى ذلك ، ويستفيد نابذاً كل الباقي أو على الأقل تاركاً إياه يسقط في هاوية النسيان .

لوحة موجزة إجمالية

السنة الثانية من الحملة

يوم	شهر	
٢٠	١	المقام في سينا
٥	—	الرحلة حتى قادش
٥	—	أيام راحة
٧	—	وقفة بسبب مرض مريم .
٤٠	—	غياب الجواسيس
٣٠	—	مفاوضات مع الأدوميين
٥	—	الرحلة حتى الأرنون
٥	—	أيام راحة
٤٠	—	حداد لوفاة هارون
١٥٧ يوماً	١ شهر	

والحملة ستة أشهر . ومن هنا يظهر بوضوح أنه بحساب كل ما نريد حسابه من مدة قضيت في التردد ، والتوقف والمقاومة فإن الحملة لا بد أنها وصلت إلى نهر الأردن قبل نهاية السنة الثانية بمدة طويلة .

وثائق أحدث وأقرب

إذا كانت الكتب المقدسة تبعث أمام عيوننا الحالة الأولية والنمو المتواصل لأمة مهمة ، وإذا كان رجال مثل ميكائيلس ، وأيشهورن ، وپاولس ، وهيرن قد أبرزوا أكثر مما استطعنا نحن أن نفعل ، ما هنالك من طبيعى وأولى فى هذه القول ، فإننا نستمد ، فيما يتعلق بالعصر الحديث والحالى ، معلوماتنا الأكثر إفادة من أوصاف الرحلات ومائر الوثائق المشابهة التى اقتطفها الغربيون الذين تجولوا فى الشرق ، ورووها وجاءوا بها مسرورين بها ، وإن كانوا قد قاموا بذلك مواجهين آلاف الصعوبات والأخطار ، ونقلوا إلينا نوعا من التعليم الحصب . ومن بينهم سنقتصر على أن نذكر بإيجاز بعض الرجال الذى بواسطة عيونهم اهتممنا منذ سنوات طويلة بالنظر فى أمور بعيدة وغريبة .

حجرات وحملات صليبية

وكثير من هذه الأوصاف مفيدة على طريقتهما ؛ لكنها كثيراً ما يستخف بخيالنا فيما يتعلق بالحالة الحقيقية فى الشرق ، بحيث لا نستطيع أحياناً أن نفيد منها كما ينبغى . فتعصب المسيحية يضيق من آفاقنا بنظراته المحدودة القاصرة ، ولم يتسع أفقنا إلاّ حديثاً منذ الوقت الذى فيه عرفنا هذه الحروب عن طريق الكتاب الشرقيين (المسلمين) . وعلى الرغم من كل شيء ، فينبغى أن نشكر هؤلاء الحجاج والصليبيين المتحمسين ، لأنه يرجع إلى حماسهم الدينية ، ومقاومتهم القوية المتجاذبة للغزو الشرقى الفضل فى حماية ثقافتنا الغربية والمحافظة عليها .

ماركو پولو

هذا الرجل الممتاز يأتى على رأس ثبنتا . ورحلة جرت فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ؛ وقد وصل فى سفره حتى أقصى حدود الشرق ؛ ويجبرنا بأمر فى غاية الغرابة ، تبدو لنا شبه خرافية وتغوص بنا فى الدهشة ؛ لكننا إذا لم نصل على الفور إلى الرؤية الواضحة للتفاصيل ، فإن العرض الموجز الذى يقدمه هذا الرحالة الواسع النظرة كفى تماماً بأن يوقظ فىنا الشعور باللامتناهى ، وبما هو هائل شاسع . إننا نجد أنفسنا فى بلاط قبلاى خان ، الذى خلف جنكيز خان وحكم دولة مترامية الأطراف غير محدودة ، إذ ماذا نعتقد فى إمبراطورية وحدودها حين يقال لنا مثلاً : « فارس ولاية كبيرة تتألف من تسع ممالك » ؛ والباقي يقاس بنفس المقياس . وكذلك مقر الملك فى شمال الصين لا يمكن أن يشمل النظر ؛ فقصر الخان مدينة داخل مدينة ، ومن المستحيل إحصاء الكنوز والأسلحة التى تكدست فيه ، والموظفين والجنود ورجال البلاط ؛ والكل ، مع زوجاتهم ، يدعون إلى سلاسل من الحفلات . وما أروع مقره فى الريف ! منشآت لكل الملذات ، وخصوصاً جيش من الصيادين ، وتسليحة الصيد بنسب خارقة . نمور مستأنسة ، وبزاة مدربة ، ومساعدون نشطاء للصيادين ، وحشد هائل من القريسة ، وطوال السنة هدايا لا تحصى ، تُعطى وتتلقى . وذهب وفضة ومجوهرات ولآلى ، وآلاف الأشياء الثمينة فى حوزة الأمير والمقربين إليه ؛ بينما ملايين من الرعية عليهم أن يقنعوا فى مبادلاتهم بتقود وهمية .

فإذا قمنا برحلة من العاصمة ، لم يمكننا سلسلة لا تنتهى من الضواحي من تعرف نهاية المدنية . إذ نرى البيوت تلو البيوت ، والقرى تلو القرى ، وعلى طول النهر العظيم ، سلسلة من أماكن اللهو . وكل هذا فى مراحل سفر تتوالى بغير نهاية .

ولكن الرحالة ، بأمر السلطان ، يزور مناطق أخرى ؛ إنه يقتادنا خلال

«قلوات شاسعة ، ثم حقول ذوات قطعان غنية ، وسلاسل من الجبال متوالية ، حتى ناس ذوى أشكال غريبة وطباع عجيبة ، وينتهى بأن يجعلنا يلقى نظرة ، من خلال الثلج والجليد ، على ليل القطب الخالد . ثم ، فجأة ، وكأنه محمول على بساط سليمان ، يجعلنا تنزل حتى شبه جزيرة الهند . فنشاهد أمامنا وتحتنا سيلان ، ومدغشقر ، وجاوه ، وتتجول نظراتنا بين جزر ذات أسماء غريبة ، وفي أثناء ذلك يزودنا بمعلومات خاصة عن الأجناس البشرية ، والعادات ، والمناظر ، والأشجار ، والنباتات ، والحيوانات ، مما يضمن لنا صدق ملاحظاته ، وإن كان الكثير من الأشياء يبدو خيالياً . ولا يمكن غير الجغرافى الواسع الاطلاع أن يحقق هذا كله ويصنّفه . وكان علينا نحن أن نقتصر على الانطباع العام ، لأنه من أجل دراستنا الأولى لم تكن فى عوننا مذكرات ولا ملاحظات .»

يوهانس فون مونتنغلا

تبدأ رحلته سنة ١٣٢٠ م ، وقد وصل وصفه لنا على شكل كتاب شعبي مشوّه جداً مع الأسف . ويقر المرء بأن المؤلف قام بسفرات عديدة ، وأنه شاهد الكثير وأحسن مشاهدته ، ودقق فى وصفه . لكنه لا يسره فقط أن يحرث بثور الجار ، بل وأيضاً أن يولج فى روايته خرافات عتيقة أو جديدة ، وهذا مسلك بفضله يفقد الحق نفسه سلطانه . والأصل كتب باللاتينية ، وترجم أولاً إلى الألمانية الدانى ثم إلى الألمانية العالى ، ودخل التحريف فى أسماء الأعلام فيه . والترجمة هى الأخرى سمحت لنفسها بإضافات أو حذف ، كما يبيّن ذلك جيرّس Görres فى بحثه المفيد عن الكتب الشعبية الألمانية ، حتى إن لذة وفائدة هذا الكتاب المهم نقصنا كثيراً .

ويبيزو دلا قله

ينحدر من أسرة رومانية عريقة ترجع في أصولها إلى الأسر النبيلة في عصر الجمهورية ، وقد ولد في سنة ١٥٨٦ في عصر كانت فيه كل دول أوربا تنعم بثقافة روحية عالية . كان تَسُو لا يزال حياً في إيطاليا ، وإن كان في حال بائسة ، لكن قصائده كانت ذات تأثير في خير النفوس . وقد انتشر فن الشعر إلى حد أنه ظهر مرتجلون ، وما من شاب حرّ العقل استطاع أن يستغنى عن قريحة التعبير نظاماً . ودراسة اللغات ؛ والنحو والخطابة والأسلوب كانت تمارس باهتمام وجيد ؛ وهكذا نما صاحبنا الشاب وهو يعالج هذه العلوم الجميلة .

وتدويبات السلاح ناشياً وراكباً ، والمسابقة وركوب الخيل ساعدته على تنمية قواه البدنية وتنقيف أخلاقه المترتبة على ذلك . والاضطراب غير المنظم في عصر الحروب الصليبية تعلق بأهداب النظام ، وتحول إلى فن حربي وعرف فروسى امتزج به أيضاً الغزل . وإنا لنشاهد هذا الشاب وهو يغازل كثيرات من الجميلات ، وخصوصاً بالشعر ، ويتملكه خوف شديد حين محتقره إحداهن وكان يود الظفر بحبها وأفكر جدياً في الاقتران بها ، ولكنها ازدرته وأحبت عاشقاً غير جدير بها . وتعذب لهذا كثيراً ، ولذا قرر الرحيل إلى فلسطين بزيّ حاج .

وصل القسطنطينية في سنة ١٦١٤ ، فكان لسمة النبيل اللطيف أثر في حسن استقباله . واستأنف دراساته في عهد الشباب ، وانهمك في اللغات الشرقية ، وحصل نظرة عامة في لغة الأتراك وعاداتهم وطوائعهم ، ثم رحل إلى مصر ، وتأسف على رحيله أصدقاؤه الجديدون . فأفاد من مقامه في مصر لمتابعة دراسة آثار العالم القديم وبقاياها لدى المحدثين ؛ ومن القاهرة رحل إلى جبل سينا لزيارة قبر القديسة كثرينا ، ثم عاد من ثم ، وكأنه عاد من نزهة ترفيه ، إلى عاصمة مصر ، ليرحل من هنا مرة ثانية إلى القدس

التي وصلها بعد ستة عشر يوماً مما يطبع في خيالنا المسافة الفعلية بين هاتين المدينتين . وهناك زار القبر المقدس ، ودعا الخائض ، كما دعا من قبل القديسة كاترينا لتخلصه من وجدانه ، وإذا بالغشاوة نزول عن عيذه وأقرّ بأنه كان مجنوناً حين نظر إلى المرأة التي أحبا وعبدها على أنها وحدها التي تستحق هذا الإجلال ، واختفى ابتغاده عن الجنس الجميل ، وأخذ يسعى للبحث عن زوجة ، فكتب إلى أصدقائه ، وهو يفكر في اللحاق بهم بعد قليل ، كي يبحثوا له عن زوجة جديدة به .

وبعد أن زار كل الأناكن المقدسة وصلى فيها ، بفضل توصيات أصدقائه في الآستانة ، وخصوصاً بفضل المساعدة الفعالة لكابنجي (١) أرسل معه لمرافقته ، واصل رحلته وفي ذهنه فكرة كاملة عن حالة البلاد ، ووصل إلى دمشق ، ومنها سافر إلى حاب فلبس ملابس سورية وأطلق لحيته . وهنا صادف مغامرة مهمة قررت مصيره . فقد توثقت عرى الصداقة بينه وبين مسافر طالما أطرى له جمال ولطف فتاة مسيحية من جيورجيا تقطن ببغداد مع أهلها ، فوقع قلبه في غرامها ، كشرقى حقيقى ، من مجرد الصورة اللفظية ، وأسرع للذهاب إليها . فلما رآها ازداد لها حباً واشتاءً ، وكسب عطف الأم ، واقنع الأب ، لكنهما لم يسلماً إلا على مضض لهذا الوجدان الغامر : فإن فراقهما بنتهما الفاتنة المحبوبة ، بدا لهما تضحية بالغة . وأخيراً تزوجها ، وبهذا كسب أثمن كنز ، بالنسبة إلى رحلته وإلى حياته كلها . لأنه ، وإن لم يقيم برحلة الحج إلا وهو مزود بالثقافة الأرستقراطية السائدة في عصره وبمعارف واسعة ، وبالرغم من أنه كشف عن اهتمام بملاحظة كل ما يتعلق مباشرة بالإنسان ، وكان سلوكه مثالياً في كل مناسبة ، فإنه كان يعوزه مع ذلك معرفة الطبيعة ، وكان العلم بها في ذلك العصر محصوراً في دائرة ضيقة من

(١) كلمة تركية الأصل بمعنى مرافق السفر .

العلماء الجادّين الحذرين . وبهذا لم يستطع أن يعنى بمطالب أصدقائه إلا على نحو ناقص ، لما كانوا يسألونه معلومات عن النباتات والأخشاب والأفاويه والعقاقير ، لكن « معانى » الجميلة ، بصفاتها طيبة لطيفة للأسرة ، كانت تعرف كيف تنمو الأعشاب والجنود والأزهار ، وتعرف الصموخ والمراهم والزيوت والزور والأخشاب التى يمكن الحصول عليها من السوق فى التجارة ، وهكذا استطاعت إغناء معلومات زوجها ، مع احترامها للعرف والتقاليد .

وكان لهذا الزواج دور أهم بالنسبة إلى نشاطه كرجل ورحالة . فإن « معانى » ، وإن كانت طبيعتها ذات أنوثة خالصة ، كشفت مع ذلك عن صلابة أخلاق ، وكانت دائما فى مستوى الظروف ، لا تخشى أى خطر ، بل بالأحرى تسعى إلى الخطر وتسلك فى كل مناسبة نبالة وهدوء ، تركب الفرس مثل الرجال ، وتستطيع أن تملك عنانه ، وهكذا بقيت رفيقة فى السفر نشيطة مُنَبِّهة . ولا يقل عن هذا أهمية أنها فى الطريق تتعرف إلى كثيرات من النساء ، وتبعا لذلك يتلقى زوجها بالترحاب من الرجال ، ويستضاف ويدخل فى أحاديث معهم ، بينما هى تقدر على الاشتغال والاهتمام بزوجاتهم وفقا لعادة بنات جنسها .

لكن الحظ احتفظ للزوجين الشابين بمصادفة سعيدة مجهولة حتى ذلك الحين للرحالة الذين يتجولون فى تركيا . لقد دخل بلاد فارس فى السنة الثلاثين من حكم عباس الأول ، الذى استحق مثل بطرس وفريدرش لقب : الأكبر . لقد أمضى عباس شبابه حافلا بالأخطار والخاوف ، وعرف وضوح ، لما اعتلى العرش ، أن عليه ، لحماية إمبراطوريته ، أن يوسع حدودها ، وما هى الوسائل التى يمكن بها أن يؤمن سلطته فى الداخل ، وفى نفس الوقت اتجه فكره ومجهوداته إلى تعمير إمبراطوريته القليلة السكان هن طريق المبادلات ، وتيسير حياة الناس بإيجاد الطرق والحنانات (الفنادق) ،

وكان الجزء الأكبر من موارده واهتماماته مكرّس لأبنية هائلة : جعل عاصمة ملكه إصفهان ، وأكثر فيها من القصور والبساتين ، والخانات ومنازل الضيافة لضيوف الشاه ، وأمر بتشييد ضاحية للأرمن الذين نشطوا وأظهروا كل ما يشهد باعتراقتهم بالحميل ، إذ كانوا يتاجرون باستمرار لحسابهم أو لحساب الشاه ، وكانوا من المهارة بحيث ملأوا الخزانة بالملكاسب والضرائب . وقامت ضاحية أخرى لأهل جيورجيا ، وثالثة للمجوس ، مما زاد في حجم مدينة إصفهان ، بحيث أصبحت مثل إحدى عواصمنا الجديدة . ورُحِبَ ببعض رجال الدين الكاثوليكى الرومانى ، وخصوصا الرهبان الكرمليون ، وكانوا فى أمن ، أما المذهب اليونانى (الأرثوذكسى) فكان حظه من الرعاية أقل ، لأنه كان فى حاية الأتراك ، مما جعله ينتسب إلى العدو المشترك لأوروبا وآسيا (الترك) .

وأقام دلاًئلته فى إصفهان طوال عام وزيادة ، وأمضى وقته فى جمع معلومات عن حياة المدينة وتنظيمها . ومن هنا كانت أوصافه حية ، وكانت معلوماته دقيقة . وأخيراً ، بعد أن أخذ يحظ من كل شيء ، لم يبق له إلا أن يرى قمة الهرم ، أعنى أن يعرف الشاه الذى كان قلته يعجب به كل الإعجاب ، ويعرف الحياة فى القصر ، والجيش ، والحرب .

وكان الشاه فى نشاطه الجهم قد أمر ببناء مدينة كبيرة تسمى فرّح آباد فى إقليم مازندران ، على الشاطئ الجنوبى لبحر الخزر ، وهو إقليم مع ذلك حافل بالمستنقعات ، ومضرّ بالصحة ، وأسكن فيه مواطنين مجتهدين وبالقرب منها مباشرة أمر ببناء قصر له على مرتفعات على شكل المعتاتر ، على مسافة قليلة من أعدائه : الروس والترك ، فى موقع تحميه هضاب . وهنا كان يقيم عادة ، فذهب دلاًئلته لزيارته : جاء مع « معانى » فقبول بالترحاب ، وحظى بالمثل فى حضرة السلطان بعد فترة احتياط ، وفقاً للعرف عند الشرقيين ، وحظى برضاه وأذن له بالأكل على مائدته .

وحضور مجالس شرابه ، وكان عليه أن يجبر الشاه وكان مثقفاً طليعة يجب المعرفة ، بمعلومات عن النظم والعادات والديانات في أوروبا .

لدى الشرقيين بوجه عام ، وخصوصاً في فارس ، نجد نوعاً من السذاجة والبساطة في السلوك في كل الطبقات الاجتماعية وحتى القرية من العرش . صحيح أن في الدرجة العليا تسود مراسم دقيقة في الاستقبالات والمآدب وسائر المناسبات ؛ لكن بعد قليل ، يتم ، في حاشية الشاه ، نوع من الحرية كحرية الكرنفالات الملهيّة . فإن شاء الشاه أن ينشد لذته في البساتين والجواسق ، فلا يحق لأحد أن يمشى بنعليه فوق البُسُط التي يوجد فيها البلاط . يأتي أمير من التتر ، فيُخلع نعلاه ، لكنه وهو لم يتعود الوقوف على قدمه ، يهتز ، فيقترب الشاه بنفسه ويسنده حتى تم العملية . وعند المساء يجلس الشاه في دائرة القصر حيث تدار أكواب ذهبية مترعة بالخمر ، وبعض هذه الكؤوس متوسطة الوزن ، لكن بعضها الآخر ثقيلة بسبب قاعها السميك ، حتى إن الضيف غير المحرّب ، يسكب كاسه أو يسقط منه الكأس ، فيضحك الشاه والمدعوون . وهكذا تدار كؤوس الشراب إلى أن يعجز الضيف عن الوقوف على قدميه فيقتاد أو ينسحب في الوقت المناسب . وعند الرحيل لا يُحجّياً الشاه ، بل يختفي المدعوون الواحد تلو الآخر ، حتى يبقى الشاه وحده ، يرعى سمعه بضع لحظات لموسيقى حزينة ، ثم يغدو للنوم . وتروى حكايات غريبة عن حريم الشاه ، حيث النسوة يداعبن الشاه ويتصارعن معه ، ويسعين لإلقائه على السجادة ، بينما هو لا يسعى للدفاع عن نفسه أو الانتقام ، بين رنات الضحك ، إلاّ بالعبارات الشديدة والشتائم .

وهذه الحكايات الظرفية عن الملاهي الداخلية للحريم الشاهنشاهي ينبغي ألا تجعلنا نظن أن الشاه وديوانه ظلوا في رخاوة وبطالة . فليس فقط النشاط الحذر لعباس الأكبر هو الذي دفعه إلى تشييد عاصمة ثانية بالقرب من بحر

الخزر ، ولا شك في أن فَرَح - آباد كانت جيدة الموقع جداً بالنسبة إلى ملذات القنص وملاهي القصر ، لكنها إلى جانب ذلك كانت تحميها ظهور الجبال ، وكانت قريبة من الحدود بحيث يستطيع الشاه أن يكون على علم في الوقت المناسب بكل حركة يقوم بها أعداؤه الوراثيون : الروس والترك ، وأن يتخذ الترتيبات المناسبة للدفاع . أما من ناحية الروس فلم يكن ثم ما يثير مخاوفه في ذلك الوقت ، فإن الإمبراطورية (الروسية) قد أشاع الاضطراب فيها غاصبون ومدعون زائفون مما جعلها غير قادرة حتى على الدفاع عن نفسها ؛ أما الأتراك فعلى العكس من ذلك ، فقد كان الشاه هزمهم قبل ذلك باثنتي عشرة سنة في معركة عظيمة ، حتى إنه لم يعد يشعر بالخوف من ناحيتهم ، بل بالعكس انتزع منهم كثيراً من الأماكن الشاسعة . لكن السلام الحقيقي لا يمكن أن يستتب مع أمثال هؤلاء الجيران : فإن استفزازات فردية ، واستعراضات عامة كانت تلتزم كلا الطرفين باليقظة المستمرة .

لكن عباس رأى نفسه ، في ذلك الوقت ، مضطراً إلى القيام باستعدادات كبيرة للحرب . ووفقاً للتقاليد القديمة جداً ، جمع شعبه المسلح في سهول أذربيجان ، فهرعوا بكل فرقهم ، راكبين ومشاة ، ومعهم أسلحتهم المختلفة ، ومن ورائهم جمع هائل من غير المحاربين ، لأن كل واحد منهم يجر معه ، وكأنه يهاجر ، زوجته وأطفاله ومتاعه . ودلاً قتلته هو الآخر يصحب معه ، خلف الجيش والبلاط ، « معاني » الجميلة ووصيفاتها على خيول أو محفلات ، فأعجب به الشاه ، لأنه كشف بذلك عن رجولته ومكانته .

والأمة التي تتحرك جموعها كلها على هذا النحو ينبغي ألا يعوزها شيء . مما يلزمها في بيوتها ، ولهذا فإن تجاراً وباعة من كل الأنواع يصحبونهم ويفتحون في كل مكان أسواقاً وقتية ، وهم واثقون من رواج بضاعتهم . ومن هنا يُشبهه معسكر الشاه بمدينة فيها شرطة جيدة ونظام كامل بحيث

لا يجروء أحد على الغش أو التلاعب أو السرقة ، خوفاً من العقوبات القاسية :
فالكبير والصغير يجب عليه أن يدفع عدواً ونقداً . والنتيجة لهذا أنه ليس
فقط كل المدن الواقعة على الطريق تزود بتموين وافر ، بل وأن يرد
باستمرار من الولايات القريبة والبعيدة وارد لا ينتهى من العروض والزاد
وأسباب المعاش .

لكن أى عمليات استراتيجية أو تكتيكية يمكن توقعها من هذا الاضطراب
المنظم ؟ خصوصاً إذا علمنا أن كل الشعوب ، وكل القبائل ، وكل الأسلحة
تختلط في القتال وتتحارب أخلاطاً وبالصدفة ، دون قائد ولا صفوف ،
ولهذا قد يحدث أن نصراً يتقلب بسهولة إلى هزيمة وأن معركة واحدة تخسر
يمكن أن تقرر مصير دولة لعدة سنوات .

لكن في هذه المرة لم يكن القتال بالتلاحم . يجتازون مناطق جبلية بعد
مصاعب جمة ، ثم يترددون ، وينسحبون ، ويتخذون ترتيبات لتدمير
مدنهم هم ، حتى يهلك العدو في أرض خراب . ويتوالى الفرع وصيحات
النصر الزائفة ، وشروط ، وشروط السلام تُرفَضُ بخفة أو كبرياء ، وحماة
وهمة للقتال ، وتباطؤ ماكر يؤخران أولاً وينتهيان بالإسراع بالسلام . وفي
الحال ، بأمر من الشاه ، يعود كل إلى بيته ، دون أن يكون عليه بعد
أن يتحمل الآلام والمخاطر غير تلك التي عانها في الطريق والاضطراب
ونعثر على دلائل قتلته في الخزر ، إلى جوار قصر الشاه ، ساخطاً لأن الحملة
ضد الأتراك قد انتهت بهذه السرعة . وينبغي ألا نعدده رجالة طائفة ،
ومغامراً تتقاذفه المقادير ، بل له أغراضه الخاصة التي يسعى إلى تحقيقها دون
أن يكمل ولا يعمل . وكانت فارس في ذلك العصر بلد للأجانب ، فسخاء
عباس طوال سنين قد اجتذب النفوس اللوذعية ، ولم يكن في ذلك العصر
سفارات رسمية ، بل كان الرحالة البواسل المهرة يتولون هذه الأمور .
فها هو ذا شرلي Sharley الإنجليزي قد كلف نفسه برسالة وبعثة ، ولعب

دور الوسيط بين الشرق والغرب ، وبالمثل فقل دلاً فقلته ، كان مستقلاً بنفسه ، غنياً ، نبيلاً ، مثقفاً ، حسن الصلات ، فأفلح في الوصول إلى البلاط وسعى إلى إثارته ضد الأتراك : مدفوعاً بالحمية المسيحية التي انتقدت في نفوس الصليبيين الأول ، كان قد شاهد سوء معاملة الحجاج النصارى الأتقياء إلى القبر المقدس في القدس ، وشاركهم في بعض المتاعب ، وكل الدول الغربية كان من مصلحتها أن تكون الآستانة مهددة من ناحية الشرق : لكن عباس لم يثق بالمسيحيين ، ولم يكن يهتم غير مصلحته الخاصة ، كما أن المسيحيين لم يكونوا ليساعدوه في الوقت المناسب : والآل قد سوى أموره مع الأتراك وصالحهم ، لكن دلاً فقلته لم يتخل عن خطته وأهدافه وسعى لعقد محالفة بين فارس وبين قوازيق البحر الأسود . وعاد إلى أصفهان بقصد الاستقرار بها ونشر الكاثوليكية الرومانية . فاجتذب إليه أولاً أبوى زوجته ، ثم نصارى آخرين من جيورجيا ، وتبنى يتيمة جورجية ، وعقد صلات مع الكرمليتين وراودته فكرة الحصول من الشاه على أرض يؤسس فيها روما جديدة .

وجاء الشاه إلى أصفهان ، وتوافدت السفارات من كل النواحي : والشاه ، ممتطياً صهوة جواده في الميدان العام ، بحضرة جنوده وخدامه الكبار ، والأجانب من ذوى المكانة ، وأكبرهم يركبون معهم حاشيتهم ، نقول إن الشاه يسمح بالمقابلات كما يشاء هو ، وتقدم إليه الهدايا ، وتعرض عرضاً فخماً ، لكنها أحياناً تُزدرى بكبرياء ، وأحياناً أخرى يساومه عليها مساومة اليهود ، وهكذا تتردد الجلالة بين السمو والانخطاطة : ويبدل الشاه نشاطاً جماً وشخصياً إما وهو في داخل الحرم على نحو سرى ، وإما أمام هيون الجميع مشاركاً في الحياة العامة كلها .

كما يلاحظ أنه تحلى بتسامح خاص في الأمور الدينية . يجب الاحتراز من تحويل المسلم إلى نصراني ، أما اعتناق الإسلام فكان الشاه يحنده ويعمل

له بحجاسة فيما سبق ، أما الآن فلم يعد يهتم به . ويمكن المرء أن يعتقد ويعمل ما يشاء . وهكذا كان الأرمن ، مثلاً ، يمارسون طقس تعميد الصليب ويحتفلون به رسمياً في ضاحيتهم التي يجري فيها نهر زندرود . والشاه يشهد هذا الاحتفال ومعه حاشية كبيرة ، ويقوم أيضاً بالتنظيم وإصدار الأوامر ، ويبدأ بأن يستعلم من القسيسين عما يريدون عمله ، ثم يركض على فرسه في كل اتجاه ، ويعطى الأوامر للمركب بالنظام والهدوء ، والدقة كما لو كان يأمر جنوده . وبعد الاحتفال يجمع حوله القسيسين وسائر الأعيان ، ويتحدث معهم بشأن كل أنواع العقائد الدينية والعادات . وهذا الاستقلال الفكرى بالنسبة إلى سائر الاعتقادات ليس خاصاً بالشاه وحده ، بل يوجد لدى الكثير من الشيعة . والشيعة ، أنصار على ، الذى حرم من الخلافة في البدء ، ثم لما صار خليفة بعد ذلك اغتيل ، نقول إن الشيعة يمكن أن يعدوا بين المسلمين بمثابة الفرقة الدينية المضطهدة ؛ ومن هنا اتجهت كراهيتهم خصوصاً ضد أهل السنة الذين يتولون الخلفاء الذين جاءوا بين محمد وعلى . والأتراك سُنَّة ، وبين الشعبين (الفرس والأتراك) عداوة سياسية ومذهبية دينية ؛ وبينما الشيعة يكرهون إخوانهم في الدين المخالفين لهم كراهية شديدة ، فإنهم غير مباليين تجاه سائر الأديان ، ويعطفون عليها أكثر من عطفهم على خصومهم الحقيقيين (أهل السُنَّة) .

لكن لسوء الحظ هذا التسامح يشقى تحت تأثير هوى الشاه . فلاسكان الدولة أو إخلالوها من السكان ، كلاهما شيء واحد بالنسبة إلى لإرادة الطاغية : وحدث أن عباس ، وهويتجول في الريف متكرراً ، سمع عبارات سيئة من بعض النسوة الأرمنيات ، فأحس أنه أهين لإهانة شديدة ، فأوقع أشد العقوبات لكل رجال القرية . فانتشر الفزع والخوف على كل شواطئ زندرود ، وإذا بضاحية خلفا ، التي شارك الشاه في احتفالاتها منذ قليل ، تغوص في أعماق أنواع الحزن والحداد .

هو هكذا لشارك في مشاعر الشعوب الكبيرة ، التي تسمو مرة وتنحط
أخرى بسبب الاستبداد : فرة نشهد بإعجاب الدرجة العالية من الأمان
والرخاء التي استطاع عباس ، وهو حاكم مستبد ، أن يرفع إليها مملكته ،
واستطاع أن يقيم ذلك على أساس راسخ بحيث لم يستطع ضعف ولا جنون
ولا سوء سلوك خلفائه أن تدمرها تدميراً تاماً إلا بعد تسعين سنة ، لكن
ينبغي علينا أيضاً أن نبين الوجه الآخر من هذه اللوحة العظيمة :

لما كان الاستبداد ينبذ كل تأثير ، وينبغي عليه أن يؤمن شخصية الحاكم
تأميناً تاماً ، فينتج عن هذا أن المستبد يجب عليه دائماً أن يظن الخيانة ،
ويستشعر الخطر في كل مكان ، ويخشى العنف من كل ناحية لأنه إنما يحافظ على
مركزه الرفيع بالعنف وحده . ومن هنا تراه يغار من كل شخص يستطيع ،
إلى جانبه ، أن يبعث الاحترام والثقة وينشر الصفات اللامعة ، ويجمع
الكنوز ويبدو أنه يتنافس في النشاط . ومن سيخلفه يشر خصوصاً شكوكه من
كل ناحية . وإنها لعلامة على سمو الروح أن ينظر الملك بدون حسد وغيرة
إلى ابنه الذي سيؤول إليه حتماً كل ثرواته وغزواته دون موافقة إرادته الكلية .
ومن ناحية أخرى يمكن أن تقتضي من الابن أن يعرف بنسبٍ وحسن فوق
وتحفظ — كيف يعتدل في أمانه ، ويخفي مطامحه ، ويتجنب أن يستبق ، حتى
في الظاهر ، مصير أبيه . لكن أين هي الطبيعة الإنسانية الصافية العظيمة ،
الصابرة في الانتظار ، المبتهجة في الظروف الضرورية ، بحيث لا يشكو الوالد
من ولده والولد من أبيه في مثل هذا الموقف ، حتى لو كان كلاهما طاهراً
طهارة الملائكة ، فإن اندساسين يسعون بينهما ، ويصبح عدم الاحتياط
جريمة ، والمظهر دليلاً . وكم يورد لنا التاريخ شواهد على هذا ! لتذكر
التيه الأليم الذي ضل فيه الملك هيرود وأسرته . لا يكفي أن يجعل أهله الخطر
يحلق دائماً فوق رأسه ، بل إن طفلاً عجيباً ، بشر به الأنبياء ، يثير مخاوفه ،
ويجره إلى إجراء مذبح عامة قاسية ، قبل وفاته مباشرة .

كذلك كان مصير عباس الأكبر : لقد أثاروا ظنونه ضد أبنائه وأحفاده ، وهم بدورهم وقعوا فريسة للتهمة ؛ فقتل أحدهم مع أنه كان بريئاً ، وسُحبات حيناً آخر ، وكان نصف بذنب ، فقال له هذا : لست أنا الذى حرمته أنت من النور ، بل مملكتك .

وإلى جانب هذه الرذيلة المدمرة ، رذيلة الاستبداد ، فيضاف بالضرورة رذيلة أخرى ينشأ عنها على نحو غير متوقع أعمال العنف والجرائم . إن كل إنسان تحكمه عاداته ، لكنه محدود بالظروف الخارجية ، فيسلك مسلك الاعتدال ، ويصير الاعتدال له عادة . لكن عكس هذا تماماً هو الذى يحدث عند الطاغية المستبد ، فالإرادة التى لا يكبحها شيء تعظم نفسها ولا بد حتماً أن تظن فى نفسها القدرة إلى حد رفض كل حد ، إذ لا تتلقى أى تحذير من الخارج . وهكذا ينحل اللغز الذى يمثله أمير شاب فاضل كان حكمه مباركاً طوال السنوات الأولى ، لكنه تحول شيئاً فشيئاً إلى طاغية ، ووباء على العالم وعمته على أسرته ، التى تضطر مراراً إلى أن تبحث عن دواء عتيق لهذا الداء .

لكن مع الأسف ، يصير هذا التطاع إلى المطلق ، الفطرى فى الإنسان ، ونبوع كل الفضائل ، أشدّ هولا إذا انضاف إلى ذلك مشيرات من الخارج . هنالك يحدث الحد الأعلى من التكبر الذى ينحل ، لحسن الخط ، إلى سفادة تامة . ونحن نذكر الاستعمال المفرط للخمر ، مما يحطم وقتياً الحدود المشقة للعدالة والإنصاف اللذين لا يستطيع الطاغية أن ينكرهما تماماً بوصفه إنساناً ، ويشير كوارث بغير حد . فلنطبق هذه الاعتبارات على عباس الأكبر ، الذى بحكمه خمسين عاماً ، وصل إلى فرض إرادته المطلقة فى مملكته الواسعة الآهلة بالسكان ، ولتتصور هذا الأمير ذا الطبيعة المفتوحة ، الاجتماعية ، المرحية ، ولكنها ضلّت بعد ذلك بسبب الاتهام ، والحزن ، وما هو أدهى من الكل ، بسبب حب للعائلة أسوأ فهمه ، وقد أشعلت الإفراط فى الشراب ، وفوق هذا كان يعذبه ويشير اليأس فى نفسه داء جسماني كربه لا يشفى ، — لتتصور هذه

كله ولنوافق على أن أولئك الذين أبادوا من الأرض هذا الوباء يستحقون المغفرة إن لم يكن الثناء . ونرى من سعادة الأمم الحسنة الحكم أن يكون حاكمها يستعمل في أعماله ضميراً نبيلًا ، ومن سعادتها أيضا أن تكون الحكومات معتدلة يحبها الحاكم ولديه كل سبب لهذا الحب ، وذلك لأنها تخفف عنه المسئولية وتعفيه من كثير من ألوان الندم .

لكن ليس فقط الأمير ، بل كل إنسان يصل بالثقة أو الرضا أو الجراحة - إلى المشاركة في سلطة الحاكم ، ويخاطر بتخطي الدائرة التي رسمتها حول الجنس البشري الشريعة والعرف والإنسانية والضمير والدين والتقاليد ، ابتغاء هناء الأمم وهدوئها . ولهذا يجب على الوزراء والمقربين وممثل الشعب والشعوب نفسها أن تكون على حذر حتى لا تنجر هي نفسها ، وقد أحيطت بدوامه الإرادة المطلقة ، إلى الدمار المحتوم لها ولغيرها .

ولنعد الآن إلى رحالتنا ، لنجده في موقف حرج . فعلى الرغم من حبه للشرق ، اضطر دلائلته إلى الإقرار في النهاية بأنه يقطن بلاداً يستحيل فيها استمرار الخطط والمقاصد ، ولا يمكن بناء روما جديدة فيها بأصنى النوايا وأكبر النشاط . وأهل زوجته لا تحتجزهم بعد روابط الأسرة : فبعد أن عاشوا زمناً في إصفهان في أضيق نطاق ، رأوا من الأفضل أن يعودوا إلى شواطئ الفرات ليواصلوا حياتهم المعتادة . وباقي الجيورجيين لا يبدون حماسة ، والكرمليون أنفسهم ، الذين كانوا يهتمون بهذه المسألة اهتماماً خاصاً ، لم يتلقوا من روما تشجيعاً ولا معونة .

فترت حماسة دلائلته ، وقرر العودة إلى أوربا ، لسوء الحظ في أسوأ الظروف . وبدا له أن اختراق الصحراء أمر غير ممكن ، فقرر المرور بالهند ؛ لكن في هذه الفترة بالذات كانت الحرب قائمة بين البرتغاليين والأسبان والإنجليز بسبب هرمز ، هذا المركز التجاري الشديد الأهمية ، ووجد عباس

أن من مصلحته الاشتراك فيها : فقرر القتال وطرده البرتغاليين الذين كانوا جيراناً مشاكسين ، وعمل على إفساد خطط الإنجليز في المساعدة ، ربما بالمكر والماطلات ، ابتغاء أن ينال هو كل المكاسب .

وفي هذه الظروف العسيرة ، استولى على رحالتنا شعور غريب خاص جملة على غير وفاق مع نفسه ؛ هو الشعور بالمسافة الكبيرة بينه وبين وطنه في اللحظة التي فيها نشعر بالضيق في الغربة فننتطوى على أنفسنا ونود لو كنا عدنا إلى الوطن من زمن . ومن المستحيل تقريبا في مثل هذه الحال أن نصون أنفسنا عن الجزع ، وصاحبنا أصيب به ، وحرارة طبعه ، وثقته الراسخة النبيلة بدياة تمنعه من رؤية المصاعب التي تنتظره في الطريق . وجسارته المغامرة قد أفلحت حتى الآن في التغلب على كل الصعاب وتنفيذ كل خططه ، وخيل إليه أنه سيلقى نفس الحظ السعيد ، فلما رأى أن العودة عن طريق الصحراء عسيرة جداً ، اختار طريق الهند بصحبة زوجته الجميلة « معاني » والبنت التي تبناها وسموها : مريوتشيا . عانى الكثير من المصاعب ، التي كانت نذراً بالأخطار المقبلة ، ومع ذلك اجتاز برسهوليس وشيراز ، وهو يلاحظ بانتباه كعاداته ، ويصف الأشياء والأخلاق والعادات المحلية ويسجلها بتدقيق . واستمر في سيره حتى وصل إلى الخليج الفارسي ، لكنه وجد هناك ، كما كان متوقفاً ، كل الموانئ مغلقة ، وكل السفن مصادرة كما جرت العادة بذلك في أثناء الحرب . وهناك ، على الشاطئ ، في إقليم موبوء ، وجد معسكراً للإنجليز الذين توقفت قافلته مثلهم إلى أن تسنح الفرصة المواتية . فتلقوه بالترحاب ، وانضم إليهم ، ونصب خيامه بالقرب من خيامهم ثم بنى أيضاً كوخاً من النخيل زيادة في الراحة . وفي هذه اللحظة بدأ أن طالما سعيلاً قد لمع له . لقد كان زواجه حتى الآن عقيماً لم ينجب ، وإذا بمعاني ترجو أن تكون أمّاً ، مما سرّ الزوجين ، لكن دلاً فكله مرض ؛ لكن سوء التغذية والجوع غير الصحي كان لهما أسوأ الأثر عليه ، وعلى « معاني » أيضاً

ووا أسفاه ، فولدت قبل الأوان ، ولم تفارقها الحمى . وساندتها صلابة نفسها فترة ، وبدون معونة طبية ، ثم أحست بقرب نهايتها فاستسلمت بهدوء نقي ، وطلبت أن تُنقل من كوخ النخيل إلى الخيمة ، وهناك ، بينما كانت مريوتشيا تمسك بالشمعة المقدسة ودلاً قلته يتلو الصلوات المعتادة ، فاضت روحها بين ذراعيه . وكانت قد بلغت الثالثة وعشرين من عمرها .

وليغالب آلامه بعد هذه الحسارة ، قرر أن يأخذ معه جثمانها إلى روما ليدفنها في مقبرة الأسرة . وكان ينقصه الصمغ والخنوط والأطاييب الثمينة ، غير أنه لحسن الحظ وجد حيلة من خير الكافور الذي لو استعمله بمهارة أناس مختصون ، لأمكنه حفظ الجثمان .

لكنه خلق لنفسه بهذا أسوأ الصعوبات ، لأنه صار عليه ، خلال باقى السفرة . . . ، أن يرضى بالكلمات الطيبة أو طيرة أصحاب الجمال ، وجشع المستخدمين ، ويقظة موظفى الجمارك .

ونحن نتابعه الآن فى لار ، عاصمة لارستان ، حيث يجد هواء أكثر ملائمة ، ويتلقى بالترحاب ، وينتظر استيلاء القُرس على هرمز . لكن انتصار القُرس لا يسهل أموره . فوجد نفسه وقد ارتد من جديد إلى شیراز ، وانتهى بأن أبحر إلى الهند على سفينة إنجليزية . وكان سلوكه دائماً على مستوى ماضيه ، وشجاعته الدائبة ، ومعلوماته وصفاته النبيلة كفلت له فى كل مكان حسن اللقاء والمقام المشرف ، لكنه وجد نفسه أخيراً وقد ارتد من جديد إلى الخليج الفارسي واضطر إلى العودة عن طريق الصحراء .

وهنا عانى كل المحن التى كان يخشاها . أرققه زعماء القبائل ، وفرض عليه رجال الجمارك المكوس الباهظة ، ونهبه البدو ، وعانى آلاف المعاكسات والتأخيرات من جانب المسيحيين ، ومع ذلك عاد إلى روما حاملاً مجموعة هائلة من الأشياء العجيبة والتحف الثمينة ، وخصوصاً وأمن

الكل جثمان عزيزته « معاني » . وهناك في كنيسة أراكيلي أجرى لها مراسم جنازة حافلة ، ولما نزل إلى القبر ليوذعها الوداع الأخير ، نجد إلى جانبه بنتيه : سلفيا ، وكانت بنتاً فاتنة كبرت في أثناء غيابه ، وتيناتين دى تسببا ، التي عرفناها حتى الآن باسم مريوتشا ، وكلتاهما عمرها خمس عشرة سنة تقريباً . وقد صارت مريوتشا ، بعد وفاة زوجها ، رفيقته المخلصة في السفر وعزاءه الوحيد ، ولهذا قرر أن يتزوجها ضد رغبة أهله بل والبابا ، الذين فكروا له في زواج أنبل وأغنى . وظل طوال سنوات عديدة تالية يبدى عن خلق جارف جرىء شجاع ، وتوفى في سن السادسة والستين تاركاً ذرية عديدة .

اعتذار

لوحظ أن كل إنسان يفضل على سائر الطرق الطريق الذي وصل به إلى بعض المعلومات والتجارب ، ولهذا يود أن يهبه نوعاً من التكريس وأن يدعو خلفاءه إلى السير فيه . واستناداً إلى هذه الفكرة صورت بيترو دلاً قلة بالتفصيل ، لأنه كان أول وأوضح رحالة إلى الشرق كشف لى عن خصائص الشرق ، وأعتقد أنني بهذه الرواية أعطيت لـ « يوانى » أساساً أصيلاً . وعسى أن يكون مثلى مشجعاً لغيرى على أن يمسكوا بين أيديهم ، في هذا الزمن الغنى بالمطبوعات والرسائل المفردة من كل نوع ، بكتاب ضخم به يدخلون مباشرة في عالم عجيب يظهر لهم ، في الأوصاف الأخيرة للسفر ، أنه قد عانى بعض التعديلات السطحية ، لكنه بقى في الواقع تماماً كما بدا في عصره لهذا الرجل الممتاز .

من يُريد أن يفهم الشاعر

فليرحل إلى ديار الشاعر

وليستطب العيش في الشرق
حتى يكون القديم هو الجديد

أولياريوس

إن عدد الأوراق التي بلغها هذا الكتاب حتى الآن ينهنا إلى أن نسير
من الآن فصاعداً بمزيد من الاحتياط ، وقليل من الاستطراد : ولهذا فلن
نتوقف طويلاً عند هذا العالم الممتاز أولياريوس . وإنه لأمر شائق أن نلاحظ
كيف تتصرف الأمم المختلفة أثناء الأسفار . إننا نجد إنجليزاً نسينا من بينهم
مع الأسف شرلي وهربرت ، ثم إيطاليين ، وأخيراً فرنسيين . ثم ظهر ألماني
بقوته ومكانته . ولسوء الحظ ارتبط في رحلته في فارس برجل ظهر أنه
مغامراً أكثر منه سفيراً ، وبهاتين الصفتين تصرف على نحو طائش ، هوائي ،
بل غير معقول . لكن استقامة أولياريوس الممتاز لم تتعكر ، وهو يزودنا
بروايات عن السفر شائقة جداً ومفيدة ، خصوصاً ويزيد في قيمتها أنه جاء
إلى فارس بعد رحلة دلاء قلته بقليل ، وذلك بعد وفاة عباس الأكبر بمدة
قصيرة ، ولما عاد إلى ألمانيا عرّف الألمان بالشاعر العظيم سعدى وذلك بترجمة
راسخة شائقة . ونقف مع الأسف عند هذا الحد ، لأننا نود أن نعبّر
بجلال عن بالغ امتناننا لهذا الرجل لما ندين به له من خير كبير . ونحن في
نفس الموقف بالنسبة إلى الرحالتين التاليين ، ولا نستطيع إلا أن نلمّ بهما
إماماً عابراً .

تأقرنيه وشاردان

كان أولهما صائغاً وتاجراً في الأحجار الكريمة ، يعرض السلع النفيسة
والتحف الفنية ، ويتسلل ، بذكاء ومهارة داخل القصور الشرقية ويعرف
في كل مكان كيف يتكيف ويدبّر أموره . ووصل إلى الهند ، ورحل حتى

مناجم الماس ، وبعد هودة حافلة بالأخطار ، لم يجد في الغرب ترحاباً ..
والكتابات التي خلّفها مفيدة للغاية ، ومع ذلك فإن مواطنه ، وخلفه
ومنافسه شاردان ، لم يكتف بأَنْ يضع العراقيل في طريقة ، بل شوّه أيضاً
سمّيته . وشاردان ، منذ بداية رحلته ، عرف كيف يشق طريقه وسط
أشدّ الصعوبات ، وعرف أيضاً بمهارة كيف يستغل لمصلحته عقلية كبار
الحكام وأصحاب الثروات الهنود الذين يترددون بين المخاء والأنانية ،
وأن يستفيد من الرغبة التي لا تشبع لدى هؤلاء الناس الذين كانت لديهم
كنوز هائلة ومع ذلك كانوا يتطلعون إلى الحُلِيِّ الجديدة والمصاغات
الأجنبية ، ولهذا عاد إلى وطنه سعيداً محملاً بالمكاسب .

ومهما قلنا فلن نبالغ في مدح الذكاء ، ورباطة الجأش والمهارة والمثابرة
وبراعة السلوك والخدم لدى كليهما ، ولا رجل دنيوى يمكن أن يمجدهما
بوصفهما نموذجين في رحلة خلال الحياة . وكأنا يملكان ميزتين من النادر
أن يُجمَع بينهما : كانا پروتستانتين وفرنسيين ، وهى صفات إذا اجتمعت
في شخص واحد يمكن أن تنتج أشخاصاً ذوي قدرة فائقة .

الرحالة المحدثون والمعاصرون

ما ندين به للقرن الثامن عشر بل وللقرن التاسع عشر لا نستطيع هنا إلا
أن نسمّه مسّاً . فالإنجليز في الآونة الأخيرة ، زودونا بمعلومات عن المناطق
المجهولة . فصرنا نعرف أنباء مملكة كابل ، وجندروسيا القديمة وقرمانيا^(١) .
ومن ذا الذى يستطيع أن يمنع نظراته من التجوال وراء السند والإقرار بأن
في هذه المناطق نشاطاً يتزايد كل يوم ، ولهذا سينمو في الغرب الولوع
بمزيد من المعرفة المتعمقة للغات . فإذا قارنا أى تقدم أحرزه العقل والدراسة

(١) كابل : عاصمة أفغانستان . جندروسيا القديمة : تقابل الآن بلوخستان ؛ وقرمانيا :
في الجنوب الشرقى من آسيا الصغرى .

الارتفاع من الدائرة الضيقة للربانيين العبريين حتى عمق واتساع اللغة السنسكريتية ، فإن المرء ليجد نفسه سعيداً أن شهد ، منذ عدة سنوات ، هذه الحركة . وحتى الحروب ، التي تقف وتدمر الكثير من الأشياء ، كانت مفيدة من عدة نواح للعلم الدقيق . ومن جبال الهملايا حتى السهل ، المناطق على شاطئ السند التي ظلت حتى الآن متلفة بالأساطير ، قد صارت الآن على ارتباط واضح مع باقي العالم . وعلى طول شبه الجزيرة الهندية حتى جاوه نستطيع ، كما نريد وبحسب قوانا والظروف المواتية ، أن نلقى نظرة شاملة أو نتعمق بعض التفاصيل ، وهكذا يرى أصدقاء الشرق الجديون أنه يتفتح أمامهم الباب تلو الباب ليعرفوا أسرار هذا العالم الأولي ، وحيوب التنظيم الغريب والدين البائس وكذلك روعة شعر تلوذ به الإنسانية الطاهرة ، والنبالة الأخلاقية ، والسجوة والحب ، لتواسينا عن عداوات الطوائف ، والغرائب الدينية والتصوف المجرد ، وتقنعنا بأن الشعر ، في ختام المطاف ، يحفظ في داخله بنجاة الإنسانية .

أساتذتنا

الأموات منهم والأحياء

من المهام الصعبة التي يكاد يستحيل على المرء القيام بها على الوجه الأم أن يستعرض المرء لنفسه . كيف تعلم ، خلال حياته ودراسته ، هذا الشيء أو ذاك ، وكيف تقدمنا ليس فقط بفضل الأصدقاء والزملاء ، بل وأيضاً بفضل الأعداء والمخاصمين . وعلى ذلك أستشعر الحاجة إلى ذكر بعض الناس الذين أدين لهم بامنتان خاص .

جونز Jones

مناقب هذا الرجل معروفة الجميع ، فُصل القول فيها تفصيلاً ، وفي أماكن عديدة بحيث لم يبق لي إلا أن أعان على وجه العموم أنني سمعت

في كل وقت أن أستفيد من أعماله على غير نحو ممكن ، ومع ذلك أود التنويه بجانب أفادني فيه على وجه التخصيص .

كان - وفقاً للمبادئ الجيدة في التربية الإنجليزية - على علم راسخ بالأدبين اليوناني واللاتيني بحيث كان قادراً على تقدير ما أنتجناه ، وفي الوقت نفسه يستطيع أن يكتب بهاتين اللغتين ، وكان على علم بالآداب الأوربية ، ومتبحراً في آداب الشرق ، ذا موهبة رائعة في تقدير كل أمة وفقاً لفضائلها الأصلية ، وفي الكشف في كل مكان عن الجمال والخير حيث يجتمعان بالضرورة .

وأحسن مع ذلك ببعض الصعوبة في إبلاغ آرائه ، وكان تفضيل أمته للأدب الكلاسيكي القديم ، خصوصاً ، عقبة أمامه ، وحين نلاحظ بالدقة نلاحظ بسهولة أنه سعى ، كرجل حصيف ، إلى ربط المجهول بالمعلوم ، والقيم الحقيقية بالقيم المقرّ بها ، وسرّ تفضيله للفن الشعري في الشرق ، وعرض ، بتواضع ماهر ، في معظم الأحيان أمثلة يستطيع عن حق أن يوازن بينها وبين الشعراء اللاتين واليونان اللامعين ، واستخدم فيما يتصل بالإيقاع والأوزان الأشكال القديمة ابتغاء تيسير رقائق الشرق اللطيفة للكلاسيكية . وليس فقط من الناحية الأثرية ، بل وأيضاً من الناحية الوطنية شعر بكثير من المضايقات : فكم حزّ في نفسه أن يرى الناس لا يقدرّون قيمة الشعر الشرقي ، وهذا يظهر بوضوح من مقال كله تهكم قاس ، ركّزه في صفحتين فقط ، بعنوان : « العرب ، أو في الشعر ، حوار مع الإنجليز » ، وقد وصفه في كتابه عن الشعر الآسيوي . وينبغي علينا أن نرى فيه بمرارة ظاهرة كيف أن ملتون وپوب Pope سيكونان غير معقولين لو ارتديا ثوباً شرقياً ، ومن هنا ينبغي أن نعرف ونقدّر كل شاعر في لغته وفي نطاق عصره وثقافته وحضارته .

أيشهورن

ألاحظ بسرور وامتنان أنه في دراساتي الحاضرة لا أزال أستخدم نفس النسخة التي قدمها إلى هذا العالم العظيم منذ اثنتين وأربعين سنة ، من مؤلفات جونز ، بينما كان لا يزال بيننا وكان في وسعنا أن نتلقى من فمه الكثير من الحقائق المفيدة . ومنذ ذلك الحين وأنا أتابع تعليمه في صمت ، وفي هذه الأيام الأخيرة كانا من المتع الكبيرة أن أتلقى ، دائماً من يده وكاملاً ، الكتاب المهم جداً الذي يوضح لنا أخبار « الأنبياء » وعصورهم . وأى شيء أمتع ، بالنسبة إلى صاحب الإدراك السليم الهادئ وإلى الشاعر المتحمس ، من أن يرى هؤلاء الناس الملهمين وهم يتأملون بفكر سامٍ الوسط المضطرب الذي كانوا يعيشون فيه ، ويرصدون الأمور الرائعة ذات الدلالة التي كانت تجري وهم يوزعون العقوبات ، والإنذارات ، وألوان العزاء ، والدعوات .

بهذه الكلمات القصار أود أن أعبر بإخلاص عن امتناني وتعلقى بهذا العالم الجليل .

لورسباخ

ولأنه لواجب عليّ عرفان الجليل أن أذكرها هنا لورسباخ الممتاز . لقد دخل دائرتنا في سن متقدمة ، فلم يجد أبداً مكانة لذينة ملائمة ، ومع ذلك فقد وافاني بمعلومات أمينة عن كل المسائل التي عرضتها عليه ، في كل مرة لم تتجاوز حدود معارفه ، وهي حدود قصرها أحياناً بمزيد مع التدقيق .

وبدا لي في البداية غريباً ألا أجد فيه صديقاً متحمساً للشعر الشرقى ، ومع ذلك فهذا هو المصير المحتوم لكل من يكرس وقته وقواه بحماسة وولوع

لموضوع دراسة معين ؛ ولا يعتقد في نهاية الأمر ، أنه وجد فيه الحصاد الذى كان يُرجّيه . وفضلاً عن ذلك فإن الشيخوخة هى الوقت الذى فيه لا يعرف المرء بعد أن يستمتع حيث يستحق أن يستمتع حقاً . وكان ذكاؤه ونزاهته ساجيين ، وسأذكر دائماً بلذة الساعات التى قضيتها معه .

فون ديتس

كان للخبير فون ديتس^(١) أثر كبير فى دراساتى أعبر عنه وأقربه بامتنان . فى الوقت الذى كنت فيه أهم جدّياً بالأدب الشرقى وقع بين يديّ « كتاب قابوس » ، وظهر لى أنه كتاب ممتاز ، فكرمت له وقتاً طويلاً ودعوت الكثير من أصدقائى إلى مطالعته . وبعثت ، بواسطة مسافر ، برسالة تقدير لى هذا العالم الممتاز الذى كنت أدين له بالكثير . فبعث هو لى بكتيبه عن أزهار التوليب . فأمرت بعمل زينة ، على ورقة من الساتان ، حول إطار رائع من الأزهار المذهبة ، وكتبت فى داخله الشعر التالى :

« كيف يسلك المرء مسلك الحكمة على الأرض

وكيف يعتلى العرش وينزل عنه ،

وكيف يعامل الناس والأفراس ،

كل هذا يعلمه الملك لولده .

ونحن نعرف هذا اليوم بفضلك ، بالهدية التى أعطيتنا إياها ؛

وقد أضفت إليها الآن روعة التوليب ،

ولولم يمنعنى الإطار الذهبى

فأين كان سينتهى ما صنعت له لنا ؟ »

(١) هنريش فريدرش فون ديتس (١٧٥٠ - ١٨١٧) : كان فى الفترة من سنة ١٧٨٤ إلى ١٧٩١ قائماً بأعمال پروسيا فى الآستانة ؛ وصار منذ سنة ١٧٩١ حبراً *Prälat* فى دير كولبرج .

وهكذا تم بيننا حوار بالمراسلة ، استمر فيه هذا الرجل الفاضل بإخلاص حتى وفاته ، وكان خطه لا يكاد يُقترأ ، وسط الآلام والإرهاق .

ولما كنت آنذاك لا أعرف عادات الشرق وتاريخه إلا بصورة إجمالية ، وكنت أجهل تماما تقريبا لغة الشرق ، كانت صداقة من هذا النوع ثمينة جداً بالنسبة إلى : إذ وفقا لطريقتي في العمل على نحو منهجي محدد من قبل كنت في حاجة إلى توضيحات مباشرة ما كنت أستطيع أن أعثر عليها في الكتب دون أن أبدد وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً ، فإني كنت أتوجه إليه في المسائل الصعبة وأتلقى منه دائماً جواباً شافياً مشجعاً عن كل أسئلتى . وكنت أعرف مزاجه القاسى الشخصى جداً ، ولهذا حذرت من غثيانه من جانب معين ، لكنه تفضل ذات يوم ، على نحو مخالف تماماً لمشاعره ، وكنت أود أن أعرف شيئاً عن أخلاق نصر الدين خواجه ، المرافق الخفيف الروح لتيemor في معسكره ، فأرسل إلى ترجمة لبعض حكايات نصر الدين خوجه ، وهى تدل مرة أخرى على أن كثيراً من الحكايات الفاضحة التى يعالجها الغرب على طريقته تستمد أصولها من الشرق ، لكنها فى النقل تفقد فى كثير من الأحيان لونها الحقيقى واللهجة الأصلية الخاصين بها .

ولما كان مخطوط هذا الكتاب يوجد اليوم فى المكتبة الملكية فى برلين ، فإنه من المرغوب فيه تماماً أن يقول أحد المختصين فى هذا اللون بترجمته . ربما كان الأفضل أن تكون الترجمة إلى اللاتينية حتى يطلع عليها العلماء أولاً . أما بالنسبة إلى الجمهور الألمانى فيمكن استخلاص ترجمة موجزة ملائمة .

أما أنى اهتممت بسائر مؤلفات صاحبي ، وبكتابه « ذكريات الشرق » ، لا يخفى فى هذا الكتاب الشواهد عليه ، ومن الشائك أن أعترف أننى استفدت كثيراً من مزاجه المقاتل الذى لا يستطيع المرء أن يجهّده باستمرار . لكن من يتذكر أيام دراسته فى الجامعة حيث كان الواحد منا يهرع إلى قاعة السلاح قطعاً فى كل مرة يتقاسم فيها أستاذان أو كبيران قواهما ومهارتهما

نقول إن من يتذكر هذا لا يمكن أن يجادل في أنه في مثل هذه المناسبات يلاحظ مزايا وألوانا من الضعف ستبقى بدون هذا مستورة عن الطالب .

ومؤلف « كتاب قابوس » (« قابوس نامه ») هو كيكاوس ، ملك الديلم الذين يسكنون في المنطقة الجبلية من جيلان التي تبعد من الجنوب البحر الأسود . وسزداد بالمؤلف إعجابا كلما ازدادنا به معرفة . نشئ بعناية بالغة ، بوصفه وارث العرش ، من أجل حياة حرة نشيطة ، وترك بلاده ليتكون ويحصل تجارب في بلاد بعيدة ناحية الشرق .

وبعد وفاة محمود الذي روينا عنه كثيراً من جلائل الأعمال ، جاء إلى غزنة ، فتلقاه السلطان مسعود ، ابن السلطان محمود ، استقبالا حاراً ، وبعد خدمات جليلة قام بها في السلم والحرب تزوج إحدى أخوات السلطان . وفي بلاط كان الفردوسي قبل سنوات قليلة قد كتب فيه « الشاه نامه » وبقيت فيه جماعة كبيرة من الشعراء وأصحاب القرائح ، وكان السيد الجديده ، وهو جسر محارب مثل أبيه ، يقدر العلماء والشعراء ، استطاع كيكاوس ، خلال أعماله ، أن يجد أنخصب تربة لنموه الروحي فيما بعد .

لكن ينبغي علينا أن نتحدث أولاً عن تربيته . لقد وكله أبوه للمعلم ممتاز ، لتنمية قواه البدنية إلى أقصى درجة . ورده المعلم إلى أبيه بعد أن صار محمكاً في كل فنون الفروسية : من رماية ، وركوب خيل ، والرماية والشخص راكب ، ورمي الرماح ، واللعب بالمضرب والصولجان . وبعد أن مهر في كل هذه الألعاب ، ورضى أبوه عن هذه التربية ومدح المعلم ، أضاف : « عندى مع ذلك ملاحظة أبدية . لقد علمت ولدى كل التمرينات التي يحتاج فيها إلى آلات أجنبية عنه : فبدون الفرس لا يستطيع الركوب ، وبدون القوس لا يستطيع الرماية ؛ وما قيمة ذراعه بدون رمح ، وكيف يلعب بغر مضرب ولا صولجان ! لكنك لم تعلمه الفن الوحيد الذي لا يحتاج فيه إلا إلى نفسه ، وهو الذي لا غنى عنه ولا يستطيع لإنسان أن يساعده فيه » . فحاز

المعلم ، وفهم أنه ينقص الأمير فن السباحة . فتعلمه الأمير على شيء من المضض ؛ لكن فن السباحة هو الذى أنقذ حياته . لما كان فى طريق الحج إلى مكة فغرقت به السفينة هو وعدد كبير من الحجاج فى نهر الفرات (١) ، ولكنه نجى مع عدد قليل منهم .

أما أنه كان رفيع الثقافة فهذا ما يظهر بجلاء من حسن استقباله فى قصر غزنة ومن كونه عيّن مرافقاً للأمير ، وكانت لهذا فى هذا العصر دلالة كبيرة ، لأنه ينبغى أن يكون خبيراً فى فن تقديم تقرير منظم لطيف عن كل ما يجرى . وكانت وراثة عرش جيلان غير مؤكدة ، كما كان غير مؤكد الاستيلاء على المملكة من جانب الجيران الأقوياء الطامعين فى الغزو . وأخيراً ، بعد وفاة والده الملك ، الذى خلى من العرش ثم أعيد إليه ، اعتلى كيكاس العرش بحكمة بالغة وتسليم تام بنتائج الحوادث ؛ ولما بلغ سنّاً عالية ، وتوقع أن ابنه جيلان شاه ، سيكون فى وضع معرض لأخطار أكبر ، كتب هذا الكتاب الممتاز الذى يقول فيه لابنه « إنه علمه كل الفنون والعلوم لسبيين : إما ليتعيش من ممارسة مهنة لو اضطر إلى ذلك ، أو إذا لم يضطر ، لكى يكون عالماً بكل شيء إذا بقى على العرش » .

ولو أن مثل هذا الكتاب وقع بين أيدي المهاجرين النبلاء الذين تعيشوا مراراً من عمل أيديهم بتسليم مثالى ، فكم كانوا سيجلدون فيه خير العزاء !

وإذا كان هذا الكتاب الممتاز ، الذى لا تصاب له قيمة ، ليس معروفاً ، فالسبب الرئيسى فى هذا هو أن المترجم نشره على نفقته الخاصة وأن دار النشر نيقولاى أخذته على سبيل الأمانات ، وهذا سبب لسوء بيع الكتاب الذى من هذا النوع . لكن ليعرف وطننا أى كنز ينطوى عليه هذا الكتاب ،

(١) خطأ من جيته ، والصواب : فى نهر الدجلة أثناء العودة من سفره مخفقة للحج ، راجع : ديتس : « قابوس نامه » ص ٥٧٩ وما يتلوهما .

بالنسبة إليه ، سنورد هاهنا عناوانات الفصول : ونحن نرجو الصحف المحترمة مثل « جريدة الصباح » و « المجتمع » أن تنشر بعض الحكايات والنوادر المفيدة والمسلية والأمثال الجميلة المنقطعة النظير التي يحتوى عليها هذا الكتاب .

مضمون قابوس نامه بحسب فصوله

- ٢ - في معرفة الله
- ٢ - في مدح النبي
- ٣ - في حمد الله
- ٤ - فروض العبادة ضرورية ومفيدة
- ٥ - في الواجبات نحو الوالدين
- ٦ - في ارتفاع المولد بالفضيلة
- ٧ - في قواعد الكلام
- ٨ - في القواعد الأخيرة لأنوشيروان
- ٩ - في أحوال الشيب والشباب
- ١٠ - في آداب الطعام
- ١١ - في آداب الشراب
- ١٢ - في آداب الضيافة والدعوة
- ١٣ - في المزاح واللعب بالشطرنج
- ١٤ - في سلوك العاشقين
- ١٥ - مزايا ومساوى السكني معا
- ١٦ - كيف ينبغي الاستحمام والغسل
- ١٧ - في النوم والراحة

- ١٨- في نظام الصيد
- ١٩- في كيفية اللعب بالكرة
- ٢٠- في مهاجمة العدو والقتال
- ٢١- في تنمية المال
- ٢٢- في حفظ الأمانات ورددّها إلى أصحابها
- ٢٣- في شراء العبيد من الحبسين
- ٢٤- أين يجب شراء العقار
- ٢٥- في شراء الخيول والعلامة المميزة لأجودها
- ٢٦- في الزواج وشروطه
- ٢٧- في نظام تربية الأولاد
- ٢٨- في ميزة اكتساب الأصدقاء ، واختيارهم
- ٢٩- في الحذر من هجمات الأعداء ومكائدهم
- ٣٠- في فضل العفو
- ٣١- في طلب العلم
- ٣٢- في التجارة
- ٣٣- قواعد للأطباء وكيفية العيش
- ٣٤- قواعد في علم الفلك
- ٣٥- خصائص الشراء والشعر
- ٣٦- قواعد للموسيقين
- ٣٧- في طريقة خدمة الملوك
- ٣٨- في أحوال أمناء الملوك ومنادمتهم
- ٣٩- في قواعد الكتابة وأدب الكتاب

٤٠ - فى نظام الوزارة

٤١ - فى قواعد قواد الجيش

٤٢ - فى واجبات الملوك

٤٣ - فى قواعد الزراعة والفلاحة

٤٤ - فى مزايا الفضيلة

وكما أن المرء يرجى من غير شك أن يستخلص ، من كتاب هذا مضمونه ، معرفة واسعة بالحياة فى الشرق ، فلا شك أيضاً فى أنه يمكنه أن يجد فيه أمثلة كثيرة للإفادة وتكوين ملكة الحكم فى ظروف الحياة الأوروبية .

ولنصف فى الخاتمة مختصراً بتواريخ تولى الملك كيكاس العرش حوالى سنة ٤٥٠ هـ (= ١٠٥٨ م) وكان لا يزال يحكم فى سنة ٤٧٣ هـ (= ١٠٨٠ م) ؛ وتزوج بنت السلطان محمود الغزنوى . أما ابنه جيلان شاه الذى من أجله كتب « قابوس نامه » ، فقد جرد من مناصبه . ولا نعرف عن حياته إلا القليل ، ولا نعلم شيئاً عن وفاته . واجع ترجمة فون ديتس ، برلين سنة ١٨١١ .

* * *

والمكتبة التى نشرت أو تتولى توزيع الكتاب المذكور كأمانة يرجى منها أن تجربنى . والسعر المناسب سيسهل التوزيع المرجو .

فون هممر^(١)

تشهد كل أجزاء كتابى هذا كم أدين لهذا الرجل الممتاز . لقد جذبت اهتمامى حافظ وشعره منذ زمان طويل ، لكن كل ما وضعه الأدب ، وأخبار

(١) يوسف فون هممر (١٧٧٤ - ١٨٥٦) موظف نمساوى فى الآتفة ومصر ومولداقيا ، ومنذ سنة ١٨١١ مترجم فى القصر الإمبراطورى فى فيينا .

الأسفار ، والصحف ، الخ ، تحت عيني لم يعطني فكرة ولا رؤية عن قيمة وفضل هذا الرجل الخارق للعادة (حافظ الشيرازي) . لكن حين وصلتني أخيراً ، في ربيع سنة ١٨١٣^(١) ، ترجمة مؤلفاته كلها ، نفذت في عبقريته بولوع خاص وسعيت أن أعقد الصلة بينه وبينى بواسطة إنتاجي . وهذه المهمة العزيزة ساعدتني على اجتياز فترات عصيبة ومكنتني في النهاية من أن أتذوق ، بمتعة تامة ، ثمار السلام الذي كسبته جيوشنا .

ومنذ بضع سنوات عرفت بصورة عامة العمل المليء بالحماسة الذي قام به في « كنوز الشرق » ؛ والآن أن الأوان لكي أفيد منه ، إن هذا العمل فتح أمامي آفاقاً في اتجاهات عديدة ، وأيقظ وأرضي في نفس الوقت حاجات العصر ، وبالنسبة إلى تحققت مرة أخرى هذه التجربة فهي أنه في كل فرع من فروع العلم نجد عوناً رائعاً من معاصرنا إذا عرفنا كيف نستفيد من كفاياتهم بأمتنان وبكل محبة . إن العلماء المحصلين يفيدوننا فيما يتعلق بالماضي ، ويبينون وجهة النظر التي يتم النشاط وفقاً لها الآن ، ويعلنون مقدماً عن الطريق الأقرب الذي ينبغي علينا سلوكه . ولحسن الحظ أن كتاب يوسف فون همر الممتاز قد استمر بنفس الحمية ، ولو أوغلنا في أبحاثه في هذا الميدان عائدتين إلى الوراء ، فإن المر يعود دائماً عن طيب خاطر وبلذة متجددة إلى ما يقدم إلينا من كل ناحية على نحو شهى مفيد .

وليسمح لي بأن أصرّح بأن هذه المجموعة المهمة كانت ستكون ذات عون أكبر لي لو أن الناشرين^(٢) ، الذين لا يخصصون ولا يعملون إلا للعلماء والمختصين ، قد فكروا أيضاً في عامة الناس والهواة وقدموا المعظم ، إن لم يكن لكل ، مقالاتهم بمقدمة قصيرة عن أحوال الماضي ، والأشخاص .

(١) خطأ من جيته ، صوابه : سنة ١٨١٤ ، راجع يوميات جيته في ٧ مايو

سنة ١٨١٤ .

(٢) يقصد العلماء المحققين .

والأماكن ، إذ كان ذلك سيوفر على القارئ المهتم بالاطلاع أبحاثاً متعبة
تشلت انتباهه .

لكن كل أمانينا محققت على نحو كبير بفضل الكتاب العظيم الذى يعرض
علينا تاريخ الشعر الفارسى . ذلك أنى أقرّ عن طيب خاطر أنه فى سنة ١٨١٤ ،
حين أعلنت جريدة « أنباء جيتنجن » عن مضمون الكتاب مقدماً ، رتبت
فى الحال دراساتى وفقاً للأبواب المذكورة ، وكان ذلك ذا فائدة بالنسبة
إلى كبيرة . ولكن حين ظهر الكتاب كله ، وكان منتظراً بفارغ الصبر ،
شعرت بأننى انتقلت فجأة إلى وسط عالم معروف يمكن تقدير نسبه بوضوح
فى تفاصيلها ، بينما من لم يكن المرء يدرك قبل ذلك غير طبقات من
الضباب المتغير .

وعسى أن يحمد لى الجمهور ما أفدته واستخلصته من هذا الكتاب وأن
يدرك قصدى فى أن أجتذب إليه أولئك الذين ربما مروا ، خلال حياتهم ،
بعيداً عن الكنز المكندس هنا .

ومن المحقق أننا نملك اليوم أساساً نستطيع أن نقيم عليه بناء الأدب الفارسى
بوضوح وفخامة ، وعلى غرار هذا النموذج يكن تشييد وتعمق آداب أخرى .
لكن يبقى من المأمول فيه جداً أن يُراعى الترتيب التاريخى وألا يُحاول
العرض التنظيمى وفقاً لمختلف أنواع الشعر . فعند الشعراء الشرقيين يمتزج
كل شيء بحيث لا يمكن معالجة كل نوع على حدة ؛ وطابع الزمان وطابع
الشاعر فى عصره هو وحده المفيد لنا ويؤثر فى كل واحد على نحو حتى ؛
وعسى أن يستمر فى معالجة هذا الموضوع كما قلنا هنا .

وعسى أن يعترف اعترافاً كلياً بخصال « شيرين^(١) » الممتازة ، وبورقة

(١) شيرين : نصيدة رومتيكية فارسية نبأ لمصادر شرقية ، ليتسك سنة ١٨٠٩ .

البرسيم^(١) ، المفيدة في جيدها المحبوب ، والتي خلبت لبنا في ختام عملنا .

ترجمات

لما كان الألمان يتقدمون في معرفة الشرق بفضل الترجمات من كل نوع ، فإننا مسوقون إلى إيراد بعض الملاحظات التي وإن لم تكن جديدة فإن في تكرارها فائدة دائماً .

يوجد ثلاثة أنواع من الترجمات . الأول يعرفنا بالأجنبي بحسب فهمنا نحن ، وأفضل طريقة لهذا النوع هو الترجمة نثراً . ذلك أنه لما كان النثر يلغى كل خصائص الشعر القومي ويسوى في نفس المستوى المشترك الحماسة الشعرية ، فإنه في البداية يسدى أجل الخدمات من حيث أنه يفاجئنا في وسط حياتنا القومية وحياتنا الخاصة . مبيئاً لنا المزايا البارزة للأجنبي ويوفر لنا تنشئة حقيقية بأن يرفعنا فوق أنفسنا ، دون أن ندري كيف تم هذا . وترجمة لوثر للكتاب المقدس تحدث دائماً هذا الأثر .

ولو أن ملحمة « النيبيلنجي » ترجمت في الحال إلى نثر محكم وقُدِّمت على أنها كتاب شعبي ، لكان في ذلك مكسب كبير ، وكانت روح الفروسية الغربية ، الجادة ، الكابية ، الرهيبة ، قد اختلبتنا بطقها الكاملة . أما هل هذا لا يزال ممكناً ومناسباً اليوم ، فهذا أمر يفصل فيه على خير نحو أولئك الذين كرسوا أنفسهم للدراسات الجرمانية القديمة .

وبعد ذلك يأتي عصر ، فيه يحاول المرء أن يتكيف مع مظاهر الحياة الأجنبية ، لكنه في الحق لا يسعى إلا إلى اكتساب الروح الأجنبية ، لكن بنقلها إلى روحنا نحن . وهذه المرحلة أسميها مرحلة المعارضة Parodistische ،

(١) يوسف فون همر: « ورقة برتيم شرقية ، تتألف من ألفاظ فارسية ومرثيات عربية ورعويات تركية » فيناسة ١٨١٨ .

مستعملاً هذا اللفظ بأصنى معانيه . وفي الغالب يكون ثم أشخاص موهوبون لهذا اللون من العمل . والفرنسيون يستخدمون هذه الطريقة في ترجمة كل المؤلفات الشعرية . ونجد أمثلة على ذلك تعد بالآلاف في ترجمات دليل Delille^(١) . والفرنسي ، كما أنه يكتيف الكلمات الأجنبية مع لهجته ، يفعل نفس الشيء بالنسبة إلى العواطف والأفكار وحتى الموضوعات ؛ ويطلب بأي ثمن لكل ثمرة أجنبية بمقابل نما في تربته هو .

وترجمات فيلند^(٢) تنتسب إلى هذا النوع ، وهو الآخر كان ذا ذكاء وذوق خاصين جداً لم يمكنه من الاقتراب من العصر القديم وما هو أجنبي إلا بالقدر الذي يجدهما ملائمين له . وهذا الرجل الممتاز يمكن أن يعد ممثلاً لعصره . وكان له تأثير هائل ، لأن الأمور التي تسره كانت أيضاً لذيذة مقبولة لدى معاصريه في نفس الشكل الذي كان يمثلها عليه ويحسن عرضها .

لكن كما أنه لا يمكن الاستمرار في الكامل ولا في الناقص ، وأنه لا بد أن يتاوى التحول تحول آخر ، فقد وصلنا إلى مرحلة ثالثة يمكن أن تسمى المرحلة العليا والأخيرة ، تلك التي يمكن فيها جعل الترجمة مثل الأصل بحيث لا تعبر عنه فقط على نحوٍ مقارب ، بل وأيضاً أن تحل محله .

وهذه الطريقة تلبى أولاً أشد مقاومة ؛ لأن المترجم الذي يتابع الأصل بدقة يتخلى عن أصالة أمته ، وينشأ عن ذلك حد ثالث ينبغي على ذوق الجمهور أن يتكيف وإياه .

وفوس Voss^(٣) ، وفضله لا يتسع له وصف وأصف ، لم يستطع أول

(١) دليل Jacques Delille (١٧٣٨ - ١٨١٣) : شاعر فرنسي ، اشتهر بترجمة

« الجيورجيكات » لفرجيل .

(٢) ترجم فيلند شيكسبير من سنة ١٧٦٢ إلى ١٧٦٦ ولوسيان سنة ١٧٨٨ - ٨٩ .

(٣) ترجم فوس « الأوديسا » لهوميروس سنة ١٧٨١ ، و« الإلياذة » سنة ١٧٩٣ .

الأمر إرضاء الجمهور إلا بعد أن ألفت الأذن شيئاً فشيئاً هذا الأسلوب بالحديد ، لكن من يشمل اليوم بنظرته ما تم ، وإلى أى حد من المرونة وصل الألمان ، وأي فوائد بلاغية وإيقاعية ووزنية تبدى للشباب الموهوب وكيف أن أريوستو وتسو وشيكسبير وكالدرون يقدمون إلينا اليوم بشكلىن أو ثلاثة أشكال مختلفة ، كأجانب وسموا بسمة ألمانية ، - هذا الشخص له الحق فى أن يأمل أن التاريخ الأدبى يعلن بغير التواء عن اسم أول من شق هذا الطريق بين مختلف العقبات .

وأعمال يوسف فون همرتكشف غالباً عن طريقة مماثلة فى معالجة روائع الشرق التى ينبغى أن يتخذ معها المحاكاة الأمانة للشكل الخارجى : وكم تتفوق تفوقاً هائلاً ترجمته لبعض مواضع الفردوسى ، ترجمات مترتب يمكن قراءة إنتاجه^(١) فى « كنوز الشرق » . ونحن نعد هذه الطريقة فى ترتيب شعر شاعر أجنبى أسوأ طريقة يمكن أن يسلكها مترجم ، وإن كان مليئاً بالحماسة وقادراً على مهمته .

لكن لما كانت هذه المراحل الثلاث ، فى كل أدب ، تحدث ، وأحياناً فى اتجاه عكسى ، وأن هذه الطرق الثلاث فى الترجمة يمكن أن تمارس فى وقت واحد ، فإن ترجمة « الشاه نامه » ومؤلفات نظامى كنجوى نقرأ ستكون دائماً فى محلها . وستستخدم للقراءة العاجلة المقصود بها إعطاء فكرة موجزة عن المضمون ، وستستمتع بالجانب التاريخى والجغرافى والأخلاقى فيها ، ونزداد ألفة لطريقة الشعور والتفكير ، حتى اللحظة التى نكون فيها على حالٍ تسمح لنا بالتأخى تماماً مع هذه المؤلفات .

وليتذكر المرء النجاح الهائل الذى لقيته ترجمة من هذا النوع لمسرحية^(٢)

(١) يقصد جيررس Oörres فى « كنوز الشرق » - ٢ ص ٦٤ الذى « صاغ » مواضع

من الفردوسى .

(٢) ترجمها ج . فورستر سنة ١٧٩١ .

« سكونتالا » ، ويمكننا من غير شك أن نفرد نجاحها إلى ذلك النثر القضااض الذى انحلت إليه القصيدة . والآن قد آن الأوان لترجمة من النوع الثالث .
يورد مختلف اللهجات ، وخصائص الايقاع ، والوزن ونثر النص ، ويمكننا من تنوق هذه القصيدة فى أصالتها المليئة والاستمتاع بها من جديد .
والمترجم الإنجليزى^(١) لـ « رسالة الغيوم » مجادهوتا « هو الآخر خليف بكل إطرء ، لأن أول اطلاع على هذا الكتاب سيحدث أثراً حاسماً فى حياتنا : لكن ترجمة تنتمى قطعاً إلى الرحلة الثانية : فهو يتوسع ، ويتصرف ويتملق الأذن والإحساس الشمالى الغربى بواسطة بحر الايامبوزى الخمس أقدام . ولكنى أحمد لكوزجارتن ترجمته لبعض الشعر مباشرة عن الأصل ، مما يكشف الأصل فى مظهر مختلف تماماً . وفضلاً عن ذلك فإن المترجم الإنجليزى قد سمح لنفسه بتعديلات فى التعبير تتعرفها النظرة المجالية الغامضة وتعيب عليها .

لكن لماذا سمينا المرحلة الثالثة بالأخيرة ، هذا ما سنشير إليه فى كلمات قليلة . إن الترجمة التى تهدف إلى أن تكون هى كالأصل ، تنحو إلى الاقتراب من الترجمة بين السطور وتسهل جداً فهم الأصل ؛ وبهذا نجد أنفسنا وقد عدنا رغماً عنا إلى النص الأصيل ، وهكذا تم فى النهاية الدورة التى يتم وفقاً لها الانتقال من الأجنبي إلى الوطنى ، من المعروف إلى المجهول .

خاتمة نهائية

إلى أى حد أفلحنا فى ربط الشرق الأقدم والأكثر موتاً من الشرق الأحدث والأكثر حياة ، هذا ما سيفصل فيه بإحسان العارفين والأصدقاء . ومرة أخرى وقعت بين أيدينا وثيقة تنتسب إلى تاريخ اليوم ، ويمكن أن تفيد خاتمة هنيئة حية لمجموع هذا الكتاب .

(١) قصيدة هندية من نظم كالداسا ، ترجمها ولسون .

منذ قرابة أربع سنوات ، حين تلقى سفير فارس لدى بطرسبورج تعليمات مولاه ، لم تدع زوجة الشاه النبيلة هذه الفرصة تفلت كي ترسل من جانبها بهدايا ثمينة لصاحبة الجلالة الإمبراطورة أم كل روسيا ، مع رسالة كان من حسن حظنا أن نستطيع إبلاغ مضمونها لقرائنا .

رسالة زوجة شاه فارس

إلى صاحبة الجلالة الملكة أم كل روسيا

طلما بقيت العناصر التي تولف العالم ، نرجو أن المرأة العظيمة في قصر الفخامة ، سمط لؤلؤة الإمبراطورية ، وبروج كواكب السلطنة ، والتي حملت الشمس الساطعة للإمبراطورية العظمى ، والدائرة المركزية للقوة ، والنخلة التي تنضج عليها ثمرة السلطان الأكبر - نرجو لها أن تكون دائماً في سعادة وأن تحفظ من كل شر

بعد تقديم هذه الأمنية الخالصة ، أتشرف أن أعلن أنه ، بعد أن ألتجت ، في أيامنا السعيدة ، بفضل رحمة الله العليّ القدير ، بساتين القوتين العظيمين من جديد خصاداً نصرّاً من الورود ، وزال كل ما اندس بين البلاطين النبيلين بفضل الوحدة والصداقة الخالصتين ، فإن كل أولئك الذين يفتنون إلى كلا البلاطين لن يكفؤا عن أن تقوم بينهم علاقات المودة وتبادل الرسائل .

ولهذا ، فإنه في اللحظة التي فيها صاحب السعادة مرزا أبو الحسن خان ، السفير لدى بلاط روسيا العظيم ، يسافر إلى عاصمة الإمبراطورية - وجدت من الضروري أن أفتح باب الصداقة بفتح هذه الرسالة الخالصة . وكما جرى العرف القديم ، وفقاً لمبادئ الصداقة والمودة ، أن يتبادل الأصدقاء الهدايا ، فإنني أرجوك أن تتفضل بقبول هذه الزينة التي هي أفخر ما عندنا وتقديمها إليك . وآمل في مقابل ذلك أن تبذل بعض قطرات ندى رسائلك .

اللطيفة بستان قلب يحبك حباً لا مزيد عليه ، وأرجوك أيضاً أن تشرفني
بطلباتك وأتعهد بتليتها بكل لطف .

هدايا

عقد من اللؤلؤ وزن ٤٩٨ قراط

خمس شيلان هندية

صندوق من الورق ، من صنع أصفهان

صندوق صغير لوضع الريش

صوان صغير لوضع الأدوات الضرورية

خمس قطع من البروكار

وقد عرضنا من قبل كيف عبر السفير المقيم في بطرسمبورج بحكمة
وتواضع عن العلاقات بين الأمتين ، وبيننا ذلك لمواطنينا بمناسبة تاريخ
الأدب والشعر في فارس :

وقد التقينا حديثاً بهذا الرجل ، الذي يبدو أنه ولد ليكون سفيرا ،
أثناء سفره إلى إنجلترا ، وهو يمرّ بفتينا حيث وصلته المنح السنية من مولاه ،
وزاد الشاه فيها وفي مدلولها بالشعر . ونورد هنا هذا الشعر كافتتاح عقد قبتنا
المشيّدة من مواد مختلفة ، لكنها راسخة بمشيئة الله .

در درفش^(١)

فتحلى شه ترك جمشيد كيتى أفروز

كشور خدای ایران خورشید عالم آرا

(١) بالفارسية في الأصل مع ترجمة ألمانيا ، وكذلك الحال في القصيدة التالية .

چترش بصحن کیهان افکنده ظلّ اعظم
 کردش بمغز کیوان اکنده مشک سارا
 ایران کنام شیران خورشید شاه ایران
 زانست شیر و خورشید نقل درفش دارا
 فرق سفیر دانا یعنی أبو الحسن خان
 بر آطلس فلك شود از این درفش خارا
 از مهر سوی لندن اورا سفیر فرمود
 زان داد فرّ و حضرت بر و خسرو نصارا

على الراية

فتح على شاه التركى شبهه يجمشيد
 نور العالم ورب إيران وشمس الأرض
 مظلمته تلقى على صحن العالم ضلاً اعظم
 وحزامه يفوح منه المسك فى دماغ زحل
 ایران عرین الأسود ، وشاهها هو الشمس
 ولهذا فإن الأسد والشمس متقوشان على راية دارا
 رأس السفیر أبی الحسن خان
 برفع إلى فلك أطلس راية من حریر
 وهو ذاهب إلى لندن بدافع الحبة
 حاملاً السعادة والسلام لرب النصارى

در پرده

باصورت شاه و افتاب

تبارك الله زين پرده همایون فر
كه افتاب بر پردكش پرده در
بلی طرازش از كلك مانى ثانی
نكار فتحعلی شاه افتاب افسر
مہین سفیر شهنشاه اسمان درگاه
أبو الحسن خان ان هوشمند دانشور
زپای تاسر او غرق كوهر از خسرو
سپرد چون ره خدمت بجای پا از سر
چو خواست بازكند تاركش قرین با مهر
قرانش داد بدین مهر اسمان چاكر
درین خجسته بشارت اشارتست بزرگ
بر ان سفیر نكو سیرت ستوده سیر
كه هست عهدش عهد جهانكشا دارا
كه هست قولش قول سپهر فر داور

على شريط الوسام ،

مع صورة الشمس والشاه

بارك الله في هذا الشريط ذی اللآلئ النبیل ،

الشمس ترفع عنه الحجاب ،

وطرازه ورد من ریشه مانى الثانى

وصوره فتح على شاه مع تاج الشمس

سفیر شاهنشاه العظیم إلى بلاط السماء
هو أبو الحسن خان العالم الحکیم ،
غارق من رأسه حتى قدمه في لآلئ السلطان ،
سلك طريق الخدمة من البداية حتى النهاية ،
ولما أريد رفع رأسه حتى الشمس
أعطى شمس السماء خادمة له .
هذه البشارة ذات إشارة عظيمة
عند السفیر النبیل المحمود السيرة ،
عهده عهد دارا سيد الدنيا

وقوله قول الرب الذي يسطع مع نور السماء

والبلاطات الشرقية تستخدم ، تحت مظهر سداجة طفولية ، مسلکاً
وطرائق حكيمة مأكرة ، والقصيدتان اللتان أوردتهما شاهدان على ذلك .

وأخر سفارة روسية في فارس وجدت مرزا أبو الحسن خان في
البلاط ، من غير شك ، لكنه لم يكن يحظى برضا استثنائي ؛ وهو يتعلق
في تواضع بالسفارة ، ويسدى إليها خدمات جلتى ، ويستحق امتنانها .
وبعد ذلك بمدة ، أرسل نفس الرجل إلى إنجلتره مع حاشية ضخمة ؛
ولتكريمه على نحو خاص ، استخدمت طريقة خاصة . إذ لم يمنح عند
الرحيل كل التشریفات التي يخص بها ، بل يترك يرحل مزوداً بخطابات
اعتماد وباقي السلطات الضرورية . لكنه لم يكذب يصل إلى فينا حتى تصل إليه
كل التوكيدات اللامعة لمكانته ، وشواهد مهمة على أهميته . إذ أرسل إليه
راية مع شارات الإمبراطورية ، ووسام فيه يلعب رمز الشمس ، بل وصورة
الشاه ؛ وكل هذا يسمو به إلى مكانة تمثل السلطة العليا : فيه ومعه الجلالة
حاضرة . ولا يتنصر الأمر على هذا : بل تضاف قصائد تمجد ، بالأسلوب

الشرقي الحافل بالمجازات والمبالغات اللماعة ، الراية والشمس والصورة .
ولفهم التفاصيل ، نضيف بعض الملاحظات . إن الشاه يصف نفسه
بأنه تركي ، وذلك لأنه انحدر من قبيلة كاجغر ولغتها تركية . والواقع أن
القبائل الرئيسية في فارس والتي يتألف منها الجنس تنقسم بحسب لغتها
وأصلها إلى قبائل لغتها التركية ، وأخرى لغتها الكردية ، وثالثة لغتها اللورية
ورابعة لغتها العربية .

وهو يشبه نفسه بـ « جمشيد » لأن الفرس يشبهون ، من ناحية بعض
الصفات ، حكامهم الأقوياء بملوكهم القدماء : فيشبهون بفريدون في
المكانة ، وجمشيد في الأبهة ، والإسكندر في القوة ، ودارا في الدفاع ،
والشاه نفسه هو المظلة ، ظل الله على أرضه ؛ وهو نفسه في حاجة من
غير شك إلى مظلة في أيام القيظ في الصيف ؛ لكن هذه لا تحميه هو وحده
فقط ، بل والعالم بأسره . ورائحة المسك ، وهي أطيب رائحة ، وأكثرها
دواماً وانتشاراً ، تصاعد من حزام الشاه إلى دماغ زحل . وزحل في نظرهم
أرفع الكواكب داراً ، ودارته تغلق العالم السفلي ؛ وهنا إذن يوجد الرأس ،
وبالتالي دماغ الكل . وهناك حيث يكون الدماغ ، تكون الحواس ؛ ولهذا
فإن زحل يحس رائحة المسك المتصاعدة من حزام الشاه . ودارا
هو داريوس ، ومعناه : الرب ؛ والشرقيون لا يملّون من تكرار وذكر
أجدادهم . أما أن تدعى إيران : عرين الأسود فهذا أمر عجيب في نظرنا ،
لأن القسم من فارس الذي يقيم فيه الآن في العادة البلاط ، معظمه جبلي ،
ويمكن المرء أن يتصور بسهولة الإمبراطورية على أنها عرين يسكنه
المحاربون ، أعنى الأسود . والراية من حرير هي بالنسبة إلى السفير أعلى
وسام ، وفي النهاية يعبر عن فكرة العلاقات الفردية الحسنة مع إنجلترا .

وبالنسبة إلى للقصيد الثانية نبدى أولاً ملاحظة أولية وهي أن الرمزية
اللفظية تنفع الشعر الفارسي بحياة باطنة لطيفة ؛ وهذه الرمزية ترد كثيراً
وتسحرنا بلطفها الملموس .

الشريط يطلق على كل نوع من المكان المغلق الذى له مدخل وبالتالى يحتاج أيضاً إلى بواب ، كما يعبر الأصل وهو يقول إن الشمس ترفع عنه الحجاب ، لأن باب كثير من الغرف الشرقية يتألف من ستارة ، فمن يمسك بالستارة ويرفعها هو إذن البواب . وماني هو مؤسس فرقة المانوية ، ولا بد أنه كان رساماً بارعاً نشر بدعته الغريبة خصوصاً بواسطة اللوحات . وشأنه هنا كما نقول نحن : أبليس أورفايل . والتعبير لآلى السلطان تثير الخيال على نحو غريب . والآلى ينظر إليها على أنها قطرات ماء ، ومن هنا يمكن تصور بحر من الآلى يغرق فيه صاحب الجلالة المقربين إليه . وحين ينتشله منه تبقى القطرات معلقة ويصير مزينا زينة رائعة من رأسه حتى قدميه . وطريق الخدمة له هو الآخر رأس وقدم ، بداية ونهاية ، ابتداء وختام ؛ ولما كان الخادم قد سلكه خطوة خطوة فإنه يكافأ : والسطور التالية بعد ذلك تكشف من جديد عن الرغبة في تمجيد وتضخيم السفير حتى يؤمن له في البلاط الذى أرسل إليه الثقة التامة ، كما لو كان الشاه بنفسه حاضراً .

ولقد قيل عن حق إن الشعر الفارسي يتردد دائماً بين البسط والقبض ، والقصيدتان السابقتان توثيدان هذا الحكم . إنه يندفع في كل لحظة في اللامتناهى كى يعود في الحال إلى المتناهى والمحسوس . إن الحاكم نور العالم وهو أيضاً رب مملكته ، والمظلة التى تحميه من الشمس تنشر ظلها على صحن العالم ، وعطور حزامه تصاعد حتى زحبل ، وهكذا تتجلى دائماً حركة بسط وقبض ، منذ الأزمان الخرافية السحيقة حتى مراسم بلاط العصر الحاضر . ومن هنا نعرف مرة أخرى أن مجازاته واستعاراته ومبالغاته ينبغي ألا تعتبر أبداً بمفردها ، بل تُفسَّر في سياق واتجاه العمل الأدبي كله .

مراجعة

إذا نظرنا في المصلحة التي ألهمت المنقول المكتوب ، منذ أقدم الأزمنة حتى أحدثها ، وجدنا أن هذه المصلحة قد أحيتها خصوصاً هذه الواقعة وهي أنه في هذه البرشمانات والمخطوطات يوجد دائماً شيء يقبل التعديل والتصحيح . ولو أمكن أن يوضع بين أيدينا خط بغير خطأ لمؤلف قديم ، فلربما نحى جانباً بغير قليل .

كذلك لا يمكن أن ننكر أننا نحن شخصياً نغفر للكتاب كثيراً من الأغلط المطبعية لأننا نغيبط باكتشافها . فعسى هذه الحصلة الإنسانية أن تفيد كتابنا هذا ، إذ قيض لنا ، لنا أو لغربنا ، أن نصلح كثيراً من العيوب ونصحح كثيراً من الأغلط ؛ غير أن الإسهام المتواضع في هذه المهمة لن يرفض بتأفف .

ولتحدث أولاً عن طريقة رسم الأسماء الشرقية ، وهذا أمر لا يمكن تقريباً الوصول فيه إلى اتفاق تام . إذ سبب الفارق الكبير بين لغات الشرق ولغات الغرب ، من العسير أن نجد لأبجدية لغات الشرق ما يقابلها تماماً في أبجدياتنا . وفضلاً عن ذلك فإنه لما كانت اللغات الأوروبية ، بسبب اختلاف أصولها ولجاتها الخاصة ، تعزو أبجديتها الخاصة قيمة ومدلولاً مختلفين ، فإن الاتفاق أشدّ عسراً .

ونحن إنما قادنا في هذه المناطق خصوصاً دليل فرنسي . ذلك أن قاموس هيربوليه Herbelit هو الذي حقق أمانينا . لكن هذا العالم الفرنسي كان عليه أن يكيف ويعدل الكلمات والأسماء الشرقية وفقاً للنطق والحسن السمعي عند مواطنه ، وهذا قد انتقل شيئاً فشيئاً إلى الألمان . فثلاً نحن نقول دائماً Nagire بدلاً من hedshra اتباعاً لحسن النطق وللعادة القديمة .

كذلك فعل الإنجليز الكثير من جانبهم في هذا المجال ! فعلى الرغم من

لأنهم ليسوا على اتفاق فيما يتعلق بنطق لغتهم هم ، فقد استخدموا لأنفسهم
الحق في نطق ورسم هذه الأسماء على طريقتهم ، وهذا يوقعنا من جديد في
الشك والخيرة .

والألمان وهم أكثر الناس حظاً من السهولة في الكتابة كما ينطقون ويطاوعون
عن طيب خاطر الأصوات والكم والنبرات الأجنبية ، قد أخذوا في العمل بجدة
في هذا الميدان . ولكنهم لأنهم سعوا دائماً إلى الاقتراب المتزايد من الأصوات
الأجنبية ، فإننا نجد فوارق كبيرة بين الأعمال القديمة والحديثة ، بحيث لا يجد
المرء مبرراً للخضوع لسلطة جادة .

ولحسن حظي حمل غنى عبء هذا المهم صديق العالم الملائف ي . ج ل ،
كوز جارتن ، الذي أدين له بترجمة القصيدتين الشاهنشاهيتين اللتين أوردناهما ،
والذي بعث إلى بكثير من التصويبات . ألا ليت هذا الصديق الوفي يمد يد
إحسانه إلى إعداداتي من أجل « ديوان » مقبل .

ما^(۱) نصیحت بجای خود کردیم
روز کاری درین بسر بردیم
کر نیاید بکوش رغبت کس
بر رسولان پیام باشد و بس

لقد أسدینا هنا نصيحة صادقة
وقضينا فيه كثيراً من أيامنا ؛
فإن ساء رنينه ربما في أذن الناس
فليكن ، فما على الرسول إلا البلاغ فقط .

(۱) هذه الأبيات الفارسية الأربعة (وهي واردة في الأصل بالفارسية بعد ترجمتها
الألمانية) مأخوذة من « جلستان » سعدى الشيرازى (ترجمة أولياريوس ص ۱۱۰) .

سيلويستر دساسى

يا أيها الكتاب سير إلى سيدنا الأعز
فسلم عليه بهذه الورقة
التي هي أول الكتاب وآخره
يعنى أوله في المشرق وآخره في المغرب

فهرس الكتاب

صفحة

تصدير عام ٥١ - ١

- ١ - جيته والشرق ١
- ٢ - هجرة جيته ١١
- ٣ - جيته والحب ٢٠
- ٤ - جيته والدين ٢٩
- ٥ - جيته وحافظ ٣٨

الديوان الشرقي للمؤلف الغربي ٥٣

مغني نامه - كتاب المغننى ٩٤ - ٥٥

- ١ - هجرة ٥٥
- ٢ - واهبات البركة ٦٠
- ٣ - الخاطر الحر ٦٤
- ٤ - طلاس ٦٥
- ٥ - نعم أربع ٦٩
- ٦ - اعتراف ٧١
- ٧ - عناصر ٧٣
- ٨ - الخلق والإحياء ٧٥
- ٩ - ظاهرة ٧٧
- ١٠ - لطيف ٧٨
- ١١ - شقاق ٨٠
- ١٢ - الماضي في الحاضر ٨١
- ١٣ - أغنية وضور ٨٤
- ١٤ - جرأة ٨٥
- ١٥ - ثابت ماهر ٨٦
- ١٦ - الحياة الكلية ٨٨
- ١٧ - الحنين المعيد ٩٠

صفحة

حافظ نامه - كتاب حافظ ٩٥ - ١١٤

- ١ - لقب ٩٥
- ٢ - شكوى ٩٧
- ٣ - فتوى ٩٩
- ٤ - الألمانى يشكر ١٠٠
- ٥ - فتوى ١٠٢
- ٦ - غير محدود ١٠٣
- ٧ - محاكاة ١٠٥
- ٨ - سر ظاهر ١٠٧
- ٩ - نظرة ١٠٨
- ١٠ - إلى حافظ ١٠٩

عشق نامه - كتاب العشق ١١٥ - ١٣٦

- ١ - تمادج ١١٥
- ٢ - وزوج آخر ١١٨
- ٣ - كتاب قراءة ١٢٠
- ٤ - أجل ، لقد كانت الميون ١٢٢
- ٥ - متنبه ١٢٢
- ٦ - غارق ١٢٣
- ٧ - مطلق ١٢٤
- ٨ - حبيبى أوام ! ١٢٦
- ٩ - سلوى ياتسة ١٢٦
- ١٠ - راض ١٢٧
- ١١ - تحية ١٢٨
- ١٢ - تسليم ١٣٠
- ١٣ - لا مناص ١٣٢
- ١٤ - سر ١٣٣
- ١٥ - أكبر سرا ١٣٥

تفكير نامه - كتاب التفكير ١٣٧ - ١٦١

- ١ - استمع إلى ١٣٧
- ٢ - خسة أنبياء ١٣٨
- ٣ - خسة أخرى ١٣٩
- ٤ - ما أجل نظرة ١٤٠

صفحة

٥ -	ما ورد في بند نامه	١٤١
٦ -	لست تدري	١٤٢
٧ -	تحية المجهول	١٤٣
٨ -	هم تغنوا بخطاياك	١٤٤
٩ -	إن الحق ليغريك بالشراء	١٤٥
١٠ -	سميت هباء	١٤٦
١١ -	لا تسلم من أي باب	١٤٦
١٢ -	جئت من أين ؟	١٤٨
١٣ -	الواحد ظهر الآخر	١٤٩
١٤ -	حذار من النسوان	١٥٠
١٥ -	إنما الدنيا مزاج	١٥١
١٦ -	حياة المرء	١٥٢
١٧ -	تقول إن الأيام	١٥٣
١٨ -	ضع نفسك	١٥٤
١٩ -	الأجواد سيخضعون	١٥٥
٢٠ -	من يستطع للأمر	١٥٥
٢١ -	إلى شاه شجاع وأمثاله	١٥٦
٢٢ -	النفمة العظلى	١٥٨
٢٣ -	الثرودوسى يقول	١٥٩
٢٤ -	جلال الدين الرومى يقول	١٦٠
٢٥ -	زليخا تقول	١٦١

رنج نامه - كتاب الحزن (أو سوء المزاج) ١٦٢ - ١٨٠

١ -	أنى لك هنا ؟	١٦٢
٢ -	لن تجد شويعرأ	١٦٤
٣ -	ما يكاد المرء	١٦٦
٤ -	تستطيع أن تدرك جيذا	١٦٧
٥ -	إذا استرحت فى الخير بسلام	١٦٩
٦ -	كما لو كان الأمر يقوم	١٧١
٧ -	« المحنون » يعنى -	١٧٣
٨ -	هل أمديت إليكم نصائح	١٧٤
٩ -	طمانينة المسافرين	١٧٥
١٠ -	من يود أن يطلب من الدنيا	١٧٦
١١ -	أن يملح المرء نفسه	١٧٦
١٢ -	أتظن أن ما يذهب من القم إلى الأذن	١٧٧

صفحة

- ١٣ - من يتبع الطريقة ١٧٨
 ١٤ - قديما حين كان المرء ١٧٩
 ١٥ - النبي يقول ١٧٩
 ١٦ - تيمور يقول ١٨٠

حكمت نامہ - کتاب الحکم ١٨١ - ٢٠٣

- ١ - سائر الطلسمات ١٨١
 ٢ - لا تطلب من هذا اليوم ١٨٢
 ٣ - من وُلد في أيام نحس ١٨٢
 ٤ - كم الشيء سهل ١٨٢
 ٥ - البحر تهدر أمواجه ١٨٢
 ٦ - لماذا تسومني العذاب ١٨٣
 ٧ - إذا امتحنك القدر ١٨٣
 ٨ - لا يزال النهار طالعا ١٨٤
 ٩ - ماذا تريد أن تغير في العالم ؟ ١٨٤
 ١٠ - حين يشكو المظلوم ١٨٥
 ١١ - كم أسأت التصرف ١٨٥
 ١٢ - ما أروع ميراثي ١٨٦
 ١٣ - افعل الخير ١٨٦
 ١٤ - يقول أنورى ١٨٦
 ١٥ - لماذا تشكو من أعدائك ١٨٧
 ١٦ - لا حاقة أشق من الاحتمال ١٨٧
 ١٧ - لو كان الله جارا سيئا ١٨٨
 ١٨ - اعترف ! ١٨٨
 ١٩ - في كل مكان يريد كل إنسان ١٨٨
 ٢٠ - اللهم ارفع غضبك عنا ! ١٨٩
 ٢١ - إذا أراد الحسد ١٨٩
 ٢٢ - لفرض الاحترام على الناس ١٨٩
 ٢٣ - ماذا يفيد رجال الدين ١٨٩
 ٢٤ - منح البطل ١٩١
 ٢٥ - افعل الخير ١٩٠
 ٢٦ - إذا أردت ألا تُهيب ١٩١
 ٢٧ - كيف حدث ١٩١
 ٢٨ - لا تدع نفسك أبدا ١٩١
 ٢٩ - لماذا كانت الحقيقة نائية بعيدة ؟ ١٩٢

صفحة

- ٣٠ - ما الفائدة في البحث ١٩٢
- ٣١ - لما قتلت عنكبوتا ١٩٢
- ٣٢ - الليل ظلم ١٩٣
- ٣٣ - يلهأ من جاعة مختلطة متنوعة ١٩٣
- ٣٤ - أذت تقول عني إنني بخيل ١٩٣
- ٣٥ - إذا أردت مني أن أريك ١٩٤
- ٣٦ - من يلزم الصمت ١٩٤
- ٣٧ - من له خادمان ١٩٤
- ٣٨ - مكانكم يا إخواني ١٩٥
- ٣٩ - لماذا أشكر الله أجزل الشكر ١٩٥
- ٤٠ - من الخنون أن يفرض كل إنسان ١٩٥
- ٤١ - من يأت إلى الدنيا ١٩٦
- ٤٢ - من يدخل بيتي ١٩٦
- ٤٣ - ربّ أرض ١٩٧
- ٤٤ - ها أنت متردد ١٩٧
- ٤٥ - أي شيء لم يأت به لقمان ١٩٨
- ٤٦ - إن الشرق اجتاز ١٩٨
- ٤٧ - لماذا تزين إحدى يديك ١٩٩
- ٤٨ - لو بُعث ١٩٩
- ٤٩ - الطين المدوس ٢٠٠
- ٥٠ - لا تحزني ٢٠٠
- ٥١ - أذت لم تشكر ٢٠١
- ٥٢ - اظفر بحسن السمعة ٢٠١
- ٥٣ - توار الشهوة ٢٠١
- ٥٤ - أمين السر والوزير ٢٠٢
- ٥٥ - من المؤسف ٢٠٣
- ٥٦ - اعلم أني أتصابق جدا ٢٠٣

تيمور نامه - كتاب تيمور ٢٠٧ - ٢٠٤

- ١ - الثناء وتيمور ٢٠٤
- ٢ - إلى زليخا ٢٠٦

زليخا نامه - كتاب زليخا ٢٠٨ - ٢٦٦

- ١ - دعوة ٢٠٨
- ٢ - ما من عجب ٢١٠

صفحة

٢١٠	ولما كنت منذ الآن	٣ -
٢١٢	حاتم	٤ -
٢١٣	زليخا	٥ -
٢١٤	الماثيق لا يضل	٦ -
٢١٤	أهذا ممكن	٧ -
٢١٥	زليخا	٨ -
٢١٦	أنا على أتم استعداد	٩ -
٢١٧	إني أعرف تماما	١٠ -
٢١٨	جنجو بيلويبا	١١ -
٢٢٠	زليخا وحاتم	١٢ -
٢٢١	ها هي ذى الشمس أقبلت	١٣ -
٢٢٢	إلى ، إلى	١٤ -
٢٢٤	قبل ما أظله	١٥ -
٢٢٦	هل أتردد لحظة واحدة	١٦ -
٢٢٧	هذه الأسفار	١٧ -
٢٢٩	حب بحب	١٨ -
٢٣٠	زليخا وحاتم	١٩ -
٢٣٣	حاتم والفتيات	٢٠ -
٢٣٦	أيها الغدائر	٢١ -
٢٣٧	زليخا	٢٢ -
٢٣٧	لا تسمحى لقمك العذب	٢٣ -
٢٣٨	إذا كنت مفصولا	٢٤ -
٢٣٨	فليجبر نفسه بنفسه	٢٥ -
٢٣٩	أوه ! لماذا تمحدث الحوامس ؟	٢٦ -
٢٣٩	وحتى على البعد	٢٧ -
٢٣٩	أنى لى أن أبقي هادئا	٢٨ -
٢٤٠	حين أفكر فيك	٢٩ -
٢٤١	كتاب زليخا	٣٠ -
٢٤١	على هذه النصوص المفتحة	٣١ -
٢٤٢	زليخا وحاتم	٣٢ -
٢٤٣	لم أكد ألتقاك من جديد	٣٣ -
٢٤٥	بهرًا مجور	٣٤ -
٢٤٦	أن أنائف مع نظرتك	٣٥ -
٢٤٧	زليخا	٣٦ -
٢٤٩	صورة سياسية	٣٧ -

ضبعة

- ٢٥١ خاتمة ٣٨ -
 ٢٥٢ أيتها الريح الغربية ٣٩ -
 ٣٥٣ عودة اللقاء ٤٠ -
 ٢٥٨ ليلة البدر ٤١ -
 ٢٦٠ كتابة رمزية ٤٢ -
 ٢٦١ انمكاس ٤٣ -
 ٢٦٣ بلأى سرور باطن ٤٤ -
 ٢٦٤ دع للإسكندر مرآة العالم ٤٥ -
 ٢٦٥ العالم كله جهيل ٤٦ -
 ٢٦٥ قد تحتجيين ٤٧ -

ساقى نامه - كتاب الساقى ٢٦٧ - ٢٨٩

- ٢٦٧ نعم كنت أغشى ١ -
 ٢٦٨ إذا جلست وحدى ٢ -
 ٢٦٨ مولاي اللص ... ٣ -
 ٢٦٨ هل القرآن قديم ٤ -
 ٢٧٠ مسكارى ٥ -
 ٢٧٠ لا أحد بعد يهتم بهذا ٦ -
 ٢٧١ طالما كان المرء فى صحو ٧ -
 ٢٧٢ زليخا وحاتم ٨ -
 ٢٧٣ إن كان الجسم سجننا ٩ -
 ٢٧٣ إلى الزادل ... ١٠ -
 ٢٧٣ (مكرر) إلى الساقى ١٠ -
 ٢٧٤ الساقى يقول ... ١١ -
 ٢٧٥ بسبب سكرنا ١٢ -
 ٢٧٦ آه ! أيها الخبيث الصغير ١٣ -
 ٢٧٦ واعجبا لما كان اليوم ١٤ -
 ٢٧٧ على أى حال ياسيدى ١٥ -
 ٢٧٩ هذه الثرثرة الخفيفة ١٦ -
 ٢٨٠ اليوم أكلت أكلة طيبة ١٧ -
 ٢٨١ ينادونك باسم الشاعر الكبير ١٨ -
 ٢٨٢ هيا أيها الساقى ١٩ -
 ٢٨٣ فكر ياسيدى ... ٢٠ -
 ٢٨٤ ليلة صيف ... ٢١ -
 ٢٨٨ وقد غلبه النعاس ٢٢ -

منة

محتل نامه - كتاب الأمثال ... ٢٩٠ - ٢٩٨

- ١ - من السماء نزلت ... ٢٩٠
- ٢ - غناء الليل في الليل ... ٢٩١
- ٣ - الإيمان بالمعجزات ... ٢٩٢
- ٤ - القوازة التي نجت ... ٢٩٢
- ٥ - شاهدت بدهشة وارتياح ... ٢٩٣
- ٦ - كان عند إمبراطور ... ٢٩٤
- ٧ - يقول القدر ... ٢٩٥
- ٨ - كل الناس ... ٢٩٦
- ٩ - لما نزل عيسى من السماء ... ٢٩٦
- ١٠ - حسن ! ... ٢٩٧

پارسی نامه - كتاب البارسی ... ٢٩٩ - ٣٠٥

- ١ - وصية الديانة الفارسية القديمة ... ٢٩٩
- ٢ - إذا كان الإنسان يوقر الأرض ... ٣٠٤

خلد نامه - كتاب الخلد ... ٣٠٦ - ٣٣٧

- ١ - سبق مذاق ... ٣٠٦
- ٢ - ناس ممتازون ... ٣٠٧
- ٣ - لن يصنع النساء شيئاً ... ٣١٠
- ٤ - السماح بالدخول ... ٣١٥
- ٥ - رنين للذكرى ... ٣١٧
- ٦ - الشاعر والخورية ... ٣١٩
- ٧ - مرة أخرى ... ٣٢٣
- ٨ - الحيوانات المحظوظة ... ٣٢٤
- ٩ - أعلى والأعلى ... ٣٢٧
- ١٠ - أهل الكهف ... ٣٣٠
- ١١ - طاب مساؤكم ... ٣٣٦

أشعار - نشرت بعد وفاة جيته ... ٣٣٨ - ٣٦٨

- ١ - الغرب والشرق على السواء ... ٣٣٨
- ٢ - من يعرف نفسه ... ٣٣٩
- ٣ - إني أسمعك ... ٣٣٩

صفحة

- ٤ - كان على أن أمر ٣٤٠
- ٥ - أى حافظ ! ٣٤١
- ٦ - سافرت في عديد البلاد ٣٤٢
- ٧ - لتتزوج دة الدار روعة ٣٤٣
- ٨ - إلى صداقة الألمان ٣٤٣
- ٩ - لقد حاولوا منذ خمسين سنة ٣٤٤
- ١١ - من الحزن في أيام الحروب ٣٤٥
- ١٢ - ظل أسود ٣٤٦
- ١٣ - ألا أستطيع ٣٤٦
- ١٤ - أنت رائحة كالمسك ٣٤٧
- ١٥ - قل لي ! ٣٤٧
- ١٦ - أيها الطفل الرقيق ٣٤٨
- ١٧ - ذرفي أذرف للمبرات ٣٥٢
- ١٨ - ولماذا ؟ ٣٥٣
- ١٩ - الحبيبة الماشقة ٣٥٥
- ٢٠ - لم أعد أكتب ٣٥٥
- ٢١ - الهدهد ٣٥٧
- ٢٢ - قال الهدهد ٣٥٧
- ٢٣ - الهدهد رسول ٣٥٨
- ٢٤ - الهدهد يفسر موضعاً ملتقياً ٣٥٨
- ٢٥ - الهدهد يلتمس هدية لرأس السنة ٣٥٩
- ٢٦ - الهدية جميلة ثمينة ٣٦٠
- ٢٧ - وا أسفاه ! ٣٦٠
- ٢٨ - الخمر لا يمكن أن تناسبك ٣٦١
- ٢٩ - أو تعرف ٣٦١
- ٣٠ - بأية نهر ٣٦١
- ٣١ - أينما أظهروا لي الخمر ٣٦٢
- ٣٢ - هناك حيث يجتمع العقلاء ٣٦٧

تَعْنِي عَلَى فَهْمِ الدِّيْوَانِ

029-279

٣٧١	مقدمة
٣٧٣	العبرانيون
٣٧٥	العرب
٣٨٢	انتقال
٣٨٢	قدماء الفرس
٣٨٧	الحكومة
٣٨٨	تاريخ
٣٩١	محمد
٣٩٥	الحنفاء
٣٩٦	ملاحظة على هيئة انتقال
٣٩٧	محمود النزنوى
٤٠٠	ملك الشعراء
٤٠٢	فردوسى
٤٠٤	أنورى
٤٠٥	قطامى
٤٠٦	جيزل الدين الرومى
٤٠٨	سعدى
٤٠٨	حافظ
٤١١	جامى
٤١١	أفسق
٤١٤	ملاحظات عامة
٤١٧	تعميم أعلى
٤١٨	شعراء حديثون ومعاصرون
٤٢١	شكوك
٤٢٢	استبداد
٢٢٤	ضيق
٤٢٥	اعتراض
٤٢٧	ملحق
٤٢٩	رد فعل
٤٣٢	ملاحظات مدرجة
٤٣٣	العناصر الأولية فى الشعر الشرقى

صفحة

٤٣٤ الانتقال من المجازات إلى الاستعارات
٤٣٧ تنبيه
٤٣٨ مقارنة
٤٤١ تحفظ
٤٤٢ الأجناس الشعرية
٤٤٣ الأشكال الطبيعية للشعر
٤٤٤ ملحق
٤٤٥ كتب النبوءات
٤٤٦ تبادل الأزهار والعلامات
٤٥٠ رمز
٤٥٢ الديوان المستقل
٤٥٢ كتاب المغنى
٤٥٣ كتاب حافظ
٤٥٤ كتاب المثنى
٤٥٤ كتاب التفكير
٤٥٥ كتاب سوء المزاج
٤٥٨ كتاب الحكمة
٤٥٨ كتاب تيمور
٤٥٩ كتاب زليخا
٤٦٠ كتاب الساق
٤٦٣ كتاب الأمثال
٤٦٤ كتاب البارسي
٤٦٥ كتاب الخلد
٤٦٥ مباحث « في العهد القديم »
٤٦٦ إسرائيل في الصحراء
٤٧٧ عمراجل بن إسرائيل في الصحراء
٤٨٥ وثائق أحدث وأقرب
٤٨٥ حجرات وحملات صليبية
٤٨٦ حاركي بولي
٤٨٧ يوهانس فون مونثفلا
٤٨٨ وديرو دلاقله
٥٠٢ اعتذار
٥٠٣ أولياريوس
٥٠٣ قافرنيه وشاردان

صفحة	
٥٠٤	الرحالة المحدثون والمعاصرون
٥٠٥	أساتذتنا الأموات منهم والأحياء
٥٠٥	جونز Jones
٥٠٧	أيشهورن
٥٠٧	لورسباخ
٥٠٨	فون ديتس
٥١٢	مضمون قابوس نامه بحسب فصوله
٥١٤	فون همسر
٥١٧	ترجمات
٥٢٠	خاتمة نهائية
٥٢١	رسالة زوجة شاه فارس
٥٢٢	هدايا
٥٢٢	در درفش
٥٢٤	در پرده
٥٢٨	مراجعة
٥٣٠	نصيحة
٥٣١	ميلويستر دسايي

مؤلفات

الدكتور عبد الرحمن برورى

(أ) مبتكرات

١ - الزمان الوجودى ٥ - نشيد الغريب (شعر)

٢ - هموم الشباب ٦ - هل يمكن قيام أخلاق وجودية ؟

٢ - مرآة نفسى [ديوان شعر] ٧ - التسلسل الرهيب (قصة)

٤ - الحور والنور ٨ - لن أختار (قصة)

٩ - جابر بن حيان (مسرحية)

(ب) دراسات

١ - الموت والعبقريّة ٤ - النقد التاريخي

٢ - دراسات في الفلسفة الوجودية ٥ - مناهج البحث العلمى

٣ - المنطق الصورى والرياضى ٦ - في الشعر الأوربي المعاصر

٧ - روح الهند

خلاصة الفكر الأوربي

١ - نيتشه ٥ - أرسطو

٢ - اشپنجلر ٦ - ربيع الفكر اليوناني

٣ - شوبنهاور ٧ - خريف الفكر اليوناني

٤ - أفلاطون ٨ - فلسفة العصور الوسطى

٩ - المثالية الألمانية (فشته - هيغل - شلنج)

(ج) دراسات إسلامية

- ١ - التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية
- ٢ - من تاريخ الإلحاد في الإسلام
- ٣ - شخصيات قلقة في الإسلام
- ٤ - الإنسانية والوجودية في الفكر العربي
- ٥ - أرسطو عند العرب
- ٦ - المثل العقلية الأفلاطونية
- ٧ - منطق أرسطو (٣ أجزاء)
- ٨ - شهيدة العشق الإلهي (رابعة العدوية)
- ٩ - شطحات الصوفية (أبو يزيد البسطامي)
- ١٠ - روح الحضارة العربية
- ١١ - الإنسان الكامل في الإسلام
- ١٢ - التوحيدى : الإشارات الإلهية
- ١٣ - مسكويه : الحكمة الخالدة
- ١٤ - فن الشعر لأرسطوطاليس وشروحه العربية
- ١٥ - الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الإسلام
- ١٦ - أرسطوطاليس : في النفس (مع الآراء الطبيعية لفلوطرخس وكتاب النبات ، ثم الحس والمحسوس لابن رشد)
- ١٧ - ابن سينا : عيون الحكمة
- ١٨ - ابن سينا : البرهان (من « الشفا »)
- ١٩ - الأفلاطونية المحدثه عند العرب
- ٢٠ - أفلوطين عند العرب
- ٢١ - المبشر بن فاتك : مختار الحكم
- ٢٢ - فلهوزن : الخوارج والشيعة

- ٢٣ - أرسطوطاليس : الخطابة
 ٢٤ - ابن رشد : تلخيص الخطابة
 ٢٥ - مخطوطات أرسطو في العربية
 ٢٦ - مؤلفات الغزالي
 ٢٧ - مؤلفات ابن خلدون
 ٢٨ - أرسطوطاليس : في السماء والآثار العلوية
 ٢٩ - حازم القرطاجني وأرسطوطاليس .
 ٣٠ - رسائل ابن سبعين
 ٣١ - دور العرب في تكوين الفكر الأوربي
 ٣٢ - أرسطوطاليس : الطبيعة (بشروحه العربية القديمة)
 ٣٣ - ابن سينا : فن الشعر (من « الشفا »)
 ٣٤ - الغزالي : فضائح الباطنية
 ٣٥ - رسائل الإسكندر الأفروديسي
 ٣٦ - أسين بلاثيوس : ابن عربي
 ٣٧ - ابن سينا : التعليقات

(٥) ترجمات

الروائع المائة

- ١ - أيشندورف : من حياة حائر باثر
 ٢ - فوكيه : أندين
 ٣ - جيته : الديوان الشرقي
 ٤ - بيرن : انشيلد هاروارد
 ٥ - جيته : الأنساب المختارة
 ٦ - برشت : دائرة الطبائش القوقازية

- ٧ - ثريتمس : دون كىخوته (فى جزئين)
 ٨ - دورنمات : علماء الطبيعة
 ٩ - مسرحيات برشت (الأم شجاعة - الانسان الطيب)
 ١٠ - آيونسكو : الدرس - فتاة للزوج
 ١١ - مسرحيات لوركا ١ : برما - عرس الدم - الاسكافية العجيبة
-

- سارتر : الوجود والعدم
 اشفيتسر : فلسفة الحضارة
 بنروى : الفلسفة المعاصرة فى فرنسا (فى جزئين)
 رينيه ويچ : الفن والنور واللوحات